الحياة السياسية

للإمام الخميني قدّس سرّه

دار المعارف الإسلامية الثقافية

الـــكـــتــــاب: الحياة السياسيّة للإمام الخمينيّ قدس سره
إعـــــــداد: مركز المعارف للتأليف والتحقيق
إصـــــــدار: دار المعارف الإسلاميَّة الثقافيَّة
تصميم وطباعة: DBOUK 009613336218
الطبعة الأولى - 2020م

ISBN 978-614-467-162-7

books@almaaref.org.lb
00961 01 467 547
00961 76 960 347

الحياة السياسية
للإمام الخمينيّ قدس سره

تأليف: محمّد حسن رجَبيّ

ترجمة: فاضل عبّاس بهزاديان

دار المعارف الإسلامية الثقافية

إعداد مركز نون للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدّمة 7

مقدّمة المترجم... 9

الفصل الأوّل: الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ من ولادته وحتّى عام 1941م 13

الفصل الثاني: عرض موجز لأوضاع البلاد من بدء الانتفاضة الدستوريّة وحتّى انقلاب رضا خان..23

الفصل الثالث: الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ ورضا خان..31

الفصل الرابع: غياب القيادة الدينيّة السياسيّة بعد رضا خان.............................. 109

الفصل الخامس: ولاية الفقيه في كتاب «كشف الأسرار».................................. 117

الفصل السادس: الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ بين أعوام 1942م و 1964م.........................125

الفصل السابع: سياسة الشاه الداخليّة والخارجيّة (1953م- 1963م) 153

الفصل الثامن: الأحزاب والكتل السياسيّة بعد الانقلاب (1953م - 1963م).............. 161

الفصل التاسع: إصلاحات الشاه الأمريكيّة 165

الفصل العاشر: الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ ومحمّد رضا بهلويّ 173

الفصل الحادي عشر: الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ منذ اعتقاله وحتّى إطلاق سراحه 207

الفصل الثاني عشر: محمّد رضا بهلويّ وخطواته المهمّة بعد الانقلاب............. 219

الفصل الثالث عشر: الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ وموقفه من الحصانة للأمريكيّين..........................229

الفصل الرابع عشر: خصائص حركة الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ الجهاديّة..................................241

الفصل الخامس عشر: المنهج السياسيّ للنظام بعد إبعاد الإمام قدس سره 245
الفصل السادس عشر: الإمام قدس سره في المنفى 251
الفصل السابع عشر: تحرّكات نظام الشاه بين أعوام 71 و1977م 275
الفصل الثامن عشر: مواقف الإمام قدس سره تجاه النظام العراقيّ 291
الفصل التاسع عشر: الإمام قدس سره والحرب الإسرائيليّة العربيّة الرابعة............. 297
الفصل العشرون: ارتفاع عوائد إيران واتّساع رقعة الفقر والحرمان 303
الفصل الحادي والعشرون: فتوى حرمة الانتماء إلى حزب الرستاخيز.................. 313
الفصل الثاني والعشرون: فتوى تحريم التاريخ الشاهنشاهيّ................................ 317
الفصل الثالث والعشرون: تغيير سياسة أمريكا الخارجيّة 321
الفصل الرابع والعشرون: استشهاد نجل الإمام قدس سره 345
الفصل الخامس والعشرون: مجزرة 9 كانون الثاني (19 دي) في قمّ...................... 357
الفصل السادس والعشرون: حادثة 18 شباط في تبريز (29 بهمن) 367
الفصل السابع والعشرون: أربعينيّات متتالية، والثورة مستمرّة 373
الفصل الثامن والعشرون: إعلان الأحكام العرفيّة في أصفهان 401
الفصل التاسع والعشرون: حكومة الوفاق الوطنيّ 409
الفصل الثلاثون: مجزرة الثامن من أيلول (17 شهريور)... 415
الفصل الواحد والثلاثون: محاصرة منزل الإمام قدس سره 427

المقدّمة

الحمد للّه ربّ العالمين، وصلّى اللّه على سيّدنا محمّد وآله الطاهرين.

يقول -تعالى-: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[1].

عن الإمام الكاظم عليه السلام: «**رجلٌ من أهل قمّ، يدعو الناس إلى الحقّ، يجتمع معه قوم كزبر الحديد، لا تزلّهم الرياح العواصف، ولا يملّون من الحرب، ولا يجبنون، وعلى اللّه يتوكّلون، والعاقبة للمتّقين**»[2].

تتميّز شخصيّة الإمام الخمينيّ قدس سره بأبعاد متعدّدة، فهو الفقيه والعارف والفيلسوف والمتكلّم، والقائد ورجل السياسة. وتتكامل هذه الأبعاد لتشكّل معًا هذه الشخصيّة الاستثنائيّة في تاريخ الأمّة الإسلاميّة.

ومن هذه الشخصيّة المتكاملة والسامية، ينبع فكره السياسيّ. فهو فكر إسلاميّ أصيل خالص، يستقيه من أصول الإسلام وتعاليم القرآن، ويتمحور حول ضرورة إقامة الحكومة الإلهيّة الإسلاميّة العادلة، وتأسيس نظام سياسيّ في عصر الغيبة، يرتكز دستوره على أحكام القرآن الكريم والشريعة المقدّسة.

ويتجلّى فكره السياسيّ في مواقفه في مواجهة النظام الملكيّ الظالم والمستبدّ، والقوى الغربيّة المستكبرة التي تسعى للهيمنة على ثروات الشعوب، وخطبه وأحاديثه في مبادئ الحكم والسياسة. وقد قام المؤلّف بجمعها في كتاب «الحياة السياسيّة للإمام

(1) سورة غافر، الآية 51.

(2) المجلسيّ، العلّامة محمّد باقر بن محمّد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، مؤسّسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط2، ج57، ص216.

الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ»، الصادر في دمشق، في الثالث من ذي القعدة 1414هـ، الموافق فيه 1993/04/24م. حيث ضمّن هذا الكتاب القيِّم خطبًا وبياناتٍ وتوجيهاتٍ وتوصياتٍ صادرة عن الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ، يسجّلها بدقّة وأمانة، ويشفعها بتحليلاتٍ تبيّن مضامينها والأفكار والمبادئ التي تشتمل عليها.

وانطلاقًا من أهمّيّة الكتاب، وكونه مرجعًا في قراءة الحياة السياسيّة للإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ، ومعرفة مبادئه في الفكر السياسيّ الذي يمثّل الفكر الإسلاميّ الأصيل والخالص في السياسة والحكم، ارتأينا إعادة طباعة الكتاب ونشره بعد مرور ثلاثة قرون على صدور الطبعة الأولى تقريبًا، راجين من اللّه أن ينتفع به أبناء هذا الجيل من رجال السياسة والفكر والشباب المؤمن المجاهد طلّاب الحقّ والعدالة والحرّيّة، وأن يتمسّكوا بمبادئه المرتكزة على الدين والعدل والحرّيّة والاستقلال عن هيمنة الدول المستكبِرة، وذلك بعد مراجعة نصوصه والتثبّت منها، وتعديلها عند اللّزوم، ومطابقة النصّ الأصليّ في اللغة الفارسيّة، أو بما يكون أصحّ لغةً في العربيّة، وإضافة ترجمة ثانية إذا اقتضت الحاجة.

مركز المعارف للتأليف والتحقيق

مقدّمة المترجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾(1)

تنبع أهمّيّة كتب السير والتاريخ من مدى إظهارها للحقائق، وتَتَبُّع طبيعة الشخصيّة التي تتناولها، وآفاق عناها الذاتيّ، وأبعاد حضورها التاريخيّ. لذلك، لا نبالغ إذا عددنا هذا الكتاب، الذي نضعه بين أيدي القرّاء، واحدًا من الكتب ذات الشأن والأهمّيّة.

إنّه كتاب الحياة السياسيّة للإمام الخمينيّ قدس سره الذي ألّفه السيّد محمّد حسن رجبيّ، وهو كتاب مفعم بالحقائق، حافل بالفوائد النظريّة والعمليّة، يتعامل مع الأحداث بموضوعيّة. وقد ضمّنه الكاتب كلّ ما توافر لديه من خطب وبيانات وتوجيهات وتوصيات للإمام قدس سره، يسجّلها بمنتهى الدقّة والأمانة، ويشفّعها بتحليلات تنطوي على رصيد قدراته وكفاءاته، ليُطلع الرأي العامّ العالميّ والإسلاميّ على أبعاد هذه الشخصيّة التي غيّرت مجرى التاريخ.

فالإمام قدس سره من الشخصيّات الاستثنائيّة ذات الخصب والعمق، تتعدّد فيها الجوانب بتناغمٍ يقلّ نظيره، فهو أستاذ الفقه والأصول والفلسفة والأخلاق، وهو المفكّر والمؤلّف والأديب والخطيب، وهو العارف العابد العاشق السالك، ثمّ هو إلى ذلك كلّه، أبرع مَنْ فهم السياسة جزءًا لا يتجزّأ من الدين، وبُعدًا حيويًّا يحقّق أهداف الشريعة في استنقاذ البلاد والعباد، واستئصال الشرّ والفساد.

(1) سورة الأعراف، الآية 43.

وهكذا استطاع أن يجمع في شخصه مرجعَ التقليد الذي يستوعب الزمان والمكان، والمجدّد الذي يرتقبه المسلمون في كلّ قرن، وقائد حركة الأمّة، وأن ينطلق ليزلزل عرش للطغاة، ويفجّر أوّل ثورة إسلاميّة كبرى، ويؤسّس أوّل جمهوريّة إسلاميّة حقيقيّة.

وبأنفاسه الثوريّة، دخل المسلمون عصرًا جديدًا من اليقظة والحيويّة والمقاومة، وصار الإسلامُ الرايةَ التي تظلّل ثوريِّي العالم، والشجى الذي يعترض في حلوق المستكبرين جميعًا، ويهدّد أحلامهم وأطماعهم.

ولا يمكن لأحد بعد ذلك أن يدرس عصرنا الحاضر، وأن يدرس تاريخ البشريّة المعاصر، والسياسة العالميّة، وموقع الإسلام والمسلمين فيها، بمعزل عن الدراسة المعمّقة لحياة الإمام قدس سره السياسيّة.

وهكذا تظهر، أكثر فأكثر، أهمّيّة هذا الكتاب، والفراغ الذي يسدّه في المكتبة العالميّة عمومًا، والإسلاميّة خصوصًا.

وعندما وقع الكتاب بين يدَيّ، قرأته، ووجدت أنّ هناك حاجة ماسّة لترجمته إلى اللغة العربيّة، ليتسنّى للقارئ العربيّ الاطّلاع على مضمون هذا الكتاب القيّم.

لقد بذل المؤلّف قصارى جهده من أجل الحصول على أكبر عدد ممكن من المصادر والمراجع، وتُقدَّر «بأكثر من 126 مرجعًا ومصدرًا»، تتناول المدّة ما بين 1900 - 1977م، وكذلك راجع المؤلِّف بعض الوثائق والمستندات المتوافرة لديه، وبعض وثائق السافاك المنشورة حول الإمام قدس سره خلال الأعوام ما قبل انتصار الثورة الإسلاميّة، فأثبتها للتوثيق، والتقى عددًا من المقرّبين للإمام قدس سره وتلاميذه، ليطّلع عن كثب على نهضة الإمام قدس سره في مرحلة ما قبل عام 1960م، ممّا أكسبت البحث طابعًا أكاديميًّا ووثائقيًّا.

لقد عمدتُ إلى كتابة بعض الحواشي؛ وذلك من أجل تبسيط بعض الأفكار، وتوضيح بعض النقاط، وشرح خلفيّات الحوادث، فرجعت إلى عدد من الكتب المنشورة باللغة الفارسيّة حول الثورة الإسلاميّة وحياة الإمام قدس سره توخّيًا للدقّة.

يشتمل الكتاب على واحد وثلاثين فصلًا، يتحدّث فيها الكاتب عن الموضوعات الآتية:

المرحلة من ولادة الإمام قدس سره حتّى عام 1945م، عرض موجز عن أوضاع البلاد حتّى انقلاب رضا خان وموقف الإمام قدس سره من رضا خان، الأوضاع السياسيّة بعد رضا خان وغياب القيادة الدينيّة عن الساحة السياسيّة، الحديث عن آراء الإمام قدس سره في كتاب كشف الأسرار، وبخاصّة ولاية الفقيه.

السياسة الداخليّة والخارجيّة للشاه، الكتل والأحزاب السياسيّة من 1953-1963م، ومواقف الإمام قدس سره من الشاه، اعتقال الإمام قدس سره وإطلاق سراحه، خصائص الحركة الجهاديّة للإمام قدس سره، ونهج الشاه بعد إبعاد الإمام قدس سره وحتّى عام 1971م، حياة الإمام قدس سره في المنفى، مواقف الإمام قدس سره تجاه تحرّكات الشاه، وتجاه النظام العراقيّ وقضيّة ترحيل الإيرانيّين من العراق، الإمام قدس سره والحرب الإسرائيليّة العربيّة، اتّساع رقعة الفقر في إيران في الأعوام 1973 - 1978م، فتوى حرمة الانتماء إلى حزب الرستاخيز، وتحريم التاريخ الشاهنشاهي، تغيّرات السياسة الأمريكيّة الخارجيّة وانفتاح الأجواء السياسيّة في إيران، استشهاد نجل الإمام قدس سره الأكبر السيّد مصطفى، وانفجار بركان الثورة الإسلامية، مجزرة 9 كانون الثاني في قمّ (19 دي)، وحادثة 9 شباط في تبريز (29 بهمن)، وأربعينيّات متتالية واستمرار الثورة، إعلان الأحكام العرفيّة في أصفهان، حكومة الوفاق الوطنيّ، مجزرة الثامن من أيلول (17 شهريور) ومحاصرة منزل الإمام قدس سره في النجف.

في الختام، لا يفوتني أن أشكر كلّ من أمدّني بالعون وآزرني بالمعاضدة لإخراج هذا الكتاب، وأتقدّم بالشكر للأستاذ عبد الله حسّون العليّ على مراجعته للنصّ العربيّ، والله من وراء القصد.

فاضل عبّاس بهزاديان

دمشق، 3 ذي القعدة 1414هـ (1993/4/24م)

الفصل الأوّل

الإمام قدس سره من ولادته وحتّى عام 1941م

في العشرين من جمادى الآخرة عام 1320 هجريّة (الموافق عام 1902 ميلاديّة)، بزغ ضياء حياة الإمام الخمينيّ قدس سره في مدينة خُمين[1]، وكان آخر مولود للأسرة، وسمّاه والداه روح الله. ووالد سماحته هو العلّامة الفاضل السيّد مصطفى الخمينيّ، الذي تابع دراساته الدينيّة في مدينتَي سامرّاء والنجف في عهد مرجعيّة آية الله الميرزا الشيرازيّ الأوّل، فتبوَّأ مكانة علميّة مرموقة، وعُدَّ من عصبة علماء العصر آنذاك. وبعد رجوعه من النجف إلى مسقط رأسه، تولَّى الزعامة الدينيّة في مدينة خُمين وضواحيها.

ودَّع السيّد مصطفى الدار الفانية عن عمر يناهز السابعة والأربعين، مسرعًا للّحاق بالدار الباقية إثر حادثٍ مؤسف، فبينما هو في طريقه إلى مدينة أراك، اعترضه عددٌ من الجلاوذة المسلَّحين والأشرار، فأردوه قتيلًا، بعدما أطلقوا عليه عيارات ناريّة أصابته في خاصرته وكتفه، وذلك في ذي الحجّة من عام 1320هـ. ونُقِل جثمانه إلى النجف، ووُوري التراب هناك إلى جوار إمامه وجدِّه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

(1) إحدى مدن المحافظة المركزيّة، وتقع جنوب العاصمة طهران على بُعد 350 كم.

أمّا والدته، فهي السيّدة «هاجر»، وهي من أسرة علميّة عريقة اشتهرت بالعلم والفضيلة، فوالدها وأعمامها وأخوالها كلّهم من الفقهاء وعلماء الدين الذين يتصدَّرون مكانة سامية ومرموقة بين أهالي مدينة خُمين.

وبأفول نجم حياة السيّد مصطفى -والد الإمام- انتقلت عمَّة الإمام السيّدة «صاحبة»، التي عُرِفَت بالتقوى والورع، إلى منزل أخيها الشهيد، لتقف إلى جانب السيّدة هاجر لإدارة المنزل ورعاية الأطفال وتربيتهم والإشراف عليهم. وقد بلغ السيّد روح الله من العمر آنذاك ستّة أشهر فقط.

ومنذ ذلك الحين، فَقَد السيّد روح الله والده، وفَقَد معه الحنان والعطف الأبويّ، مقتديًا بجدِّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تحمَّل عبء عائلته منذ الصغر، وتحمَّل كذلك أعباء الأمّة بأسرها. لقد ظهرَت علامات الذكاء والفطنة على الإمام، فراح يتعلّم القراءة والكتابة على يد مُعلّمه المدعوّ ميرزا محمود، وبدأ دراسته الدينيّة عند أستاذه مُلّا أبو القاسم، وواكب مسيرته العلميّة عند مُدرِّس آخر يُعرَف بالشيخ جعفر، ثمّ انضمَّ إلى المدرسة العصريّة الحديثة، وأتقن الخطّ على يد الأستاذ آغا حمزة المحلّاتيّ، وأنهى مرحلته الابتدائيّة قبل بلوغه الخامسة عشرة من عمره.

إلّا أنَّ الدهر قد فجعه برحيل عمّته السيّدة «صاحبة» إلى دار الخلد والنعيم، وقد كان لتلك العمّة الحنون العطوف اليد الكبرى في تربية هذا السيّد الجليل، وكانت أقرب إليه حتّى من ظلّه، حيث عوّضَت له حنان أمّه وعطف أبيه، فلم يشأ القدر إلّا أنْ يحرمه ذلك العطف والحنان، حيث انتقلَت مربّيته هذه إلى جوار ربّها راضية مرضيّة.

مرَّت هذه المصائب والفجائع على إمامنا بصعوبة بالغة الأهمّيّة، لكنّها فتحت بابًا وأُفقًا واسعًين للسيّد الإمام، ليستوعب هذه الدنيا وما فيها من مصائب ومِحَن، حيث تلقَّى دروس الصمود والثبات أمام عواصف الدهر، وازداد شجاعةً وموهبةً واقتدارًا بتوكّله على الله -تعالى-، وباعتماده على نفسه، واستمرّ في مسيرته الدراسيّة والعلميّة، راجيًا من الله اللطف والرعاية والعَون.

ابتدأ الإمام قدس سره دراسة العلوم الإسلاميّة عند أخيه الأكبر العلّامة السيّد مرتضى بسنديده، وشرَعَ بدراسة النحو والصرف والمنطق، وأمضى ثلاث سنوات من التتلمذ على يد أخيه، إلى أن فرغ من مرحلة المقدّمات، وكان ذلك عام 1338هـ.

وقد عزم على متابعة تحصيله في الحوزة العلميّة في مدينة أصفهان، لكن سرعان ما تبدَّل رأيُه، وقَصَدَ مدينة آراك ليتزوَّد من حوزتها العلميّة المرموقة بفضل مرجعيّة آية الله الشيخ عبد الكريم الحائريّ اليزديّ وزعامته. فانتقل إلى الحوزة العلميّة في آراك عام 1339هـ، وشرَعَ بدراسة الأدب أوّلًا. وبعد عام، نقل آية الله الحائريّ الحوزة العلميّة بأسرها إلى مدينة قمّ، وانتقل الإمام معها، وكان قد ابتدأ وقتئذٍ بكتاب «المطوّل»[1]، وأقام في مدرسة تُدعى «دار الشفاء».

وفي أجواء هذه المدينة، اشتدَّ عزم الإمام على مواصلة الدراسة والبحث ليلَ نهار، حتّى تسلَّق المعرفة والعلم بسرعة مذهلة، وفاز بالرتب العليا لدى الحوزة، وتخرَّج منها، وتوجَّه إلى حلقة البحث عند آية الله الحائريّ عام 1345هـ لينهل من محاضراته القيِّمة، ويشحذ بها فكره.

وإنّنا عندما ندرس أساتذة الإمام ومشايخه، الذين تربّى وترعرع على أيديهم، يلفت نظرنا شخصيّتان بارزتان، هما: المرحوم آية الله العظمى الشيخ عبد الكريم الحائريّ، والمرحوم آية الله الشيخ محمّد عليّ الشاه آباديّ (1292 - 1373هـ). هذان النجمان الساطعان عُرِفا بالمكانة العلميّة العليا، والمنزلة الرفيعة، واللياقة العلميّة البارزة، وقد استفاد الإمام منهما استفادة عظيمة وكاملة لفترات طويلة، حيث لازما مدينة قمّ حتّى عام 1354 هجريّة. وعند دراستنا لحياة الإمام قدس سره، نرى أنّ هناك حوادث ووقائع سياسيّة وتاريخيّة مهمّة كان لها تأثير كبير في منهجيّة الإمام وتجربته السياسيّة، التي سنعرض لها ونلفت النظر إليها.

(1) من الكتب الدراسيّة الموسّعة للبلاغة.

أوّلًا: تزامُن البُعد الزمنيّ لحياة الإمام في الحوزة العلميّة مع انقلاب رضا خان عام 1921م

بعد انتخاب السيّد حسن المدرّس رئيسًا للبرلمان مِن قِبَل الأكثريّة الساحقة للنوّاب -والتي أصبحَت الأقلِّيَّة فيما بعد- تعرقلَت مسيرة رضا خان، وبات في عزلة سياسيّة واجتماعيّة، فلم يجد بُدًّا من كسب المواقف الإيجابيّة لاسترداد الاعتبار الماضي، فأخذ يتودَّد إلى العلماء والفقهاء، ويُكنُّ لهم الاحترام والتبجيل، وبالأخصّ للحوزةِ العلميّةِ الجديدةِ التأسيس في مدينة قمّ، والتي ترأّسها المرحوم الشيخ الحائريّ -وسوف نتحدَّث عن هذا بالتفصيل مستقبلًا- وقد كان لهذا التعامل مجرى خاصّ لافتًا للنظر، وتفاعل بين رجالات السلطة ورضا خان وأحمد شاه -آخر سلاطين الأسرة القاجاريّة- ثمّ تصاعدت الزيارات واللقاءات والمحادثات السياسيّة مع الشيخ آية الله الحائريّ؛ ممّا أدّى إلى ظهور اتّجاه سياسيّ في الحوزة العلميّة بشكل لا إراديّ، وأخذ الطلبة وعلماء الدين يطّلعون على الخفايا نتيجة هذا التماس المباشر.

ثانيًا: إبعاد بعض مراجع العراق

خلال العام الثاني لإقامة الإمام الخمينيّ قدس سره في مدينة قمّ، استقبلت هذه المدينة ثلَّةً من مراجع الدين والحوزة في العراق، الذين أُبعِدوا عن بلدهم إثر قيامهم بالثورة المسلَّحة ضدّ الاحتلال البريطانيّ بقيامة آية الله الميرزا محمّد تقيّ الشيرازيّ (الميرزا الثاني)، وقد استقبلهم آية الله الحائريّ استقبالًا حارًّا.

وكان من جملة هؤلاء العلماء الأفاضل، آية الله النائينيّ صاحب النظريّة الدينيّة لانتفاضة الدستور، وآية الله محمّد الصدر، وآية الله السيّد أبو الحسن الأصفهانيّ، وآية الله الشيخ محمّد الخالصيّ نجل آية الله الشيخ مهديّ الخالصيّ الذي أُبعِد إلى الحجاز. وقد استجاب كلٌّ من سماحة النائينيّ وأبي الحسن الأصفهانيّ لطلب آية الله الحائريّ لإلقاء المحاضرات والدروس الفقهيّة في الحوزة العلميّة في مدينة قمّ خلال فترة إقامتهما، والتي لم تَدُم سوى بضعة أشهر، وذلك لدعم الحوزة وشدّ أزرها وتقوية بنيتها العلميّة.

كان الإمام قدس سره خلال هذه الفترة على اتّصال مباشر مع هذه الثلّة المجاهدة، يتتبّع الأخبار ويستقصيها. لقد تفهَّم أوضاع الشيعة، وعرف همومها في العراق؛ هذا ما نستنتجه من خلال كلماته وخطبه، فقد تطرَّق لهذا الموضوع أكثر من مرّة، حيث قال في إحدى الخطب:

«... إنّ مَن نهض بالعراق وعمل على إنقاذه... عالِمٌ جليلٌ، رفيعُ القدر والمنزلة، صاحبُ السموّ والفضيلة الميرزا الشيرازيّ الثاني... الذي أفتى بالجهاد... وقدّموا قرابينهم، وقاتلوا وضحّوا إلى أن استقلَّ العراق... وكانوا قد أَبعدوا علماءه ومفكّريه إلى إيران قرابينهم، وقاتلوا وضحّوا إلى أن استقلّ العراق... وكانوا قد أَبعدوا علماءه ومفكّريه إلى إيران بسبب خلافهم مع الزمرة الحاكمة. لقد أُبعِد المرحوم السيّد أبو الحسن الأصفهانيّ، والمرحوم الشهرستانيّ، والمرحوم الخالصيّ لا لذنبٍ اقترفوه، بل لأنّهم قاوموا وعارضوا المعتدِين البريطانيّين. ألم نكن نشاهد ذلك بأمّ أعيننا؟».

وقبل إبعاد هذه الثلّة من العلماء بسنتَين، فرَّت شخصيّتان كبيرتان من العراق، ودخلتا الحدود الإيرانيّة، هربًا من القوّات البريطانيّة التي كانت تطاردهما، وهما: آية الله أبو القاسم الكاشانيّ، وآية الله السيّد محمّد تقيّ الخوانساريّ، وهما من زعماء الثورة في العراق ضدّ الاحتلال البريطانيّ، وقد استقبلهما الشعب وكبار الشخصيّات بحفاوة بالغة على الحدود الغربيّة للبلاد. وقد مَرَّا في مدينة قمّ عام 1920م، ومكثا فيها فترة وجيزة، ثمّ انتقل آية الله الكاشانيّ إلى طهران، بينما ألقى آية الله الخوانساريّ رَحْلَه في مدينة قمّ، وأقام فيها، وباشر عمله في الحوزة، وعمد إلى إلقاء المحاضرات والدروس استجابةً لطلب آية الله الحائريّ، حيث كانت الحوزة فتيّة، وفي بداية تأسيسها، وفي أوّل فترة تشييدها، وذلك عام 1340هجريّة.

ثالثًا: الإمام قدس سره والانتفاضة الدستوريّة

كان بعض أساتذة الإمام قدس سره هم تلاميذ كبار وزعماء انتفاضة الدستور، كالمرحوم

الآخوند الخراسانيّ، ومن أولئك الأساتذة: الشيخ عبد الكريم الحائريّ، الشيخ ميرزا جواد الملكيّ التبريزيّ، والسيّد محمّد تقيّ الخوانساريّ، والميرزا محمّد عليّ الشاه آبادي.

وكان أكثرُ الأساتذة تحرُّكًا، وأمضاهم عزيمة، وأشدُّهم حماسًا، آيةَ الله الشاه آبادي والمرحومَ الشيخ محمّد تقيّ البافقيّ، اللذَين تشرَّبت نفسَيهما بروح الجهاد. لقد نهلا من أساتذتهما روح العزيمة والتضحية، حتّى أصبحا، بدورهما، منهلًا عذبًا للشباب المتحمّس في الحوزة العلميّة، وبخاصّة السيّد روح الله قدس سره.

لقد اهتمَّ الإمام قدس سره بهذه الذكريات، وبهذه الروح الجهاديّة، اهتمامًا بالغًا؛ ممّا جعل هذا كلّه يؤثّر على منهجيّته وأسلوبه، وبوسعنا أن نلمس ذلك من سياق خطبه وكلماته، وممّا قام به لرفع راية الإسلام ودحض راية الشرك والضلال. ونلاحظ مثلًا، موقفًا للإمام قدس سره في غاية الأهمّيّة، وهو ائتمامه بآية الله الخوانساريّ في صلاتَي المغرب والعشاء في المدرسة الفيضيّة طيلة حياة آية الله الخوانساريّ، ولم نشاهده يأتمّ بأحد غيره من بعده. وتفسير هذا، هو التعبير عن مدى اهتمام الإمام قدس سره بمواقف أولئك العلماء المجاهدين، واحترامهم، وتقديس مبادئهم التي تهدف إلى دحر الأعداء وإفشاء مخطّطاتهم الاستعماريّة.

رابعًا: مواكبة المسيرة الجهاديّة

وإنّ ما نلحظه من الإمام قدس سره تحرّكًا سياسيًّا مواكبًا لتحرُّك سائر العلماء المجاهدين ضدّ رضا خان، كالسيّد حسن المدرّس، والمرحوم الحاجّ ميرزا جواد آغا، والمرحوم الميرزا صادق آغا، والمرحوم أنكجي، وغيرهم. وقد خاض معهم معترك الصراع السياسيّ، ووقف إلى جانب علماء الدين في مدينة أصفهان عندما اعتصموا في مدينة قمّ عام 1928م.

وهذا ما سنتطرّق إليه بالتفصيل فيما بعد، إن شاء الله.

خامسًا: اهتمامات الإمام قدس سره الخاصّة

كان الإمام قدس سره مهتمًّا بشؤون البلاد السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، وملمًّا بما يتعلّق بالنظام الحاكم و... كما كان يستقصي الأخبار والأنباء عن طريق الصحف والمجلّات والنشرات، التي تُعتبَر آنذاك الأداة الوحيدة للإعلام. وإنّ المتتبّع لخطابات الإمام قدس سره ومقالاته ومؤلّفاته، يلاحظ هذا وذاك كلّه بجلاء ووضوح، وبخاصّة عندما يتطرّق إلى انتقاد وسائل الإعلام، ويفضح أوضاعها المأساويّة والدنيئة في كتابه «كشف الأسرار»؛ وسنُفرد لهذا بحثًا مستقلًّا.

ومن خصائصه قدس سره، مضافًا إلى مكانته العلميّة والسياسيّة، أنّه كان مثالًا رائعًا للأخلاق الفاضلة. فقد كان يتحلّى بالصدق والإيمان والشجاعة والصراحة، كما كان شديد الالتزام بالواجبات الدينيّة والفرائض والمستحبّات، آمرًا بالمعروف، وناهيًا عن المنكر، واتّصف كذلك بالرزانة والهدوء والوقار والإرادة الصلبة والعزم الراسخ، وكان قويّ الذاكرة، بعيد النظر، قويّ الفكر، بليغًا ساطع الحجّة... إنّ هذه الخصال التي تميَّزت بها شخصيّته، وهو الشابّ الفتيّ، جعلَت له منزلةً خاصّة ومرموقة عند آية الله الحائريّ.

يروي لنا أحدُ زملائه في الحوزة، وهو آية الله الشيخ محمّد باقر الكرمانيّ، فيقول: لقد كان آية الله الحائريّ يُولي السيّد روح الله اهتمامًا بالغ الأهمّيّة. ففي يومٍ من الأيّام، تقدّم روح الله نحو الشيخ الحائريّ، ومَثَل أمامه بحالة قلق شديد وتوتّر، شاكيًا له سوء معاملة مدير المدرسة الفيضيّة تجاه الطلبة قائلًا:

«لِمَ هذه المعاملة السيّئة؟ ألم يكن هؤلاء جنود الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف؟ ألم يأتوا لخدمة الدين والإسلام؟ إنّ هؤلاء تركوا ديارهم وأهلَهم خدمةً للدين وإعزازًا للإسلام، ألم يأتوا إلى الحوزة ليُعبِّروا عن مدى حبّهم وولعهم بكسب الفضائل ونيل الرفعة والسموّ؟ ألم يأتوا ليتزوَّدوا من أخلاقكم وعلمكم، وليتهذَّبوا في هذه الحوزة بإشرافكم وإرشاداتكم؟ ولكن، مع الأسف، نرى العكس تمامًا من جرّاء معاملة المدير السيّئة».

وطالب الإمامُ الشيخَ الحائريّ، بإلحاحٍ شديد، لاتّخاذ الإجراءات المناسبة لهذا الموضوع، وكان الشيخ يستمع إليه بهدوء، مُظهِرًا له اهتمامه ومحبّته، على الرغم من انفعال الإمام قدس سره وتوتّره الشديد. والجدير بالذكر أنّه لا يوجد من يجرؤ للتكلّم بهذه الصورة وبهذه الجرأة أمام الشيخ الحائريّ، لِما كان يتمتّع به من هيبة ووقار من جهة، وأمام مدير المدرسة، لِما كان يتمتّع به من رهبة وسلطة آنذاك، والذي كان بوسعه أن يتّخذ عددًا من الإجراءات ضدّهم. لكن بعد هذا بسنوات، أمَرَ رضا خان بفرض امتحانات واختبارات لطلّاب الحوزة؛ ليتمّ فصل الخامِلين والمتكاسِلين الذين لا يليق بهم زيّ العلماء عن الطلبة المجِدّين الفضلاء، فرحَّب بعضٌ من المشايخ والأساتذة بالمبادرة بحسن نيّة، لكنّ الإمام قدس سره أعلن صرختَه المدوّية ضدّ هذا الأمر المزري، وأخذ يُندّد به، ويحذّر إخوانه الطلبة من الأهداف الخفيّة التي تكمن وراءه، واعتبره تدخّلًا سافرًا في شؤون الحوزة العلميّة أوّلًا، ومؤامرةً لتقليص عدد العلماء ثانيًا.

أمّا من جهة اهتمامه بالدراسة وتحصيل العلوم، فعلاوة على اهتمامه بدروس الحوزة وما يفرضه منهجها، اهتمّ بعلومٍ إضافيّة، كالعرفان والفلسفة، ولشدّة حبّه لهذه الموادّ، وشوقه إليها، ولهفته عليها، عَكَفَ ستّ سنوات متواصلة على تحصيلها عند الشيخ آية الله الشاه آبادي، العاشق الكبير والعارف المهيب، الذي كان يلقي محاضراته على أشخاص معدودين لا يتجاوزون أصابع اليد، بل وكان أحيانًا يقتصر على الإمام فقط. ولا يفوتنا أنّ الإمام قدس سره كان مولعًا باستقصاء العلوم الحديثة وما وصلت إليه الدراسات والبحوث في الجامعات والمجامع العلميّة، خارج البلاد وداخلها، وقد عكف على دراسة نظريّات داروين، وعمل على نقدها على يد المرحوم آية الله الشيخ محمّد رضا النجفيّ الأصفهانيّ المسجد شاهي (1278 - 1392هـ)، الذي يُعَدُّ ذروةَ علماء أصفهان، ومن فطاحلها. ثمّ انتقل الإمام قدس سره إلى قمّ بسبب وقائع وأحداث هجرة آية الله نور الله الأصفهانيّ -هذا ولم يبلغ من العمر سوى ستّة وعشرين عامًا-، وبرواية أحد الأشخاص أنّه أخذ يتعلّم اللغة الفرنسيّة لفترة ما.

لقد شرع الإمام قدس سره في التأليف والتصنيف وهو ابن سبع وعشرين سنة، رغم انشغاله بالدراسة والتدريس في الحوزة، وأخرج عددًا من المؤلّفات القيّمة، وكَتَبَ شروحًا وحواشٍ على كتبٍ عدّة في مجال الفقه والأصول والعرفان والفلسفة والتفسير، ونشرَ بعضها. واستمرّ نشاطه هذا في مجال التأليف والتصنيف طيلة أعوام مديدة من عمره، حتّى أثناء حياته السياسيّة، التي برزَت إلى الوجود منذ عام 1963م، واستمرّت حتّى شباط 1978م، حيث موعد انتصار الثورة الإسلاميّة. وبعد هذا، لم تُتَح الفرصة للإمام قدس سره للتحرير والتأليف؛ لانشغاله بأمور عدّة تتعلّق بالبلاد والعالَم الإسلاميّ. بينما ظلّ جهاز التلفزة يبثّ له محاضرات قيّمة وفريدة في التفسير لفترة محدودة، ويعرض محاضراته وخطبه وكلماته، التي من خلالها يمكن أن نتبيّن البُعد العلميّ والثقافيّ للإمام قدس سره. كما نلاحظ المخزون العلميّ الثرّ، والثروة الثقافيّة الهائلة والقيّمة في كتابه القيّم «صحيفة النور»[1]، والذي سيظلّ ذكرى خالدة بين أيدي أبناء أمّته المجيدة.

(1) صدر منه حتّى هذا التاريخ 22 مجلّدًا.

الفصل الثاني

عرض موجز لأوضاع البلاد من بدء الانتفاضة الدستوريّة وحتّى انقلاب رضا خان

قامت انتفاضة الدستور[1] إثر سلسلة من الحوادث والوقائع الكثيرة والمتنوّعة، وقد يرى بعض الناس أنّ ما نسرده من الوقائع والأحداث غير مهمّ، بل هو عاديّ جدًّا، بيدَ أنّ المتتبّع لها، والدارس والباحث آنذاك، يرى أنّها تشكّل بكاملها حلقات وصل متفرّعة الأطراف، مهّدت لبروز انتفاضة الدستور، وكوَّنَت لها الأرضيّة المناسبة، وعملَت على انتشارها وانتصارها، نظرًا لما أفرزه الواقع السياسيّ والتأريخيّ يوم ذاك. لقد قامت هذه الحركة نتيجةً لبُعدَين اثنين: أحدهما الرأي العامّ السائد، والآخر ما انطبع في الأفكار والأذهان من انعكاسات.

ونقصد بالأوّل، الوجهَ الظاهريّ لأوضاع البلاد وما يسودها؛ ممّا أدّى بشكل كبير إلى انتفاضة الدستور -كظلم الحكومة وجورها، وتسلّط الولاة على رقاب المستضعفين والمحرومين- من أبناء الشعب، الذي قاسى أنواع آلام الفقر والحرمان والاضطهاد، وعانى منها ما عانى، مضافًا إلى حالة الفوضى والغوغاء التي عمَّت البلاد، حيث فقدَت الحكومة سيطرتَها على الأمن الداخليّ، وتمزَّق الأمن الاجتماعيّ والاقتصاديّ، وفُتِح المجال لقطع الطرق وللعصابات المخرّبة؛ حتّى إنّ الفرد كاد لا يأمَن على عرضه وماله وشرفه، مضافًا إلى ذلك، خَلق حالة الرعب والتشتُّت قبل دخول القوّات البريطانيّة والروسيّة إلى البلاد.

(1) هي انتفاضة قامت في أواخر القرن التاسع عشر ضدّ استبداد سلاطين الأسرة القاجاريّة، وذلك بقيادة علماء الدين والمراجع.

ونقصد بالبُعد الثاني، انعكاس أفكار الجماهير حول تقلّبات البلد، وعدم ثقتهم بالمسؤولين وما يصدر عنهم من قوانين وأوامر، فتعطّلَت القوانين، وتغيّرَت الساحة، وتأزّم الوضع، وأصبح البَون شاسعًا بينهم وبين الشعب في الاتّجاه والأفكار، وبخاصّة بعد دخول القوّات البريطانيّة والروسيّة إلى البلاد.

وقد شكّلَت هذه العوامل، بأجمعها، خطرًا كبيرًا على السلطة، التي أضحَت مهدَّدةً من قِبَل الجماهير، حيث بدأت التكتّلات والتجمّعات الشعبيّة، التي شَرَعَت تُندِّد بالحكومة والسلطة القائمة، وتتوجّه إلى العلماء والفقهاء الذين كانوا يحرِّضون الشعب ويوجّهون نضاله وثورته ضدّ الاستبداد والظلم. وانضمَّت جماعات أخرى من الشعب إلى الفئات السائرة على نهج العلماء، حتّى فرضت آراءها ومطالبها على الحكومة فرضًا؛ وعلى ضوئها، أصدرَت الحكومة قرار الدستور.

إنَّ المتتبِّع لتاريخ إيران السياسيّ المعاصر يلحظ هذه النقطة بوضوح، خلافًا لبعض الكُتّاب والمُحلّلين الذين يمرّون بها مَرّ الكرام، ناسين كانوا أو متناسين. تُرَى إذًا، ما الذي أدّى إلى تبديل مطالب العلماء المجاهدين، والتي كان من أهمّها إنشاء «دار العدالة»، إلى حكم الدستور؟ لماذا؟ وكيف حدث هذا؟ على الرغم من أنّ الجماهير كانت تعي كلّ هذا جيّدًا.

إنّ الإجابة على مثل هذا التساؤل يحتاج إلى بحث طويل وعميق لا تستوعبه صفحات هذا الكتاب، وإنّ كثيرًا من المحلّلين والكتّاب السياسيّين يرون أنّ معظم أبناء الشعب ليس لديهم أيّ علم أو تصوّر صحيح عن الدستور، ولم يسمعوا بهذا الاسم من قبل، باستثناء الخاصّة منهم، بحكم موقعهم الثقافيّ والسياسيّ والاجتماعيّ، والذين لهم علاقات خاصّة بهذا الصدد، فهؤلاء هم الذين كانوا يعلمون ما يدور في هذا الفلك، ويخطّطون هم ومن كانوا من عيون بريطانيا في البلد. ولقد انتهز هؤلاء الفرصة، وراحوا يردّدون مع الشعب المطالبةَ بحكم الدستور، وقاموا بترسيخ هذه المفاهيم في أذهان الشعب، ووقفوا إلى جانبهم، وحثّوهم على الاعتصام والاحتشاد أمام السفارة

البريطانيّة، بحجّة خوفهم من بطش السلطة. وبهذا، زرعوا فكرة حكم الدستور في أذهان الناس بطريقة ملتوية، وبأسلوب بريطانيّ صرف، وداسوا على أهدافهم، وصنعوا منها جسرًا للعبور إلى مآربهم، ولاستلام زمام الأمور وتحقيق الانتصار.

لفتَت الحكومة الجديدة التي أعلنت عن سياستها ونظامها الداخليّ واهتمامها بالعلماء، لفتَت أنظار الشعب والجماهير إليها بمشروعيّةٍ كاملة، وكان الشعب يُعلِّق آماله العريضة على حكومة الدستور، ويتطلّع إلى استتباب الأمن والاستقرار، ورفع الظلم والطغيان، وبتر أيادي الجلاوزة المعتدين المتسلِّطين على رقاب الناس وأموالهم؛ وبعبارة أخرى، كانوا ينظرون إلى حكومة الدستور بعين الرضى، ففي ظلّها سوف تتحقّق العدالة، ويستتبّ الأمن في البلاد. وما إن قامت الحكومة الجديدة، حتّى برزَت الخلافات والمشاحنات بين رجالات الحركة الدستوريّة في صياغة الخطوط العريضة للنظام، والتي تحقّق الانسجام والتطابق مع أحكام الشرع المبين والدين الحنيف.

لقد سعى الجميع إلى اتّفاق واحد يقضي إلى صياغة نظام جديد، فعدّل الدستور وملحقاته، وبذل بعضهم جهدًا موسّعًا لقلب موازين الدستور إلى هيئة تتناسب مع أهداف غير دينيّة؛ ولهذا نشب جدال عنيف، ووقع شجار كبير بين الشيخ فضل الله النوريّ ومخالفيه المتطرّفين حول صياغة ملحق متمّم للدستور، فوقف مطالبًا بصياغة دستور متكامل يتماشى مع الشريعة الإلهيّة.

على العموم، فإنّ كلّ ما دُوِّن وسُجِّل وقُرِّر كان حبرًا على ورق، ولم يخرج إلى حيّز التطبيق أبدًا، ولم يحرّك ساكنًا في الوضع الاجتماعيّ والاقتصاديّ المتردّي، وتأزّمت الحوادث من جديد، وتلاحقت بصورة مفزعة، وحدث الصخب، وعلا الضجيج مرّة أخرى؛ فعندما فُتِحَت العاصمة طهران، وتمّت السيطرة عليها، وخُلِع السلطان محمّد عليّ من السلطة عام 1329 هجريّة، راح المستبدّون يختفون في الزوايا تحت ستار وضع الحكم المستجدّ، وتقنّعوا هذه المرّة بقناع الدستور، وتسلّقوا سلّم السلطة، فوصلوا إلى مراتب الحكم والسيطرة على أنّهم قادة الكتل الوطنيّة والهيئات الثوريّة،

وتقاسموا المناصب والزعامات فيما بينهم بشكل مدروس ومتقن، بحيث لم يقدح ذلك بمصالح بريطانيا وروسيا ونفوذهما. وبعد أن سيطروا على الأوضاع ودعّموا ركائزهم، استعانوا بالمتطرّفين المخالِفين لعلماء الدين للقضاء على الحركات الثوريّة ورجالاتها الدينيّة والوطنيّة، أمثال فضل الله النوريّ، والسيّد عبد الله البهبهانيّ، وستّار خان، وباقر خان، الذين كان لهم الدور الكبير والفاعل في هذه الحركة ونجاحها؛ وبالمقابل، أفرجوا عن السجناء السياسيّين المخالِفين للدستور، أمثال عين الدولة ولياخوف الروسيّ، اللذَين استمرّا بمقارعة الدستور حتّى الرمق الأخير.

وللإيضاح، نقول: إنّ عين الدولة كان، فيما مضى، وزيرًا للسلطان مظفّر الدين، وقد اختير لرئاسة الدولة الدستوريّة مرّتَين عام 1916م وعام 1918م.

بعد هذا العرض السريع والمختصر، يجب أن نرى ما أفاضه علينا الإمام الخمينيّ قدس سره في هذا المجال من نقاط هامّة، يقول:

«إنّ العلماء هم الذين كانوا في طليعة انتفاضة الدستور. إنّ أساس فكرة الدستور يرجع إلى علماء النجف الأشرف، لكن تمكّنوا منها في إيران، وتقدّمَت ووصلَت إلى الغاية التي كانوا يرجونها... وصمّموا على الدستور، فحصلوا عليه... لكن بعد أن وصلوا إلى سدّة الحكم، وإلى وقت العمل الجادّ، تركوا كلّ شيء لصالح أعدائهم.

كان الشعب محايدًا، وترك علماءُ الدين الساحة، وانصرف كلٌّ منهم إلى أموره الخاصّة. وكان عملاء القوى الأجنبيّة، وبخاصّة عملاء بريطانيا، يرسمون الخطط لإبعاد العلماء عن الساحة السياسيّة والاجتماعيّة بشتّى الطرق، وبجميع الوسائل، بما فيها القتل والاغتيال، فأشاعوا الكذب، وألصقوا التهم بعلماء الدين، ولوّثوا سمعتهم وشوّهوها من خلال دعاياتهم وإشاعاتهم عبر الكتّاب والخطباء السياسيّين، وادّعوا بأنّهم أُناس غير لائقين بالسياسة، وغير جديرين بمهامّها على حدّ تعبيرهم، وإنّ كلّ ما حدث هو اسمٌ للدستور فقط، بينما هو ظلم واضطهاد واستبداد لم يبلغه بلدُنا في أيّ عصر من العصور...».

وبمرور الزمن، تجمّدَت الحركات الثوريّة، وخمدَت نيران الثورة، ولعبَت التحوّلات السياسيّة دورًا هامًّا بهذا الصدد، وعمَّ الفقر، وتدهور النظام الاقتصاديّ، وانحطّ الوضع الاجتماعيّ، وراحت وحدات البرلمان تصول وتجول في البلاد دونما رادع، وتوغّل عملاء الروس والبريطانيّين في البلاد أكثر فأكثر، حتّى أصبح وجودهم ضرورة ملحّة، ودورهم بارزًا في المجالات جميعها. أمّا الوضع الاقتصاديّ بذاته، فقد أصبح متردّيًا أكثر من ذي قبل بفعل الحكومة الجديدة، وراح الولاة وأمراء المدن والقرى والأرياف يُغِيرون على ممتلكات الناس وينهبونها على مرأى منهم، وهم مقهورون حيارى لِما يحلّ بهم، وفُقِد الأمن والاستقرار بكلّ معنى الكلمة، وكثر قطّاع الطرق واللصوص، حتّى أصبح من الصعب أن يمرّ الرجل عبر الطرق العامّة وينتهي منها بسلام وأمان، وانتهز عملاء القوى الأجنبيّة هذه الفرص، فراحوا يتوغّلون في البلاد أكثر فأكثر، ويوسّعون نفوذهم، ويمدّون شباكهم، ويرسّخون وجودهم.

وفي هذه الفترة الزمنيّة، قامت الحرب العالميّة الأولى، وكانت آثارها على إيران والشعب الإيرانيّ خطيرة جدًّا، فهي كالصاعقة المدمّرة التي وسّعت دائرة مصاب الشعب المُبتلى.

وبلغت الحكومة حدًّا من الضعف والوهن، بحيث أصبحت غير قادرة على إعلان حيادها، في ذلك الوقت الحسّاس، تجاه الدول المتحاربة، وعاجزة عن توجيه أمورها الداخليّة والمحافظة على كيانها وحدودها. لقد سبق السيف العذل، حيث دخلت قوى الدول الأجنبيّة أراضي البلاد، وتقاتلوا فيما بينهم على أراضينا، وفي وطننا، وراح بعضُ رجال الدولة والسياسيّين والوطنيّين يفكّرون بالهجرة إلى خارج البلاد، وتشكيل حكومة مؤقّتة، مستعينين بالألمان والعثمانيّين، وباءَ هذا الأمر بالفشل، حيث لم يكن له ثمر يعود بالخير على البلاد والعباد.

وأمّا الحرب، فناهيك عن نتائجها -التي لا يهمّنا منها شيء- فهي لم تعد على البلد إلّا بالخراب والمجاعة والفقر والقحط والمرض... مضافًا إلى الغوغاء والاضطرابات

الداخليّة، وهيمنة القوى البريطانيّة على مناطق شاسعة من البلاد، حيث أصبح البلد، بشكل لا إراديّ، محتلًّا من قِبَل القوّات البريطانيّة؛ والسبب الرئيس لهذا هو سقوط الإمبراطوريّة الروسيّة، الذي جعل القوى الروسيّة تتراجع إلى بلادها، حيث خَلَت إيران من أيّ قوّة أو نفوذ روسيّ تقريبًا؛ وبدل أن تستغلّ حكومة إيران هذه الفرصة الثمينة وتنتهزها، فقد انتهزها البريطانيّون، فانتشروا في أنحاء البلاد شرقًا وغربًا، وجنوبًا وشمالًا.

وبعد أن رأت بريطانيا عدم وجود مبرّر لبقائها في إيران، راحت تسعى جادّة إلى إقامة حكومة تتماشى مع أهوائها، وتُحقّق أهدافها، وتُنفّذ رغباتها، لتعقد معها معاهدات عسكريّة وسياسيّة، مسبغةً عليها الصورة الشرعيّة المبرّرة لوجودها في البلاد. وبناءً على هذا، استلم «وثوق الدولة» زمام الأمور، فشكّل حكومته الجديدة عام 1918م، وقد كان من المثقّفين والمفكّرين السياسيّين، ويحظى بمكانة مرموقة واستقلاليّة عن رجالات الدستور.

وبعد مضيّ عامٍ على رئاسته، عقدَت بريطانيا معه اتّفاقًا ينصّ على إحالة الأمور الجمركيّة والماليّة والعسكريّة إلى المستشارين والخبراء البريطانيّين، وبذلك نستطيع القول: بأنّ إيران أصبحت تحت سيطرة بريطانيا ونفوذها، وعُرِف هذا العقد الثنائيّ بمعاهدة 1919م، فواجهَت هذه الاتّفاقيّة معارضة شديدة من قِبَل الشخصيّات السياسيّة والاجتماعيّة، ومن قِبَل عامّة الشعب، وقام الشهيد السيّد حسن المدرّس بمعارضة هذه الاتّفاقيّة، والتنديد بها، وكشف الخطط، وفضح المؤامرات التي تُحاك ضدّ هذا البلد من قِبَل الاستعمار، والإنكليز بصورة خاصّة.

على غرار هذا، قامَت الصحف المستقلّة وبعض الشخصيّات المناوئة لبريطانيا، بإلقاء اللوم على وثوق الدولة، واتّهامه بما يحطّ من منزلته وقدره، ويُفقده رصيده الشعبيّ والوطنيّ، وتصاعدَت الخلافات، وازداد التوتّر ضدّ الحكومة، وامتدّ على أوسع نطاق، إلى أن قام الشعب بثورتَين كبيرتَين في شمال البلاد وجنوبها. وقاد الحركة العسكريّة في الشمال كلٌّ من الشيخ محمّد الخيابانيّ -عضو البرلمان في الدورة الثانية-، والميرزا كوجك

خان، في كلّ من آذربيجان وجيلان، وأُعلِن الجهاد ضدّ الحكومة؛ فاضطرّت الحكومة إلى اتّباع أسلوب القمع والإرهاب، وتوقيف الصحف اليوميّة، وإلقاء القبض على المعارِضين والمندِّدين. وعلى الرغم من ذلك كلّه، بقي الشارع العامّ معارضًا ومعاندًا.

أمّا ردود الفعل الدوليّة والإقليميّة حيال هذا القرار والاتّفاقيّة، فكانت عبارة عن ازدياد التوتّر، والتهاب بركان الغضب لدى روسيا وفرنسا وأمريكا الطامعة بخيرات هذا البلد، إذْ إنّهم كانوا يرون بأمّ أعينهم سيطرة بريطانيا وانفرادها بفريستها التي وقعَت في شباك صيدها، حيث راحت تلمّ خيوط الشباك بكلّ هدوء وطمأنينة، على الرغم من معارضة عصبة الأُمم لهذه الاتّفاقيّة مع إيران، والتي لم يمضِ على إبرامها إلّا زمن يسير.

ونتيجةً لهذا التوتّر وهذه المعارضة والضغوط الداخليّة، عَمَدَ وثوق الدولة إلى تجميد هذه الاتّفاقيّة وإحالتها إلى البرلمان. ولقد كشفت هذه الحادثة، التي وقعَت بعد ثلاثة عشر عامًا من انتفاضة الدستور، عن مدى انحياز رجالاتها الخونة الذين تحكّموا بالبلاد وسيطروا عليها، وتآمُرِهِم، وكشفَت النقاب عن مدى جرائمهم وخياناتهم التي ارتكبوها ضدّ الوطن والشعب، بمحاربتهم الحركة الدستوريّة، وطمسِ معالمها. وبهذا الوضع الخانق والمدلهمّ، لم يرَ وثوق الدولة حلًّا لنفسه سوى استقالته من منصبه، فقدّم استقالته، وحلَّ محلّه مشير الدولة، السياسيّ المحنّك والرجل المحافظ الحذر ذو الصيت والسمعة الطيّبة؛ ومع ذلك، فقد انصهر هذا الآخر في بوتقة المشاكل والاضطرابات التي صرعَته بدل أن يصرعها وينتصر عليها، فأردَته مستقيلًا، وألحقَته بمن سبقه.

لقد برزَت ظاهرة الاستقالات هذه بشكل واسع عند الوطنيّين بعد انتفاضة الدستور، فكانت الحلّ الوحيد عند أولئك السياسيّين، حفاظًا على سمعتهم، لِما كانوا يتمتّعون به من مكانة مرموقة ومنزلة عالية في الأوساط السياسيّة؛ وبذلك حقّقوا لأنفسهم النجاة، وتركوا البلاد في هول الفوضى، وضمن دائرة العواصف السياسيّة الخطرة. وكانوا يرون أنفسهم أعلى شأنًا من أن يزجّوا أنفسهم في دولةٍ هذه مشاكلها،

فاستبقوا الزمن باستقالاتهم، تاركين البلاد تصارع أمواج الفتن والاستبداد. وتربَّعَ على عرش الحكم، بعد مشير الدولة، «فتح علي خان التنكابونيّ»، الذي لم يتمكّن من فهم المشاكل والعوائق وهضمها، فضلًا عن عجزه عن حلّها أو السيطرة عليها، فجلس هو ومن معه من أعضاء حكومته صاغرين حائرين.

وبعد سنتَين من انتهاء الحرب العالميّة الأولى وخروج القوّات الروسيّة من البلاد، كان الشعب ينتظر إقامة الأمن والاستقرار، وإعادة البناء والإعمار لِما خلَّفَته تلك الحروب المدمّرة، من قِبَل الحكومة الحاكمة. لكن، كما مرّ سابقًا، فإنّه من المستبعد جدًّا أن نتوقّع تحقُّق الآمال من حكومةٍ هذه شخصيّاتها. وهكذا، ذهبت آمال الناس بهذه الحكومة ورجالاتها أدراجَ الرياح، وكانت إيران تنتظر حركةً صارمةً وثورةً عارمةً تعمّ البلاد، وتُخرِجها من حالةٍ جديدةٍ منفتحة، فالسياسيّون يتطلّعون إلى حكومة جديدة عبر انقلاب وثورة، والشعب ينتظر المنقذ الذي سيخلّصه من هذا النير.

الفصل الثالث

الإمام الخمينيّ قدس سره ورضا خان

القسم الأوّل: رضا خان من الانقلاب وحتّى السلطة

تطرّقنا في الفصل الأوّل إلى الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة في البلد إبّانَ الحرب العالميّة، وما بعد زمن حكومة الدستور، وألمحنا إلى ما كان يتطلّع إليه رجال السياسة مِن انقلابٍ كبير، ليُغلق نوافذ الأزمات والمشاكل كلّها، ويفتح أفقًا جديدًا للبلد، يعمّ فيه الأمن والاستقرار والهدوء. هذا، مضافًا إلى رغبة بريطانيا في إشعال فتيل انقلابٍ يخدم أهدافها، ويؤمّن مصالحها. إذًا، هناك عوامل عدّة، داخليّة وخارجيّة، أدّت إلى انقلابٍ عسكريّ بقيادة رضا خان، منها:

1. العراقيل التي كانت تواجهها القوّات البريطانيّة في إيران

لقد تحمّلَت وتكبَّدت هذه القوّات أضرارًا جسيمة مِن جرّاء الحرب العالميّة الأولى؛ ممّا أدّى إلى ضعفها العامّ وعدم استطاعتها المكوث في مستعمراتها، مضافًا إلى خسارتهم الفادحة أمام الألمان إبّانَ الحرب، ولِما لاقوه من إشاعات بين الجماهير في المستعمرات، والتي راحت تبثّها ألمانيا لصالحها، حيث أخذَت الجماهير تندّد بالمستعمِرين البريطانيّين، وتنادي بطردهم من البلاد.

على هذا، فإنّ وجود القوّات البريطانيّة في البلاد كان بسبب نفوذ روسيا السياسيّ والعسكريّ من جهة، وإنّه من جهة أخرى، سوف يزيد ردود الفعل مِن قِبَل الجماهير والشعب، عبر الحركات الوطنيّة والقوميّة، وعندئذٍ، تتدهور الأمور، وتخرج الجماهير

خالية الوفاض، بادية الأنفاض؛ هذا مضافًا لمصاريف وتكاليف الجيش، التي كانت تدفعها بريطانيا لوجودها في البلاد. وتخرج بريطانيا بنتيجة مدروسة، فترى أنّه لا بدّ من إشعال فتيلِ انقلابٍ وثورة، وبناء كيان دولة جديدة تلبس لبوسًا بريطانيًّا، لتخدم مصالحها بهدوء وتكتّم، بعيدًا عن الضجيج والصخب، ولا يكلّفها ذلك متاعب مادّيّة وسياسيّة وعسكريّة، ومن ثمّ تجلس مرتاحة البال، محقِّقةً ما تحلم به من مآرب.

2. مواجهة الخطر السياسيّ والعسكريّ للمعسكر الشيوعيّ

بعد هدوء الأوضاع واستقرار الحكومة الشيوعيّة الحديثةِ التأسيسِ في روسيا، أخذ زعماؤها يفكّرون بالاشتراكيّة العالميّة، وتوسيع رقعة أحلامهم بالسيطرة على مساحات أكبر، وبطموح أوسع وأشمل، طمعًا بثروات المستعمرات -وهذا أيضًا لم يكن بعيدًا عن أفكار البريطانيّين أنفسهم وخططهم- ولهذا توجّسوا خيفةً من جارتهم الشماليّة، خوفًا من تدخّلها المباشر عبر الحدود، أو عن طريق بثّ الدعايات والإشاعات في البلاد ضدّ البريطانيّين واحتلالهم، حيث كانت الأرضيّة مناسبة جدًّا لِما حلّ بالإيرانيّين من الفقر والحرمان، وعدم الأمن والاستقرار، وتذمّرهم من الوجود البريطانيّ داخل البلاد.

على هذا، فبناء حكومة جديدة مزيّفة تتقنّع بقناع السلام والأمن، وترتكز على علاقات حُسن الجوار، هو خير حلٍّ لدفع الضرر المتوقَّع من قِبَل روسيا، وتفاعل الوضع الداخليّ، وخير سبيل لتكريس تسلّط البريطانيّين على البلد بشكل خفيّ متسترٍّ وبعيدٍ عن الضوضاء والقلق.

3. قمع الحركات الوطنيّة

واجهَت القوّات البريطانيّة، إبانَ الحرب العالميّة الأولى، ثورتَين عارمتَين في الشمال والجنوب منطقة غابات شمال إيران، ومنطقة تنكستان في جنوب البلاد- إثر تواجدها في إيران واحتلالها إيّاها، وما لاقته تلك القوّات من انطباع سيّئ لدى أبناء الشعب. وبناءً على هذا، فإنّ استمرار وجودهم في البلاد قد يتسبّب في انفجار انتفاضات جديدة يصعب مواجهتها وقمعها؛ لأنّ بريطانيا على علم ومعرفة كافية بما يدور في

أذهان الشعب، وما يجري في دمائه من ولاء وطاعة لعلماء الدين المجاهدين، وعلى معرفة كاملة بقوّة أولئك القادة وصلابتهم؛ وخير مثال لهم موضوع الحركة الدستوريّة وفتوى تحريم التنباك...

هذا هو أهمّ عامل جعل بريطانيا تفكّر بالانسحاب وإقامة حكومة تنفّذ خططها، وتؤمّن مصالحها، وتقضي على التحرّكات الوطنيّة والدينيّة كافّةً باسم إجراءات الأمن والحفاظ على الاستقرار؛ وهذا ما جعل رضا خان يأمر بتنفيذ هذه الإجراءات دون أيّ تردّد.

4. ضمان المصالح الاقتصاديّة

ربحَت بريطانيا أرباحًا هائلة بعد أن اكتُشف النفط في إيران، وأصبحت إيران بدورها بلدًا استراتيجيًّا من الناحية السياسيّة والاقتصاديّة، على النطاق الإقليميّ والدوليّ. وبما أنّ المنشآت النفطيّة كانت تحتاج إلى قوّة أمنيّة قويّة تحرسها، فإنّ بريطانيا كانت مجبرة على دفع مبالغ كبيرة من عائدات النفط إلى الولاة والأمراء وقطّاع الطرق الذين تمرّ بهم أنابيب النفط، ومن ثمّ إلى الحكومة القائمة. لكنّ وجود حكومة قويّة جديدة تسيطر على البلاد طولًا وعرضًا، وتفرض الأمن والهدوء، سوف يجعل بريطانيا تستغني عن دفع تلك الضرائب والرشاوى، وحتّى عن نصيب الحكومة القائمة، وتنزل بأجمعها في الحساب الخاصّ بها. مضافًا إلى هذا، فإنّه باستقرار البلد، وتأمين الأمن في البلاد والطرق العامّة والمواصلات، سوف تنشط الحركة التجاريّة في البلد، وسوف يكون سوقًا رائجًا لصرف البضاعة البريطانيّة ومنتجاتها النفطيّة.

5. ترقُّب الرأي العامّ لتغيير الأوضاع وبلورتها

لقد رأينا، كما مرّ سابقًا، أنّ الأوضاع الداخليّة للبلد، وعلى مدى سنوات متواصلة، أصبحت رهن الأحداث والتقلّبات السياسيّة، وحلّ الفقر والضيق الاقتصاديّ بالشعب، وأُصِيب بالضعف والحرمان، وضاقت الأنفس، وبلغَت القلوب الحناجر، فنتجَت الفوضى والغوغاء، وغاب الأمن والاستقرار، وكانت هذه العوامل كلّها مؤهّلة لانفجار

بركان ثورة عارمة تعيد البلاد إلى ماضيها الهادئ، الذي ينتظره الشعب بفارغ الصبر.

وعلى هذا الأساس، وبهذا العرض، راح المستعمرون يدبّرون الخطط والمشاريع اللازمة لإقامة حكومة قويّة جديدة عبر ثورة جماهيريّة، لكن توقّفَت المسألة على اختيار الشخص المناسب والسياسيّ الحاذق الذي يؤدّي هذا السيناريو بإتقان ونجاح، ويوصل أهدافَهم إلى شاطئ النجاح، والذي فشل الكثير فيه، وغرق بين أمواجه المتلاطمة؛ فبريطانيا على علمٍ كافٍ ومعرفة متكاملة بقدرات الشخصيّات السياسيّة يومذاك، فردًا فردًا، وقد انجرف هؤلاء جميعًا إلى هوّة الفشل، وعرفَت قدراتهم ونقاط ضعفهم ممّا جرى من أحداث بعد عهد الدستور، بل كانت تشكّ في وجود عناصر يرغبون بإجراء هذه اللعبة الخطرة؛ لأنّ البريطانيّين يبحثون عن شخصيّة فاعلة وسياسيّة قادرة، تتناسب مع أهدافهم ومآربهم جميعها، وتنفّذ أوامرهم بدقّة، هذا أوّلًا؛ وثانيًا، تتمتّع بمنزلة شعبيّة جيّدة، وتحظى بحسن ظنّ الجماهير بها، وتبتعد عن أيّ ارتبط مباشر أو غير مباشر مع الاستعمار؛ وثالثًا، إبراز الكفاءة اللازمة لإدارة البلاد.

وبعد دراسة معمّقة ومكثّفة مِن قِبَل مبعوث وزارة الخارجيّة البريطانيّة الجنرال «آيرون سايد»، وممثّل نائب السلطنة في الهند، اتُّفِق على الشخصيّة المناسبة والمطلوبة، والتي تمثّلت بشخص رضا خان. ونظرًا لكون هذا الرجل عسكريًّا -وهي صفة لا تتماشى مع مخطّطهم في ابتداء الأمر، ولا تتناسب مع مصالحهم- لذلك، وبعد تمحيص دقيق، ونظر عميق، وتدبُّر، اتّفق على أن يكون السيّد ضياء الدين محرّر صحيفة «رعد» -وهو أحد العملاء البريطانيّين المتستّرين- بديلًا عن رضا خان مؤقّتًا، ريثما تهدأ الأوضاع وتستقرّ.

لقد كثرت الحوارات والتردّدات والمناقشات حول تنفيذ الخطّة؛ فمن جهة، تمّ حوارٌ اتُّفِق عليه بين الجنرال آيرون سايد ورضا خان -الذي استقرَّت قوّاته في مدينة قزوين بعد أن انسحب من حربه مع القوّات البلشفيّة، والتي كبّدَته خسائر فادحة- وتزامنًا معه، قام السفير البريطانيّ في طهران بإجراء لقاءات مكثّفة مع السلطان والمسؤولين

العسكريّين والمدنيّين الكبار، فتمّ اتّفاقٌ يقضي بنقل فيلق رضا خان من قزوين إلى العاصمة طهران في اليوم الأوّل من الشهر السابع من عام 1299 شمسيّ (الموافق 1920م)، ودخلَت قوّاتُ رضا خان العاصمةَ في اليوم الثالث دون أيّة مقاومة أو تصدٍّ من القوى المحافظة -والتي جُرِّدَت من السلاح في تلك الليلة بأمرٍ من قيادتها- وسيطرَت على العاصمة كلّيًّا، وبدون تأخير، وفرضَت الأحكام العرفيّة.

أمر السيّد ضياء الدين باعتقال السياسيّين كافّة، الذين وجّهوا إليه التهم وناصبوه العداء إبّانَ رئاسته لصحيفة «رعد»، وأودعهم السجن، وكان من بين هؤلاء الشهيد السيّد حسن المدرّس. ويهدف هذا التحرّك إلى أمور مهمّة:

أوّلًا: إجهاض أيّة مقاومة أو معارضة مِن قِبَل هؤلاء السياسيّين، لِما يتمتّعون به من صلاحيّات ونفوذ.

ثانيًا: لفت أنظار الشعب والجماهير إلى الحكومة الجديدة، من خلال القضاء على هؤلاء المترفين والطواغيت والأعيان والأشراف، وإبعادهم عن السلطة والحكم.

ثالثًا: وفي الوقت المناسب، يتمّ الإعلان عن الإفراج عن هؤلاء المعتقلين مقابل دفع مبالغ باهظة، عوضًا عن السجن، حيث يكون لديهم، بواسطتها، ما يقدّمونه للقادة العسكريّين والعملاء والخونة من عَون مقابل مساندتهم ودعمهم لهذا الانقلاب.

وبناءً على طلب السيّد ضياء الدين الطباطبائيّ، أصدر أحمد شاه قرارَين، ينصّ أحدهما على تعيين السيّد ضياء الدين رئيسًا للوزراء، والآخر يقضي بتنصيب رضا خان قائدًا عامًّا للقوّات المسلّحة. وبهذا، أصبحَت إيران تحت سيطرة بريطانيا ونفوذها بالكامل، وبشكل غير مباشر. هذا وأعلنت الحكومة عن إلغائها اتّفاقيّة 1919م التي أثارت ضجّة كبيرة وصارمة في الداخل والخارج، وقامت بعقد معاهدة مع روسيا، تُعرب عن حسن النوايا وحسن الجوار؛ وبذلك كسبت الجماهير، وأبعدَت عنها أيّة شُبهة تربطها ببريطانيا، وفي الوقت ذاته، أمِنَت شرّ الجارة الشماليّة.

بعد فترة من الزمن -تقارب ثلاثة أشهر من الانقلاب- قدَّم السيّد ضياء الدين

استقالته، حيث انتهى دوره وطُوِيَ ملفّه، وخرج من البلاد، ليعود إليها وإلى مسرح الأحداث مرّة أخرى في الوقت المناسب. ويرى بعضهم أنّ سبب تقديم استقالته هذه على وجه السرعة كان نتيجةً لبروز شائعات ودعايات تتّهمه بالعمالة والتجسّس لصالح البريطانيّين، وبخاصّة عندما قام «وثوق الدولة» بالدفاع عنه إبّان عقد اتّفاقيّة 1919م التي أشرنا إلى انعكاساتها السلبيّة في الداخل والخارج.

وثمّة نقطة هامّة لا بدّ من ذكرها، وهي أنّ كثيرًا من الكتّاب والصحفيّين والشعراء القوميّين المتشدّدين، وبعض رموز السياسيّين، أيّدوا هذا الانقلاب بلهفة وشوق كبيرَين -على الرغم من وجود عدد كبير من المعارِضين لهذا الانقلاب، والمندِّدين به، كالشهيد حسن المدرّس وغيره- فمثلًا، الشاعر «عشقي» والشاعر «عارف»، اللذان تحمّلا مرارة السجن وعذابه إثر معارضتهما اتّفاقيّة 1919م، أخذا ينشران مقالاتهما الأدبيّة وقصائدهما الشعريّة والغنائيّة بروحٍ تحمل التأييد والدعم لهذا الانقلاب ورجاله.

وتركَت استقالة السيّد ضياء الدين أثرًا كبيرًا في الأوساط السياسيّة آنذاك، بالأخصّ عندما قدّمها دون أيّ حادث أو دليل أو واقعة. وراح القوميّون المتشدّدون يدرسون هذه الحادثة بتأمّل وتفكير وتدبّر، حتّى وصلوا إلى أنّ هناك انقلابًا داخليًّا مدبّرًا لا يقوده رضا خان، بل هو موجَّهٌ ضدّ رجال السياسة غير المرغوب فيهم، وزاد من ثباتهم على رأيهم هذا، إطلاقُ سراح السياسيّين المحتجَزين، وإعادة نظام البرلمان إلى وضعه السابق، بعدم تقديم الاستقالة مباشرة.

وعندما نقرأ الفقرات الآتية من كتاب الإمام الخمينيّ قدس سره، نرى أنّه كان يشير إلى هؤلاء المفكّرين السياسيّين المغفّلين، الذين لا يعلمون شيئًا عن مجيء رضا خان للوسط السياسيّ، عندما يخاطبهم قائلًا:

«لقد استنكرتم، وبأجمعكم، اتّفاقيّة وثوق الدولة (1919م)، وشجبتم أعماله، ولكم الحقّ بذلك، لكن بعد أيّام قلائل، كما تعلمون، أُعِيدَت الكرّة بزيّ آخر وقناع ثانٍ، وأمرٌ من ذي قبل، فحملتم على عاتقكم مسؤوليّة إسقاطها وإسقاط من نادى

بها باسم تقدّميّة العصر، وباسم التطوّر والحضارة...».

ومنذ الانقلاب، وحتّى وصول رضا خان إلى رئاسة الوزراء عام 1924م، سبقه خمسة رؤوساء بحكومات مختلفة الأعضاء، والتي لم تستطع الصمود أمام المشاكل القائمة. والجدير ذكره أنّ رضا خان كان يشغل منصب وزارة الدفاع طيلة تلك المدّة التي تغيّرت الحكومات أثناءها، إلّا أنّه في هذه الدورة الجديدة، ثبّت جذوره، ودبّر أموره مسبقًا، واستطاع أن يرتقي إلى منصب رئاسة الوزراء، وأوّل ما قام به هو إعداد جيش قويّ جرّار، أغدق عليه الأموال الطائلة، وجعله تحت إمرته بالكامل، وبواسطته استطاع أن يؤمّن الاستقرار والهدوء، وجعل من إيران بلدًا آمنًا، وسيطر سيطرةً تامّة على الطرق البرّيّة والمواصلات، وبهذا الجيش استطاع أن يقمع ثورة الشمال بقيادة الميرزا كوجك خان، وفرض سيطرته على رؤوساء القبائل والعشائر، وتعرّض للشيوخ والولاة الخونة وعملاء البريطانيّين، تمويهًا لمواقفه وموالاته لأسياده، وتضليلًا للشعب، كتعرّضه مثلًا للشيخ خزعل -الذي كان معروفًا بعمالته للبريطانيّين- واغتياله، حيث أصبح هذا الأخير كبش الفداء لرضا خان لنيل رضا الشعب وإعادة ثقته بالحكومة الجديدة التي يدَّعي نزاهتها عن العمالة والارتباط.

أمّا ما نفّذه في المرحلة الثانية، فهو تقريب عدد من الشخصيّات المرموقة والبارزة منه، كالوطنيّين الذين أتمّوا دراساتهم في الدول العربيّة، والمعتدلين السياسيّين المتأثّرين بشخصيّته، والمتفائلين بحكومته. واستطاع رضا خان أن يقلب الموازين كلّها لصالحه، وبالأخصّ عندما قدَّم الشيخ خزعل قربانًا لأهدافه، حيث انفتحَت له أجواء عديدة، وتحرّك من خلالها بجدّيّة وحذر عادا عليه بالنجاح والفلاح؛ فمن جهة متّن علاقاته مع أصدقائه ومؤيّديه بشكل أفضل من السابق، وبدّد شكوك الآخرين وارتيابهم به، فباتوا لا يعلمون ما يجري خلف الكواليس، كما عمد إلى إرهاب بعضهم وتهديدهم.

وقد ظهر أخيرًا بوجهٍ قوميٍّ ودينيٍّ، فالبيانات والنداءات التي صدرت من قِبَل الحكومة، منذ الانقلاب وحتّى وصوله إلى سدّة الحكم، كانت كلّها تحثّ المواطنين

والجماهير على احترام علماء الدين، وتقديسهم، وإطاعة أوامرهم، والالتزام بأحكام الشرع المبين، والدفاع عن الوطن وكرامته وتراثه؛ هذا مضافًا إلى البيانات والاستفتاءات الماليّة المتبادلة بين الحكومة وعلماء الدين، والتي كانت تحمل النفس الدينيّ والطابع القوميّ ذاته. ودعمًا لهذه المظاهر المزيّفة، أخذ رضا خان يهاجم البارات ومراكز البغي والفحشاء ومحلّات القمار وغيرها؛ لاستمالة الجماهير، وكسبًا لتأييدهم وولائهم له، وراح يحثّ الجماهير على إقامة المآتم الحسينيّة والمجالس الدينيّة بشكل غريب، حتّى كان يزورها حافي القدمَين، مُلطِّخًا جبهته بالتراب، مُعلنًا عن تواضعه وانصهاره بالولاء لأهل البيت عليهم السلام، وبالغ بتكرار زياراته إلى مراجع الدين والعلماء في مدينة قمّ، وراح يستجيب لبعض طلباتهم بشكل ظاهريّ، حتّى إنّه استجاب لدعوتهم بعدم تبديل الحكم الملكيّ إلى جمهوريّ، ممّا جعله يواجه ردًّا عنيفًا حينها من السيّد حسن المدرّس وبعض نوّاب البرلمان.

بهذه السياسة الماكرة، استطاع رضا خان أن يضلّل الشعب تمامًا، ويكسب تعاطفًا كبيرًا من قِبَل بعض علماء الدين والمراجع ويستميلهم من جهة، ومن جهة أخرى، قام بتصفية المعارِضين له ولأهدافه بهدوء وسكينة، دونما صخب أو ضجيج، كاغتيال السيّد حسن المدرّس؛ فكان هناك عددٌ من البرلمانيّين الوطنيّين والأصوليّين قارعوا رضا خان حتّى النفس الأخير، على الرغم من هيمنته وقوّته، وعلى رأسهم السيّد حسن المدرّس، الذي يشهد له العدوّ والصديق بمواقفه الجهاديّة البطوليّة.

في الأيّام الأولى للانقلاب، تمّ إلقاء القبض على عدد من السياسيّين والمعارضين، بما فيهم السيّد المدرّس، وكان منذ ذلك الوقت يُدلي بتصريحاته، ويُجاهر بتنديداته برجال السلطة، حيث كان يعتقد بأنّ المحرّك الأساس واللولب لهذا الانقلاب هم الأجانب والمستعمرون، وأبدى رأيه لِما يتوقّعه من أحداث خطيرة ستقع مستقبلًا، وكان في البرلمان من أشدّ المعارضين والمخالفين لرضا خان، حيث كان يفضح سوء نواياه في المرحلتَين اللتَين قضاهما في البرلمان؛ في المرحلة الأولى التي حظي فيها بتأييدٍ قاطع

من الأكثريّة المطلقة، وفي المرحلة الثانية التي تآمر عليه المتآمرون، وتنكّرَت له الأكثريّة الساحقة، وأخذ يكشف النقاب عن وجه رضا خان المزيّف تجاه الدين والولاء لأهل البيت عليهم السلام، وما يرومه من خلاله، مضافًا لإعلانه عمّا ارتكبه من جرائم، وما سلبَه من أموال الشعب، وما نهبَه من الضرائب غير المباشرة. هذا وقام بموقف مشرِّف كبير أمام رضا خان، وهو الحيلولة دون وصوله إلى تغيير نظام الحكم من الملكيّة إلى الجمهوريّة لينتفع من منصبه ومقامه أشدّ الانتفاع، وساعد على ذلك دعم بعض النوّاب في البرلمان، ولكن مع هذا، بقي السيّد حسن المدرّس متمسّكًا برأيه ولم يتراجع عن مواقفه، على الرغم من كلّ ما ناله من الإهانات، وكلّ ما واجهه من هجمات مؤيّدي رضا خان؛ وذلك لأنّه خلع رداء الحذر، وعرَّض نفسه للمخاطر لأكثر من مرّة، فسبّبَ تلك الإزعاجات لنفسه؛ فمثلًا، قام بتأييد «نصرة الدولة» والدفاع عنه، وهو من الموقِّعين على اتّفاقيّة وثوق الدولة مع بريطانيا عام 1919م؛ وأخرى قام بإرسال رسالة مفصّلة إلى الشيخ خزعل -المفضوح بسوابقه- يدعوه للامتثال إلى أوامره ونواهيه، مع العلم أنّه أشار بطريق فنّيّ وغير مباشر إلى سوابقه وما ارتكبه من جرائم.

وفي عام 1926م، أُرسِلَت لائحة إلى البرلمان -الذي كان يحظى رضا خان فيه بتأييد ودعم من أكثر نوّابه- تفيد بإلغاء السلطنة القاجاريّة، وإحالة عرشها إلى رضا خان -رئيس الوزراء- مؤقّتًا، ولم تلقَ هذه اللائحة إلّا ردًّا عنيفًا من قِبَل السيّد المدرّس، الذي ترأّس مجموعة ذات أربعة عشر عضوًا، ووقف منددًّا بهذه اللائحة وصاح: لئن حظيَت اللائحة بمئة ألف صوت، فهي مخالفة للقانون، وخرج من البرلمان دون أن يُلقي كلمته، بينما أعلن أربعة من النوّاب المستقلّين عدم موافقتهم بشكل احترازيّ، هم: مصدّق وعُلا وتقيّ زاده ودولت آبادي، مشيرين إلى نقاط الضعف والقوّة لهذه اللائحة، في الوقت الذي أكّدوا على جدارة رضا خان، وأشادوا بمنجزاته وبمنزلته.

وأشاد الإمام الخمينيّ قدس سره بمواقف السيّد حسن المدرّس أكثر من مرّة، قائلًا:

«... ذلك اليوم الذي برز فيه رضا خان على ساحة الأحداث، ونفّذ تلك المهمّات...

نحمد الله على وجود السيّد حسن المدرّس في البرلمان، حيث كان هناك صوت يجابه رضا خان، وكان هذا الأخير يدّعي عدم وجود المخالِفين، هذا الصوت هو صوت المدرّس، وبعض الذين التفّوا حوله... فكيف توجد مقاومة في البلاد ضدّه، وتقف بوجهه؟ ولكنّه الشهيد المدرّس الذي وقف أمام الجميع، وصرخ بوجهه: لا...».

وبهذه المحاولة، وبهذا الشكل، استطاع رضا خان، بواسطة عناصره في البرلمان، أن يمسك زمام السلطنة عام 1926م.

وإتمامًا لمواصلة المسيرة التي سار على نهجها منذ البداية، وكما استطاع مسبقًا أن يسيطر على الحركات الوطنيّة والدينيّة والمستقلّة ويسيّرها نحو أهدافه، استطاع أيضًا أن يبني علاقات متينة وقويّة مع روسيا، واتّخذ من ذلك حاجزًا وحائلًا له يفيده عند الضيق، ووطّد علاقاته مع الأحزاب الاشتراكيّة والوطنيّة المتشدّدة؛ كي يأمن شرّهم ومواجهتهم، ولو أنّ هناك من انتبه مؤخّرًا إلى خطط رضا خان وما يرمي إليه، كالشاعر الساسيّ «عشقي»، إلّا أنّه فات الأوان، فقد رتّب رضا خان الأمور كلّها، ونسّقها تنسيقًا تامًّا، ويكفيه ملاحظة أبسط حركة موجّهة إليه كي ينقضّ عليها مباشرة، وبشتّى الطرق، وبالأخصّ الاغتيال الذي كان من أبرز وسائله.

نعود إلى السيّد حسن المدرّس، فالمتتبّع لمؤلّفات الإمام الخمينيّ قدس سره وخطاباته ونداءاته، يلحظ أنّ هناك اهتمامًا كبيرًا يبديه تجاه السيّد المدرّس، منذ أوّل تأليف له -أي «كشف الأسرار» عام 1944م- وحتّى خطبه في عصر الثورة الإسلاميّة. فلقد كان هناك عاملان بارزان يتحلّى بهما السيّد المدرّس، فضلًا عن بقيّة العوامل، جعلا الإمام قدس سره يتأثّر بحياة هذا السيّد الشهيد الجليل، ويميل نحوه منذ شبابه، وهما: بساطة حياته وتواضع طبعه أوّلًا، وتفكّره وعظمة منهجه السياسيّ ثانيًا. «**فالسيّد المدرّس منذ أن دخل طهران وقطن فيها، وأخذ يؤدّي دوره كعالِم دين ومجتهد، ومرورًا بمرحلة عضويّته بالبرلمان، وانتهاءً بحياته الزاهرة الثائرة، كان في غاية البساطة والتواضع من جميع الجهات. فكان يقطن دارًا متواضعة وبسيطة جدًّا، وكان يهتمّ**

بضيوفه اهتمامًا بالغًا، وبروح المساواة وعدم التمييز، حيث لم يكن يُفرّق بين الرجل العاديّ وصاحب السموّ والرفعة بين الشخصيّات السياسيّة والكبيرة، كالوزراء ونوّاب البرلمان...». وكان يقصده الإمام قدس سره مرارًا إلى مجلسه ومدرسته المعروفة بـ«سِبَهْسالار» (الشهيد مطهّري حاليًّا)؛ فكان الإمام قدس سره يتطرّق إلى حياته تلك أحيانًا، وينهال عليها بالمدح والثناء. وقد جاء في إحدى خطبه الآتي:

«... المدرّس كان إنسانًا بكلّ معنى الكلمة. فحياته هي كما سمعتهم عنها، وقد رأيتها بأمّ عيني، حتّى إنّه عندما اختير ليكون أحد الأعضاء الرئيسيّين في البرلمان، واستوجب ذلك وجوده في طهران، انتقل من أصفهان إلى طهران بوساطة عربة ابتاعها من أصفهان لهذا الغرض، وباعها عند وصوله إلى طهران... ويتّصف منزله بالبساطة التامّة. وكانت حياته متواضعة ودون العاديّة... وعُرِف بارتدائه الليف الذي كان يرمي من خلاله إلى هدف سياسيّ سامٍ؛ ليُعبّر عن مدى اهتمامه ببلده، واعتماده على ما ينتجه بيده، ولكي يعطي درسًا بالاعتماد على النفس، وعدم الاتّكال على الغرب...».

هذه البساطة، وهذا التواضع جعلا من السيّد المدرّس إنسانًا صلب الإرادة، واثقَ النفس، مطمئنَّ الخاطر، هادئَ البال، يتحلّى بالشجاعة والصراحة والكلام المرِن المعبِّر، مداعبًا مرحًا، وقد عرفه بهذا البعيدُ والقريبُ.

أمّا فكره ومنهجه السياسيّ، فهو لم يكن وليد معهد أو كلّيّة تخرّج منها، بل هو نابع من أصالة تفكّره الصائب، وسلوكه المثاليّ، وتربيته الرائعة، فلقد ترعرع في أحضان الأُسَر العلميّة والمجتمع الإسلاميّ العريق والتربية الرشيدة، وطبّق عقائده عمليًّا، ودمج العلم بالعمل، والعمل بالجهاد، والجهاد بالشهادة، وله مقولته الشهيرة: «**ديننا سياستنا، وسياستنا ديننا**».

كان يقف بوجه أيّة مؤامرة تُحاك ضدّ الإسلام والمسلمين، ويُندّد بها، ويصرخ بوجه عملائها، باذلًا نفسه ومهجته، غير مبالٍ بالإرهاب والتهديد والتنكيل، وقد رأينا كيف

وقف صامدًا وحيدًا أمام البرلمان بأجمعه، منددًّا بسياسة رضا خان ومَكرِه، فاضحًا خططه ومؤامراته.

تلك خصال وصفات ونعوت تجسّدت بشخص الشهيد «المدرّس»، وكثيرًا ما كان يردّدها الإمام قدس سره، فأثنى عليه أجمل الثناء، وكان يبجّله ويجلّه أفضل إجلال، ووصفَه خير وصف عندما أصدر بيانًا بمناسبة ذكرى استشهاده يقضي بإقامة مشهد خاصّ لمثواه، فكتب مُردِّدًا:

«... في وقتٍ اختنقَت به الأنفس، وبلغَت القلوب الحناجر، وعُقِدَت الألسن، وتحطّمَت أقلام المفكّرين والكتّاب من الخوف والخشية، أظهر شجاعته وبسالته، غير مبالٍ ولا مكترث، سائرًا نحو إحقاق الحقّ ودحض الباطل، في زمنٍ وقع فيه الشعب المظلوم فريسةً لهجمات المعتدين الجلاوزة وحروبهم، فسُلِبَت حياتهم، وهُتِكَت أعراضهم، وقف وكشف النقاب عن هؤلاء الطغاة المجرمين الذين ولغَت أيديهم، إلى أقصاها، في دماء الشعب والعلماء والأبرار.

... مفكّر، عالم، مجاهد، متواضع، نحيف، ضعيف، لكنّه يحمل روحًا حماسيّة عظيمة معطّرة بروح الإيمان الإلهيّ والصفاء الحقيقيّ، شاهرًا لسانه كسيف جدّه عليّ عليه السلام. بتر رؤوس الطغاة، ولجم أفواههم، وأبان الحقّ، وضيّق الخناق على رضا خان... وجعل أنفاسهم حسرات عليهم، حتّى قدّم نفسه قربانًا لإعلاء كلمة الله، ونصرةً لدينه المبين، ووفاءً لشعبه المظلوم، وقضى نحبه صابرًا محتسبًا في بلد القربة، وحيدًا فريدًا، ولحقت روحه بالرفيق الأعلى...

حقًّا، إنّ كلّ ما نقوله بحقّ هذا الرجل العظيم هو قليل وقليل جدًّا، فهو نجمٌ أضاء قريةً خَيَّم عليها رضا خان بسواد جناياته وجرائمه واستبداده، ومَن لم يستوعب ظروف تلك الفترة، لن يعرف من هو المدرّس، وما قيمته... فشعبنا مدين لهذه الشخصيّة، ولما قدّمته من خدمات وبطولات وتضحيات...».

القسم الثاني: سلطة رضا خان، بدايتها ونهايتها

أ. عقيدة النظم وسلوكه

تعتمد عقيدة رضا خان وسلوكه على ركيزتَين:

1. الجنوح للقوميّة

2. التجدّد والتمدّن

1. الجنوح للقوميّة

القوميّة مصطلح سياسيّ له وجوه وتعاريف عديدة، وقد يصعُب حصرها تحت تعريف جامع وشامل، نظرًا لاختلاف أوجه مجالاته من زمن إلى آخر، ومن بقعة إلى أخرى، ومن ظرف إلى آخر، إلّا أنّه بمقدورنا أن نعرّفه بصيغةٍ قد تتلاءم مع واقعيّته وحقيقته أكثر فأكثر، فنقول: إنّه مصطلح يُطلَق على خليطٍ من أفكار وآراء ونظرات تخرج بمفهومِ الوحدة في الاشتراك البشريّ لقوم أو لشعب من الشعوب؛ ولأنّ القوميّة تتعلّق بالآداب والتقاليد والثقافة واللسان والتاريخ والعنصريّة والأرض، فإنّها بأجمعها تصوغ الشكل العامّ لمنتميها، وبدوره يحسّها بنفسه، فيتعاطف معها ويتكيّف معها لا إراديًّا، فيخرج بهيئةٍ تؤيّد أصالته وعراقته منفردًا بها. ومن هنا، جاءت الوطنيّة والقوميّة منفصلةً عن الدين والعقيدة الإلهيّة بهذا المجال؛ لأنّ العقيدة الدينيّة هي أوسع شموليّةً ونطاقًا من فكرة القوميّة والوطنيّة.

ولو رجعنا إلى هذا المصطلح السياسيّ ودخوله في الأوساط الإقليميّة والدوليّة، لوجدناه قد نشأ في أوروبّا بعد انطواء القرون الوسطى، ودخول عصر الازدهار والتقدّم.

أمّا في إيران، فلقد ظهرت أثناء انتشار الثقافة الغربيّة واجتياحها لبلاد الشرق، وتهافَتَ بها المتأثّرون بالحضارة الغربيّة، وشجّعوا على التمسّك بها، وفضّلوها على التراث والحضارة الشرقيّة، أمثال: الميرزا عليّ آخوند زاده (1227 - 1295هـ) والميرزا آغا خان الكرمانيّ (1270 - 1314هـ)، وراح بعضهم يصرّح علنًا بعدم وجود أيّة علاقة بين القوميّة والعقيدة الدينيّة، مستندًا إلى بعض التعارض والازدواجيّة الحاصلة في اللغة والثقافة والدين والعنصريّة قبل دخول الإسلام إلى إيران وبعده. والواقع أنّ أمثال هؤلاء

كانوا على وعي كامل للقوميّة ومفهومها، لكنّهم سخّروها لمنافعهم ومصالحهم، بل جعلوها جسرًا عَبَرَ عليه الاستعمار إلى البلاد، وروّج ثقافته وأفكاره، فمثلًا، آخوند زاده والكرمانيّ كانا مُسلمَين اسمًا، بينما لا نشمّ منهما أيّة رائحة للإسلام، بل كانا مجرَّدَين من أيّة عقيدة وديانة إطلاقًا، حيث كانا يتمنّيان إعادة تلك الأيّام المزهرة السابقة، متظاهرَين بالقوميّة والوطنيّة، وأظهرا من الحقد والتحامل على الدين والإسلام، حتّى راحا يُروِّجان لإحياء السنن والتقاليد الزردشتيّة وأكثر... فلقد تعرّضا لشخصيّة الرسول ﷺ بالإهانة، وعمِلا على النيل منه، ودعيا إلى محو الإسلام وتعاليمه من البلد، وسلب جميع الاختيارات والصلاحيّات من علماء الدين.

وظهر هذا اللون من الانحراف الفكريّ في عهد الدستور، ولكن تعدّدَت ألوانه وأقسامه عندها، فظهرَت قوميّة متشدّدة، وقوميّة معتدلة، وقوميّة حكوميّة تُعَدّ إحدى الركيزتَين لعقيدة رضا خان.

*** القوميّون المتشدّدون**

هم الواقفون على مبادئ مؤسّسي القوميّة الإيرانيّة الحضاريّة، وهذا جليّ وواضحٌ أنّهم متمسّكون بقوميّة تتشابه مع مثيلتها الأوروبّيّة؛ لأنّها تأثّرت بالثقافة الأوروبّيّة وحضارتها التي ترسّخت على مدى أجيال في عقول القوميّين الإيرانيّين في العهود البائدة، ويؤكّدون على تشدّدهم في أفكارهم القوميّة هذه، مدلّلين بأنّها فكرة تعيد أمجاد إيران القديمة في العهد الكسرويّ والقيصريّ، ويرون بأنّ الإسلام هو الذي جعل إيران متخلّفةً ورجعيّةً بعيدةً عن التطوّرات والتقدّم العلميّ، وكان همّهم الوحيد هو إزالة هذه العقبة بأيّ ثمن، ويعتقدون أيضًا بعدم تأثير الإصلاحات البرلمانيّة والقضائيّة على إصلاح الوضع الدائر، واتّخذوا من الدين والإسلام ألعوبةً يسخرون منها، وانضمّ إليهم كثيرٌ من المتطرّفين وأيّدوهم، وكذلك عدد من الجماعات وبعض القطاعات، كالصحفيّين والشعراء السياسيّين والكتّاب والموظّفين المتغرّبين والضبّاط ورؤوساء الجيش -الذين تكلّمنا عنهم سابقًا- و... الذين لم يُلَمّ شعثهم ولا لمرّة واحدة في أيّ

مجال من المجالات، إلّا في مجالٍ واحدٍ، وهو وقوفهم أمام الإسلام والدين الحنيف.

وتصاعد نشاط الكتّاب والشعراء في هذا الجناح، بطبع كتبٍ وصحفٍ ومقالات تبجّل الماضي الأسود، ونَشْرِها، وسعوا لإعادة أمجاد الماضين من الهخامنشيّين والساسانيّين، وكانوا يعبّرون عن مدى بهجتهم بالانتصارات التي تحقّقت في الماضي البعيد، متّهِمين الإسلام والعرب بالخرافات التي حطّمت الحضارة الإيرانيّة ومسختها وصرفتها عن مسارها الأصيل.

*** القوميّون المعتدلون**

وهم جناحٌ نتج جرّاء انتفاضة الدستور. كانوا يطالبون بالحرّيّة الفرديّة والعدالة القضائيّة وتوزيع القدرات السياسيّة بالتساوي، ويرون أنّ الدين الذي له ركائزه وجذوره المتأصّلة في العادات والتقاليد، ليس هو الأداة الفاعلة الأساسيّة لحلّ الأوضاع المتدهورة، وفي الوقت ذاته، يشاركون النظام الإسلاميّ في بعض الأفكار والمناهج، وإن كانوا بعيدين عن هذا المستوى.

واتّصف هؤلاء بالجمع بين الحضارة الإيرانيّة والحضارة الغربيّة وثقافتها، فهم من كبار عوائل الأعيان والأكابر، الذين قضوا شطرًا من حياتهم في الغرب من أجل الدراسة وكسب المعرفة، وهم من المتشدّدين في مجال الحرّيّة السياسيّة والفرديّة، ويطالبون بوضعٍ برلمانيٍّ حرّ، ويؤكّدون على قدراتهم الداخليّة وتنميتها بعيدًا عن الانحياز والاتّكال على الدول الكبرى والغرب بصفة عامّة. لكن لم نشهد لهذا الجناح شيئًا من الشجاعة والبسالة والجرأة أمام ما يعتريهم من تهديدات وتنديدات داخليّة ودوليّة، فكانوا يلجؤون إلى الصمت أحيانًا، وأحيانًا أخرى إلى الاستقالات حفاظًا على سمعتهم، تاركين البلد يخوض في بحرٍ من الفتن والفوضى. وكانوا يُبدون نوعًا من المرونة تجاه رضا خان، ويحاذونه ويتماشون معه بحذر وهدوء، وهذا دَيدن كلّ من لم تختلط حياته بالدماء التي سطّرها الشهداء لتحرير بلادهم ونصرة حقّهم المشروع.

وكما أشرنا سابقًا إلى انقلاب رضا خان وما بعده، فقد راح الكثير من القوميّين

المتشدّدين يسعى لدعم رضا خان، ويعمل على ترسيخ أقدام حكومته، كالشعراء والصحفيّين والوكلاء والعسكريّين، ظانّين أنّه وطنيٌّ وقوميٌّ على أقلّ التقديرات، وأنّه سوف يحقّق شيئًا من طموحاتهم وأهدافهم. أمّا القوميّون المعتدلون -وخلافًا لما قام به الشهيد حسن المدرّس من معارضة عارمة ضدّ رضا خان- فأخذوا يسايرون رضا خان، ويشاورونه في بعض الأمور، وانطبعت في أذهانهم نظرةً إيجابيّة عنه. ولكن، ما إن أدركوا أهداف رضا خان، ومطامعه بالسلطة والهيمنة، وعدم مبالاته واكتراثه بمعارضات المعارِضين وتربّصه بهم، حتّى أخذوا موضع الحياد منه، عدا الدكتور مصدّق، الذي أخذ الليبراليّون والقوميّون بتأييده والانضمام إليه شيئًا فشيئًا، بينما سلك بعضٌ آخر مسلك الصمت والاستقلاليّة، وانضمّ إلى مجالات ثقافيّة. ومع هذا الحياد والابتعاد والانطواء، استفاد رضا خان أكثر، وسيّر أموره بهدوء وطمأنينة، وعمل على ترسيخ سلوكه وعقيدته التي سوف نتطرّق إليها فيما بعد، إن شاء الله.

*** القوميّة الحكوميّة**

سعى القوميّون المتشدّدون إلى أن يوفّقوا بين قوميّتهم وقدرة رضا خان وسلطته. ومنذ الأيّام الأولى التي استقوى بها رضا خان، وحتّى استلامه زمام الأمور، كان القوميّون المتشدّدون يبجّلونه ويحترمونه ويقارنونه بالملوك والسلاطنة والأباطرة الماضين -كداريوش وكوروش- مدّعين بأنّ سلطة رضا خان هي كإمبراطوريّة إيران المجيدة في العهود السابقة.

وأُفصِح عن هذا بوضوح وبجلاء، عندما ألقى «فروغي» خطابه أثناء مراسم تتويج الملك، وأكّد في خطابه على أنّ رضا خان «هو السلطان العظيم الإيرانيّ الأصيل»، وهو «وارث التاج والعرش والكيان»، ومُنجي إيران من التقاليد والسنن الرجعيّة. والجدير بالذكر أنّ فروغي هو الذي اقترح لقب «بهلويّ» لرضا خان، وحُصِرَ هذا اللقب عليه شخصيًّا، ولم يجعله يسري على بقيّة أفراد العائلة.

وبالغَت سياسة هذه القوميّة في إحياء تقاليد العصر الكسرويّ ودحض سنن الإسلام

وثقافته؛ وتصاعدَت الحفلات والمجالس العامّة بالمناسبات الدنيئة من العصور الجاهليّة الزردشتيّة، وأحيَت سنن زردشت وعقائده علنًا، وغُيّرَت أسماء الأشهُر الإسلاميّة في مراسلاتهم وكتبهم الرسميّة، إلى أسماء لم يُعهَد بها إلّا بالماضي البعيد الأسود، وأصبح اسم رضا خان على أطراف الألسن وحديث الناس والساحة، فهو اسم الشارع والمدرسة والساحة والمعهد، وعلى جميع المراكز الحكوميّة والشخصيّة، ورُوِّجَت الأسماء الإيرانيّة القديمة، وأثّرَت في الناس وفي ثقافتهم بوساطة الدعايات والإعلام، فراح الناس يطلقون أسماء غريبة وعجيبة على أبنائهم، ممّا لها جذور زردشتيّة وكسرويّة، وشجّعوا على إنشاء الأبنية والعمارات على طرازٍ هندسيٍّ وفنّيٍّ قديم، يرجع أصله إلى عهد الساسانيّين، كبناء المتحف الوطنيّ للتحف القديمة الإيرانيّة، وكبناء مديريّة الشرطة، والبنك الوطنيّ، والمحكمة العليا، و... وبالطبع، كان هذا يكلّف وقتًا وجهدًا كبيرَين، ومبالغ طائلة من حيث الدراسة المعماريّة القديمة ونقلها إلى الواقع المعاصر، وكانت تهون جميع هذه الصعاب مقابل دحض الدين وتراثه الأصيل، وتركه عرضة للدمار والانهيار.

وقام رضا خان بخطوة أخرى نحو دعم قوميّته؛ تلك هي دراسة اللغة الفارسيّة وتطهيرها من المصطلحت والكلمات الأجنبيّة، بل بالأحرى العربيّة، وأحلّ محلّها كلمات ومصطلحات إيرانيّة أصيلة على النسق القديم، وفرض استعمالها لدى الدوائر الرسميّة والمنظّمات والمعسكرات والجيش و... وبلغ غلوّهم وتطرّفهم في هذا المجال إلى حدٍّ بحيث أصبحوا ينشئون ويصوغون كلمات بحسب أهوائهم عند عدم عثورهم على البديل من الكلمات والمصطلحات القديمة، ويُصدرون مراسيم حكوميّة يفرضون تداولها واستعمالها في الصحف والكتب الرسميّة لدى الدوائر الحكوميّة.

وبلغت المسألة درجةً كانت تُعرقَلُ معها المعاملات والمراجعات في الدوائر الرسميّة والحكوميّة بسبب عدم فهم نصوص الكتب والبلاغات واستيعابها؛ لأنّ كلّ كتاب ومرسوم له لهجته وأسلوبه الخاصّ المتعلّق بالمديريّة الدائرة الصادرة عنه. وأثار

هذا النسق والنهج في اللغة حفيظةَ الرأي العامّ، وبالأخصّ قطاع المثقّفين والمفكّرين المرموقين؛ وعلى أثره، أمر رضا خان عام 1936م بتشكيل لجنة خاصّة باللغة لعلاج هذه المعضلة، لحذف الأسماء العربيّة، لتحلّ محلّها الأسماء الفارسيّة الأصيلة، وعندما لا يتمّ التوصّل إلى المصطلح المطلوب، تقوم اللجنة باختيار مصطلح مقابل للكلمة المحذوفة بالإجماع ليخرج إلى حيّز التنفيذ رسميًّا. وعلى الرغم من إجادة تنفيذ هذا الأمر في بدئه، إلّا أنّه للسرعة التي حصلَت، ولمشقّة اقتناء الكلمة المناسبة -التي قلّما اتُّفِق عليها بالإجماع- حدثَت بعض المشاكل والعراقيل، وثارت ضجّة كبيرة لدى الأوساط المختلفة، معترضةً على حذف الأسماء والكلمات العربيّة والإسلاميّة، وتبديل ما كان ساريًا في الماضي البعيد بها. ومن تبعات هذا القرار، اختلال نظام التربية والتعليم، واضطراب المناهج المدرسيّة. فمن جهة، احتار المدرِّس في كيفيّة إلقاء المحاضرة التي اعتاد على تدريسها سنوات مديدة، ومن جهة، وقع الطالب والتلميذ فريسةً لمصطلحات وكلمات لم تطرق ذهنه من قبل؛ ما أدّى إلى تراجع مستوى النجاح والتقدّم للطلبة بشكل عامّ، والذي أثار اعتراض أوليائهم وشكواهم لدى المدارس والمعاهد وغيرها من مراكز التعليم، ودخلت هذه الكلمات والمصطلحات في قاموس أصحاب المقاهي الفكاهيّ، رمزًا للهزل والمزاح والسخريّة بين أوساط العامّة من الشعب.

هذه النعرة العنصريّة إنّما تفاعلت من قِبَل القوميّين، لسبب وجود مؤهّلات وأرضيّة مناسبة وسليمة لها، ودخلوا من خلالها؛ فأثر الشاعر الكبير الفردوسيّ، المعروف بـ«شاهنامه»، راح ضحيّةً لأهداف أولئك القوميّين الخونة، وكلّما مرّ اسم هذا الشاعر أو ديوانه، كانوا يثنون عليه أشدّ الثناء، ويكنّون له الاحترام والوقار، ويعتبرون «الشاعر» مُنجي اللغة الفارسيّة وحاميها، والمدافع الصلب عن القوميّة الإيرانيّة وعن دين المجوسيّة أمام لغة العرب والاجتياح الإسلاميّ. وتصاعدَت الإشادة بالشاهنامه، من قِبَل الصحف والمناشير وكلمات المفكّرين وخطبهم، على أنّها هي هويّة الشعب الإيرانيّ وهويّة الإمبراطوريّة الإيرانيّة العريقة، وقرنوا خدمات كوروش ومنجزاته بخدمات الشاعر فردوسيّ ومنجزاته تجاه الوطن وتراثه وحضارته؛ وبهذا

الشعار، شيّدوا مقبرته على نسق مقبرة كوروش. وفي عام 1935م، أُقِيمَ مؤتمر دوليّ في مدينة مشهد تحت شعار الاعتزاز والاحتفاظ بالتراث الإيرانيّ الأصيل، وحضره عدد من المثقّفين والباحثين من داخل البلاد وخارجها، واستهلّ المؤتمر كلمته الافتتاحيّة بخطاب رضا خان، الذي حضر لتفقّد البناء الجديد وافتتاح المؤتمر. والمضحك المبكي في المؤتمر، هو ما تضمّنته كلمات بعض المشاركين وخطبهم من أهازيج وتلويحاتٍ سامّةٍ مدمّرة؛ فادّعى أحدُهم أنّ الإيرانيّين هم حملة الإسلام الحقيقيّ إلى القارّة الهنديّة، وأنّ اللغة الفارسيّة في الواقع هي لغة الإسلام، ومن ثمّ فإنّ الإنسان المسلم هو الإنسان الفارسيّ السائر على منهج الشاهنامه؛ لأنّه الأثر الإسلاميّ الخالد، وادّعى آخرون على لسان فردوسيّ بأنّ الساسانيّين هم من أتباع «يزدان»[1] وأنصاره، وأنّ أعداءهم العرب -المسلمين- هم أتباع «أهريمن» [2] وأنصاره، ومسألة انتصار العرب والمسلمين على إيران كان شيئًا مؤقّتًا وقَدَرًا مقدّرًا.

ونلفت نظر القارئ الكريم هنا إلى هذه المسألة بالذات، وهي أنّ ما ادّعاه هؤلاء الجلاوزة والمتآمرين على الإسلام والدين الإلهيّ مِن ادّعاءات وأقاويل نُسِبَت إلى الشاعر الكبير فردوسيّ، ولأثره الخالد «الشاهنامه»، هو كذب محض ودجل وافتراء، بل كان فردوسيّ أثناء شعره ونثره يحارب ويقارع الملكيّة والظلم والطغيان، حتّى إنّه كان يُطلق على مجموعته الأثريّة هذه اسم «لسان الضعفاء»، ونلمس هذا المعنى بوضوح عند قصيدته «يوسف وزليخا»، حيث يُلقي اللوم على نفسه لِما مدح به الملوك والقياصرة سابقًا.

وعلى العموم، توسّع نطاق الدعايات والترويج لهذه القوميّة المناوئة للإسلام بشكل غريب وفاضح، حتّى هيمن على أفكار الشباب والجامعيّين والكتّاب، وانجرفوا في بحر مدح القوميّة التي أرادها رضا خان، القوميّة التي تهدف إلى انتزاع الإيمان من قلوب الناس، ومسخ التراث الإسلاميّ، ومحو صورته من ذهن الشعب الإيرانيّ ومن التاريخ،

---

(1) يزدان: مبدأ الخير في مذهب زردشت.

(2) اهريمن: مبدأ الشّر في مذهب زردشت.

وزرع بذور العنصريّة والإلحاد مكانها، وأقاموا مجالس وحفلات فخمة وكبيرة في طهران لإحياء سنن الماضي وإعادة التراث الساسانيّ في العهد المظلم البائد، ويُبدون أسفهم لتعرُّض هذا التراث إلى هجوم المسلمين، حتّى وإنّ أحدهم، من إحساسه الأعمى، أجهش بالبكاء، وسحّت دموعه على نوائب الدهر! والإمام قدّس سرّه أشار، بدوره، إلى تلك الحفلات، قائلًا:

«... لقد سُبَّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في زمن ذلك اللّعين علنًا، وفي الصحف اليوميّة... عُقِدَت مجالس ومحافل انتُقِدَ فيها الإسلام، وتأسّفوا لانتصاره على الشرك (الساسانيّين)، وأخذ المتمدّنون يصبّون الدموع ويجرون الحسرات بسبب انتصار الإسلام على يزدجرد الثالث... أولئك شعراؤهم وكتّابهم كتبوا، وخطباؤهم خطبوا...».

لقد بلغت هذه القوميّة العنصريّة، في أواخر عهد رضا خان، حدًّا من التطرُّف، فوصلت إلى درجة أصبح من السهل مقارنتها بالنازيّة والفاشيّة الألمانيّة بقيادة هتلر من هذه الناحية؛ فرضا خان وهتلر يشتركان في هذه النقطة، ويتّفقان أشدّ الاتّفاق، فهما يريان الطريق الأوحد لوصولهما إلى مطامعهما -وبالتحديد السلطة والحكم- هو طريق العنف والقوّة العسكريّة. وقد نلحظ أنّ هناك من الإيرانيّين مَن شدَّد بالترويج والدعاية للنازيّة في أواخر عهد رضا خان، وأخذوا يعملون جادّين على ربط قوميّة رضا خان بنازيّة هتلر، وربط التراث والثقافة الإيرانيّة بالتراث والثقافة الألمانيّة؛ وعلى إثرها، راح الخبير القوميّ والسياسيّ الألمانيّ «روزنبرغ» يؤكّد أنّ شعب إيران هو شعبٌ خليط من قوميّات كثيرة ومختلفة، كذلك أخذت بعض الصحف الموالية للألمان تبثّ دعاياتها المتنوّعة في مجال القوميّة والعنصريّة وعلاقتها بالتراث الألمانيّ، قياسًا بين منجزات رضا خان وهتلر؛ فإذا كان هتلر قد فرض عنصريّة ألمانيّة دون أوروبّيّة، فإنّ رضا خان فرض عنصريّة وقوميّة على الجميع، وبالقوّة، مهما يكن انتماء الوطن الحقيقيّ؛ فما دام على أرض إيران، يجب أن يتحلّى بعنصريّة رضا خان، بقوميّته. ولإمامنا الراحل قدّس سرّه بحوث وآراء حول هذه القوميّة، تطرّق لها خلال خطبه وكلماته، وسوف نتعرّض لها بالتفصيل مستقبلًا، ونفرد لها بابًا خاصًّا، إن شاء الله.

2. التجدّد والتمدّن

يجد الباحث عن معنى هذا المصطلح في دوائر المعرفة للّغة، معنيَين: إيجابيّ وسلبيّ؛ فالإيجابيّ يُطلَق على التجدّد والتقدّم والازدهار ورفع المستوى العلميّ والثقافيّ ضمن المسيرة العلميّة المقدّسة، والسلبيّ يُطلق على التغريب وتقليد الغرب بثقافته وآدابه ورسومه التي لا تشترك مع ثقافتنا وتراثنا الإسلاميّ في شيء.

والواقع أنّ هذا المصطلح لم يرد في قاموس اللغة الفارسيّة، ولم يطرأ على أذهان الجماهير المسلمة قبل زمننا المعاصر هذا. ولا يتنافى هذا مع قِدَم الروابط والعلائق التجاريّة مع الغرب، والتي تعود إلى بضعة قرون، إلّا أنّه دخل البلاد تدريجيًّا، وعلى نطاق ضيّق، خلال القرنَين المنصرمَين.

فخلال هذين القرنَين، ومنذ أوائلهما، ونتيجةً للأجواء السياسيّة والعسكريّة الحاكمة، استطاع بعض الأكابر والأشراف أن يعبروا الحدود إلى الغرب، وبمرور الزمن، توسّعَت حركة النقل والسفر، واطّلع الإنسان الشرقيّ على الإنسان الغربيّ، وتعرّف على ثقافته الغربيّة، وتصاعد هذا الأمر عندما عزم بعضهم على الإقامة في تلك البلاد لتحصيل العلوم وكسب المعرفة؛ وبهذا، تفاعَلَ التبادل الثقافيّ في جميع المجالات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والدينيّة، ممّا أثّر في الشرقيّين تدريجًا ولا إراديًّا، مضافًا إلى التبادل الثقافيّ في مجال الصحافة ونشر الكتب الغربيّة في الشرق.

هذا الانفتاح والتطلُّع إلى العالم الغربيّ، أفرز نتيجة واحدة لا غير لدى الإنسان الشرقيّ، وهي «قياس الشرق بالغرب». وما ابتُلِيَت به إيران خلال القرنَين المنصرمَين، إنّما هو نتيجة هذه الفكرة الخاطئة التي خيّمَت على المثقّفين والمفكّرين والسياسيّين الإيرانيّين. ومن هنا، ينتج سؤالٌ طرح نفسَه أمام هذه الثلّة والشريحة، عن التدابير والخطط التي وضعتها الحكومة لأجل رفع المستوى العلميّ والثقافيّ للمجتمع، وما هي القدرة النموذجيّة التي يجب أن يتحلّى بها المجتمع ويقتدي بها على الصعيدَين الفرديّ والاجتماعيّ، وكذلك السياسيّ؟

وانقسم المجيبون عن هذا التساؤل إلى مجموعات ثلاث: ففرقة تعتمد أنّ الغربيّين يمتلكون قدرات علميّة وتقنيّة عليا لرفع المستوى الاجتماعيّ وإخراجه من الجهل والظلم والرجعيّة؛ فهدفهم هو إيصال البشريّة إلى السعادة والفلاح. بناءً على هذا، فطريق الخلاص والنجاة من التخلّف والانحطاط هو رفع جميع الموانع والعقبات الاقتصاديّة، والسياسيّة، والاجتماعيّة، وحتّى العقائديّة، وفتح أبواب البلاد أمام الغرب، وجعله المثال والقدوة.

أمّا الفرقة الثانية، فتعتقد العكس تمامًا، فهي تطالب بالمحافظة على التقاليد والرسوم والآداب والسنن التي خلّفها السلف، وتدعو إلى إحيائها والالتزام بالثقافة والتراث الفارسيّ الأصيل.

في حين أنّ الفرقة الثالثة أيّدت رأيًا آخر متميّزًا. فنظرًا لسوء نوايا الاستعمار والغرب للتوصّل إلى أهدافهم الهدّامة، كانت ترى هذا اللون من الانفتاح عليهم خطرًا ومدمّرًا لعقائد الناس وثقافتهم الإسلاميّة، وخطرًا كبيرًا على استقلال البلاد على الصعيد السياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ. لكنّ أصحاب هذه النظريّة والرأي قدّموا اقتراحًا معتدلًا لرفع المستوى العلميّ والثقافيّ للبلد، ينصّ على عدم الانغلاق، والخروج من الماضي المتزمّت، وفي الوقت نفسه، الانفتاح على الغرب من الجانب العلميّ والتقنيّ، دون الانجراف في ثقافته المنحرفة، وأكّدوا أنّ الدين لا يتنافى مع التطوّر العلميّ والمهنيّ، بل يؤكّد عليه ويحثّ على الالتزام به، لكنّه يحارب الاستعمار والاجتياح الإلحاديّ.

ولكن بعد مرور الزمن، تحلّلَت الفرقة الثانية من هذا السيل الجارف، ولم تستطع الصمود أمامه، وتسارع نجم الفرقة الأولى إلى الأفول حينما واجهَت معارضة عامّة من الجماهير تجاه معتقداتها ونظراتها، ولِما يخالف معتقدات الأمّة الإسلاميّة ومقدّساتها، بينما انتصرت الفرقة الثالثة، وحظيَت بالتأييد العامّ من الجماهير المسلمة، التي ترى قيادتها الواعية المتشكّلة من العلماء المجاهدين المصلحين والمرشدين والسياسيّين، الذين تجب طاعتهم والأخذ بنهجهم، نظرًا لما يملكونه من وعي واعتقاد وتمسّك

بدينهم الحنيف؛ وبهذا استطاعوا أن يشعلوا فتيل الثورة ضدّ حكومة الدستور المستبدّة. لكن كما ذكرنا آنفًا، وبما أشار إليه الإمام قدس سره أثناء خطاباته ملمّحًا إلى التقصير الذي حصل من أولئك العلماء المجاهدين تجاه نجاح الثورة الإسلاميّة بالكامل، فلقد جاهدوا وعملوا وأنتجوا وانتصروا، لكنّهم تركوا الساحة السياسيّة بعد ذلك كلّه؛ وإنّ وجود شخص أو شخصَين من هؤلاء بين أولئك الخونة، لا يمكن أن يحقّق شيئًا مقابل تلك الأمواج من الفتن ودعايات المستبدّين المتآمرين؛ وبهذا أخرجوهم من الساحة بالتهديدات والاعتقالات والاغتيالات، وخلَت الساحة لهم، وضاعت فرصة كبرى لتحقيق أهداف الإسلام والدين المبين، وانتهزها الطامعون والمتغرّبون الخونة؛ كي يصلوا إلى أهدافهم ومآربهم.

وبدأت المأساة من جديد، فانظر إلى المتسلّطين الجدد، فهم من جهة أناس بعيدون كلّ البُعد عن أجواء الشعب الدينيّة والثقافيّة، ولا يملكون أيّة معرفة تامّة عنه سوى نظرات سطحيّة وقشريّة، ومن جهة أخرى ولوعهم وشغفهم وسوء تدبّرهم وفهمهم للثقافة الغربيّة، قد طبع في أذهانهم الطابع السطحيّ فقط، وابتعدوا عن العوامل الإيجابيّة لرقيّ المجتمعات، بما فيها المجتمع الغربيّ. ومن هنا، ارتأوا بأنّ أفضل طريق للوصول إلى التمدّن والحضارة المثاليّة هو الانفتاح على الغرب، ونقل منتجاته الصناعيّة إلى الوطن، وتعويد الشعب عليها وعلى كيفيّة استخدامها على النمط الأوروبيّ الحضاريّ، نظرًا لثقافتهم وآدابهم وتقاليدهم، ومنها ننتقل إلى مستوى أعلى، وهو نقل التكنولوجيا، ورفع المستوى العلميّ والتقنيّ للبلاد، وإخراجها من الماضي المظلم إلى عصرٍ جديدٍ مزدهر.

إنّ فكرة التجدّد والتمدّن، إذًا، قامت هنا على ركائز ثلاث:

أوّلًا: طيّ العادات والآداب والرسوم والتقاليد الإيرانيّة الوطنيّة والإسلاميّة، والضرب بها عرض الحائط، على أنّها عامل التخلّف والرجعيّة.

ثانيًا: شدّة تأثّرهم وشغفهم بالحضارة الغربيّة، بما فيها من تقاليد وآداب وسنن.

ثالثًا: العمل على بثّ هذه التقاليد والآداب والسنن وتطبيقها في البلاد.

وبطبيعة الحال، واجهت هذه الأفكار ردّ فعل عنيف من الجماهير المسلمة؛ فمن الصعب أن تنفصل أمّة بكاملها عن عقائدها وآدابها وسننها -التي تربَّت عليها منذ قرون وعقود مديدة من الزمن- بين عشيّة وضحاها، وتتّجه إلى عادات وطقوس لم تشهدها أو تسمع بها. صحيحٌ أنّ البلاد كانت، لفترات طويلة، تحت سيطرة هؤلاء من عهد حكومة الدستور، إلّا أنّ نظريّاتهم وأفكارهم وتقاليدهم لم تؤثّر إلّا على أشخاص عدّة، وبشكل صوريّ؛ وبدورهم، لم يكن من الممكن أن يشكّلوا شيئًا مقابل عقيدة الشعب وتقاليده. من هنا، نَبعَت الحاجة إلى حكومة قويّة شرسة، تفرض ما تريد من أفكار ومعتقدات إلحاديّة ومادّيّة بالقوّة وحدّ السيف. وفسحَت حكومة رضا خان المجال لدعاة التجدّد والتمدّن، فأخذوا يبثّون أفكارهم السامّة بقوّته وبطشه.

وقد أشار الإمام قدس سره إلى تلك الوجوه التي تقنّعت بقناع رضا خان، قائلًا:

«**هو من المستبعد، ومن المستحيل، أن تكون خططٌ كهذه صادرةً عن فكر وعبقريّة رضا خان الذي عُرف بعقله المتحجّر. ولهذا، فهي بالتأكيد مخطّطة ومرسومة من أفراد آخرين...**».

فالتقدّميّة والتمدّن، الذي كان يهدف إليه نصرة الدولة وداور وفروغي وتيمور تاش، والذين كان بعضهم مشهورًا بالفساد والانحراف الخُلُقيّ، لم يكن إلّا بعض المظاهر المعدودة المغرية الخدّاعة في الآداب والعادات والسنن التي ابتدعوها وفرضوها على الشعب بالقسوة والسيف. فحركتهم هذه، المدعوّة بالحركة الإصلاحيّة، علاوة على تهديمها للثقافة والاقتصاد وإذلال الشعب، حقّقَت هدفًا آخر، وهو دعم الحفلات والمجالس التي أيّدت ورسّخت زمام سلطة رضا خان الديكتاتوريّة، وتأييدها.

تتمحور الحركة الإصلاحيّة في مجالات عدّة، فمنها:

* **البيروقراطيّة - الإصلاح الإداريّ**

كان الوضع الإداريّ والاقتصاديّ والعسكريّ متدهورًا جدًّا، وكانت البلاد بحاجة

ماسّة إلى نظام قويّ ومستقرّ، وهذا ما كان يدور برأس رضا خان منذ وصوله سدّة الحكم. ولقد كان هذا الرجل بدوره ضعيفًا، يحتاج إلى نظام متكامل وصارم، حيث إنّ مثل هذا النظام يتماشى مع بعض أهداف القوميّين المتشدّدين؛ تلك الأهداف التي تنصّ على إحياء الإمبراطوريّة بوجه حضاريّ، وتعمل على إعادة شعارات الساسانيّين إلى العصر الحاضر. والملاحَظ أنّ هذه الخطّة قد تنامَت وامتدَّت إلى نطاق واسع بعد أن خضعَت لسيطرة رجالات رضا خان؛ ومن خلال هؤلاء، استطاع أن يفرض إرادته ورغباته. وقد عمل على دعم أعوانه في المحافظات، حيث كانوا يتلقّون الأوامر والتعليمات من العسكريّين وكبار القادة. وعلى الرغم من أنّنا كنّا نرى الإصلاحات الإداريّة، وبخاصّة في مجال الخدمات والقضاء والماليّة و...، إلّا أنّها لم تكن ذات مردود مفيد للشعب أو للمحرومين، حتّى إنّ بعض المسؤولين ورجال الدولة أعلن بصراحة متناهية: إنّ هذه الإصلاحت يجب أن تخدم الحكومة ورجالات البلاط والمقرَّبين والقادة العسكريّين ورؤوساء الدوائر، قبل أن تعود بالفائدة على الشعب. وتصاعدَت حملة رضا خان الاختلاسيّة، فشهدَت إيران وضعًا إقطاعيًّا من قِبَل رضا خان وأعوانه.

فعلى سبيل المثال، نشاهد أنّ مَهمّة دائرة سجلّات الأملاك والعقارات، وفي النصف الثاني من عهد رضا خان بالذات، هي اغتصابٌ للأراضي الخصبة والعقارات المتميّزة المرغوبة، من أصحابها الشرعيّين، والعمل على ضمّها إلى أملاك رضا خان الخاصّة ظلمًا وعدوانًا، وبخاصّة أراضي المناطق الشماليّة ذات المردود الجيّد. وكانت تتمّ هذه العمليّات بالتهديد والقسر أحيانًا، أو عن طريق شرائها بثمن بخس أحيانًا أخرى. أمّا القوّة القضائيّة والمحكمة العليا والقوانين، فكانت كلّها لصالح الحكومة وأعوانها وأتباعها، فلا تُطبَّق القوانين والأحكام إلّا على المحرومين والضعفاء، الذين راحوا يتعرّضون لشتّى أنواع الاضطهاد والإذلال.

ومن المؤسف أن نرى نتائج الإصلاحات، في هذا المجال، تبرز في ميدان توظيف الطاقات الفنّيّة في الدوائر الحكوميّة بشكل مذهل؛ فخرّيجو الجامعات والثانويّات

يُوَظَّفون في الدوائر الرسميّة، بدل أن يُوَظَّفوا في مجالات الصناعة والإنتاج، وكان هؤلاء الموظّفون يزدادون يومًا بعد يوم، وتُسنَد إليهم مهمّات شكليّة، وتُطلَق على وظائفهم تسميات متنوّعة؛ ونتيجة لهذه التعدّديّة في الوظائف، والكثرة الكاثرة، أخذَت حركة إجراء المعاملات تسير ببطء أحيانًا، وتؤول إلى التوقّف أحيانًا أخرى؛ وممّا ساعد على ذلك، روح اللامبالاة التي سيطرت على الموظّفين، الذين كثروا بشكل غير معقول، وساندَتهم الحكومة، وأرخت لهم العنان، كما وقفَت إلى جانب مؤيّديها وأتباعها وساندتهم، وأغدقَت عليهم النِعَم، وأجرت لهم العطاء؛ وقد دعا مثل هذا الوضع إلى اعتراض عدد من كبار السياسيّين والمفكّرين. ولا يفوتنا أن نذكر أنّ الكثير من الأموال كانت تتدفّق على الدوائر والموظّفين لإنفاقها على الاحتفالات والأعياد، ولتزيين الدوائر وإضاءتها، بدلًا من أن تُصرف في خدمة الشعب، ولم تعد الدوائر الرسميّة تنجز أيّة معاملة إلّا ما كان لبعض الأفراد المتميّزين والمتنفّذين وذوي المعارف الشخصيّة، أو ما كان يخصُّ دوائر الدولة الأخرى. وقد أطلق الإمام الراحل قدس سره عليهم لقب «عبّاد الشهوات والمناصب»، وكان ينتقدهم بسبب عدم اهتمامهم بأماناتهم الوظيفيّة، وعرقلة معاملات الناس، فيقول:

«جديرٌ بكم أن تلاحظوا وتدرسوا الوضع القائم في البلاد. فانظروا، أوّلًا، إلى وضع البلاط المؤسف، ثمّ انتقلوا إلى الوزارات، وإلى رجالات الدولة فردًا فردًا، ومن بعد ذلك إلى الجيش والقوّات العسكريّة وقياداتهم، ثمّ انزلوا درجة، وشاهدوا رؤوساء الدوائر وسائر الموظّفين والجيش في جميع المدن، ثمّ إلى أعضاء البرلمان الوطنيّ، وأعضاء الهيئة التشريعيّة، وانظروا من هم أقلّ شأنًا منهم، مِن أولئك الذين يحرسون الأزقّة والشوارع، أو مَن هم أكبر منهم شأنًا، إلى آخر ما ترون، فإنّكم لا تشاهدون إلّا وضعًا مأساويًّا قائمًا على التخيّلات والأباطيل والمظاهر الزائفة والشهوات والرغبات، لا ترون إلّا الجنايات والخيانة! انظروا، وشاهدوا، واعقلوا! أين تذهب ميزانيّة هذه الحكومة؟ أين تُنفَق؟ وأين تأتي؟».

وفي مجال آخر، انتقد قدس سره وضع الدوائر لِما تبذّره وتسرفه لأجل الزينة والإنارة المفرطة وغيرها، في الوقت الذي يعاني فيه المحرومون من أبسط حقوقهم الإنسانيّة ما يعانون، قائلًا:

«... اليوم، ناهيك عن ثقافة البلد وما آلت إليه... وما يُنفَق هنا وهناك، تعال وانظر إلى الفساد الإداريّ... انظر إلى الفجائع المتعاظمة، والجرائم المتلاحقة... انظروا، على سبيل المثال، إلى وزارة الصحّة، وإلى ممارساتها؛ ماذا قدّمت للمحرومين والمرضى والمستضعفين؟ لقد كرّسَت نشاطاتها ومساعيها كلّها لصالح المظاهر والكماليّات... إنّك لا ترى إلّا أنواع الأبنية الشاهقة والعمارات الفخمة، ومعظم المصاريف والنفقات لزراعة الورود فيها وتنسيق حدائقها، في الوقت الذي يلوذ فيه المرضى بالمساجد والأزقّة، وهم يئنّون من وطأة المرض، وعدم توفّر العلاج، والإهمال. إنّ هذه الوزارة تهدر سنويًّا الملايين لقضايا واهية، والكلّ يعلم ذلك، بما فيهم الكتّاب والصحفيّين، فلا يتكلّم أيّ شخص! ولا يتنفّس أحد... لا لشيء، بل لأنّهم من هذه البطانة ذاتها. وإذا وُجِد من بينهم شخصٌ متحمّس أو معارض... فالويل، كلّ الويل، له إذا نطق بشيء، أو أعرب عن معارضته لشيء من هذا القبيل!».

وعلى الرغم من تصريحات الإمام قدس سره هذه، وتنديداته، وانتقاداته للموظّفين والمؤيّدين في زمن رضا خان، فإنّه وبالوقت نفسه، مدح وأثنى على الصلحاء والشرفاء بتلك المرحلة وما بعدها، قائلًا:

«... نحن نمدح ونقدّر موظّفي الحكومة في الدوائر، والذين يعملون بإخلاص متناهٍ لوطنهم ولشعبهم، والذين يؤدّون دورهم الخالد من خلال وظائفهم الرسميّة، نشكرهم ونقدّرهم؛ لأنّهم قاموا بواجبهم الشرعيّ خير قيام، وتقيّدوا به، وهم أناس مؤمنون حقًّا؛ ففي ذلك الزمن الديكتاتوريّ، كانت هناك ثلّة مؤمنة من الموظّفين وأصحاب الأعمال في الحكومة، وكنّا نعتقد ونؤمن بوجوب وجودهم ضمن ذلك النظام، وكنت أعتقد بأنّ خروج هؤلاء من وظائفهم، أو تركهم لها، هو عمل منافٍ

لواجبهم الدينيّ والشرعيّ، وعلى كلّ شخص يحظى بأيّ واحد من أولئك، عليه أن يقرّبه منّا، ونحن نستقبله بصدر رحب، ووجه باسم، وبشكل أخويّ، بل وباعتزاز...».

*** إصلاح الوضع الاقتصاديّ والاجتماعيّ**

إنّ أهمّ ما قام به نظام رضا خان هو الدعاية المكثّفة لمنجزاته التي قدّمها بعهده، كإيجاد الطرق العريضة مثلًا، وتنظيم الشوارع الرئيسة وتوسيعها، وإنشاء الحدائق ودُور السينما في طهران وسائر المدن الكبرى، وفتح الثانويّات والمستوصفات والمستشفيات، والاهتمام بالمواصلات وبعض مستلزمات الحياة المدنيّة وغيرها، إلّا أنّ الخطط لتنفيذ هذه المنشآت والمشاريع كانت ناقصة وسطحيّة، ولا يُراد بها إلّا الاسم والصورة فحسب. وفي الحقيقة، كانت المشاريع هدّامة أكثر من كونها بنّاءة؛ فنرى مثلًا أنّ فتح شارع معتدل كان يقتضي أن يمرّ بمناطق أثريّة تعود إلى مئات السنين، لها أهمّيّتها السياحيّة والتاريخيّة، لم يكونوا يعبؤون بذلك، بل كانوا يهدمون كلّ ما يقف أمامهم، حتّى إنّهم هدموا وخرّبوا أمكنة عريقة تضمّ آثارًا قديمة لها ارتباط وثيق بالتراث الإيرانيّ والإسلاميّ الأصيل. وهناك -على سبيل المثال لا الحصر- خطّة إنشاء السكك الحديديّة، التي تربط الغرب بالجنوب الغربيّ وطهران، ومن ثمّ شمال البلاد، تلك الخطّة جرى بحثها في البرلمان، فواجهَت خلافًا شديدًا ومعارضة، وبخاصّة من الدكتور مصدّق، إلّا أنّهم لم يكترثوا بذلك كلّه.

فيا عجبًا كيف يعدّون هذا الإنجاز من الإصلاحات؟! ولم تتوقّف المسألة عند هذا الحدّ، بل كانت تطال سائر المشاريع، مثل خطوط السكك الحديديّة، والمنشآت، والمعامل، وما يتعلّق بها من خطط فنّيّة وهندسيّة. يقول الخبراء الاقتصاديّون: إنّها كانت مشاريع مكلفة، وقياسًا لنتائجها، لا تحقّق أيّة فائدة مرجوّة، بل كثيرًا ما كانت تقود إلى الخسائر.

إنّ هذه الإنجازات كلّها، وإن كانت موضع فخر وإعجاب بالنسبة لرجال الدولة، حيث يعتبرونها من الإنجازات الهامّة والعظيمة لرضا خان، فإنّنا نرى هناك عددًا من

الشخصيّات الكبيرة في الحكومة تدرك مدى سطحيّة هذه المنجزات، فتنظر إليها على أنّها مشاريع صوريّة خدّاعة، وبعيدة كلّ البُعد عن النفع والفائدة الوطنيّة والشعبيّة؛ فيكتب أحدهم -وهو المدعوّ مخبر السلطنة هدايت-: ذات يوم، كنتُ إلى جانب رضا خان أُحدّثه، فقلت له: إنّ التقدّميّة والحضارة والتمدّن تنقسم إلى قسمَين: قسم مزيّف وقسم حقيقيّ؛ فالمزيّف ظاهريّ، وهو ما يراه الجاهل بالشوارع والعمرات والأبنية و... وأمّا الحقيقيّ، فهو ذلك الذي يشمل المخابر العلميّة والمصانع والجامعات والمكتبات... إلخ، وحسبتُ أنّه سوف ينتبه إلى ما أعنيه وأقصده، إلّا أنّه -حسب الظاهر- كان يرى ذلك من النوع الأوّل.

وحتّى المؤسّسات الكبيرة، كجامعة طهران، ومؤسّسة الثقافة والإعلام، وغيرها من المشاريع التي أُسِّسَت في ذلك الوقت، كانت من الإنجازات الشكليّة فقط، والهدف دعائيّ وإعلاميّ. وإنّ ما كان يرنو إليه رضا خان هو بناء القوّة العسكريّة، ولا يعرف أكثر من هذه الحدود ممّا ينفع البلاد ويخدم العباد. ولهذا نراه يخصّص لوزارة الدفاع نسبة 41 بالمئة من ميزانيّة الدولة بين الأعوام 1929 و1939م، في الوقت الذي كان فيه سهم وزارة الثقافة أقلّ من 7 بالمئة، ولوزارة الزراعة بحدود 2 بالمئة!

وللإمام الراحل قدس سره عبارات ساخرة يُحجِّم بها شخصيّة رضا خان، فيقول:

«... **إنّ رضا خان ومَن لفّ لفّه، لا يعرف أن يُحرِّر كلمة «روحانيّ»**[1]**، ويخلط بين حرف الحاء وحرف الهاء نظرًا لتشابههما باللفظ [باللغة الفارسيّة]... ذلك الشخص الذي قال: الجنديّ السارق عندي أفضل من جميع ثقافة إيران وعلمها... إنّه حقًّا لم يكن يعرف ما هو العلم، وما هي الثقافة؛ لأنّه لا يعرف معنىً للصلاح والفساد...**».

وإنّ أسوأ عمل قام به رضا خان، مدّعيًا أنّه من المقوّمات الأولى للخروج من الرجعيّة والتخلّف، هو مسألة تبديل الزيّ ونزع الحجاب، الذي فسح مجالًا واسعًا للفساد والانحطاط في المجتمع؛ ما أدى لارتفاع الصيحات والصرخات وانتشارها في جميع أرجاء الوطن.

(1) تعني بالفارسيّة عالِم الدين.

*** تغيير الزيّ**

إنّ الشعب الإيرانيّ، كسائر الشعوب والأقوام، يرتدي زيًّا يتناسب مع سننه وآدابه المرتبطة بمعتقداته: فالرجال مثلًا غالبًا ما يرتدون أنواع القبّعات، ولكلّ قوم وقبيلة شكلٌ خاصّ لهذه القبّعات. أمّا النساء، فيرتدين ثياب الحشمة الفضفاضة، تماشيًا مع العقيدة السائدة. وأمّا العلماء، فيرتدون العمامة والعباءة. وإنّ مسألة تبديل هيئة الألبسة التي اعتاد عليها الناس وشكلها، جاءت نتيجة اتّجاهٍ للأفكار الإصلاحيّة التي يحملها، بل ويطرحها رضا خان، من أدعياء التجدّد والتمدّن، الذين كانوا يرون الزيّ السائد مظهرًا من مظاهر الرجعيّة والتخلّف. لذا، يجب استبداله بالزيّ الأوروبيّ، الذي يُعَدّ في نظرهم مظهرًا من مظاهر الحضارة والتقدّم.

لقد كان الهدف الأساس من وراء هذه المسألة هو تغيير زيّ العلماء، وذلك بزعم شخصيّ من رجالات الدولة آنذاك، وعلى رأسهم مخبر السلطنة هدايت (رئيس الوزراء)، وصدر الأشراف (وزير العدليّة). وقبل سنتَين من صدور قرار عام 1929م بهذا الشأن، كانت هناك مقدّمات لهذا الغرض، مثل عدم احترام هذا الزيّ، والقيام بإبعاد الشخصيّات الدينيّة من الساحة، وعزلهم من مناصب القضاء في المحاكم.

وممّا كتبه صدر الأشراف في مذكّراته، قوله: «كان هناك بعض الرموز الذين يؤيّدون ويشجّعون رضا خان، ويشجّعونه على تغيير الزيّ واستبداله بالطراز الأوروبيّ، من أمثال تيمور تاش وداور ونصرت الدولة وغيرهم...».

وقبل صدور القرار، أمر رضا خان الوزراءَ والوكلاءَ ورؤوساءَ الدوائر والموظّفين، بارتداء زيّ موحّد، وهو عبارة عن بدلة -جاكيت وبنطال- وقبّعة على الطراز البهلويّ -من نوع القبّعات الفرنسيّة المستديرة التي يستعملها الجيش الفرنسيّ حاليًّا- والتي كان يرتديها هو بالذات. ثمّ بعد ذلك، أُمِرَت المدارس والثانويّات بارتداء زيّ موحّد، وارتداء قبّعة كقبّعة محمّد رضا بهلويّ.

ولا ننسى بأنّ هناك بعض الأفراد المتأثّرين بالغرب وثقافته، كانوا يرتدون الزيّ

الأوروبيّ ويظهرون بمظاهرهم، إلّا أنّهم، على قلّة عددهم، كانوا موضع السخريّة والاستهزاء من قِبَل المارّة. وبعد صدور هذه القوانين والقرارات بشأن الزيّ الموحّد لرجالات الحكومة والموظّفين والطلّاب، أصدر البرلمان مرسومًا تشريعيًّا عام 1929م -وذلك لإعطاء القرارات صبغة قانونيّة- يقضي بإجبار جميع الموظّفين بارتداء الزيّ الموحّد، وقد نصّ البند الأوّل على ارتداء الزيّ الموحّد من قِبَل أفراد الشعب كافّة، ابتداءً من العام الشمسيّ [1] الجديد، كما نصّ البند الثاني استثناءَ بعض العلماء، وقد شمل كلاًّ من: المجتهدين الذين يحملون الإجازات الاجتهاديّة من المراجع، ومفتيي أهل السنّة والجماعة الذين يحظون بتأييد من شخصَين من كبار أهل السنّة والجماعة، والذين لهم إجازة الفتوى، وأئمّة الجماعات، وأصحاب المحاريب، ومدرّسي الفقه والأصول والحكمة، ورجال الدين من الأقلّيّات الأخرى. أمّا العلماء الذين كانوا يؤدّون خدماتهم في القرى والأرياف، فيشملهم هذا الاستثناء بشرطَين: أوّلهما أن يكونوا من أصحاب إجازات بالرواية من عادلَين فقيهَين، وثانيهما أن يكونوا من المعفيّين من امتحانات وزارة الثقافة في دروس الفقه والأصول.

وعلى إثر هذا القانون، راح رجال الشرطة والحرس يتعرّضون لعلماء الدين وطلبة المعاهد والمدارس الدينيّة، ويهتكون حرمة الزيّ الإسلاميّ، وحرمة الصلحاء والفضلاء، بحجّة تطبيق القانون. إنّ هذه المؤامرة التي تحمل عنوان حركة إصلاح الحوزة وتمييز المتفوّقين من غيرهم.

وقد كان لهذه الحركة هدف آخر، هو تقليص عدد الطلبة، وضبط تحرّكاتهم، والهيمنة على الحوزة العلميّة؛ بغية تدميرها وإذلالها. وهذا ما أعلن عنه الإمام الراحل قدس سره في حينها، حيث أعرب عن سوء نوايا النظام الحاكم إزاء هذا القرار، وخالفه مخالفة صريحة، فأكّد في إحدى خطبه قائلًا:

(1) تبدأ السنة في 21 آذار من كلّ عام.

«... كثيرٌ من الناس يذكرون ما فعله رضا خان ضدّ العلماء باسم إصلاح الحوزة وتطويرها. لقد شكّلوا حلقات الامتحانات في المدرسة الفيضيّة وغيرها، وشاهدنا كيف راح أتباعهم يحضرون بجدّيّة تامّة للامتحانات. ومن المؤسف والمؤلم حقًّا، أنّ بعض رجالنا وعلمائنا قد خُدعوا بهذه الأقاويل والخطط والادّعاءات، وظنّوا أنّهم يريدون تمييز الطلبة المتفوّقين من المهملين، وأن يُبرزوا ويُحدّدوا الطالب اللائق الذي يجب أن يتحلّى بهذا الزيّ، حتّى إنّ بعضًا من كبارنا في قمّ راح ضحيّة هذه الادّعاءات، وهذا أمر ليس فيه بأس أن يفرزوا الجيّدين عن الكسولين، فليُعينوهم وليُبعدوهم عنّا! عندئذٍ، أجبته بالإيجاب، وقلت له: صحيح، إنّهم يعنون المتفوّقين منّا دون المتخلّفين، لكنّهم لا يريدون بهذا طرد المتخلّفين عنّا، بل يريدون طرد المتميّزين منّا وقمعهم، وهذا ما حصل فعلًا فيما بعد...».

ومن جانب آخر، نرى الإمام الخمينيّ قدس سره يؤكّد في كتابه «كشف الأسرار» تأييده لفكرة تمييز الطلبة الجادّين من المتخلّفين، ولكن كان يرى أنّ رضا خان ومَن حوله بعيدون البُعدَ كلّه عن هذه المسألة، وعن الحوزة وما يخصّها، فيقول قدس سره:

«نحن لا ننزّه هذه الطبقة من المجتمع بكاملها وبجميع أفرادها، بل نرى من الضروريّ أن نخطو خطوات جادّة لإصلاح الحوزة وتعديلها؛ فهؤلاء مثل باقي طبقات المجتمع، فيهم الجيّد، وفيهم السيّئ... لكن هذا ليس مدعاة لأن يأتي رجل كرضا خان، الذي لا يعرف إنشاء كلمة «روحانيّ»، ولا يعلم أبالحاء تُكتَب أم بالهاء -نظرًا لتشابههما اللفظيّ في اللغة الفارسيّة- أن يأتي ويميِّز الجيّد من الرديء، ويحدّد للحوزة ما ينفعها وما يضرّها... حقًّا، فهو لا يُميِّز بين الصالح والطالح أبدًا، وكلّ ما في الأمر أنّه يريد بذلك أن يقتلع جذور الحوزة وعلماء الدين من أصلها...».

ومن ثمّ يستطرد الإمام قدس سره، متابعًا حديثه حول الشخصيّات المناسبة للحوزة، وما يجب أن تتحلّى به من صفات ومواهب... وممّا هو جدير بملاحظته، أنّ قانون اختيار الزيّ الموحّد خرج إلى حيّز التنفيذ بعد أن حظي بالتصويت من البرلمان الدوريّ السابع

-البرلمان الصوريّ والمصطنع الذي اختير أفراده اختيارًا، وكان خاليًا من الشخصيّات المعروفة، أمثال السيّد حسن المدرّس، الذي لو كان موجودًا فيه، لواجهَ هذا القرار بعنف، وشنّ حملة شعواء، وأثار ضجّة كبيرة لدحض الباطل. وممّا لا بدَّ من ذكره في هذا المجال، هو أنّ المدرّس رشّح نفسه للعضويّة لهذه الدورة، وقد تمّ اختيار الأعضاء اختيارًا تبعًا لهوى الحكومة ورغباتها، ثمّ ادّعوا أنّ السيّد المدرّس لم يحصل على رأي واحد عند فرز الأصوات.

وانكشف التزييف عندما وقف المدرّس وقال مستهزئًا: إذا كانت الآراء لي صفرًا، فأين رأيي الذي أدلَيْتُ به لنفسي؟ وهنا بانَ الزيف والفشل، وانفضح الأمر أمام الجميع. حتّى إنّ هذا الموقف جعل بعض الذين رُشِّحت أسماؤهم أوّل مرّة في البرلمان، وحازت على الأكثريّة، جعلهم ينسحبون من هذه الدورة، وأعلنوا استقالتهم علنًا.

ثمّ وصل فروغي، العقل المدبّر لنظام رضا خان، إلى رئاسة الدورة عام 1934م، وأُسنِدَت إليه المهامّ التي كان من هدفها الإطاحة بالتراث الدينيّ والوطنيّ. ولكي يتحقّق حلم الحكومة في مسألة التجدّد والتمدّن على النسق الأوروبيّ، صدر أمرٌ باستبدال نوع القبّعة المستديرة الشكل -المعروفة بقبّعة بهلويّ- بنوع آخر من القبّعات المنحنية الشكل، والتي تشبه قبّعات شعب المكسيك. وبما أنّ هذا الإجراء سوف يُواجِه -بطبيعة الحال- معارضة العلماء، على أنّه من جديد الخطط التقليديّة للأوروبيّين، قام فروغي بعمل آخر ليكون مقدّمة لهذا العمل، هو مواجهة علماء الدين والحدّ من تحرّكاتهم أكثر فأكثر، وكانت استدلالاتهم وحججهم هذه المرّة بأنّه يجب أن نوقّر زيّ العلماء، وأن نعطيه التقدير والاحترام أكثر ممّا هو عليه، وأن نفصل عنهم الأفراد غير اللائقين بهذا الزيّ. وعلى هذا، صدر قرار في شتاء عام 1935م، يقضي بصلاحيّة ارتداء هذا الزيّ لأشخاص يتمتّعون بتأييدٍ من مرجعَين، وأن تصدِّق وزارة الثقافة على هذَين التأييدَين، ومن ثمّ يحقّ لهم ارتداء هذا الزيّ الموقّر. وشرع رجال الشرطة والأمن والحرس يضايقون المعمّمين وعلماء الدين في كلّ مكان، بحجّة أنّهم مأمورون لأداء

الخدمة، وكانوا يطلبون منهم الوثائق المصدَّقة من وزارة الثقافة، ومن لم يُبرز وثيقة مصدَّقة، يرفعون عمامته على مرأى جميع الناس، ويسوقونه قسرًا إلى مركز الشرطة، وكانوا أحيانًا ينهالون عليهم بالسبّ والشتم والضرب المبرح وحلق لحاهم، ووصل بهم الأمر إلى درجةٍ يصفها صدر الأشراف في مذكّراته، فيقول: «لقد ضُيِّق الخناق عليهم، حتّى إنّهم أصبحوا حبيسي ديارهم وبيوتهم، وإذا اضطرّوا للخروج، فإنّهم يخرجون آخر الليل، متستّرين بظلمته، ومتخفّين عن أعين الشرطة في الأزقة والطرق الموحشة. وأكثر من هذا، فإنّ بعضهم اعتزل الوظيفة الدينيّة، وراح يتستّر على نفسه وعياله».

وكان للإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ تلميحات وإشارات كثيرة وردَت في خطبه، منها:

«... لاحِظوا المدرسة الفيضيّة، التي كانت تضمّ من ستّمئة إلى سبعمئة طالب يفرّون جميعهم نهارًا إلى الحدائق والبساتين، ويعودون مساءً، لماذا؟ لأنّهم يخشون أن يقعوا فريسةً للشرطة والحرس، فيهينونهم ويعرّضونهم للأذى والسجن... وحتّى علماء طهران، كانوا يأخذونهم إلى مراكز الشرطة، ويهينونهم ويمزّقون ملابسهم وعمائمهم حتّى لا يستطيعوا الخروج من هناك...».

هذه الحركة وهذا التهجّم على العلماء والحوزة العلميّة، هذا كلّه عملٌ للقضاء على الخطّ الدفاعيّ الأوّل للشعب، وعمليّة تمهيد لمراحل أخرى قادمة. وعندما التزم بعض العلماء الصمت تجاه هذه الحملات والتهجّمات، انفتحت طرق أخرى لخطط رضا خان، وثبّتَ قدمَيه أكثر فأكثر، ودمّر كثيرًا من المقاومات الشعبيّة المناوئة له. فبعد شهر من هذا القرار، وبعد انتهاك حرمة الحوزة والعلماء، أُقيم حفل كبير، هُيِّئ لإقامته منذ فترة، بأمر من وزارة الثقافة والإعلام، وشهده حشدٌ كبيرٌ من الناس. وفي ختام الحفل، في آخر فقرة منه، شهد المسرح فرقة فتيات متبرّجات، بل عاريات، يرقصنَ ويعزفنَ الموسيقى أمام أعين الحاضرين، الذين انتابتهم دهشة غريبة، وانتشر هذا النبأ في أرجاء البلاد، وأخذ يطرق أسماع الناس. ثارت ضجّة واسعة، وقُوبِل هذا الحدث باستنكار صارخ من قِبَل الشعب، فأغلقَت الأسواق والمحلّات أبوابها في اليوم

التالي، استنكارًا لهذا الوضع المأساويّ الخطير. وقد أقدمَت السلطات على اعتقال السيّد حسام الدين الفالي -أحد العلماء البارزين في شيراز- إثر تنديده بهذا الاحتفال، وقد أُخفِيَت جميع التعليلات والاستجوابات عن الشعب والعلماء، وبقيَت هذه التصرّفات الشنيعة مجهولة الدواعي والأسباب والدوافع؛ فقد كان بعض الناس يعتقدون أنّه تصرّف شخصيّ من قِبَل مدير ثانويّة البنات في شيراز، واعتقد آخرون أنّها أوامر وزير الثقافة؛ راح كلٌّ يفسّر حسبما يقوده إليه تفكيره وفهمه وإدراكه للحوادث، ولكنّ أحدًا منهم لم يعلم بأنّ هذا جزءٌ من ألعوبة كبيرة وخطيرة، قد كشفوا النقاب عن صفحاتها الأولى فقط.

وبعد هذه الحادثة، أُقِيم احتفالٌ آخر في طهران، وأُعِيدَت الكرّة من جديد، وبالطريقة السالفة الذكر ذاتها، وقد رقصَت وعزفَت هذه المرّة فتياتٌ من عوائل الأشراف والطواغيت ورجال الدولة. ومن جملة الذين حضروا هذا الاحتفال، بعض الرجالات الكبار، أمثال فروغي ووزير الثقافة. وقد تضمّن الاحتفال كلمةً لوزير الثقافة، وأشار إلى هذه المحافل قائلًا: «وهذه الاحتفالات تُقام بأمر من سعادة الشاه، ويجب أن نزيل الحجاب، وسعادتُه يرغب أن ترقى نساء إيران إلى درجة الكمال والتمدُّن، حتّى يبلغنَ ما بلغَته المرأة الغربيّة».

وبانتهاء خطابه، أكّد أنّه سوف يُعامِل المخالفون بقسوة وعنف.

*** القبّعة الجديدة**

تزامنًا مع هذه الاحتفالات، أُعلن عن تبديل القبّعة السابقة -التي كان يرتديها رضا خان، والمعروفة لدى العامّة بقبّعة بهلوي- إلى قبّعة جديدة تشبه قبّعة المكسيكيّين. وقد انتشر هذا النوع من القبّعات في تركيا بعد تبديل الحكم على يد أتاتورك، ومن الظاهر أنّ هذا أثّر على رضا خان عندما سافر إلى تركيا، وعزم على ألّا يرجع إلى بلاده صفر اليدين من الهدايا الأجنبيّة.

جاء في صحيفة «اطّلاعات»:

بعد رجوع رضا خان من تركيا، عزم على تغيير القبّعة المستديرة الشكل، هادفًا بذلك رفع كلّ الظواهر التي تميّز الفرد الإيرانيّ عن نظيره الأوروبّيّ، وكان يقول: «يجب على الإيرانيّين أن يصلوا إلى درجات الغربيّين العليا، وأن يعوا جيّدًا بأنّ ترقّيهم وتقدّمهم -روحيًّا وجسديًّا ومعنويًّا وماديًّا- لا يسير بوتيرة عالية ولا يتكامل، إلّا بتغيير هذه القبّعة، ويجب أن يتحقّق هذا؛ كي يصلوا إلى مستواهم ودرجاتهم».

كذلك، فإنّ صدر الأشراف له تصريحات شبيهة بهذه التصريحات، إذ يقول: «بعد رجوع رضا خان من تركيا، كان كثيرًا ما يؤكّد ويشير إلى تقدّم تركيا وتطوّرها على صعيد الحرّيّة ومسألة الحجاب وغيرها، ويشجّع عليها، إلى أن حان ذلك الوقت الذي جمع به أعضاء الدولة عام 1936م، وأكّد لهم -ضمن كلامه- بأنّه يجب علينا أن نتغرّب ظاهريًّا وباطنيًّا، والخطوة الأولى هي تغيير القبّعة».

يذكر لنا مُخبر السلطنة هدايت، فيقول: «دخلت على رضا خان حينها، وقال لي: أريد أن نصبح معهم بشكل واحد، حتّى لا نكون موضع سخريّتهم واستهزائهم. على العموم، فإنّ التقدّم والتطوّر الحضاريّ والعلميّ والفنّيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ للشعب الإيرانيّ، أصبح عند رضا خان وأشياعه هو القبّعة المحوّرة!». أصدر فروغي -رئيس الوزراء- قرارًا إلى جميع الولايات والمدن، يأمر بموجبه بارتداء القبّعة الجديدة إجباريًّا من قِبَل الموظّفين والمسؤولين وغيرهم، وإلّا فسيواجهون ردًّا عنيفًا وتقريعًا شديدًا. وبعد هذا القرار، أصدر قرارًا آخر يتضمّن سبعة بنود، ينصّ على آداب استعمال القبّعة، وما يترتّب على مرتديها من واجبات، فمثلًا: جاء في المادّة الرابعة: عندما يتقابل شخصان أثناء لقائهما أو مرورهما عبر الشوارع والأزقّة، يجب على الأصغر سنًّا ومقامًا أن يقف ويرفع قبّعته بشكل مهيب أمام الأكبر، وبعد تكرار العمليّة من الشخص المقابل، يرجع الطرفان بوضع قبّعتَيهما على رأسَيهما باحترام ووقار خاصّ.

إنّ هذا التصوّر والتفكير المضحك المبكي، الذي يُرى من خلاله تقدّم الإيرانيّين مجاراةً للأوروبّيّين، هو في الحقيقة قصورٌ ساذج لا يراه أحد إلّا واختلج في ذهنه مدى سخافة تصوّرات هؤلاء الجهلة، الذين لا يرون من التقدّم والازدهار إلّا هذه المظاهر الشنيعة الهدّامة. وفي الوقت نفسه، فإنّها مدعاة للتعريف بمدى انصياعهم للغرب، وانصهارهم في بوتقته، واتّباع مظاهره، بحيث يشير الإمام الخمينيّ قدس سره إلى هذا الجانب في كتابه «كشف الأسرار»، فيقول:

«... نحن لا نتكلّم ولا نخاطب أولئك الجهلة الذين يعتقدون بأنّ قبّعة الأوربّيّين المستعمِرين هي أساس التقدّم، ونحن أيضًا لا نتوقّع أن يعوا ويسمعوا ما نقول؛ لأنّ الأوروبّيّين سرقوا عقولهم...

ففي ذلك اليوم الذي ارتدوا فيه القبّعة المعروفة بقبّعة بهلويّ، كانوا يقولون: يجب على الدولة أن ترفع شعار الوطنيّة، والاستقلال في الملبس، والقوميّة؛ فهو شعار استقلال البلاد والمحافظ عليها. لكن بعد فترة، وعندما أبدلوا تلك القبّعة بالقبّعة الأوروبّيّة، تغيَّر الكلام فجأة، وأخذوا ينادون بمجاراة الأجانب واتّباع سننهم، شبراً بشبر، وذراعًا بذراع؛ كي نكون من عظماء العالَم مثلهم!

ولكن نسوا أنّ البلاد التي تكون عظمتها بقبّعتها، هي عرضة للسرقة والاختطاف في أيّ وقت كان، ما دامت هذه القبّعة قابلة للتغيّر والتبديل.

والأجانب، وفي هذه المراحل جميعها، إنّما وضعوا القبّعات على رؤوسكم، ومن ثمّ رفعوها وأبدلوها ووضعوا غيرها، إنّما أرادوا بهذا أن ينظروا إليكم من بعيد، ويشغلوكم بهذه القوامة؛ كي تتحقّق أهدافهم جميعها في البلاد، بينما أنتم غائصون في بحر المظاهر والتقليد، وهم ينظرون إليكم كما ينظرون إلى الأطفال، ويضحكون. قضيتم أيّامكم وحياتكم بهذه التفاهات، وأخذتم ترتدون القبّعة الأوروبّيّة، وتسيرون في الشوارع، وتقضون أوقاتكم مع العاريات الفاحشات، وتفخرون بهذا أشدّ الافتخار، ونمتم في غفلة كبيرة عن البلاد، وعرّضتموها لغدرهم، فسلبوا مفاخركم

جميعها، وتراثكم وثرواتكم من البحر إلى بحر الشمال، وسحبوا البساط من تحت أرجلكم، وأوصلوكم إلى مثل هذا البلاء...».

*** رفع الحجاب والستر**

مسألة رفع الحجاب جرَت على الظاهر عام 1936م، ولكنّ ولادة الفكرة كانت قبل هذا العام بسنوات عدّة. في تلك الفترة التي انتشرت فيها العقائد والأفكار الأوروبّيّة، وبعد انتفاضة الدستور، ظهرَت الفكرة، وأخذت تتوسّع عن طريق الشعراء والصحفيّين والسياسيّين، فلقيَت بعض التأييد من قِبَل بعض المتخاذلين وضعفاء النفوس. ونظرًا للبُعد الثقافيّ والاجتماعيّ العقائديّ السائد في البلاد، لم يجرؤ أحدٌ على إخراج الفكرة إلى حيّز التنفيذ، عدا بعض نساء البلاط المعدودات، مثل المسمّاة «تاج السلطنة».

وإنّ المخطِّط الرئيس لهذه الفكرة -وعلى قول مخبر السلطنة وصدر الأشراف- هم ثلاثة رجال من المقرّبين جدًّا لرضا خان، وهم: تيمور تاش، ونصرة الدولة، ووثوق الدولة. وعلى حدّ قول مخبر الدولة: إنّ هذه الفكرة كان يتداولها رجالات الدولة عام 1931م.

ومن أجل نشر هذه الفكرة وتنفيذها عمليًّا في البلاد، كان المسؤولون يتداولونها بالسرّ، خشية ردود فعل العامّة والخاصّة. لهذا، صمّمت عائلة رضا خان على أن تكون العائلة المتطوّعة الأولى لهذا الغرض. عندما حان عيد النوروز لعام 1307 شمسيّ (1931م)، كانت عائلة رضا خان في مدينة قمّ، فخرجَت على شرفة البناء، وأمام عامّة الناس، كاشفةً عن جسدها، وبمظهر لم يكن يتصوّره أحدٌ من قبل. وبعد هذا، أخذت الملكة تروِّج أنواع الموديلات من الأزياء المبرزة لمفاتن الجسد خلال حفلاتها وجلساتها في المناسبات، وأمرَت بمنع استعمال الشادور؛ الحجاب الإسلاميّ.

يقول «هدايت» في مذكّراته قبل عامَين من هذا القرار، حيث كان آنذاك رئيسًا للدولة: «في اجتماعٍ من اجتماعات أعضاء الدولة -لوضع حدودٍ للتصدير والاستيراد للبلد- سجّل تيمور تاش القبّعة النسائيّة ضمن الموادّ المرخّص بها، فقلتُ له: وما

حاجتنا لهذا؟ قال: سيأتي وقتها...». ولما رجع رضا خان من تركيا، أثّرت به أفكار نظيره أتاتورك ومظاهره، وأخذ بعدها يطرح هذه الأفكار علنًا في اجتماعات الدولة».

وبعد أن أُعلن القرار الأوّل بشأن تغيير القبّعة إلى الطراز الجديد، واجَه اعتراضات وخلافات كبيرة من الشعب ورجالات العلم في آذربيجان وخراسان. أمّا في آذربيجان، فاعتُقِل رجالات العلم المعارضين جميعهم، ومن ثمّ تمّ إبعادهم، وأمّا في مشهد، فواجهوا المعارضين بالرصاص والسلاح في مسجد «كوهر شاد»، وأبادوهم إبادةً تامّة، واعتقلوا العلماء وأودعوهم السجن؛ وبهذا، استطاعوا أن يفسحوا المجال ويهيّئوا الأجواء لمسألة رفع الحجاب. من جهة أخرى -عندما كانت تقام الاحتفالات والمراسم في جميع أرجاء البلاد- كان الخطباء يتكلّمون حول مسألة تبديل القبّعة، وما لها من آثار، وكانوا يتطرّقون استطرادًا -بشكل مباشر وغير مباشر- إلى مسألة رفع الحجاب وفوائدها، وحرّيّة المرأة، وغير ذلك؛ كي يُهيّئوا أفكار الناس وأذهانهم لتقبّل هذه المسألة.

يجدر بنا أن نقتبس نبذًا من مذكّرات محمود جم -رئيس الوزراء بعد فروغي- أثناء محاوراته مع رضا خان، فيكتب قائلًا: «... التفَتَ إليّ رضا خان وقال: كيف يمكننا أن نقضي على هذه الشوادر [الحجاب الشائع للنساء في إيران]، إنّها فكرة تدور في ذهني منذ عامَين بعد أن رجعتُ من تركيا، وقد رأيتُ نساءها كاشفات متبرّجات يحذين حذو الرجال أينما كانوا، ومنذ ذلك الوقت، كرهتُ هذه السواتر والعباءات، وكرهتُ كلّ من يرتديها، فهي عدوّ لدود للتقدّم والتطوّر لشعبنا...».

ويستمرّ في مذكّراته قائلًا: «كان رضا خان يقول: الأفضل أن تكون عائلتي هي المتطوّعة الأولى لتنفيذ هذه الفكرة. لذا، قرّر أن تحضر زوجته وابنتاه وجميع زوجات الوزراء ورجالات الدولة الاحتفال الذي سيشهده المعهد التعليميّ ليوم افتتاحه عام 1935م. وبالفعل، تحقّق الأمر يوم الافتتاح، فحضرَت زوجته وابنتاه الحفل بدون ستر أو حجاب، وكذلك حضرت نساء رجالات الدولة بصورة مماثلة، فبدا انتعاش بعضهم

لدى رؤيتهم هذا المشهد المثير والمغري، مشهد النساء الكاسيات العاريات، في حين أنّ بعضًا آخر كان ينتظر مجيء مثل هذا اليوم.

وأشار رضا خان، أثناء خطابه بهذه المناسبة، قائلًا: إنّني مسرورٌ جدًّا وفرحٌ لِما أشاهده من الصحوة الفكريّة لدى النساء اللواتي عرفنَ مكانتهنَّ في الحضارة والتمدّن، فنصف البلد كان معطّلًا ومخذولًا، والآن تحرّك كلّه...

وبعد أن أدلى بخطابه هذا، نزل عن المنصّة، وأخذ يشقّ صفوف الحاضرين بين الرجال والنساء، إلى أن تواجَه مع النساء السافرات، فخاطبهنّ قائلًا: ... استطعنا أن نحطّم قيود الزنزانات والسجون، والآن، وبمساعدة السجناء الذين أُطلِق سراحهم، سوف نبني صرحًا كبيرًا جميلًا بدل تلك الأقفاص والزنزانات. ثمّ أوصى بعد ذلك المعاونين والوزراء أن يصطحبوا نساءهم بهذه الهيئة كلَّ أسبوع إلى النوادي والحفلات.

وبعد أيّام قلائل، صدر قرار إلى الوُلاة والمحافظين، يقضي بإقامة حفلات أسبوعيّة مصطحِبين نساءهم ونساء الأشراف والأعيان في البلد، وذلك عن طريق التشجيع أو الإكراه والجبر؛ كي يتمّ هذا الأمر، ويصبح شيئًا اعتياديًّا لدى العامّة...».

ولأجل تعميم السفور، استعملوا كافّة الطرق والحيل المشجّعة والرهيبة، ويقول صدر الأشراف: «أمر رضا خان وزير الثقافة بإرسال تعليمات إلى المدارس والثانويّات، يقضي برفع الحجاب عن المدرّسات والطالبات، وكلُّ من يخالف، يُطرَد من وظيفته أو مدرسته... كذلك يجب عدم السماح للمحجّبات بركوب الباصات والوسائط الحكوميّة...».

ويضيف قائلًا: «... لقد أعطَت الحكومة الصلاحيّة العامّة لرجال الشرطة في أنحاء البلاد كلّها، ممّا زاد وحشيّتهم وتهجّمهم على النساء في المدن والمحافظات الأخرى؛ فمثلًا، كانوا يتعرّضون للنساء المحجّبات في المعابر وطرق المارّة، وكانوا يرفعون الستر عنهنّ أمام الجميع ويمزّقونه. حتّى وفي بعض القرى والنواحي، كانت النساء ترتدين الشال والشراشف -والتي هي ليست كالشادور- والجلباب الطويل،

فكان رجال الشرطة يتعرّضون لهنّ، ويسحبون النساء من رؤوسهنّ، إمعانًا في القهر والإذلال، فإذا ما تهيّأت فرصة لهروب إحداهنّ من أيديهم، يطاردونها حتّى منزلها، فيدخلون عليها ويفتّشون أنحاء البيت كافّة، فإذا ما عثروا على أيّ نوع من أنواع الحجاب، فإنّهم يمزّقونه إربًا إربًا... هذا كلّه سمعَته أذناي من أولئك المتوحّشين الخبيثي الفطرة والأساس...».

على ضوء هذه القرارات الصارمة، اختفَت كثيرٌ من النساء، وأصبحنَ حبيسات البيوت، وإذا ما اضطررنَ للخروج، فإنّهنّ يخرجنَ مساءً عندما يجنّ الليل ويخيّم بظلامه الدامس، مصطحبات أزواجهنّ وإخوتهنّ، يتسترّنَ بالظلام عن أعين الشرطة والمراقِبين. بعد هذه الإصلاحات المزعومة لرضا خان -التي لم يخرج منها إلى حيّز التنفي سوى القرارَين: الأوّل مسألة القبّعة، والآخر السفور، واللذَين تمّ تعاقبهما- وما هي إلّا فترة وجيزة، حتّى كُشِف النقاب بشكل جليّ وواضح للرأي العامّ، عن خطط رضا خان وعدائه للإسلام والشعب.

لاقَت هذه الإصلاحات المزعومة صرخات كبيرة ومدوّية من علماء الدين والحوزات العلميّة بأسرها، وبخاصّة من الإمام الخمينيّ قدس سره الذي واجهها بشدّة وصرامة. يقول أحد شهود المعاينة لهذه الحوادث: «بعد قرار رفع الحجاب وتعميم السفور، ذُهِلَت الحوزة العلميّة -الجديدة التأسيس في قمّ- وأخذَت تفكّر في الردّ السليم على هذه الخطط، وهم في حيرة من أمرهم؛ فهم من جهة يخشون من سحق الحوزة وتدميرها أو إجهاضها -إذ هي في مهد ولادتها-، ومن جهة أخرى إحساسهم بالمسؤوليّة والواجب الدينيّ، حيث لا يمكن اختيار السكوت وترك النهي عن المنكر».

فقد تقدّم جمعٌ غفير من فضلاء الحوزة، وعلى رأسهم الإمام قدس سره، المعروف آنذاك -بالسيّد روح الله آقا- إلى مسؤول الحوزة المرحوم الشيخ عبد الكريم اليزديّ، بطلبٍ يقضي إرسال برقيّة إلى الحكومة، فليس ثمّة حلّ أفضل من هذا الحلّ؛ فالحجاب ضرورة شرعيّة، والدفاع عن المعتقدات والدين واجب مقدّس، وإذا لاقى هذا الطلب إعراضًا

من الحكومة، فإنّ المرجعيّة والعلماء عندئذٍ يُعذَرون شرعًا أمام الله، وتكون هذه، عند ذلك، نقطة اعتزاز سيسجّلها التاريخ لنا.

بناءً على هذا، أبرق آية الله الحائريّ تلغرافًا مختصرًا إلى رضا خان، جاء فيه: «إنّ الحجاب هو من ضروريّات الدين، ومسألة السفور يجب ألّا تكون جبرًا وقهرًا و...»، فواجَه هذا التلغراف ردًّا بشعًا من محمّد عليّ فروغي رئيس الوزراء، وآخر عنيفًا من رضا خان.

على العموم، تغيّر الوضع العامّ لرضا خان تغيّرًا عامًّا، وقبل هذا التلغراف، كان بعض العلماء الثائرين قد ندّد بهذه الإصلاحات، وراح كثيرٌ من الناس يستنكر الوضع وما وصلَت إليه البلاد إثر هذه التغييرات وانتهاك حرمة الدين والتراث، حتّى إنّ بعض رجالات الدولة المتمسّكين بأعرافهم وتقاليدهم الشعبيّة والوطنيّة، راح يعارض الوضع أيضًا كذلك، وأصبحوا يتوقّعون الشرّ من وجود رضا خان، ويتوجّسون خيفةً من أفكاره المرعبة، حتّى إنّ هذَين القرارَين من الإصلاحات البهلويّة، كشفا النقاب عن كذب رضا خان ودجله عندما نادى بالوطنيّة والقوميّة، معتزًّا بسنن بلاده وتراثها.

أين التراث والسنن والتقاليد عندما استبدل القبّعة العاديّة للناس؟ وأين هو من نزع الحجاب الذي توارثَته نساء إيران كابرًا عن كابر؟ فهذا التغيير، بل وهذا التعدّي على حقوق الإنسان، وعلى ثروة البلاد الثقافيّة والعقديّة، ما هو إلّا مخطّط استعماريّ وُضِعَ في حيّز التنفيذ، هدفه الأوّل القضاء على الإسلام، ونشر رايات الضلال والفكر الأوروبيّ المنحرف، وهذا ما واجهَه بعض رجالات الحكومة آنذاك.

وفي الحقيقة، إنّ هذه الازدواجيّة والتناقض بين ادّعاء القوميّة والوطنيّة، وبين مسألة التمدّن والتجدّد، كان أمرًا فاضحًا. وعلى كلٍّ، فلقد رُفِعَ حاجز الحياء والعفّة قهرًا عندما نفّذوا قرار منع الحجاب، وقد قضوا على الأُسَر وفكّكوا كيانها باسم حرّيّة المرأة، وبدل أن تكون المرأة حصنًا حصينًا لأسرتها، ومصدرًا للحبّ والعطف والحنان، تؤدّي وظيفتها التي شرّعها لها الله، من إطاعتها زوجها وتربيتها لأطفالها، أصبحَت

مصدرًا للشرّ، ومثارًا للفساد والطغيان، عندما ظهرت مع الرجال والأجانب في الدوائر والمعامل والوظائف سافرةً كاسيةً عاريةً...

لقد انخرطَت النساء في معركة التسابق للمثول أمام رؤوساء الدوائر، بهدف الترفيع وزيادة الرواتب والفوز بالمناصب، حتّى وقعنَ فريسة التملّق، والاستهتار، وكسب ودّ أولئك المجرمين المفسدين، وإرضاء حماقاتهم ورعونتهم...

إنّ مسألة السفور ولّدَت قضايا عديدة خطيرة ومدمّرة، فسرعان ما فسد الشباب والشابات، وسرعان ما نزلَت أنواع الألبسة، التي غفل الغافلون عن المخاطر والشرور الناتجة عن ارتدائهم لها، كاستهلاك الموادّ وهدر الطاقات الكثيرة، ناهيك عن أساليب اللهو بأنواعها وأشكالها وألوانها، وكذلك نسوا كيف سيتحوّلون إلى مظهر من مظاهر الغرب والانصياع لهم. والمحرّك الأكثر خطرًا والأوّل لهذا كلّه، هو الدعايات التي قامت بها الصحف والمجلّات لكسر طوق الخجل والحياء، فأينما يولّي الفتى والفتاة وجهه، وإذا بالصورة العارية، والقصّة الفاسدة، والكتاب الجنسيّ. أمّا دُور السينما والمسارح، فحدِّث ولا حرج عن الفضائح والإثارات الجنسيّة وغيرها، التي جرَّت الشباب إلى الويلات والدمار، فقد نهبوا أموالهم، ولوّثوا عقولهم بتحريك الغرائز وإثارة الشهوات.

هذا هو ما كان يريده رضا خان بالتحديد، فهدفه الأصليّ هو إشغال الشباب، والناس عامّةً، بالفساد واللهو واللعب، حتّى تنقلع جذور الدين والإسلام من أصلها، وتتهدّم صروح الثقافة والعلوم والفنون بأجمعها.

وقد أشار الإمام قدس سره في كتابه «كشف الأسرار» إلى هذه الخطط والمؤامرات المدمِّرة للشعب، والتي يدّعي رضا خان بأنّها المطهِّر الحضاريّ للبلد، وكشف أهدافه الحقيقيّة قائلًا:

«... نحن نقول ونؤكّد بأنّ هذه الدولة والحكومة هي دولة كفر وظلم، والذي يساندها فهو أكثر كفرًا وإلحادًا. وهل هذه حكومة؟! الحكومة التي تصفّ الآلاف من الناس والمظلومين، وترشقهم بالرصاص لأجل تغيير قبّعة وتبديلها، أهي حكومة؟

ما هي هذه الحكومة المخالِفة للعدالة والدستور؟ ما هذه الحكومة التي تُطلق المتوحّشين والظلمة على العفيفات والمحترمات من النساء في كلّ مدينة وقرية... فيهتكوا أعراضهنّ، ويعتدوا عليهنّ مستخدمين القوّة والعنف؟ هؤلاء الأوغاد الذين جعلوا من النساء المحجّبات هدفًا لركلات أرجلهم وأحذيتهم! فكم وكم كسروا أضلعهنّ وأجهضوهنّ!... ما هذه الحكومة الظالمة؟ فهي، وكلّ من يعينها ويساندها، كافرٌ وجاحدٌ بالله... ما تلك الصحف والمجلّات التي تساند الحكومة، وتساند رضا خان الديكتاتور الظالم أشدّ المساندة، وبخاصّة في قضيّة السفور الهدّامة للشعب وللثقافة الإسلاميّة؟ يجب أن تُلَمّ وتُحرَق جميع تلك الأوراق المؤيّدة للديكتاتور في الشوارع والميادين...

أمّا الناس عمومًا، يجب عليهم أن ينظروا إلى تلك الصحف والمقالات المسانِدة والمؤيِّدة لحركة رضا خان بعين الحقارة، وأن لا يعتبروها إلّا أقلّ شأنًا من الأوراق المهملة والقذرة؛ تلك الأوراق والصحف والمقالات التي لا تحمل معها إلّا أفكار رضا خان المنحرفة، وإنّما هي أخطر بكثير من أمثال أحمدي -دكتور السجناء السياسيّين، الذي كان يقتلهم عبر زرق الهواء بشرايينهم سرًّا وخفيةً- ومختاري -الجلّاد رئيس شرطة رضا خان- على الشعب والوطن؛ فإذا كان أحمدي يقتل أفرادًا وأشخاصًا معدودين، فإنّ هذه الصحف والمجلّات تقتل المئات من الناس الأبرياء، بما حوته من أفكار سامّة ودسائس. وليعلم الشعبُ أنّ غرز أقلام هؤلاء تُعادِل مئات المرّات من غرز إبر أحمدي وأمثاله.

... وإنّ من سار على نهج الاستعمار وحقّق لهم مآربهم، هو ذلك الديكتاتور الذي صنعوه، كنظيره السابق أتاتورك، فهؤلاء هم الذين نفّذوا جميع خططهم بالقوّة والعنف. فرضا خان كان يضغط على الشعب بقوّته وقسوته من جهة، ومن جهة أخرى، كان يفسد أفكار الناس بالكاريكاتورات الصحفيّة والمجلّات، مضافًا إلى ذلك، ضغطه على العلماء، وضبط تحرّكاتهم، وإشاعة الفساد والفحشاء والسفور، وبثّ

دعاية العشرة والمؤانسة والعمل، وكذلك مسألة تغيير القبّعة، والسينما والتمثيل، وإلى غير ذلك من الألاعيب التي يخدع بها الشعب على أنّها الطرق الحضاريّة الأصيلة للتقدّم والرفاه، ولرفع المستوى الحضاريّ للبلاد، وأنّ الدين هو المانع لهذا. وبهذه الحيل والألاعيب، جعلوا الناس يتذمّرون من العلماء، وكانوا يريدون من ذلك إبعادهم عن الإسلام. إنّهم لعبوا بأفكار الشباب اليافعين والمراهقين، الذين يعيشون قمّة الشهوات والنزوات، وخلطوهم بالفتيات المتبرّجات، ولوّثوا أدمغتهم بأنواع الموسيقى المطربة والمهيّجة، وربّوهم على أيدي أولئك الأساتذة المنحرفين، وأخرجوهم عن ربقة الإسلام والدين، وانحرفوا بهم عن العلائق الزوجيّة المشروعة، إلى ساحات الانحراف والفساد في أرجاء الوطن كافّة...».

وأخيرًا، يحصر أفكار رضا خان «الحضاريّة» في عبارة واحدة، فيقول:

«نعم... كلّ ما ورثناه من قبّعات مستجدّة، وسفور قاتل للعفّة، وبإيجاد شوارع عريضة طويلة، ذلك كلّه ما هو إلّا سرقة ثروات البلاد، ووأد جميع الفضائل الأخلاقيّة».

هذا، ومضافًا إلى ما ذكرناه سابقًا من تركيز الحكومة بدعايتها لحرّيّة المرأة وتحرّرها من قيود الرجعيّة، فإنّه كانت، هنا وهناك، صرخات ضدّ هذه الدعايات والإغراءات من الحكومة، مع العلم بأنّ كثيرًا من المثقّفين والشعراء والأدباء تأثّروا أيّما تأثّر، وانغمرت أفكارهم بتلك الدعايات، وراحوا يؤيّدونها بأقوالهم وأقلامهم، إلّا أنّ هناك كثيرًا من المفكّرين والأدباء والمثقّفين الإيرانيّين والأجانب ندّدوا بهذه الظاهرة، وألقوا اللوم على الحكومة.

المستشرق «بيتر آفري» المؤرّخ البريطانيّ المعنيّ بدراسة تاريخ إيران وتحليله، يذكر في كتابه «تاريخ إيران المعاصر»، والذي يعود تأليفه إلى ثلاثين سنة، آداب العوائل الإيرانيّة وسننها وحرّيّة المرأة في أسرتها واجتماعها، إلى حين فرضت مسألة السفور على الشعب من قِبَل رضا خان، فيقول: «صحيحٌ أنّ النساء قديمًا كنّ يرتدينَ الحجاب ويتستّرن من الرجال عدا محارمهنّ، لكن في الوقت نفسه، كان لهنّ نفوذ كبير في مجالات الحياة، كالأمور البيتيّة، وفي السوق والشارع، وزيارة الأقارب والمعارف، بل

تعدّى ذلك إلى السياحة والسفر وزيارات العتبات المقدّسة في المدن البعيدة، كمدينة مشهد والنجف، وكافّة العتبات في العراق.

والمرأة الإيرانيّة المتمكّنة ماليًّا هي أكثر سفرًا بالقياس إلى المرأة البريطانيّة».

وكاتب آخر، وهو كاتب إيرانيّ، يصف إصلاحات رضا خان، وأهمّها السفور، فيقول: «حقًّا، إنّه انتصارٌ لحقوق الإنسان، والكرامة، والحرّيّة الفرديّة والشخصيّة، والأمن الفرديّ، والآداب الاجماعيّة، والحقوق القانونيّة، والعدالة الاجتماعيّة، والأهمّ من هذا كلّه، حرّيّة المرأة! مع هذا الوصف والتقدير، راح الكثير من المفكّرين والمثقّفين الإيرانيّين والأجانب يعتقدون أنّ هذا القرار الصارم من الحكومة، والذي لم يسبق له مثيل في تاريخ إيران الدكتاتوريّ، أنّه نقطة انعطاف وتحوّل تصنع من إيران القرون الوسطى إيران متقدّمة ومتطوّرة.

... ألم يكن هذا مثيرًا للاشمئزاز والتنفّر عندما تسمع بنداء حرّيّة المرأة وتحرّرها، في حين أنّ الرجال أصبحوا ألاعيب ودُمى بيد قوانين الحكومات المتغيّرة والمتنوّعة؟

وعلى العموم، تحقّقَ هذا الأمر، وتبدّلَت البلاد، وبقيَت الأمور الأخرى كافّة معلَّقة ومتروكة، والشاه غارق وتائه بين زوجاته الثلاث اللواتي يؤدّين جميع علائقهنّ العائليّة كالحيوانات... وبعد، فهل السفور هو حرّيّة المرأة؟

إنّ ما وقع، في الحقيقة، ليس تقدّمًا ولا تحرّرًا، إنّما هو إقدام شرس وشنيع، يحمل عنوان التجدّد والتقدّم، إقدام مستبدٌّ وجاهليٌّ، راح يؤيّده ويرفع لواءه جمعٌ من المتعصّبين الحاقدين على أنّه السبيل الأمثل لنجاة إيران من الرجعيّة».

ب. السياسة الدينيّة

أشرنا سابقًا إلى أنّ رضا خان كان يرى نفسه مجبرًا ومنقادًا إلى ارتداء قناع دينيّ له؛ ليضلّل الرأي العامّ به، فأظهر اهتمامًا بظواهر الشرع والدين، واحترامه الخاصّ لمقدّسات الإسلام؛ فمثلًا قُبَيل استلامه زمام السلطنة بشهر واحد، أصدر بيانًا ينسب فيه إلى شخصه أنّه المنفِّذ لأحكام الله ودستور الإسلام والشرع المبين، وراح يلوّح بأنّه

السائر على نهج مراجع الشيعة والعلماء في الحوزة، ليحظى بتأييد العامّة والخاصّة، إلّا أنّه يهدف إلى اتّباع سياسة هدّامة حاضرًا ومستقبلًا. في الوقت نفسه، كان لا يتراجع عن تهديداته تجاه مخالفيه ومنتقدي أعماله في المجلس، وكان يتّبع جميع الأساليب والوسائل من ترغيب وترهيب واغتيال فكريّ ومادّيّ لمعارضيه، الذين كانوا يعرفون مقدّمات سياسة رضا خان الديكتاتوريّة، والمستقبل الأسود الذي ينتظر البلاد. كان رضا خان لا يستطيع أن يرى بصيص الحرّيّة المختصر الموجود في المجلس، والذي هو من بقايا انتفاضة الدستور، وحين تصاعد اعتراض النوّاب ضدّ سياسة رضا خان، إذ راحوا يعكسون أفكارهم في الصحف والمجلّات والمجالس لعامّة الناس، كان لهم بالمرصاد، فكان يواجههم إمّا بالتهديد، وإمّا بالتحذير، وأحيانًا يلجأ إلى الاغتيال؛ تلك كانت وسائله لإخماد فتيل نيران أعدائه ومناوئيه.

وبعد أن وصل رضا خان إلى السلطة والحكم، ابتدأ بتنفيذ خططه الاستعماريّة ضدّ الإسلام والمسلمين، وشملَت هذه الخطط مرحلتَين:

المرحلة الأولى: تمّت بالقضاء على جميع تحرّكات العلماء، وعزلهم عن مناصبهم السياسيّة والقضائيّة. ورافقت هذه التحرّكات هجمات كبيرة على الفقهاء وعلماء الدين، وتعريتهم من الفضائل، والمبالغة بتسقيطهم، وإبعادهم عن الحضارة والتمدّن؛ وكان ذلك عبر الصحف والمجلّات والإذاعة والحفلات والمجالس العامّة، حيث شوّهوا سمعة العلماء والفقهاء.

والمرحلة الثانية: هي القمع، والقضاء على الحوزة العلميّة، وتبديد شملها، وزلزلة الإيمان والعقيدة والتراث الإسلاميّ من الحياة والمجتمع، وترسيخ سلك رضا خان وعقيدته، التي كانت تعتمد على ركنَين: القوميّة والتمدّن، واللذَين أشرنا إليهما بالتفصيل سابقًا.

منذ عام 1927م، حدثت تغييرات في دار العدالة، فقد مات المدير المعنيّ بالشؤون القضائيّة المدعوّ عليّ أكبر داور -وهو من المتجدّدين والمثقفّين، والذي يشغل هذا

المنصب منذ عشرة أعوام- قام بعزل القضاة المعمّمين من العلماء، وأحلّ محلّهم رجالًا من الحقوقيّين والمتجدّدين، علمًا أنّ الكثير لم يكن بدرجة عالية كدرجة القضاة، لا علمًا ولا مكانة، وتزامنًا مع هذه الخطوات، غُيّرَت القوانين العامّة -والتي كان فيها شيء من اسم الإسلام ورسمه- إلى قوانين عرفيّة مدنيّة. فاللائحة الجديدة للقوانين التي قُدّمت للبرلمان عام 1929م، فيها بنود كثيرة تشابه ما جاء بشأنها في القوانين الفرنسيّة.

وفي عام 1932م، دُوِّنَت مقرّرات العقود الزوجيّة طبقًا للقانون المدنيّ، وبعيدًا عن دستور الإسلام، ومن عهدها، أصبحت عقود الزواج والطلاق تُجرَى على أيدي المسؤولين والموظّفين المخوّلين، بعد أن كانت تتمّ بواسطة العلماء في المراكز الشرعيّة. وخلافًا للشرع الحكيم، جُعِل سنّ الزواج ثمانية عشر عامًا. كذلك غُيِّرَت قوانين السجلّات والأملاك، وحُصِرَت معاملاته في نطاق المحاكم وممثّليهم. وأخيرًا، صوّت البرلمان على تبديل قوانين السلطة التشريعيّة إلى قوانين مدنيّة وعُرفيّة في عام 1937م، وقد كانت هذه المشاريع والإجراءات تُنَفَّذ عبر علماء الدين، علاوة على أنّها وظيفة من وظائفهم الدينيّة والشرعيّة، فهي كانت نقطة ارتكاز سياسيّة واجتماعيّة لهم، حيث نرى بذلك توسيع روابطهم وعلاقاتهم مع عامّة الناس، ووسيلة التقرّب إليهم، وهذا كان يبعث عند الناس الطمأنينة والمحبّة لهم، ويدعو للالتفاف حولهم، وفي الماضي، كنّا نرى أنّ السلاطين والحكّام والولاة كانوا يقرّبون هذه الشخصيّات لديهم، فيسندون إليهم مناصب القضاء وغيرها؛ كي يتّخذوا بذلك وجهًا مسالمًا للشعب، ويستثمروا طاقات هؤلاء العلماء، ويستفيدوا منهم ومن مكانتهم.

لكن بعد ذلك كلّه، كان دعاة التجديد يرون أنّ إحدى الطرق المؤثّرة والعائدة بالصلاح للمحاكم الشرعيّة، هو عزل العلماء عنها؛ كي ينقطعوا عن الأمور السياسيّة، ويُحَدُّ من تدخّلاتهم بالحكومة، وينتهي تسلّطهم على زمام الأمور السياسيّة والاقتصاديّة تمامًا. ومن هنا، لم يكن عبثًا توجيه الإصلاحات ذات الطابع الغربيّ من قِبَل «سِبَّهسالار»[1]

(1) ميرزا حسن خان سِبَّهسالار وزير الحرب والخارجيّة في العصر القاجاريّ.

بعزل العلماء من دار العدالة (وزارة العدل)، والتي اشتدَّت فاعليّتها في عهد رضا خان.

على أيّة حال، إنّ ظاهرة عزل العلماء أو استقالتهم من مناصبهم القضائيّة، أثّرت بشكل واضح وجليّ على نشاطهم وتماسّهم مع العامّة، وعملَت على تقليم أظافرهم وإبعادهم عن الساحة السياسيّة نوعًا ما، علمًا أنّ منهم من استطاع أن يمسك بكرسيّه ومهمّته، ويواجه الصعوبات والمضايقات الكبيرة، إلّا أنّه مع ذلك، أصبح مجمّدًا في نطاق دائرته ومهمّته، ولا يؤدّي منها سوى الطابع الرسميّ والشكليّ لها. ومضافًا إلى كلّ ما مرَّ بنا، فإنّ رضا خان كان يطمع بتصفية الكادر الدينيّ بتمامه، والقضاء عليه قضاءً تامًّا؛ لذلك قام بممارسات وإجراءات وحشيّة لا إنسانيّة ضدّهم، حيث حاول عام 1927م اغتيال السيّد حسن المدرّس، الذي نجا منه بأعجوبة، وأدرك السيّد المدرّس أنّ ذلك كان من وراء رضا خان وتدبيره.

واشتدَّت المضايقات والإجراءات التعسّفيّة من قِبَل رضا خان ضدّ الدين والإسلام، والتي كانت تثير مشاعر العلماء السياسيّين الواعين؛ منهم الشيخ محمّد تقي بافقي، وهو أحد العلماء المسؤولين المعروفين لدى الحوزة العلميّة، والذي كان يتحلّى بالإخلاص والشجاعة والجرأة، فيندفع تلقائيًّا إلى العمل والجهاد. فقد أرسل رسائل عنيفة ومؤنّبة إلى رضا خان، يطلب منه الالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ على إثر تلك الرسائل، شنَّت الحكومة هجمة عنيفة بوسائل الإعلام على العلماء، وهدّدتهم لعدم تكرار هذه العمليّات وإرسال الرسائل، وأكّدت بأنّ كلّ ما يُدَّعى من أمر بمعروف ونهي عن منكر من قِبَل العلماء، ما هو «إلّا إلقاء شُبهة في المجتمع، وإحياء النفاق بينهم» وهو عمل فاسد، ومن ورائه أيدٍ أجنبيّة، وأنّهم محكومون «حكم المفسد في الأرض»، ويستحقّون أنواع التأديب والتأنيب والجزاء.

وعلى أيّة حال، فإنّ هذه التهديدات والتوعّدات والإهانات العلنيّة للعلماء ورجال الحوزة العلميّة تُعَدّ مؤشّرًا صريحًا، يعني عدم تدخّلهم بشؤون السلطة والسياسة وإدارة البلاد وكلّ ما يصدر من رضا خان، وهذا أمرٌ لا ينبغي السكوت عنه. وقام

الشيخ بافقي بإدانة هذه الهجمات، ووقف صامدًا ضدّ الحكومة؛ ما جعل المأمورين يرفعون مثل هذه الإعلانات والبلاغات عن جدران المدينة. علاوةً على هذا، قام العلماء المجاهدون في مدن أخرى، ونددّوا بهذه التصريحات والتهديدات الحكوميّة، ورفعوا حاجز الصمت، وبيّنوا ما سيصيب البلاد من إجراءات رضا خان المدمّرة، وصمّموا على الصمود والوقوف بوجهه إلى أن يرتدع أو ينتهي وجوده.

وقام علماء مدينة أصفهان باعتراضهم الظاهريّ على مسألة التجنيد الإجباريّ لطلبة المدارس والحوزات العلميّة، الذي صدر قراره في البرلمان عام 1926م؛ وكانوا يريدون بهذا كسر حاجز الصمت والسكوت أمام رضا خان، وفتح مجال الاعتراض والانتقاد مقابل تجاسر الحكومة وعنفها، وخرجوا من أصفهان يرأسهم المجاهد الشيخ آغا نور الله الأصفهانيّ، متوجِّهين إلى مدينة قمّ.

عندما أُشيع خبر اجتماع العلماء في مدينة قمّ، صمّم جميع العلماء في باقي المدن على الالتحاق بهم؛ عندها كان السيّد حسن المدرّس عضوًا في البرلمان، فأصدر بيانًا يتضمّن تأييده ورعايته للعلماء المهاجرين. وبقي هؤلاء جميعًا في مدينة قمّ لأشهر عدّة، وقدّموا طلباتهم لأعضاء البرلمان، والتي كانت تشتمل على إعادة النظر في مسألة التجنيد، وانتخاب خمسة من العلماء البارزين من قِبَل البرلمان طِبقًا للبند الثاني من متمّم الدستور العامّ، وتعيين مراقب وناظر للشرائع في الولايات جميعها، وعدم التعرّض للعلماء، وإعادة مكاتب الشرع لأعمالها كما في الماضي.

وراح رضا خان يتهيَّب ويتخوَّف من حدوث ضجّة كبيرة لدى الشعب، قد تؤدّي إلى الثورة عليه، جرّاء هذا الاجتماع الكبير في قمّ، وعندها يكون قمعها أو السيطرة عليها شيئًا عسيرًا، ومن جهة أخرى، فهو لا يريد أن يرضخ لطلبات العلماء، أو يتنازل عن قانون التجنيد الإجباريّ وغيره؛ لأنّه إجراء خطر على الدولة، يجعل موقفها ضعيفًا أمامهم، وسوف يضطّره مستقبلًا للتراجع أمام طلبات هؤلاء كلّها.

بناءً على هذا، قام رئيس الحكومة «مخبر السلطنة هدايت» بصيغة حلّ للمشكلة،

تقضي بترغيب كبار العلماء بالجلوس على طاولة المفاوضات مع الحكومة، وتقوم هذه الأخيرة بتفرقة آرائهم ونظريّاتهم وتشتيتها وهدمها، ومن جهة أخرى، فرض حصار عسكريّ لمدينة قمّ لمنع خروج العلماء والمعمّمين وعامّة الناس من قمّ؛ كي لا يتسرّب نبأ الاحتجاج والمعارضة إلى باقي المدن. والأهمّ من هذا كلّه، فإنّ آية الله الحائريّ، الذي كان لا يميل إلى السياسة والتدخّل بشؤونها، ويواظب على حفظ كيان الحوزة بعيدًا عن تيّار سياسة رضا خان، أخذ يخالف هجرة العلماء والمعمّمين من سائر المدن إلى قمّ، وعزل نفسه عنهم منذ البدء.

وفجأة، فُجِعَت الحوزة بوفاة الشيخ آغا نور الله -وقد ذهب بعضهم إلى أنّه قُتِل مسمومًا بوساطة طبّاخه أو طبيبه بأمر من رضا خان- وانشقّ اجتماعهم واعتصامهم، بما فيهم العلماء المهاجرون من المدن الأخرى، واغتنمَت الحكومة هذه الفرصة، وألقَت بمطالبهم في عالم النسيان.

وعلى مدى هذه الفترة، كان إمامنا الراحل قدس سره -الذي لم يبلغ من العمر إلّا ستّة وعشرين عامًا- على صلة دائمة بهم، وكان يتتلمذ على يد آية الله الشيخ محمّد رضا النجفيّ الأصفهانيّ المسجد شاهي؛ وعلى هذا، فهو على علم كامل بما جرى من حوادث جمّة وكبيرة في ذلك الوقت، وبما قام به رضا خان من خداع ومكر لإبادة كيان ذلك التجمّع الكبير، ويتطرّق الإمام قدس سره لهذه الحوادث مرّات عدّة، وممّا جاء في أحد خطاباته:

«في زمن ذلك الرجل الجاهليّ... رضا خان السفّاح القذر، قامت ثورة عارمة من قِبَل العلماء في أصفهان، وشهدناها نحن بأمّ أعيننا. قَدِم علماء أصفهان إلى قمّ، وتبعهم آخرون من سائر المدن الأخرى واجتمعوا فيها، وندّدوا بالنظام، واعترضوا عليه، وانتقدوه. لكنّ تفرّقهم وتشتّت آرائهم أدّى إلى ضعفهم وعدم سيطرتهم على الموقف، فتبدّد كلّ شيء على إثر الخداع والمكر والحيل وغيرها...».

وبعد شهرين من نهضة علماء أصفهان، حدثَت واقعة أخرى اصطدم فيها رضا

خان مع علماء الدين. ففي مراسم بداية العام الشمسيّ الجديد 1307 (1929م)، دخل رضا خان مع زوجته وبناته -وهنّ سافرات متبرّجات- إلى مرقد السيّدة معصومة[1] في مدينة قمّ، ولاقى اعتراضًا وانتقادًا شديدَين من عامّة الناس والزوّار، وبالأخصّ من المجاهد الشجاع الشيخ محمّد تقي بافقي، ومباشرةً ودون تأنٍّ، أحضر رضا خان الشرطة والحرس والضبّاط، ودخل الحرم، وبعد أن دخل هؤلاء الأوغاد إلى الحرم، انهالوا على الناس والزوّار بالضرب والشتم، وبدّدوهم عن آخرهم، وأمّا الشيخ بافقي، الذي عمل طبقًا لوظيفته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد أحضروه أمام رضا خان، وأخذ هذا الأخير يتطاول عليه بالسبّ والشتم والضرب أمام الجميع، وبالحرم المقدّس، ومن ثمّ أمر جلّاديه أن يزجّوه في قعر السجن، حيث لبث في السجن إلى أن توسّط الشيخ عبد الكريم الحائريّ اليزديّ له، وأخرجه من زنزانات رضا خان، وقطن منطقة السيّد عبد العظيم، فوضعوا عليه رقابة مشدّدة، وبقي فيها حتّى انتهاء حياة رضا خان السياسيّة، إلى أن وافاه الأجل عام 1942م.

كان إمامنا الراحل يُشيد بهذا الشيخ الجليل والمجاهد والمتّقي، ويكنّ له الاحترام الكبير. يُروى بأنّ الإمام قدس سره كثيرًا ما كان يذكر هذا الشيخ أثناء إلقاء درس الأخلاق في المدرسة الفيضيّة، وكان يقول بحقّه:

«على كلّ من يريد أن يحظى بزيارة مؤمن خضعَت له الشياطين وطأطأت له، فليذهب إلى ناحية ريّ، بعد زيارة السيّد عبد العظيم، فليزر الشيخ محمّد تقي بافقي».

هذه الحركة، وهذه الظاهرة الخطرة التي قام بها رضا خان، ودنّس بها العتبات المقدّسة بدخوله إيّاها مع أتباعه وأعوانه الظلمة، حطّمَت حرمة الأماكن المقدسة، وداسَت على جميع معتقدات الحوزة العلميّة، وكانت بمثابة إخطار وتنبيه للحوزة وعلماء الدين. وللأسف الشديد، لم تلقَ أيّ ردع أو تنديد من رئيس الحوزة، بل وأكثر،

(1) السيّدة فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

فقد عمد إلى تهدئة الناس، وتوصيتهم بالصبر والتحمّل وعدم المواجهة، وحرَّمَ عليهم النشاط الجهاديّ ضدّ الطغمة الحاكمة؛ ولعلّ تعليله لذلك كان خشية تبديد الحوزة العلميّة، وخشية أن يدفع رضا خان بالقيام ضدّها بأكثر من هذا، وحفاظًا على سمعة الحوزة ووجاهتها ومكانتها والاحتفاظ بوجودها، أمر بذلك؛ ولكن على أيّة حال، هذا السكوت والتراجع جعل رضا خان يتجاسر ويتطاول على الحوزة والدين أكثر فأكثر.

مع حلول الدورة السابعة لانتخابات البرلمان في عام 1929م، وانتهاء الدورة السادسة، سيطرت الحكومة، عسكريًّا ودبلوماسيًّا، على الانتخابات والبرلمان بالكامل، ومن الطبيعيّ أنّ فرز الأصوات سوف لن يكون له أيّة أهمّيّة، وسوف تُسحَقُ أصوات الشعب، وتخرج النتائج حسب رغبات الحكومة، وبما يتماشى مع أهدافها. وهذا هو ما تحقّق فعلًا. وبعد إعلان أسماء الأعضاء الجدد للبرلمان، أصدر رضا خان قرارًا بنفي السيّد حسن المدرّس وإبعاده -وهو الذي وقف في وجه مآربه وأهدافه طيلة حياته السياسيّة في البرلمان، والتي تجاوزت السبعة أعوام- أبعده إلى مدينة خواف الصحراويّة البعيدة.

هدأ بال رضا خان، وارتاح من السيّد حسن المدرّس، وضمن سكوت الحوزة العلميّة والعلماء وهدوءهم، وخلا له الجوّ، وتهيّأَت له أجواء جديدة وآفاق أوسع لتحقيق أهدافه ووضعها قيد التنفيذ؛ فقام بعد ثلاثة أشهر من نفي السيّد المدرّس، بإصدار قانون صوَّتَ عليه البرلمان المزيّف، هو قانون الزيّ الموحّد -الذي أشرنا له سابقًا بشيء من التفصيل- وبعد هذه الحوادث والمواقف، أصدر بيانًا من البرلمان عام 1935م لا يسمح بارتداء زيّ علماء الدين إلّا بعد حصولهم على الموافقة من وزارة الثقافة، وبعد شهر واحد من هذا القرار، أُقِيمَت تلك الحفلات والسهرات وبرامج رقص الفتيات العاريات، ومن ثمّ مسألة تبديل القبّعة بالطراز الأوروبّيّ، ونشر مسألة السفور.

لكنّ هذه الحوادث والوقائع لم تكن تحتفظ بشكلها الصوريّ لكثير من الناس وعلماء الدين، وراحوا يتنبّؤون بهجمة كبيرة، ويفسّرون هذه الصور بأنّها مقدّمة

لهذه الهجمة الكبيرة والعنيفة، وقد تكون هي بالذات مسألة إشاعة السفور والإقرار به. وعلى هذا، اجتمع علماء الدين من مدن عدّة، وشكّلوا حلقات اجتماع وبحث، وأصدروا بيانات معارضة للحكومة.

ففي تبريز، قام آية الله ميرزا صادق آغا وآية الله السيّد أبو الحسن أنكجي بالمعارضة؛ وبدون أيّ تأنٍّ، صدر قرار بإلقاء القبض على هذين العالِمَين المجاهدَين، وقد أُبعِدا إلى محافظة كردستان. وبعد انتهاء فترة النفي هذه، اتّخذ آية الله آغا ميرزا صادق آغا من قمّ سكنًا له. وبوجود هذا العالِم الجليل بهذه المدينة، أخذ الإمام قدس سره يُكثر التردّد عليه، ويتداول معه بما يجري من أحداث ووقائع وأمور تخصّ الحوزة والشعب وحِفظ الدين الحنيف، وأخذ يتزوّد من نظراته وآرائه؛ ويؤكّد الإمام قدس سره هذا الجانب بقوله:

«... في عهد رضا خان أيضًا، حدثَت ثورة في آذربيجان، وتولّاها المرحوم آغا ميرزا صادق آغا والمرحوم أنكجي و... لكن أبعدوهم عن ديارهم فترات طويلة. وبعد إطلاق سراح المرحوم آغا ميرزا، رغب بالإقامة في مدينة قمّ، على أنّه كان يحظى بمحبوبيّة كبيرة في آذربيجان، وبقي طوال عمره في قمّ، وكنّا نتنوّر بزيارته والتردّد عليه دائمًا...».

وشهدَت مدينة مشهد اجتماعات مكثّفة لشخصيّات دينيّة وعلميّة، شملَت كلًّا من السيّد حسين القمّيّ، والسيّد يونس الأردبيليّ، والسيّد نجل آية الله الآخوند الخراسانيّ، وغيرهم. ووعوا جميعهم بأنّ هذه الإجراءات والحفلات وسهرات الدعارة في شيراز وطهران، ومسألة القبّعة وغيرها، ما هي إلّا مقدّمة لعمليّة كبرى، وهي مسألة السفور ورفع الحجاب. على إثر هذا، قام السيّد حسين القمّيّ بزيارة إلى طهران؛ ليلتقي برضا خان ويصرفه عن مسألة السفور ورفع الجاب، ولكن ما إن استقرّ في محلّ إقامته، حتّى حاصرته القوّات المسلّحة، ومن ثمّ أبعدوه إلى العتبات المقدّسة. وبعد وصول نبأ هذا الحادث إلى مشهد، أدرك العلماء أنّ رضا خان مُصمّمٌ ومُصرٌّ على ما يروم القيام به.

لذا، شرع العلماء والوعّاظ والخطباء بالوقوف بوجه الحكومة والتنديد بها، وحرّضوا الشعب على الثورة والنهضة ضدّ هذه الحكومة والنظام، وشهد مسجد «كَوهر شاد» تظاهرات واجتماعات كبيرة بهذه الأزمة.

ولمّا رأى رضا خان أنّ عرشه ونظامه قد يتعرّض إلى هزّة من جرّاء هذه المظاهرات المعارِضة، وخشية أن تكون كتلك التي نشأت بأصفهان وبرزَت من قمّ، أصدر أحكامًا وقرارات لقمع هذه الحركات والكتل المجتمعة بهذه المدينة، وبالمسجد هذا بالأخصّ.

يكتب مؤلّف كتاب «ثورة كَوهر شاد» حول اجتماعات الشعب في المسجد واعتراضاتهم، ووقوفهم المشرِّف والشجاع أمام القوّات المسلّحة، ويستشهد في مقالاته بأشخاص شاهدهم بأمّ عينه، وعاشوا الحوادث، فيقول: في صباح يوم الجمعة 10 ربيع الثاني في 1354، أُعلِنَت صفّارة الإنذار للقوّات المسلّحة في مدينة مشهد للتدخّل العسكريّ لتبديد الاجتماعات والكتل الشعبيّة، وتفريقهم بعضهم عن بعض، وفُتِحَت النيران عليهم دون أيّ حذر أو قيد، وجُرِح وقُتِل أكثر من مئة شخص؛ ومع هذا، اشتدّ تماسك المتظاهرين، وجُمِعَ شملهم أكثر فأكثر. وأخذت القوّات تتراجع ظاهريًّا، ولكنّها كانت تتراجع لتتجهّز وتستعدّ مرّة أخرى وتُعيد الكرّة. وبعد هذه الكارثة والقتل، انهال أهالي الأرياف والضواحي لمدينة مشهد، وكلٌّ منهم رافعٌ بيده معولًا أو مسحاة أو شوكة وغيرها، لدعم الشعب والمجاهدين، والوقوف أمام الوحوش والجبابرة المسلّحين. ومُلِئَ المسجد الجامع بالنساء اللواتي شاركنَ الرجال واجتمعنَ في جناح مُصلَّى المسجد. وأخذ الخطباء والمتكلّمون يحرّضون الناس، وينبّهونهم لِما قام به النظام من فساد وانحراف، وتطرّقوا إلى مسألة الزيّ الموحّد، وتبديل القبّعة، والأهمّ حادثة السفور. وبناءً على أوامر القيادة، تجمّعَت القوى العسكريّة، بما فيها الجيش والشرطة ورجال الأمن، تحت ظلّ قيادة العقيد «إيرج مطبوعي»، الذي صمّم على اقتحام المسجد، وإراقة الدماء، وقمع الانتفاضة عسكريًّا في اليوم التالي.

وفي صبيحة يوم السبت، توزّعَت القوى العسكريّة، وشغلَت الأماكن الاستراتيجيّة

في المنطقة والمسجد، ونصبَت الرشّاشات في الزوايا والمشارف المطلّة على المسجد تمامًا، ودخل رجال قوى الأمن إلى المسجد خفيةً، وهيّؤوا الأرضيّة المناسبة لدخول القوّات إلى داخل المسجد في الوقت المناسب، وقد حصل هذا بالفعل.

لم يمضِ وقتٌ من ظلام ليلة الأحد الدامس، إلّا وفُتِحَت النيران على تلك الحشود في المسجد، من أعلاه ومن جوانبه. وفي بضع ساعات، تبدَّد ذلك الاجتماع العظيم، وسط صراخات الجرحى -الذين تلقّوا رصاصات الآثمين بصدورهم الجيّاشة بالإيمان- واستغاثاتهم، وتراوح عدد القتلى ما بين ألفَين إلى خمسة آلاف قتيل، كما بلغ عدد الجرحى حوالي ألف وخمسمئة جريح، ونُقِلوا مباشرةً بشاحنات إلى خارج المدينة، وأُلقِيَت جثثهم، بما فيهم الجرحى، في مقابر جماعيّة تحت التراب، وسِيق البقيّة إلى السجون الانفراديّة.

أمّا السجون، فشهدت تعذيبًا وحشيًّا وقاسيًا لآية الله آغا زاده وآية الله السيّد يونس الأردبيليّ، مع ثلاثين شخصًا من العلماء البارزين، الذين أُلقِيَ القبض عليهم مباشرةً بعد تلك الحادثة.

وأشار الإمام قدس سره في كتابه «كشف الأسرار» إلى هذه الواقعة والمذبحة الراعبة، ووصف حكومة رضا خان بـ«حكومة الكفر والظلم»، وأنّ إعانتها هو «الكفر بعينه»؛ لأنّهم ولأجل فرض القبّعة الغربيّة الجديدة، أراقوا دماء الآلاف من المسلمين في مسجد من مساجد الله، وإلى جانب إمام معصوم.

وبعد الثورة الإسلاميّة، أشار الإمام قدس سره، ضمن خطاباته، إلى هذه الوقائع والحوادث المؤلمة، وأشار بالذات إلى هذه المذبحة الأليمة، عندما تشرَّف علماء الجماعات في خراسان وأئمّتهم بمحضره وزيارته، ذكر ذلك أثناء خطابه قائلًا:

«... لقد قمعوا تلك القدرة وسيطروا عليها، وعزلوا العلماء تمامًا، وأينما وُجِدَ نداءٌ يعارضهم ويُندّد بهم... انهالوا عليه، وقضوا عليه بمهده.

ونهضَت مدينة مشهد كذلك، فقام العلماء قومةً واحدة، ولكن قبض عليهم

جميعًا، حتّى المرحوم السيّد نجل آية الله الخراسانيّ، الذي كان يحظى بقدرة وهيمنة وفاعليّة من الشعب، مضافًا إلى اعتقال كثير منهم، ونقلهم إلى طهران.

اختطفوا هذا العالِم الجليل من الشارع، وأودعوه السجن، وقضوا على جميع تحرّكاته ونشاطه. فالقضاء على شخصٍ كهذا، بقدرته وجهاده، ليس أمرًا يفي بمسألة خلافيّة بين رضا خان وهذا العالِم المبجّل، إنّما هي مسألة وجود رجل علم، ووجود خطر يجب أن يزول...».

ويضيف الإمام مشهدًا آخر يرقّ له القلب، مستعرِضًا:

«... في تلك الانتفاضة التي قام بها علماء خراسان، أُلقِي القبض على المرحوم آغا زاده والسيّد يونس وغيرهما من العلماء، وزجّوهما في سجون طهران، وأنا بنفسي شهدتُ المرحوم آغا زاده (رضوان الله عليه)... رأيته وهو جالسٌ في جانبٍ من السجن بدون زيّه وعمامته، ولم يَسْلم من الرقابة أيضًا. وكانوا يأخذونه بهذا الشكل إلى المحكمة، ويمرّون به في الشوارع، وأمام الناس، وقد جُرِّد من لباسه الدينيّ، ونُزِعَت عمامته.

وفي هذا الوقت بالذات -الذي قام به العلماء المجاهدون-، لم نشهد أيّ تحرّك لأيّ حزب من الأحزاب الموجودة، فأين هم؟ وكأنّهم مقبورون في القبور...».

وطبقًا لما حرّره «صدر الأشراف» بمذكّراته، يذكر أنّ بعد قمع الانتفاضة وإبادة العلماء والناس في مدينة «مشهد»، أخذ رضا خان يشعر أنّ هناك خطرًا كبيرًا من المتديّنين والملتزمين، يمنع إدامة مشاريعه المدعوّة بالإصلاحات، مِن قَبيل تغيير القبّعة والسفور وغيرهما... لهذا، أخذ يخطّط لاستئصال جذور العلماء والمتديّنين من أصلها، وأبرق سرًّا إلى جميع مراكز الشرطة في أرجاء البلاد كافّة، تقضي بمضايقة العلماء والتعرّض لهم أينما وُجِدوا، وأن يبرّروا ذلك بأنواع التبريرات والحجج. وبالمقابل أيضًا، فقد عَمَدَ إلى قتل الكثير من كبارهم، كقتله للسيّد الشهيد حسن المدرّس، الذي قضى نحبه بصورة مفجعة.

لذلك، أخذ رجال الشرطة يتعرّضون إلى العلماء في الطرقات والشوارع، ويشتمونهم ويسبّونهم علنًا، وأحيانًا كانوا يتطاولون عليهم، ويخلعوا عمائمهم أمام الناس، ويستهزئون بهم، كما كانوا أحيانًا يمزّقون ملابسهم أمام مرأى من العامّة، ويزجّون بهم في السجون؛ ولهذا السبب، أخذ العلماء يختبؤون ويحترسون من خروجهم إلى أنحاء المدينة والأماكن العامّة، والكثير منهم جعل من المدرسة محلًّا لإقامته، والتي لم تكن بأمانٍ من رجال الشرطة. والإمام له مذكّرات عن تلك الأيّام التي كان يلقي فيها دروسًا وبحوثًا في الأخلاق، فيقول:

«... كانت لي حلقة بحث في [المدرسة] الفيضيّة. وذات يوم، دخلتُ ورأيتُ شخصًا واحدًا حضر للدرس، وعندما سألتُ، قيل: لم يرَ الطلبة بُدًّا إلّا الهروب من المدرسة قبل شروق الشمس، وسوف يعودون ليلًا؛ كي لا يقعوا بأيدي الشرطة ويخلعوا عنهم زيّهم ويزجّوهم في السجن...».

هذا واستمرّت الهجمة تأخذ أبعادًا أكثر ضدّ الدين والإسلام، وإبعاده عن التراث والشعب، وبموازاتها كانت تزداد دعايات الوطنيّة والقوميّة والعنصريّة.

وفي السنين الأولى لسلطنة رضا خان، أُلغِيَت مادّة القرآن الكريم والتربية الدينيّة، ومُنِعَت إقامة الصلاة فيها، وبُثَّت الدعايات لإقامة الحفلات والمجالس القوميّة والوثنيّة المشركة وإحيائها، والتي تُرِكَت في متاحف التاريخ منذ دخول الإسلام إلى إيران. وبلغ الحدُّ بهم إلى أن أقاموا حفلاتهم على شكل مسيرة أفراح تطوف في الشوارع والطرقات، كما يفعل الأوروبّيّون. وكانت النساء تُحمَل على سطح الشاحنات أو العربات أو الوسائط الأخرى، وهنّ عاريات متبرّجات متزيّنات، ترافقهنّ فرقة من الفرق الموسيقيّة، وأمام أعين الجميع يقمنَ بالرقص والغناء جماعات جماعات، ويمارسنَ الدعارة والفحشاء دونما أيّة عفّة أو حياء!

وكانوا يفرضون على الأهالي والكسبة، على مختلف قطاعاتهم، أن يقدّموا فرقًا وحشودًا بأسماء قطاعاتهم وحرفهم، ويشاركوا هذه المسيرات المختلفة. وبهدف

القضاء على الإسلام، كانوا يخرجون بهذه المراسم أيّام محرّم وليالي عاشوراء! وعلى العكس أيضًا، فأيّام الأعياد الإسلاميّة كانت تمرّ وكأنّها أيّام عاديّة، ولا يُذكر فيها أيّ شيء عن أهل البيت والأئمّة عليهم السلام. ووصل الحال بهم إلى قطع مراسم عاشوراء، التي كانت تُقام في أقسى الأوضاع والأجواء منذ قرون الدهر، وكذلك منعوا مجالس التعزية والعزاء، وراحوا يقتنصون الخطباء وأصحاب المآتم والمجالس الحسينيّة، ويزجّون بهم في السجون. كذلك وضعوا قيودًا وحدودًا لمجالس الفاتحة. وفي عام 1940م، أصدر رضا خان أمرًا بعدم طبع التاريخ القمريّ ونشره؛ لئلّا يعرف الناس تاريخ مراسمهم الدينيّة وشعائرهم الإسلاميّة.

ثمّ اتّخذت الحكومة قرارًا بتشكيل حوزة جديدة، لتكون تحت مراقبتهم؛ لأجل إعداد خطباء ووعّاظ تابعين لهم يخدمون مآربهم، وتَهيئتهم، ولأجل القضاء على الحوزة العلميّة. ولهذا، أُسِّسَت مدرسة «سِبَّهسالار» -المعروفة اليوم باسم مدرسة الشهيد مطهّري- وبخطوة أخرى أكبر، وإتمامًا لِما سبق لتهديم كيان الحوزة، أُصدِرَت تعاليم جديدة:

أوّلها: إنشاء مؤسّسة للوعظ والإرشاد عام 1937م، بأمر من وزارة الثقافة إلى جميع الدوائر التابعة لها ومراكز الأوقاف.

ثانيها: بناء «منظّمة تنمية الأفكار»، وهدفها هو جمع الخطباء والوعّاظ فيها خلال جلسات خاصّة ومعيّنة من قبل، وإعداد الخطباء والمتكلّمين إعدادًا موافقًا للسلطة ولسياسة رضا خان المعادية للدين؛ وبعبارة أخرى، هي مدرسة لتخريج وعّاظ السلاطين.

ويتوضّح هذا أكثر عندما نرى أوّل الشروط للانتساب إلى هذه المنظّمة، وهو أنّ على المنتسب أن لا يكون ذا سابقة في مراكز الشرطة؛ وهذا يدلّنا على أنّ الراغب بالانتماء يجب أن يكون خاليًا من أيّة نقاط تدلّ على معارضته للنظام، أو أنّه ارتكب عملًا سياسيًّا أو جهاديًّا سابقًا ضدّه. وقد جاء في البند الثاني من هذا القانون: «على كلّ

الراغبين بالانتساب إلى المنظّمة لنيل درجة المحدِّث وإجازة الرواية، أن يكون قد تجاوز الخامسة والأربعين من العمر، وأن يحظى بتأييد من فقيهَين عادلَين بإجازة الرواية، وأن يكون حائزًا على تأييد من مراكز الشرطة ببراءته من أيّة سابقة سيّئة؛ وبذلك سوف يُستَثنى من ارتداء الزيّ الموحّد».

هذه المنظّمة التي أُسّست عام 1939م، شُكِّل أفرادها من الجامعيّين والمثقّفين، الذين يجتمعون كلّ أسبوع اجتماعًا واحدًا، يلقون فيه الخطب والكلمات حول مواضيع مختلفة. وكانت تطبع وتنشر هذه الكلمات والخطب على شكل مقالات، وتصبّ هذه الموضوعات كلّها في مجرى واحد، وهو تأييد سياسة رضا خان، واستنزاف الدين والإسلام وتشويهه، وبثّ الدعاية للتراث القوميّ الأصيل.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«طيلة العشرين عامًا... لم يوجد أيّ متنفّس لعلماء الدين، ولم يكن هناك طريق لنشر أفكارهم وبثّ الوعي الإسلاميّ والثقافة الدينيّة في صفوف الجماهير، فقد تسلّط المجرمون على المدارس الدينيّة وأغلقوها، وأقاموا في بعضها مجالس الدعارة والفسوق، والتي هي بدورها تُعَدّ أخطر من مجالس المخدّرات. فمدرسة «مروي» الدينيّة، التي خرّجَت الآلاف من العلماء والمدرّسين، أصبحَت مركزًا لإقامة الأرمن المسيحيّين، ومدرسة «سِبَّهسالار» أودعوها لتربية مجموعة شباب وتنميتهم، وباسم الدراسة والتدريس، هيّؤوهم لإدارة أعمال الدوائر، ولقلب موظّفيها بالتمام لصالحهم، ومن ثمّ نقلوا ممتلكاتهم إلى الدوائر الرسميّة، وبقيَت حتّى الآن -بعد رضا خان- على ذلك الحال، كذلك خرّجوا خطباء ووعّاظ إلى الساحة الجماهيريّة، وبدورهم حرّفوا أذهان الناس عن الدين، ووجّهوها إلى أهداف رضا خان، التي هي في الواقع أهداف الاستعمار والغرب».

والإمام قدس سره أشار إلى الهدف الرئيس الذي أدّى إلى وصول رضا خان إلى سدّة الحكم، وما أوكلوا إليه من خطط لتنفيذ أهدافهم الاستعماريّة. وهذه التجربة والخبرة

السياسيّة الثمينة حصلَت بعد دراسة ومطالعة ومتابعة دقيقة ومستمرّة لِما جرى من حوادث ووقائع في عهد رضا خان. والإمام قدس‌سره ذكر هذا الجانب أكثر من مرّة، بقوله قدس‌سره:

«**كنتُ مراقبًا لجميع الأحداث منذ انقلاب رضا خان، وحتّى اليوم**».

وخلال زيارة جمع من الخطباء وعلماء الدين لسماحته، أشار إلى أهداف الاستعمار عبر رضا خان في خطاباته، قائلًا:

«**... هنا يجب عليّ أن أنوّه إلى نقطة هامّة، وهي أن نتعلّم دروسًا وعبراً من خبراء الدول العظمى هؤلاء... درسوا أوضاع البلاد الإسلاميّة دراسة عميقة منذ ثلاثمئة عام، وبخاصّة بلادنا إيران، التي يعتبرونها -بحقّ- أهمّ دولة بالنسبة لهم، فدرسوا كلّ ما لدينا من ثقافة وعلوم واقتصاد و... أكثر منّا نحن... ويجب أن ننتبه، بعد تلك الدراسة المكثّفة التي أجروها، إلى الأهداف التي يرمون إليها، وما الذي ينفعهم كي يستثمروه؟ وما الذي يضرّهم فيجتنبوه؟ ما هي خططهم وسياساتهم للحركات والفرق المضادّة، والحركات والفرق الموالية وذات المصلحة؟**

فلننظر إلى إيران منذ انقلاب رضا خان ودخوله إليها -وما أَحتفظ به من ذكرياتي عنها-، ولنرَ كيف أراد البريطانيّون تنصيب رضا خان في السلطة، وإلى حين خروجه من إيران. انظروا كيف تعامل البريطانيّون مع الفئات والحركات السلميّة، وما هو ردود فعلهم للحركات والفئات المعادية. نحن لا نشكّ في أنّ رضا خان لم يكن بمستوى علميّ للغاية، لكنّهم عرفوا أنّه أداة جيّدة ومنفّذ جيّد وجسور وقويّ؛ ولذلك اختاروه لمهمّتهم. ولعلّ كبار السنّ منّا يتذكّرون عندما سمعوا راديو دهلي -الذي كان تحت سيطرة البريطانيّين وقتها- يبثّ تقريرًا ويقول: نحن الذين أوصلنا رضا خان إلى السلطة، ونحن الذين سحبنا هذه الصلاحيّة منه؛ لأنّه بأيّامه الأخيرة، أخذ يتردّد على الألمان ويخالف أوامرنا.

هؤلاء كانوا على علم ودراية بأنّ رضا خان لا يملك أيّ حسّ سياسيّ، وكلّ ما في

الأمر أنّه رجل شرس وذو سلطة وقوّة، ومن الممكن أن يصبح آلة بأيديهم. واستلم رضا خان السلطة بعد انقلابه المزعوم، وقضى على كثير من الرجالات والأفراد؛ بحيث أصبح المتتبّع للأحداث يرى بأنّ رضا خان، بأعماله هذه، يسير وفق خطّة ومنهج مُدبَّر من قبل. وابتدأ بالرياء والتظاهر أمام الشعب، متقنِّعًا باسم الدين، وبحضوره إلى مجالس العزاء، بل كان يقيمها بنفسه، وكان يتردّد من مجلس إلى آخر وهو حافي القدمَين! واستمرّ على هذا المنوال إلى أن صعد على دفّة السلطة وتسلّمها، فتغيّرت أساليبه بكاملها فجأة، حيث انعكست على الفئات والحركات والأشخاص، ومع مَن تآلف، ومع مَن تخالف.

والكثير منّا يعلم أنّه بادئ ذي بدء، خالف علماء الدين بعنوان التقدّميّة والحركة الإصلاحيّة... وتحرّك أكثر على هذا النطاق، وفرض الامتحانات في المدرسة الفيضيّة، والتي شهدناها بأمّ أعيننا، والتي راح ضحيّـتها عددٌ من رجال الدين والعلماء، وخُدِعوا بهذه الحيل والألاعيب، حتّى إنّ أشخاصًا من كبار الحوزة أخذ هذا القرار مأخذ الجدّ، وصدّقه تصديقًا كاملًا؛ لأنّه يفصل الطلبة اللائقين عن غيرهم الذين لا يليق لهم هذا الزيّ المحترم والمقدّس... ورحم الله المرحوم «فيض»، حيث قال لي: لا بأس بهذا... هذا مشروعٌ جيّد، والأفضل أن نُعزَل عن الطلبة الكسالى غير اللائقين... وقد أجبته: صحيحٌ ما تقوله، لكنّ هؤلاء يريدون فصلهم عنّا؛ لتعيين الجيّدين منّا للقضاء عليهم، لا لطرد الكسالى غير اللائقين. وبالفعل، هذا هو ما حدث، ونفّذوا خططهم باسم الاختبارات والامتحانات، وخرجوا وقد تركونا على هذا الحال المؤلم. ولم تنتهِ المسألة هنا، فما إن مضَت فترة وجيزة، إلّا وأعلنوا عن الزيّ الموحَّد للشعب أجمع، ونزعوا العمائم عن المعمّمين عنوةً، ودمّروا الحوزة، هكذا لطّخوا وجه التاريخ بأعمالهم هذه.

هذه كلّها أمور سجّلها التاريخ، وسيسجّلها القادمون واللّاحقون... لا ننسى كيف استطاعوا منع إقامة المآتم الحسينيّة، ولعلّه من قبيل المصادفة أن تجد مجلسًا أو

مأتمًا من مجالس تلك الأيّام علنًا في إحدى المدن. حتّى الآن، أتذكّر أحد الأشخاص، كان يقيم مجلسًا صغيراً يحضره بعض الأشخاص، وكانوا يتفرّقون قبل طلوع الشمس، وقد رُوقِب هذا المجلس، ومُنِع صاحبُه من إقامته.

... لقد واجهَت الحوزة بجناحيها، الخطباء والعلماء، حملةً شعواء شُنّت عليهم.

يقول: يجب أن تكون في إيران كلّها ستّ عمائم لا غير. والحقيقة، حتّى هذا كان كذبًا محضًا، ولو كان بإمكانهم ذلك، لقمعوا المعمّمين عن بكرة أبيهم؛ ونستطيع أن تستنتج من خلال هجماتهم هذه على مجالس العزاء والمآتم، وعلى المتديّنين، أنّهم أدركوا أنّ هذا كلّه هو مصدر الخطر الأوحد الذي يقف في وجوههم، ويحطّم أهدافهم. وبعد هذا، أعلنوا عن السفور الإجباريّ ونزع الحجاب عن النساء؛ لكي يقضوا على كلّ متديّن وملتزم، والله هو العالِم كم من جناية وقعَت من جرّاء هذا القرار...

... لقد أراد أولئك الأشرار أن ينفّذوا خططهم قسرًا أو قهرًا... واستطاعوا، من خلال دراساتهم ومطالعتهم، معرفة الموانع جميعها، فقضوا عليها بجميع الوسائل والطرق، وبخاصّة من خلال أقلامهم وصحفهم وكتّابِهم وخطاباتهم، وحقّقوا أهدافهم... ووصلَت دعاياتهم البشعة إلى حدّ أن أصبح الشعراء، ومن خلال وسائل الإعلام، يتهجّمون على الدين، ويستهزئون به وبالعلماء علنًا. ولا ننسى ذلك الشاعر الذي أنشد قصيدته الغنائيّة التي تقول: «ما دام رجال الدين في البلاد، فلننظر إلى أين سيوصلونه!»، وأخذ يشجّع الشعراء وغيرهم على مثل هذا، وما أرادوا بذلك شخص المتديّنين أنفسهم، إنّما أرادوا بذلك طمس معالم الإسلام، وإبعاد الناس عنه، فأقاموا لهذا الغرض الحفلات الغنائيّة والأمسيّات الشعريّة وغيرها... وأولئك يعلمون جيّدًا بأنّ الإسلام ما دام قويًّا في بلد ما، فإنّه يَحُول دون تسلّطهم. لذا، يجب إزالة الإسلام وأحكام الدين ومظاهره، ثمّ التوجّه إلى العرش والسلطة بعد ذلك. ولهذا، أخذوا يدرسون دعائم الإسلام وركائزه؛ كي يحاربوه ويقتلعوه من جذوره، وراحوا يراقبون ما هو متمسِّكٌ به الناسُ أكثر، ويحاربونه أكثر وأكثر...».

وتزامنًا مع خطوات رضا خان المدمّرة للدين والشريعة، ظهرَت خطوط مستقلّة ظاهريًّا لتضعيف عقائد الناس، وإهانة المقدّسات والشعائر الإسلاميّة. وكان ممثّلا هذه الخطوط هما «أحمد كسرويّ» و«شريعت سنكلجي»، اللذَين كانا يتمتّعان بكامل الحرّية والصلاحيّة بالاجتماعات السياسيّة والدينيّة، وكذلك بإلقاء الخطب والكلمات وبثّ أفكارهم من خلالها، والتي كانت النشاطات المماثلة لها آنذاك محرّمة وممنوعة من قِبَل الدولة.

وراح «شريعت سنكلجي» يبثّ سمومه وأفكاره لمحاربة بعض عقائد الشيعة، ويدعو إلى تصحيح العقائد والأفكار حسبما تشتهيه نفسه. فمثلًا، أخذ يهاجم الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف ومسألة الظهور وقيام الدولة الإسلاميّة العادلة وما إلى ذلك، أمام الملأ دون أيّ قيد أو حذر. وراح يدعو الجماهير إلى ظهور عصر جديد، يتحلّى بالحضارة المتمدّنة، دون الانتظار لعصر يظهر بحدّ السيف. ولهذا، ذكر الإمام قدس سره في كتابه «كشف الأسرار» بأنّ أفكاره ودعاياته ضدّ الإسلام هي خدمة لصالح رضا خان:

«بهذه الأجواء، أعَدّوا رجالًا من المعمّمين، فارغين، بعيدين عن الدين والعقيدة والتقوى، وزجّوهم في الساحة الاجتماعيّة، فراحوا يروّجون العقائد الباطلة والفاسدة باسم التقوى والحركة الإصلاحيّة. كذلك أخذوا يؤلّفون الكتب المحرّفة والمنحرفة إلى الأسواق للتوزيع على حسابهم الخاصّ، أو على حساب الأفراد المغفّلين. فإذا قُدِّم طلبُ موافقةٍ لإصدار كتابٍ يردّ على تلك الكتب، قوبل بالرفض، وحِيل دون صدوره. فمثلًا، ألّف أحد العلماء كتابًا باسم «الإيمان والرجعة»، وهو ردٌّ على كتاب شريعت سنكلجيّ المدعوّ «الإسلام والرجعة»، والذي تطرّق بالردّ على ما ذكره من أكاذيب وأساطير خلال كتابه المشؤوم، فرُفِض طبعه، وبقي الآن مخطوطًا».

أمّا أحمد كسرويّ[1]، فقد بدأ نشاطه الهدّام بعد انتهاء النصف الأوّل من فترة حكومة رضا خان. وأخذ هذا يبثّ أفكاره المتأثّرة بالوهّابيّة، التي تدور حول بناء صيغة

(1) أحد الكتّاب الذين تهجّموا على الإسلام في كتاباته. والشهيد نوّاب الصفويّ: أحد أعضاء منظّمة فدائيّي الإسلام، كان قد وضع حدًّا لمهاترات هذا الكاتب الملحد.

جديدة للأديان، ومن ضمنها الدين الإسلاميّ، وأن تُخرَج من إطارها الذي كان بعهد الرسول ﷺ؛ لأنّه منهج قديم وغير عمليّ. وكان يرى أنّ الإسلام هو دين غير متناسق، وعيَّنَ نفسه نبيًّا له، وأخرج كتابًا يقدّسه أطلق عليه اسم «ورجاوند بنياد»، الذي حرّره بإنشاءٍ فارسيٍّ قديم. وسمّى دينه هذا باسم «آئين باك» -أي العقيدة الطاهرة، أو الدستور الخالص- الذي يراه مناسبًا مع التطوّرات العلميّة والعقليّة في عصرنا هذا، وبعيدًا عن الخرافات الماضية. وما هو جدير ذكره، أنّ كلّ ما يمرّ بذهنه من أمور ويراها مخالفة لهواه، كان يطلق عليها اسم الخرافة؛ لهذا، قام بحرق كثير من كتب الأدعية والعرفان في ذلك اليوم الذي أُقيم فيه حفل حرق الكتب الخرافيّة.

واستمرّ أحمد كسرويّ بمهمّته هذه بعد هروب رضا خان. وبهذا، وقع الكثير من الشباب في الشكّ والتردّد في اعتقاداتهم وأفكارهم، بينما نجوا لتوّهم من بطش رضا خان وفساده وتشويه الإسلام أمامهم. وقام أحد الشباب المغفّلين التائهين في بحر هذا المنحرف، بنشر كرّاس يضمّ تلك الأفكار الواهية والتائهة، والتي واجهَت ردًّا معمّقًا مليئًا بالملاحظات الفقهيّة والتاريخيّة والسياسيّة والحكميّة بعد شهرَين من الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ، عبر كتابه الثمين «كشف الأسرار».

وكان ردّ الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ عليه وعلى أستاذه «كسرويّ» الخائن المنحرف، بشكل غير مباشر، حيث لم يذكر أيّ اسم لهما أثناء استدلالاته، التي تردُّ مزاعمه حول قِدَم الإسلام وعدم انسجامه مع العلوم العقليّة والمتطلّبات الحياتيّة حاليًّا، فيستطرد قائلًا:

«إنّ هؤلاء لا يرَون من الكون شيئًا سوى هذه الحياة المادّيّة الحيوانيّة. ولهذا، فهم يقيسون الدين وتعاليمه بهذه الحياة، ويعتقدون أنّ انسجام الدين والحياة، هو عبارة عن انسجام الدين مع حياتنا المادّيّة التي نعيش. إنّهم غفلوا عن هذه المسألة، إذ يعتبرون الحياة -هذه الحياة المليئة بالهموم والمشاكل والابتلاءات- ليس إلّا عملًا صبيانيًّا، لا يُوجِده أيّ عالِم عاقل؟! كيف والخالق -عزّ وجلّ- الذي أعماله كلّها على أساس الحكمة!

نحن آمنّا بربٍّ وإله جبّار عادل يجازي كلّ مجرم بجزائه في محكمته العادلة المنصفة، ويأخذ حقّ المظلومين من الظالمين، الذين تسلّطوا على رقاب الناس، وشربوا دماءهم، وسحقوهم بدبّاباتهم، وقضوا على الآلاف المؤلّفة من النساء والأطفال بمدافعهم وأسلحتهم[1].

إنّ الله -سبحانه وتعالى- وضع قوانين وأصولًا ومنهجًا لهذه الحياة، لا لأجلها، بل لأجل الإعداد لحياة أخرى، وضمان الحياة الأبديّة للكون؛ لهذا أشار الله -عزّ وجلّ- في كتابه المجيد إلى هذه الدنيا بأنّها (لهو ولعب وتفاخر بالأموال والأولاد)...».

وفي خاتمة الكتاب، وبعد أن أجلى عن الدعايات المضادّة للإسلام، التي كانت الصحف آنذاك تروّجها وتنشرها، تطرّق إلى أفكار «كسرويّ» وتابعيه السائرين على تلك الأهداف المشؤومة، حيث خاطب مؤلِّف الكتاب بقوله:

«أنتم وأمثالكم من المغفّلين الجهلة، السائرين على نهج إمامكم المنحرف اللادينيّ (كسرويّ)، أخذتم -ودون أيّ شعور وإحساس- تلتهمون ما تبقّى من تلك القصعة النتنة، ورحتم تهاجمون الدين والإسلام وحرّيّة البلد بكتبكم الواهية المخزية الحاوية على التهم والافتراءات والتنكيل، دون أيّ خشية وحياء ووجل، وتطلقون على أفكاركم ودينكم اسم «الدين النقيّ». هذا، مع علمكم كلّه بسوابق كبيركم الأبله [كسرويّ]، الذي ذاع صيته كمفسد ومنحرف ومتسكّع في طهران وتبريز، وبكلّ صلافة تبجِّلونه، وتطلقون على أفكاره وأعماله «الدين النقيّ»، الذي راح يشوِّه الأديان السماويّة جميعها بنظر الناس، ويصدّهم عمّا جاء به خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم من رسالاتٍ من الربّ الرؤوف الرحيم».

ج. السياسة العسكريّة

ترعرع رضا خان في أجواء المعسكرات، وفي أحضان القوّات المسلّحة، ونشأ نشأة عسكريّة؛ وبمساعدة القوّات العسكريّة ودعم البريطانيّين، استطاع أن يصل إلى سدّة

(1) هذه إشارة إلى أمراء الحرب العالميّة الثانية وقادتها.

الحكم. وكان شديد التأثّر بالقوّة والسلاح والعنف والعسكر، ومن اعتقاداته أنّ القوّات العسكريّة هي عمود الدولة ونظام البلد، وأنّ ما يتحلّى به الجنديّ المسلّح الجاهل الوضيع هو أكبر وأعظم ممّا تملكه إيران كلّه، من تراث وعراقة وأصالة. وهذا ليس غريبًا منه، كونه أحد أولئك الجنود الذين لا يعرفون عن وجودهم سوى هذا المعنى، مضافًا إلى أنّه يرى نفسه مدينًا لهم، نظرًا لما يسعى له. وبهذا، أخذ يُولي اهتمامًا واسعًا وكبيرًا للقادة العسكريّين، الذين يتلقّون الترقيات الرفيعة في المدن والولايات كافّة، حتّى إنّه كان يُخضِع الأمراء والولاة والمحافظين للانصياع إلى أوامر أولئك القادة والروّاد العسكريّين، وفسح لهم المجال أكثر فأكثر، وأَوْلاهم قدرات، فأصبحوا مبسوطي اليد باقتناء الأموال والثروات الطائلة، ابتداءً من نفسه؛ فمن حياةٍ بسيطة عاديّة متواضعة، إلى خزانة أموال البلد والشعب، يتصرّف كما يشاء ويهوى، ويُسخّرها لصالحه ولصالح أتباعه ومواليه.

وعندما فاز بالسلطة والهيمنة، أخذ يرسل جلاوزته إلى أفضل المناطق في إيران، حيث مناطق مازندران وجيلان وجرجان. وبالقوّة والتهديد، سيطروا على جميع الأراضي والبساتين والمراتع، المنقطعة النظير من حيث الجودة ووفرة الإنتاج، وانتزعوها من أصحابها عنوةً وظلمًا، بأسعار زهيدة لم تبلغ العشر من ثمنها، وصودِرَت لصالح رضا خان نفسه. إنّها قصّة مؤلمة حين تستعرضها، وحينما تتعرّف ما كانت تقوم به دائرة الأراضي من انتهاكات، واستباحة الأموال والأعراض، وارتكاب المجازر والظُلَم التي تهزّ الإنسان، ولا يمكن لأحدٍ هضمها أو تحمّلها، حتّى الحجر والمدر[1]، وانتشرت تلك الغارات والظلامات في الصحف والمجلّات، بعد هروب رضا خان، انتشارًا فظيعًا، لم يسمع أحدٌ الكثير عنها سابقًا.

وإذا وددتَ، أيّها القارئ النبيل، أن تتعرّف ما بحوزة رضا خان من ملكيّة، فتعالَ واستمِع إلى خطاب أحد نوّاب البرلمان الثالث عشر، بعد هروب رضا خان من البلاد، إذ

(1) المدر: الطين.

يقول: إنّ رضا خان يملك 44 عنوانَ مُلكٍ، تشمل قرى ونواحٍ وقصبات، وما يدّخره في البنوك الأجنبيّة خارج إيران مبلغٌ يُقَدَّر بـ360 مليون دولار، مضافًا إلى مبلغ قدره 58 مليون جنيه في بنوك بريطانيا، وغيرها، كما سُجِّل رسميًّا مبلغٌ قدره 68 مليون تومان في البنك الوطنيّ الإيرانيّ. هذا، ومضافًا إلى ما مرّ، فهو يملك مراكز تجاريّة ومعامل ضخمة تدرّ عليه الآلاف المؤلّفة، كفندق «آبعلي»، ومعمل الإسمنت في «جالوس» و«رامسر»، والمنطقة السياحيّة التجاريّة «دربند» في شمال طهران، صالة فردوسيّ، فيلّات منطقة مبارك آباد، معامل نسج الحرير في «جالوس»، والأقمشة والنسيج في «عليّ آباد»، معمل جلاء الرزّ، وتطهير القطن، ومعمل الصخور والأحجار، وغير ذلك.

وإذا تطلّعنا إلى ثروات وأموال كلّ من «إقبال السلطنة ماكوئي» والعميد «معزّز بجنورديّ» و«الشيخ خزعل» والعميد «أسعد» وغيرهم، فسوف يتبيّن أنّ ثروات رضا خان وأمواله أكثر من هذا بكثير. ولهذا، نرى أنّ أحد نوّاب البرلمان البريطانيّ، عندما زار إيران واطّلع على الفَرق بين حياة رضا خان وحياة الفرد الإيرانيّ العاديّ ومعاناته، عاد إلى بلده وكتب عنهم قائلًا: «إنّ رضا خان قضى على جميع قطّاع الطرق والسرّاق والمهرّبين والجناة، وأفهمَ الشعب الإيرانيّ أنّه وبعد هذا سوف لن يوجد أيّ من هذه الفضائل، سوى قاطع طرق واحد فقط!».

كذلك المسؤولون وأصحاب السمة، فإنّهم وحسب درجاتهم ورتبهم، جمعوا الكثير من الأموال والثروات من الأغنياء والضعفاء بطرقٍ شتّى، حيث استطاع قائد الجيش «أمير أحمديّ» الملقَّب بفاتح كردستان -من خلال ما جناه من محافظة كردستان- أن يبتاع خمسين منزلًا في طهران. وسرى هذا الوضع حتّى إلى الجيش بذاته. فإذا ما أعرضنا عن مسألة الارتشاء والاختلاس من ميزانيّة الجيش صفحًا، سوف تُكشَف لنا أمورٌ عدّة؛ فمنهم من كان مبسوط اليد، وكان يستعمل من أنواع الضغوط على الجنود وأقسامها؛ لجني المال والثروات. أمّا ميزان التقدّم والترفيع في الجيش ومعياره، فهو أن يُظهِر الفرد كامل الطاعة، بل التملّق والاسترضاء من الدرجة التي تعلوه، وهذا بدوره كان يُطَبَّق أيضًا على كبار رجالات الجيش بالنسبة لرضا خان.

وعلى العموم، فإنّه ليس من العجيب أن تَظهر هذه الصور والظواهر والثقافة المنحرفة اللاإنسانيّة؛ فهذا نتاج طبيعيّ ومتوقَّع من حكومة ديكتاتوريّة كحكومة رضا خان، ومن جيشٍ عمَّهُ الفساد والرذيلة والبطش القائم على القوّة والاضطهاد. فرضا خان يهوى قلبُه جيشًا جرّارًا مرعِبًا للناس ولمن يخالفه، ولكنّه -وكما سنرى في المستقبل- مجرّد جبل من قشور ورماد تذروه الرياح.

وممّا هو جديرٌ ذكره، أنّ هذا الجيش أُنشِئ بمساعٍ كبيرة وعظيمة، وفُرِضَت خدمة العَلَم إجباريًّا بقانون من البرلمان عام 1926م، والذي نصّ على تجنيد الذكور الذين يتمتّعون بصحّة جسديّة وعقليّة، لمدّة سنتَين. وكان إعداد الجيش قبل هذا يتمّ عبر الجنرالات والعمداء والضبّاط، باقتنائهم أفرادًا لهم حسب اختيارهم. ولكن بعد هذا القانون، أصبح على كلّ شخص مشمول أن يقضي الخدمة لمدّة سنتَين، سواء أكانت البلاد في حالة حرب، أم في حالة سلم؛ ومن جرّاء هذا القانون، أصبحت القرى والأرياف وبعض المدن خالية من الشباب، الذين هم لولب الحياة وعجلة الحركة الاقتصاديّة، وبالأخصّ في المناطق الريفيّة والقرى؛ وذلك لأنّ القانون يشمل كلّ فرد يكون سنّه 18 عامًا وما فوق، وسِيقوا جميعًا إلى المعسكرات، وظلّت الأسواق والحركة التجاريّة والعجلة الاقتصاديّة بيد كبار السنّ والمقعدين، حيث أدّى ذلك إلى الفقر الشديد في تلك المنطقة البعيدة والنائية.

أمّا في المدن الكبيرة، فعادةً ما يكون الشباب فيها قليلًا من جهة، ومن جهة أخرى، راحت العوائل الغنيّة والقريبة من السلطة وغيرها تبذل الرشوات والمبالغ الطائلة للحصول على العفو لأبنائهم المدلّلين. وعلاوة على ما يجب أن يتقنه الجنود من تدريبات على مختلف الأسلحة الخفيفة والثقيلة طيلة العامَين، فإنّهم يُعامَلون من قِبَل الضبّاط والقوّاد بأبشع المعاملة، ويُعتَبرون لديهم خدمًا، بل وأقلّ، وحتّى إنّهم كانوا يكلّفونهم بما لا يطيقون إنجازه من أعمال شاقّة.

بناءً على هذا وما ذكرنا سابقًا، اعترض علماء وفقهاء أصفهان وبعض المدن، الذين

اعتصموا في مدينة قمّ، اعترضوا على هذا القانون الإجباريّ، مطالِبين بإلغائه. يتطرّق لهذا إمامنا الراحل قدس سره في كتابه «كشف الأسرار»، والذي كان بوقتها على تماسٍ مباشر مع العلماء المعتصِمين المعترِضين، فيروي لنا قائلًا:

«أفرز قانون الخدمة العسكريّة الإجباريّ نتائج غير جيّدة؛ فمن جهة، أخلّ بالدستور وبقوانين النظام العسكريّ، ومن جهة، نُفِّذ تنفيذًا غير جيّد، وكثيرة هي أخطاؤه وعراقيله وظلمه، بحيث لو أردنا أن نتحدّث عن ذلك ونكشف الستار عنها، لوجب علينا إخراج كتيّب بذلك. لكنّنا نترك كلّ شيء لكم ولِما تحكمون به أنتم. انظروا جيّدًا إلى نتائج هذا القانون الإجباريّ وما تركه للبلاد من سرقات وغارات وتسلّط على رقاب الضعفاء ونهبهم أموالهم وأملاكهم؛ ليقيموا وينشئوا تلك الأبنية والفيلّات في طهران، بدلًا من أن يوفّروا الأمن والاستقرار في البلاد. الكلّ يعلم جيّدًا أنّ كلّ حجر من تلك البيوت والقصور أُخِذَ قهرًا وظلمًا، ملطّخًا بدماء تلك النساء العاجزات المقعدات اللواتي قدّمنَ كلّ ما يمكن إلى السلطة، خوفًا من ظلمهم وبطشهم، ثمّ قضينَ باقي حياتهنَّ باللوعة والحرمان. وما استهلكته القصور من موادّ وطلاء وغيرها للتجميل والزينة، إنّما استُخلِصَت من دماء الأطفال المحرومين.

لقد حطّم هذا القانون نصف محاصيلنا الزراعيّة والصناعيّة، ولم تحصل منه أيّة نتيجة، سوى تلويث شبابنا العفيف المتديّن، خلال خدمته العسكريّة طوال السنتَين، بأبشع أنواع الفساد والفحشاء والمنكر، والذين قضوا أيّامهم ولياليهم مع ثلّة من الأوغاد والجلاوزة، وهدروا فضائلهم كلّها، فضلًا عن اكتساب رذائل المعسكرات، والتي انعكست بعد رجوع عدد منهم إلى قراهم وأريافهم، فعاثوا فيها فسادًا، وقلبوا موازين الأمن والاستقرار، ولجؤوا إلى السرقة والخيانة والفساد، ونقلوا الأمراض المعدية والخبيثة من العاصمة طهران إلى مناطقهم، كمرض «السفليس» وغيره؛ لتلويث الشباب وإسقاطهم؛ كي تنتهي حياتهم المادّيّة والمعنويّة بالتمام».

إنّ 40 بالمئة من ميزانيّة الدولة كانت مخصّصة للجيش، ومع ذلك، كان لا يجيد

سوى إقامة المسيرات والاستعراضات. وأمّا الدعايات التي كانت تُقام له، فحدِّث ولا حرج، فيدعونه بمؤسّس المجد والافتخار لـ«إيران المتجدّدة»، بل «حامي الوطن والأرض»، ومن وراء هذه الدعايات المكثّفة داخل المعسكرات وخارجها، كانوا يهدفون إلى غرس بذور حبّ الوطن وبناء كيان الوطنيّة والقوميّة، وغرس بذور الطاعة والحبّ في قلوب الجنود والضبّاط تجاه السلطنة والسلطان.

وقبل تعرُّض إيران لهجوم البريطانيّين والروس عام 1941م، كان الكثير من الشعب ورجالات الدولة، بل رضا خان نفسه، يرى ويعتقد بقوّة الجيش وصلابته، وأنّ باستطاعته الصمود والتصدّي لكلّ ما يداهم البلد، مهما بلغت قوّة العدوّ. بينما الحقيقة غير ذلك، فما إن طَرَق أسماع الجيش خبر هجوم الروس من الشمال، والبريطانيّين من الجنوب على البلاد، حتّى تبدّد الجيش بأكمله، وهيمنَت عليه حالة الفزع والرعب والقلق خلال ساعات.

يذكر لنا الجنرال «حسين فردوست» -الشخص المقرَّب لوليّ العهد محمّد رضا خان، وأمين السرّ الذي كان آنذاك يشغل منصب المراقب المفتّش على الفرقتَين الدفاعيّتَين للعاصمة، مضافًا إلى مركزيّته في المقرّ العامّ للقوّات المسلّحة، والتي كان يرأسها محمّد رضا خان آنذاك بتنصيب من والده رضا خان- يذكر لنا في مذكّراته في هذا مجال قائلًا: «نستطيع أن نقول: إنّ هناك شخصًا واحدًا وقف وصمد أمام العدوّ واجتياحه، وهو قائد القوّة البحريّة في جنوب البلاد الجنرال «بايندَر». فعندما داهمَت القوّات الأمريكيّة الجنوب، تصدّى لها بشرف، لكنّ الأمريكيّين دمّروا نقالته بالكامل بالمدفعيّة، فتحطّمَت وغرقَت واستشهد آنذاك». هذه هي الصلابة والمقاومة والإخلاص الذي حدث نتيجة عزم الشهيد «بايندَر» وشدّة بأسه، وإلّا لَما لاقت القوّات الأمريكيّة أبدًا أيّة مقاومة تُذكر، واستولَت القوّات الأمريكيّة على ميناء مدينة «خرّمشهر»، وانتشرَت قوّاتهم في محافظة خوزستان، ولعلّه قام بعضُ من يدّعي المقاومة بإطلاق الرصاص وما إلى ذلك، إلّا أنّنا نقول بجزم: لم تكن هناك أيّة مقاومة، أو قوّة، أو صمود، أو دفاع.

أمّا في الشمال، حيث منطقة آذربيجان، فيا للفضيحة! تعالَ وانظر إلى مقاومة

بسيطة وغير استراتيجيّة. لم يعرف الجيش، من كبيرهم إلى صغيرهم، سوى إلقاء السلاح على الأرض، مخفِّفًا عن نفسه ثقل الحديد، ليتسنّى له تسلّق الجبال، وللاختفاء بفجواتها وكهوفها.

وفي محافظة جيلان، كان هناك جيش بقيادة اللواء «قَدَر»، الذي نال وسام الشجاعة فيما بعد على إثر إصابة الروس بقذائف مدفعيّة عدّة. أمّا العقيد «هنكي»، المسؤول عن قاطع «مرزن آباد»، فلم يستطع أن يحقّق أيَّ نصر على الروس، ولم يقم بفعل أيّ شيء يُذكَر، بل احتمى بالجبل، وفرَّ مسرعًا إلى أن لحق بفرقته الأولى بقيادة الجنرال «بوذر جمهري»، والذي نال ميداليّة الفضيحة العظمى بهذا الرَكب الذي جيّش مشهد؛ فمع إمكانيّاتهم واستعداداتهم، تركوا الساحة للروس، وهربوا إلى الصحراء بدرّاجاتهم الناريّة خوفًا وذعرًا، حتّى إنّه، ومن فرط خوفهم وذعرهم، وصل بعضُهم إلى مدينة «بندر عبّاس»، بعد أن قطعوا الصحراء! وبعد فترة من الزمن، وصلَتنا أنباء بوجود قوّات عسكريّة من خراسان إلى مدينة «بندر عبّاس».

هذا، وكذا الحال في مواجهة القوّات البريطانيّة، فلم يحرّك أحدٌ ساكنًا. وهذا كلّه نشأ من جرّاء جبن القيادات والشخصيّات العسكريّة وخوفهم -ومن قسوة الروس والبريطانيّين- فكيف الحال بالجنود والعسكريّين؟ يشير الإمام الخمينيّ قدس سره إلى هذه المسألة بالذات، إلى هروب رجال السلطة والقوّاد قائلًا:

«هل تريدون من جنديٍّ عاديٍّ أن يجاهد أعداءَه، ويلقي بنفسه أمام دبّاباتهم ومدرّعاتهم، وهو يرى القادة العسكريّين جميعهم، من أوّلهم إلى آخرهم، عند هجوم العدوّ، أوّلَ الفارّين والهاربين؟ يرى منه ذلك، وكان يقسو عليه ويحرمه حتّى من مرتّبه الشهريّ -الذي لا يتجاوز السبعة ريالات وعشرها- يراه وهو يرتدي زيّه المدنيّ في ساحة القتال؛ لينجو بنفسه من الهلاك، فكيف تريدون منه أن يصمد أمام العدوّ؟».

ثمّ يتطرّق إمامنا قدس سره إلى أسباب هذه الفجائع والهزائم وعللها، معلِّلًا ذلك بإهمال الدين والالتزام الخُلُقيّ، والابتعادِ عن الإسلام والعقيدة، وبما حلَّ في الجيش من منكر وبغي، يقول:

«مَن الذي يدفع بروح الجنديّ إلى ساحة القتال عند ذلك الليل المظلم والموقع الخطر، حيث يرى الموت إلى جنبه ولا يهابه؟ مَن الذي يدعه يندفع بروح قتاليّة ونافذة، يتأهّب الموت في كلّ حين، سوى الإيمان فقط؟ الإيمان بحياةٍ دائميّة غير زائلة. ما هو الدافع والحافز لروح التضحية عند ذلك الحارس لثغور البلاد ليلًا ونهارًا، سوى الإيمان بالله -تعالى-، والإيمان بجزاء الله الآخر؟ لو كان الجيش آنذاك يبثّ في نفوس الجنود التعاليمَ الدينيّة، والقيمَ الروحيّة، ويستقدم رجالَ العلم والدين إلى المعسكرات ليعظوا الجنود، ويشحنوا نفوسهم بروح الجهاد، ويحرّكوا فيهم المشاعر والأحاسيس الوطنيّة والدينيّة، بدلًا من أن يلقّنوهم الأهازيج الجوفاء، والأناشيد المثيرة، ولو أنّ الإذاعة كذلك كانت تبثّ القيم، وتنشر الفضائل، بدلًا من أن تنشر الرذيلة وتدعو إلى الفساد، لَما وصلَت البلاد إلى ما وصلَت إليه في هذه الصورة الرعناء، ولم يصل مستوى الجيش إلى ما وصل إليه أيضًا من الانحلال والضعف والفساد».

القسم الثالث: معارضة الإمام الخمينيّ قدس سره لنظام رضا خان

نلمح انتقادات ومعارضات شديدة وعديدة من سماحة الإمام قدس سره، في كتابه «كشف الأسرار»، لنظام رضا خان الديكتاتوريّ، ونقتطف مشاهد منها حسب الحاجة والمقام. من بين تلك الانتقادات، يبرز انتقادٌ مهمٌّ لم يلتفت إليه أحدٌ من رجال العلم والعلماء وغيرهم، حول تبديل أوضاع الحكومة والدستور بعد هروب رضا خان. فيرى الإمام قدس سره بهروبه هذا عدمَ تغيير الأحوال السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، أو تبديلها البتّة. ولهذا، يثير هذه النقطة أمام قرّاء كتابه، ويدعوهم إلى إصلاح تركة الوضع الثقيل من عهد رضا خان، وما فيها من أمراض وعلل، والقيام بإصلاحها ومعالجتها بالعلاج المناسب، وإعادة المناسبات والاحتفالات الدينيّة إلى ما كانت عليه قبل حكومة رضا خان. ومن هنا، نسعى إلى إعادة النظر في بعض نظرات الإمام قدس سره، ونعرضها للتحليل والدراسة، بضمّ بعضها إلى بعضها الآخر.

معظم علماء الشيعة يعتقدون «**بأنّ الحاكميّة المطلقة لله -سبحانه وتعالى-، وكلّ ما في الكون من حكومات، فهي حكومات جائرة ومعارِضة لمصلحة العامّة**»، «**فهُم لا يعارضون قيام دولة إسلاميّة مستقلّة، ولا يعارضون حكومات كهذه. وعلى فرض أنّها مخالفة لقوانين الله ودستوره، وهي قائمة بالجور والظلم، إلّا أنّهم لا يخالِفون هذه الحكومات، ولن يخالفوها؛ لأنّهم يرون وجود نظامٍ خاوٍ جائرٍ خيراً من عدمه**»، «**إذًا، نلاحظهم قاموا بثورة ومعارضة ضدّ شخص كرضا خان، وهي مخالفة شخص، لا حكومة؛ لأنّه رجلٌ معارِضٌ لصلاح البلد والشعب**».

وعلى هذا، فحكومة رضا خان تعرّضَت لمخالفة العلماء، رجال العلم، بما فيهم الإمام قدس سره؛ لأنّها حكومة غير مشروعة، ولأنّها «**تأسّسَت من داخل البرلمان بحدّ السيف**»، وبصورة غير قانونيّة. يرى الإمام قدس سره أنّ رضا خان شخصٌ غير لائق بالسلطة؛ لأنّه «**إنسان عسكريّ خشن، والذي يطمح للسلطة والرئاسة يجب أن يطبّق القانون على نفسه أوّلًا، ويرى نفسه كسائر الجماهير، منصاعًا له؛ كي يحظى بتأييد الشعب ورجالات الحكومة والدولة. السلطان يجب أن يُجسِّد البلاد بجسمه، وإنْ أصابها شيء، فإنّه يحسّ به في جسده وبجوارحه، فينطلق ليعالجه. وهكذا، فهو يحفظ الأمن والاستقرار وشرف البلاد وعرضها ومالها؛ فإنْ أصبح غارقًا في بحرٍ من الشهوات والنزوات والاختلاسات والسرقات، لا يهمّه ما يدور في البلاد والعباد، فكيف يُطلَق على هذا الشخص الحيوانيّ بالسلطان أو الرئيس**».

إنّ قوانين هذه الحكومات الديكتاتوريّة ودستورها هي قوانين تُؤمّن منافعَ الحاكم ومَن يلوذ به من الجلاوزة المختلسين، ومصالحَهم؛ ولهذا، «**فإنّ قوانين رضا خان المدسوسة لا تعادل قرشًا واحدًا، ويجب إتلاف جميع الوثائق والقوانين التي صادق عليها البرلمان، وحرقها، وإسقاط جميع الاعتبارات لدى الأعضاء. وإذا كان البرلمان اليوم يريد إعادة النظر بأعضائه، فيجب عليه إقالة جميع عُمّال الأمس الخونة**»؛ لأنّهم «**غالبًا ما اختيروا ولم يُنتخَبوا، ولا يهمّهم من أمر البلاد شيءٌ سوى الاختلاس وتكديس الأموال في الخارج، وتراهم عند ضيق الوقت، وفي الساعة الحرجة، يتركون البلاد ناجين بأنفسهم**».

إذًا، أين ادّعاءاتهم وهتافاتهم بالقوميّة والوطنيّة؟ وأين تكالبهم عليها؟ «**لقد كانت تلك مجرّد شعارات كاذبة خادعة؛ وباسم الوطن والتراث القوميّ، جعلوا من أنفسهم كلماتٍ تدور على ألسن العامّة المغفّلة؛ ليتسنّى لهم ملء الجيوب ونهب الوطن وثروته، والتجربة أكبر برهان لمن أراد الفحص أو الدليل. كلّهم يعلم جيّدًا أنّه يمكن استنزاف الملايين لأجل كرسيّ حسّاس واحد، وإلّا لَما كانوا يُنفقون مئات الآلاف لأجل الحصول عليه**»، وبالطبع «**إذا استطاع فردٌ الوغول في تلك الشبكة الديكتاتوريّة الحاكمة، ويعطّل من حركتها ومسيرتها، وليعود على البلاد بالخير والصلاح منها، فهو عملٌ مطلوبٌ، بل أحيانًا يتوجّب عليه شرعًا أداءه**».

لكنّ بحثَنا لا يدور حول الاحتمالات والاستثناءات والمفردات، بل يدور حول الواقع ومتطلّباته. لذا، «**يجب الانقلاب على هؤلاء المتسلّطين الخونة، ومَن شاكلهم من الكبار والصغار الطامعين المهرّبين، وإلّا سوف تأتي حكومة وسلطة أقذر من هؤلاء، وعندها ترون السابقين كانوا أصلح قومًا وأنسب حكمًا!**». لقد هرب رضا خان، لكن «**له جماعات وأيدٍ خبيثة تعمل له سرًّا، وقد تقنّعت بقناعٍ جديد وثياب جديدة، وأخذت تفترس الشعب وتنهبه من جديد**». وعلى هذا، فإنّ الشعب نفر من جميع رجالات رضا خان وأتباعِه وكلّ من ساهم في عمليّة دحض راية الإسلام والدين الحنيف، «**فالجماهير المحرومة والمظلومة، التي قاسَت أنواع الظلم والجور من رضا خان وعمّاله، أصبحت غير قادرة على أن ترى شخصًا واحدًا من أولئك المجرمين الخونة، الذين تلوّثَت أياديهم بالآثام، حيث العبث بمقدّرات أبناء هذا الشعب، وهتك عرضه، وانتهاك حرماته، وكلّ من يؤيّد ويحترم ويقدّر تلك الحثالات في يومنا هذا، إنّما هو إنسانٌ بعيدٌ عن الشرف والعفّة والنصف. أمّا الصحف التي روّجَت لرضا خان وأتباعه، بأعماله التي تحمل شعار الحركة الإصلاحيّة، والتي من أبرزها مسألة السفور، يجب أن تُحرَق بأجمعها في الشوارع والساحات أمام الجميع**».

يجب أن لا ننشغلَ بإصلاح بعض الرموز والشخصيّات، وبعض المناصب والسمات، ونحيلَهم إلى المحاكمات، ونغفلَ عن غيرهم بدلًا منهم، من الرموز السياسيّة الأجنبيّة القذرة، بل يجب إصلاح الوضع بأكمله؛ وعلى رأس الأمور كلّها، مسألة إصلاح الجوّ الثقافيّ ورموزه، حيث انحرف الشباب والأشبال إلى ساحات الفساد الخُلُقيّ والتباهي، والذي كان يُعَدُّ أحد أهداف رضا خان الرئيسة. ثمّ يستطرد الإمام قدس سره قائلًا:

«من المجالات التي هي بحاجة فاعلة للإصلاح والتطهير، مجال الصحافة والنشر، فالصحف والمجلّات والنشرات الدوريّة التي وصلت إلى حدّ الفساد والانحطاط، وأصبحت مصدرًا له، يجب محوها من الوجود. وإذا كنّا نريد نشر الفساد وإطلاق عنانه، فلا شيء يساعدنا عليه إلّا هذه الحثالات والأوراق المخزية.

هؤلاء باسم التجدّد والتمدّن، جرّوا فتياتنا وفتياننا إلى ساحات الشهوات والنزوات، وأخذوا يرقصون مع فتيات وطننا، بعد أن أخرجوهم من ربقة الإيمان والحجاب والستر إلى السفور والفساد، وقد غفل رضا خان، عند تنفيذ خططه المدمِّرة هذه، عن أن يأتي زمانٌ يثور عليه المؤمنون، ويُنزلون به ضرباتهم المسدّدة له ولخططه بإذن الله -تعالى-، ويهدمون صرح الفسد والطغيان والانحراف.

على العموم، يجب على الشعب والجماهير أن لا تعتبر تلك الصحف والمجلّات التي غاصت فيها أفكار رضا خان وأهدافه، سوى أوراق مهملة نتيجتها النيران، وضرر تلك الصحف والمجلّات التي كانت تبثّ أفكار رضا خان ورجالاته، هو أكثر بمئات الأضعاف من المجرم أحمدي والظالم مختاري وغيرهم. إذا كان مختاري يعتدي على سجين واحد ويعذّبه حتّى الموت، فإن هذه الصحف والمجلّات قاتلةٌ لأمّةٍ بأكملها، لِما تفتقر إليه من عفّة وشرف. إنّ أقلام هذه الصحف وأمثالها، لهي أشدّ ضررًا على الأمّة الإسلاميّة بمئات المرّات من الإبر التي كان يزرقها أحمدي للسجناء المظلومين.

أولئك الذين يدّعون انقراض رضا خان وأعماله وأهدافه طيلة العشرين سنة الماضية، أليسوا هم الذين ينشرون تلك الصحف والمجلّات في بيوت هذه الأمّة

والشعب، ويشيدون بأفكار رضا خان وأعماله؟ إذا كان ادّعاؤهم ذلك صحيحًا وصائبًا، فلماذا لا يلقون بتلك الصحف والمجلّات إلى الشوارع ويحرقونها؛ كي يلقّنوا كتّابها درسًا لن ينسوه أبدًا؟ لقد صادروا جميع معتقداتنا وعاداتنا. وأكثر ما يؤلم القلب ويجرحه، هو إماتة الحسّ الدينيّ والهاجس العقيديّ للأمّة، والذي من خلاله يُحفظ الشرف وتُربى الفضائل الأخلاقيّة».

إنّ الجانب الآخر من انتقادات الإمام قدس سره كان موجّهًا لنوعيّة النظام الدستوريّ للبلد، والذي أشرنا إليه مسبقًا. يتأثّر الإمام قدس سره ويتأسّف للجوّ الحاكم في الجيش، فيكتب قائلًا:

«مع هذا الجوّ الحاكم في الجيش، الذي لا يمكن للجنديّ أن يتأقلم معه، وصل إلى درجة حيث أصبح جليًّا للعموم، أنّه لم يؤسَّس لمصلحة عليا؛ ولهذا نرى الجنود لا يرون سبيلًا لنجاتهم إلّا الهروب. يجب إصلاح البلاد من جميع جوانبها، وبكافّة قطاعاتها، وإلّا فالأفضل رميها في سلّة النسيان».

ومن ثمّ يُظهر الإمامُ قدس سره دهشتَه لعدم تبديل النظام السابق، فيقول:

«في عهد ذلك الطاغية، كانت الأعذار تُطرَح خوفًا من بطشه وقدرته، ولكن اليوم ما الخبر؟».

ثمّ بعد انتقاده هذا، يقترح قائلًا:

«إذا كان المسؤولون يريدون إعداد الجيش، ويبثّون فيه روح الوطنيّة، وحبّ الوطن، والدفاع عنه، يجب عليهم أن يسلّموه إلى رجال العلم والخطباء والوُعّظ الدينيّين، وأن يربطوا الجنديّ بالعالِم الربّانيّ والرجل الدينيّ العقائديّ... وطريق الفتوة والذبّ عن كرامة الوطن وحبّه، لا يمرّ إلّا عبر الروح الإيمانيّة والإلهيّة، التي تؤمن بالله وبمدده الغيبيّ».

ثمّ يستطرد الإمام قدس سره ويتطرّق إلى الوضع الإداريّ المدنيّ للبلاد، وإلى الفساد الإداريّ الذي حصل، وذهب إلى أنّ مصدره هم الموظّفون وأصحاب المشاغل، فهؤلاء

برذائلهم الأخلاقيّة وسوء تصرّفهم وتهتّكهم، جعلوا المواطن يردّ عليهم بما هم عليه، ويهرب من النظام الإداريّ، وإذا بالجماهير منفصلة عن قوانين الدولة، وإذا الفساد والفوضى تعمّ البلد؛ ذلك نتيجة المعاملة السيّئة وإضراب الشعب عن إيصال الضرائب والحقوق للدولة. إذًا، «**يجب أن لا تتوقّعوا حُسن ظنّ الجماهير لدى الدولة، وتنتظروا مساهمة الشعب بما يجنيه بعرق جبينه وتعبه، ويهبه إلى عصابة من المهرِّبين والمختلسين، ويؤدّي بحالة لا يصل معها ميزانيّة الدولة**». والطريق الأمثل والأفضل لإثبات حُسن الظنّ وحُسن النوايا من الحكومة تجاه الشعب، هو: «**إصلاح الوضع القائم، وقمع الغارات والنهب والتهريب، وعزل الخونة والمتربِّصين بالدوائر لمصالحهم الذاتيّة. وبعبارة أخرى، يجب تبديل أحوال البلاد بأكملها، دون استثناء... وإلّا فسيبقى الوضع كما هو عليه، والجماهير على حقّ بما تقوم به تجاه الحكومة**».

الفصل الرابع

غياب القيادة الدينيّة السياسيّة بعد رضا خان

تصاعدَت الأجواء السياسيّة، وضُيِّق الخناق على رضا خان، وهو يعيش الأسابيع الأخيرة من سلطته، إذ دخل جوًّا مضطربًا وخطرًا، وهذا ما كان ناتجًا عن تأزُّم العلاقات البريطانيّة الإيرانيّة؛ نتيجة توطيد العلاقات المتينة بين رضا خان والنازيّة الألمانيّة. وفي الوقت الذي كان فيه رضا خان يتعامل مع هاتَين الدولتَين العظيمتَين تعامُلًا متينًا وسرّيًّا، وعلى انفراد، صمّمَت بريطانيا على عزل رضا خان من السلطة، حفاظًا على مصالحها، وضمانًا لمستقبلها هناك، وإن تطلّب هذا استخدام القوّة العسكريّة. وقد عمدَت بريطانيا إلى شنّ حملة دعائيّة وإعلاميّة كبيرة ضدّ رضا خان عبر الإذاعات الأجنبيّة، وراحت تستفزّ عواطف الجماهير ومشاعرهم، عن طريق التشهير به، وفضح جرائمه وجناياته وظلمه وجوره.

ونتيجةً لضعف حكومة رضا خان ووهنها، مضافًا إلى تصاعد الحملات الدعائيّة الأجنبيّة التي أشعلت نار ثورة كبيرة في نفوس الشعب ضدّ رضا خان، أخذت الحركات الجماهيريّة تتعاظم، والكتل الشعبيّة تتزايد، وتقوّي من نشاطها. وممّا زاد من فورة الشعب وثورته -مضافًا إلى ما سبق- فقدان لقمة العيش، وقلّة الموادّ الغذائيّة، وخاصّةً الدقيق والقمح. وفجأةً داهمت القوّات الروسيّة البلاد، فأطلق رضا خان ساقيه للريح، وولّى هاربًا ليرتميَ في أحضان أسياده البريطانيّين، الذين عملوا على تثبيت حكمه لعقدين من الزمن؛ فنجا بذلك من قبضة الشعب الثائر المتحمّس، ذلك الشعب العظيم الذي

لم يكترث لدخول القوّات الأجنبيّة وهيمنتها على البلاد، إذ غلب عليه الفرح وطغت عليه البهجة والسرور بسقوط رضا خان وهروبه، ذلك الطاغية الذي تحمّلت الجماهير من بطشه وظلمه وجوره ما تحمّلت. لقد كان الشعب على اعتقاد كامل بعدم سقوط ذلك الجبّار لولا دخول تلك القوّات إلى البلاد. يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«... ولعلّ الجميع يتذكّر مدى فرحة الجماهير عند هروب رضا خان، وسرورهم بدخول القوّات الأجنبيّة على أنّها هي سبب السقوط...».

لقد تعاظمَت الأخطاء، وتردَّت أوضاع البلاد؛ نتيجة الأوضاع السياسيّة الجديدة، وتهدّمَت أركان النظم، ووهَنَت قواه، وبانَ ضعفه. وبالمقابل، فالشعب كان على أهبّة الاستعداد للقيام بثورة عارمة وكبيرة، وكاد يشكّل خطرًا كبيرًا وجسيمًا يؤدّي إلى انقلاب واسع، لكنّ الذي حال دون ذلك، وأعاد الماضي من جديد، عاملان أساسيّان:

العامل الأوّل: هو اتّفاق بريطانيا وروسيا على تسليم زمام الأمور لمحمّد رضا بن رضا خان، وساعدَت هذه العمليّة نشاطات «فروغي» المكثّفة والمتواصلة، حيث بذل فروغي هذا ما بوسعه كلّه من جهود، لإبقاء نظام الحكم على صيغته السابقة -أي النظام البهلويّ- وواصل جهوده ومساعيه لتهدئة الشعب والجماهير المنفعلة والمتحمّسة، وإعادة سيطرة الحكومة من جديد. وتطرّق في خطابه الذي ألقاه في البرلمان، وبعد أن قَرأ قرار إقالة رضا خان، تطرّق إلى مدحِ محمّد رضا، وذمِّ المجرمين والجلاوزة السابقين، بقوله: سوف يتسلّم محمّد رضا زمام السلطنة، ويسير على نهج الدستور، وسوف يعاقب كلّ مَن ألحق الضرر والأذى بالشعب، وكلَّ من تسبَّب في ظلم الجماهير وسلبها حقوقها المشروعة، وإنّ ما أُشيع عن محمّد رضا وانسجامه مع أفكار أبيه وأعماله، هو كذبٌ محض، وعارٍ عن الصحّة، وإنّه سوف يطلق عنان الحرّيّة للشعب باختيار الزيّ المناسب، والتزام العقيدة والرأي الذي يرتئيه، وإقامة الشعائر الدينيّة، وإلى غير ذلك. وسيقوم بإجراء محاكمة عامّة وشاملة لكلّ من تسبَّب في توسيع رقعة الظلم والجور سابقًا.

العامل الثاني: وهو الأهمّ، غياب القيادة الجماهيريّة. ففي عهد رضا خان، أُلقِيَ القبض على كثير من رجالات السياسة وعلماء الدين البارزين المعارِضين للنظام، وأُودِعوا السجون، وأصاب بعضهم القتل والاغتيال، وأُبعِدَ آخرون وشُرِّدوا عن أوطانهم، ورُوقِب بعضٌ آخر، كما حُدَّ من تحرّكاتهم. أمّا الباقون من علماء الدين، فاختاروا الصمت والسكوت، حفظًا لكرامتهم ومراعاةً لمكانتهم من جهة، ولفرض الرقابة المشدَّدة عليهم من قِبَل النظام من جهة أخرى. وكانت تُوَجَّه إليهم التهم المتنوّعة والغريبة؛ فتردَّت منزلتُهم، وذهبَت هيبتُهم، فسقطوا من أعين الشعب، حتّى صاروا موضع سخريّة واستهزاء، هذا مضافًا إلى انزوائهم المفرط، وعدم نضج وعيهم السياسيّ. هذا كلّه أدّى إلى فشل الكثير من انتفاضاتهم وتحرّكاتهم، فانصرفَت الجماهير عنهم، وقد بلغ بهم الأمر إلى درجة أصبح فيها عالِم الدين يتمنّى أن لا يُذكَر عنده اسمٌ للسياسة؛ لأنّها أضحَت -في نظره- إهانةً لصاحب العمامة، ولمقام الحوزة العلميّة. وهذا ما دعا الإمام أن يذكر هؤلاء بتعليق جميل وجذّاب، فيقول:

«... من خطط المستعمِرين التي هُيِّئت من قَبل، ونفّذها عمّالهم بجدّيّة تامّة، هي خطّة القضاء على علماء الدين؛ فأشاعوا فكرة انفصال الدين عن السياسة، وأصبح لدى العامّة شيءٌ من السخريّة إذا تفوَّهَ العالِم بكلمةٍ تخصّ هذا المجال، وسرَت الفكرة إلى بعض العلماء أنفسهم؛ فإذا دار الكلام حول السياسة وما يعاني البلد من أزمات ومشاكل، سحبوا أنفهم فورًا، مُعلِنين عدم علاقتهم بالسياسة. وإذا تطرّق أحد العلماء إلى مشكلة يعاني منها الشعب والبلد، أو إلى مسألة قد تمسّ نظام الحكم شيئًا ما، تراهم يفرّون منه فرارهم من الأسد... ويُطلقون عليه «رجل دين السياسة». أولئك يرون ويعتقدون بأنّ مَهمّة عالِم الدين هي ملازمَتُه منزله ومسجده فحسب، وإذا تخلّل بين الفريضتَين محاضرةٌ أو كلمةٌ، فيجب أن تكون فقهيّة أو أخلاقيّة، لا غير، ولا يجوز له التطرّق إلى المشاكل الاجتماعيّة، وإلى فساد الوضع القائم، وأولئك تربَّوا هكذا، وهكذا أثّرت فيهم الدعاية والإشاعات الغربيّة...».

ولقد كان هذا مؤثّرًا على الزعامة الدينيّة السياسيّة، وعامِلًا من عوامل غيابها عن السياسة بعد رضا خان، إلّا أنّ الظروف كانت مُهيّئة للثورة، حيث جعلَت الإمام قدس سره يجرّ حسرات وآهات على خلوّ الساحة من رجال الدين، فراح يقول:

«... مع بالغ الأسف، لم يكن هناك شخصٌ يقوم بالمهمّة ويُنجي الشعب، حتّى استلم ابن رضا خان زمام الأمور، فلو كانت هناك حركتان أو ثلاث في بعض المدن، لتفجّر البركان. وللأسف، لم نجد صوتًا معارِضًا واحدًا، وقد ضرب الخوف والهلع أطنابه من جديد، وذهبَت آمالُ الشعب أدراج الرياح... فلو كان «المدرِّس»، لأحدَث شيئًا، لكن خلت الساحة خلوًّا تامًّا...».

لقد كان هناك من علماء الدين السياسيّين، الذين لو سنحَت لهم الفرصة، لركبوا معارج الثورة، لكن قيّدوهم وأجهضوا نشاطاتهم وهي في مهدها. فهذا العالِم المجاهد آية الله الكاشانيّ، الذي له اليد الكبيرة في مقارعة البريطانيّين، كان أحد المرشَّحين لقيادة ثورة عارمة، لكنّ البريطانيّين ألقوا القبض عليه بتهمة إقامة علاقات سرّيَّة مع الألمان، ولَبِثَ مدّة 28 يومًا في سجون آراك وكرمنشاه ورشت.

كذلك آية الله حسين القمّيّ، الذي أُبعِد إلى مدينة كربلاء عام 1936م إثر معارضته السلطة وتحريضه ضدّ قرارات رضا خان الإصلاحيّة، وقد عزم على الرجوع إلى بلاده -إلى مدينة مشهد- عام 1945م؛ وعند مروره بطهران، استقبلته الجماهير استقبالًا باهرًا، وقد تقدَّم إلى الحكومة القائمة بخمسة طلبات، وهي:

1. فتح مجال الحرّيّة للمرأة باختيارها الزيّ المناسب، وإلغاء حكم السفور.
2. إغلاق المدارس المختلطة.
3. إقامة الشعائر الدينيّة في المدارس الحكوميّة.
4. إصلاح الوضع الاقتصاديّ المتأزّم.
5. حرّيّة نشاط الحوزة وعلماء الدين.

وبعد هروب رضا خان، أعلن بعضُ سجنائه الشيوعيّين عن تنظيمٍ لهم، وأعلنوا عن

ظهور «حزب تُوده» في الساحة عام 1942م. واستطاع هذا الحزب أن يستغلّ غضب الجماهير على الحكومة، فروَّجَ الشعارات الحماسيّة والثوريّة المزيّفة على طلبات الجماهير وما تهدف إليه، فعملَت على نصرته حشودٌ كبيرةٌ من قطاعات الشعب كافّة، وبالأخصّ الشباب والطلبة الجامعيّون والموظّفون والعسكريّون والعمّال.

إنّ الإمام قدس سره الذي درس عهد رضا خان، ولمس خططه ودسائسه جيّدًا، وكشف ماهيّة ذلك النظام الجائر، لم يُخدَع بإصلاحاتٍ جزئيّة وشكليّة من قِبَل دولة فروغي، ويرى أنّ طلبات العلماء غير كاملة، ولا تفي بالغرض المطلوب، ولا تعمل على تحقيق أهداف الشعب، ويُشير لهذا في كتابه «كشف الأسرار»، الذي حرّره وصنّفه بعد عامَين من سقوط عرش رضا خان، ويُظهِر ما يجب إصلاحه وتطهيره، وما غفل عنه العلماء، وأخذ يدعو إلى فهم الجوّ السياسيّ الجديد ووعيه، ويحذّر من الأحزاب والكتل غير الإسلاميّة التي تريد الاصطياد في الماء العكر، ثمّ يبدي أسفه الشديد لِما أضاعه العلماء من فرصة ذهبيّة مهيّأة، فيقول:

«عند هروب رضا خان، وانتهاء العهد الديكتاتوريّ، ظَنَنّا أنّ الشعب قد عرف علّته ووعاها، وذلك جرّاء ضغطٍ دام عقدَين من الزمن، تعرّض فيهما إلى أبشع حالات الظلم والجور والدمار، وأدرك أنّه سوف يقضي على تلك الشرذمة الباقية من ذلك العصر، وسوف يدوس على جميع بِدَعِه وسُنَنه، لكن -ومع شديد الأسف- ظلّ غارقًا في سباته العميق، وتناسى حياته المظلمة. وعندما سكت الشعب عن حقوقه، ولم ينهض للثأر، أعطى الفرصة إلى قنّاصيها، فاعتدوا على علماء الدين وعلى الحوزة العلميّة دون أيّ رادع، وأعرضَت المحاكم عن القرآن، وضربَت به صَفْحًا، وشهَّرَت بالدين والقرآن، وألصقَت به أنواع التهم والافتراءات، حتّى أصبحت الساحة خالية لهم، ولِما يهدفون إليه من أهداف، وما يبيّتونه من نيّات فاسدة مدمّرة تعيد تلك الفترة المظلمة والأيّام المؤلمة».

وفي مجال آخر، نرى الإمام قدس سره يُولي مسألة الإخلاص لله -تعالى- في الميادين

جميعها اهتمامًا واسعًا. إذ يجب على الإنسان أن يكرّس جميع أعماله ونشاطاته في إطار واحد، وهو الإخلاص لله، وإلّا فنشاطاتنا وتحرّكاتنا جميعها سوف تكون شيطانيّة. وعلى المرء أن يعلم أنّ الأهواء هي سبب الانحرافات على اختلاف أنواعها، وقد أوصى الإمام الشعب، بفئاته كلّها، بانتهاز الفرص الثمينة للخلاص من الضعف والوهن المُهيمن عليهم، وأن يقوموا بأعمالهم جميعها بنيّة القربة إلى الله، وإلّا فسيعود الجوّ كما كان سابقًا، وستسيَّر الأمور حسب الأهواء، ويتسلّط الظالمون على المتشتّتين من جديد، ويبشّر الجميع بسلطة أقسى وأبشع من سلطة رضا خان. وقد عبّر الإمام قدس سره عن رأيه هذا بمقال منفرد حسّاس؛ ونظرًا لأهمّيّته، ولِما جاء به من نقاط حسّاسة ومثيرة، وما شمله من توقّعات وتنبّؤات حدثَت فيما بعد، ننقله بنصّه الكامل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾[1].

«بيّن الله -سبحانه- في هذه الآية الشريفة المسيرة الإنسانيّة، من المبدأ الأوّل للطبيعة المظلمة، وحتّى المنتهى. وقد اختار إله العالم -من بين المواعظ كلّها- أفضل المواعظ، ليضع إزاء الانسان عبارةً تمثّل طريق الإصلاح الوحيد للدارَين:

«القيام لله» هو الذي أوصل إبراهيم خليل الرحمن إلى مقام الخلّة، وحرّره من أسر المظاهر المختلفة لعالَم الطبيعة...

«القيام لله» هو الذي نصر موسى الكليم بعصاه على الفراعنة، وألقى بتيجانهم وعروشهم في مهبّ الريح...

إنّ الأنانيّة وترك القيام لله، هما اللذان أوصلانا إلى هذا اليوم الأسود، وسلّطا علينا العالَم كلّه، وجعلا البلدان الإسلاميّة تحت هيمنة الآخرين.

القيام من أجل المنافع الشخصيّة هو الذي قضى على روح الوحدة والأخوّة لدى أبناء الأمّة الإسلاميّة.

(1) سورة سبأ، الآية 46.

القيام من أجل النفس (الذات) هو الذي فرّق بين أكثر من عشرة ملايين شيعيّ، وباعَدَ بينهم بنحوٍ أضحوا فريسةً لثلّةٍ من عبدة الشهوات المتربِّعين على كراسي السلطة.

القيام من أجل الشخص هو الذي يسلّط شخصًا مازندرانيًّا أمّيًّا [محمّد رضا بهلويّ] على عدّة ملايين، ليعيث بحرثهم ونسلهم، إشباعًا لشهواته.

القيام من أجل المنفعة الشخصيّة هو الذي سلَّط علينا الآن عددًا من الأطفال المتسكِّعين، ومكّنَهم من التحكُّم بأموال المسلمين ونفوسهم وأعراضهم في أنحاء البلاد كلّها.

القيام من أجل النفس الأمّارة هو الذي سلّمَ مدارس العلم والفكر لثلّة من الأطفال السذَّج، ليحوِّلوا مراكز تعليم القرآن إلى مراكز للفحشاء...

القيام من أجل النفس هو الذي سلب عباءة العفّة من على رؤوس النساء المسلمات العفيفات، وما زال هذا الأمر المخالف للدين والقانون ساريًا في هذا البلد، ولم ينبس أحدٌ ببنت شفة.

القيام من أجل المصالح الشخصيّة هو الذي صيّر الصحافة وسيلةً لنشر الفساد الأخلاقيّ، وهي اليوم أيضًا تواصل ممارسة القضايا ذاتها التي تفتّق عنها الذهن المتحجِّر لرضا خان العديم الشرف، وتنشرها بين الناس.

القيام من أجل الذات هو الذي سمح لبعض هؤلاء النوّاب المزيّفين، بالتفوُّه في البرلمان بما يحلو له ضدّ الدين ورجاله، دون أن يعترض عليه أحد.

يا علماء الدين الإسلاميّ، أيّها العلماء الربّانيّون، أيّها المفكِّرون المتديِّنون، أيّها الوعّاظ المؤمنون، أيّها المتديِّنون الموحِّدون، أيّها الموحِّدون طلاب الحقّ، يا أنصار الحقّ الشرفاء، أيّها الشرفاء الوطنيّون، أيّها الوطنيّون الغيارى!

اقرؤوا موعظة إله العالَم، وتمسّكوا بطريق الإصلاح الوحيد الذي اقترحه لكم، وتخلّوا عن المنافع الشخصيّة؛ لتنالوا سعادة الدارَين، واحتضنوا العالمَين من خلال

الحياة الحرّة الشريفة، «إِنَّ للهِ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ، أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَها».

فاليوم يومٌ هبَّ فيه النسيم المعنويّ الإلهيّ، وهو أفضل الأيّام للقيام من أجل الإصلاح، فإذا ضيّعتم الفرصة، ولم تقوموا لله، ولم تدعوا للشعائر الدينيّة، فسوف تتسلّط عليكم في الغد شلّةٌ من الزناة المتهتّكين، وتجعل من دينكم وشرفكم لعبةً لنوازعهم الباطلة.

ما هو عذركم اليوم عند إله العالَم؟ كلّكم رأيتم كُتُبَ شخصٍ تبريزيٍّ تائه [كسروي]، اتّخذَت من شريعتكم موضوعًا للتشهير، وتطاولَت، في مركز التشيُّع، على الإمام الصادق والإمام الغائب -روحي له الفداء-، دون أن تتفوّهوا بكلمة.

فما هو عذركم اليوم في محكمة الله؟ ما هذا الضعف والعجز الذي يسيطر عليكم؟

أيّها السيّد المحترم الذي جمعتَ هذه الوريقات، وعرضتَها على علماء البلاد والوعّاظ! يا حبّذا لو تقدّم كتابًا يزيل الفرقة من بين صفوف هؤلاء، ويعينهم على تحقيق الأهداف الاسلامية. كان عليك أن تحصل على تواقيعهم [وعودهم] بالتعهُّد بالقيام يدًا واحدة، وقلبًا واحدًا، في أيّة بقعة من بقاع هذه البلاد، إذا ما حصل تطاولٌ على الدين.

حبّذا لو يتعلّمون الإخلاص -على الأقلّ- من البهائيّين[1]، الذين لو عاش أحد أتباعهم في قرية نائية، لكانت مراكزهم الحسّاسة على اتّصال به، وإذا ما اعتدى عليه أحد، هبّوا لنصرته.

أنتم لم تنهضوا بحقّكم المشروع. فنهض المتهوِّرون عديمو الدين يروّجون لأفكارهم الإلحاديّة في كلّ مكان، ولن يمضي وقت طويل حتّى يتسلّطوا عليكم -أنتم المنهمكون بإثارة الفرقة- بنحوٍ تُضحي فيه أيّامكم أسوأ ممّا كانت عليه في عهد رضا خان».

---

(1) فرقة ضالّة.

الفصل الخامس

ولاية الفقيه في كتاب «كشف الأسرار»

تتجلّى أهمّيّة كتاب «كشف الأسرار» أكثر عند بحث مسألة «ولاية الفقيه» و«الحكومة الإسلاميّة»، والتي -مع الأسف- لم تحظَ بالاهتمام جيّدًا. يعتقد الكثير أنّ الإمام الخمينيّ قدس سره طرح مسألة ولاية الفقيه خلال بحوثه الدراسيّة في مدينة النجف، بينما بحث المسألة في كتابه «كشف الأسرار» قبل خمس وعشرين سنة. وكما ألمحنا سابقًا، فإنّ الإمام قدس سره نشر كتابه وأفكاره هذه في وقتٍ لم تشهد الساحة نشاطًا من علماء الدين بالأخصّ، والأمّة لم تُشعل فتيل انتفاضاتها الشعبيّة ضدّ الاستعمار.

والجدير بالذكر، أنّ ما ذكره الإمام قدس سره في كتابه «ولاية الفقيه»، وأثناء خطاباته وكلماته، حول ماهيّة المسألة وحدود اختيارات الحكومة الإسلاميّة وأبعادها، هو بعينه ما ذكره في كتابه «كشف الأسرار» سابقًا. ومن هنا، نرجع لنرى أبعاد المسألة، وبشيءٍ من الاختصار.

يبدأ الإمام قدس سره بتفسير آية ﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[1]، ويعتقد الإمام قدس سره «**أنّ الله أمر، بهذا، بناء كيان دولة إسلاميّة... ولمّا كان الأمر شاملًا للأمّة الإسلاميّة كافّة، بأنّ تطيع تلك الحكومة المعبَّر عنها بـ﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾، فلا بدّ من وجود حكومة واحدة لا غير...**».

أمّا من هم ﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾؟ فهنا تقع المسألة في بحث عميق بين المذاهب الإسلاميّة، ويتطرّقون لها بالبحث والتفصيل المعمّق.

(1) سورة النساء، الآية 88.

وبعد أن يطرح آراء بعض المذاهب بـ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾، بأنّهم حكّام البلاد القائمون في أيّ زمان ومكان، يردّهم بالدلائل والبراهين العقليّة. «**يرى أنّ أشخاصًا جهلة ومهرّبين جناة لا يمكن أن يكونو أولي أمرٍ لأمّةٍ ما**»، ومن ثمّ يتطرّق إلى آراء ونظريّات علماء الشيعة. والإمام قدس سره، كغيره من كثير من العلماء والفقهاء الشيعة الآخرين، يرى أنّ تفسير ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ هو «ولاية المجتهد»، أو «ولاية الفقيه»، ويستدلّ بآراء فقهيّة شافية. والولاية، برأيه، هي ليست ولاية تنفيذيّة فقط، بل هي قيادة وهداية ورشاد.

«**حينما نقول ولاية الفقيه، لا نقصد أن يكون الفقيه رئيسًا أو وزيرًا أو قائدًا عسكريًّا، إنّما نقصد بذلك إشرافه التامّ والنافذ على القوى التشريعيّة والتنفيذيّة للبلاد، تحت إطار الدين الإسلاميّ**».

«**نحن لا نريد حكومةً باسم فقيه، إنّما نطالب بحكومةٍ تتماشى مع قوانين الله -تعالى- ودستوره الحكيم، الذي هو رحمة للعالمين؛ وهذا لا يتحقّق إلّا بوجود العلماء وأهل الدين**».

والإشراف ليس شكلًا صوريًّا لأوامر ونَواهٍ، بل هو ضمان التنفيذ:

«**الكلام بذاته لا يغيّر شيئًا... يجب فرض قوّة تنفيذيّة بعد القوّة التشريعيّة... ويجب الربط والانسجام بين هاتَين القوّتَين. وما دامت هاتان القوّتان منفصلتَين عن بعضهما، فإنّه من المستحيل الوصول إلى الهدف**». ولفهم المسألة أكثر، يتطرّق إلى مقايسة نظام الحركة الدستوريّة بالنظام الإسلاميّ الذي يطرحه.

إدارة النظام الإسلاميّ ممكن أن يترأّسها فقيهٌ أو أشخاص أُخر، وتجب طاعته، شريطة أن يكون هذا الشخص أو الأشخاص جامعًا للشرائط: «**الرسول والإمام والمجتهد، في حال يستطيعون منح القيادة لفردٍ ما، شريطة عدم إعراضه عن قوانين الله -سبحانه وتعالى-، والتي من أساسها العدل والعقل. قوانين حكومته الرسميّة هي قوانين الله السماويّة نفسها، لا قوانين أوروبّيّة تعيسة. وطبقًا للعقل والدستور، فكلّ**

قانون يخالف قوانين الإسلام هو ليس مشروعًا في البلد».

ثمّ يتطرّق الإمام قدس سره إلى الإجابة عن السؤال الذي يستفسر عن تعليل وجود بعض العلماء والمتديّنين في النظام غير الإسلاميّ آنذاك، فيجيب قائلًا:

«**نحن نؤكّد أنّ كلّ من يستطيع أن يخترق ويَنفذ إلى النظام الديكتاتوريّ الجائر، ويستطيع أن يقدّم ما بوسعه من خير للشعب والبلاد، ويعرقل أعمال الجهاز الحكوميّ البشعة والمنافية للأخلاق والمُثل، هو عمل محبّذ ومقبول، بل وأحيانًا قد يتعيّن عليه ذلك بالوجوب**». ويدعم قوله هذا ويؤيّد رأيه بتصريحات الشيخ مرتضى الأنصاريّ.

إنّ سعة النظام الإسلاميّ وقوانينه وشموليّتهم لا تنحصر في مجالٍ من مجالات الحياة الاجتماعيّة، بل «**هو قانونٌ شاملٌ كامل، يتطرّق إلى المجالات كافّة، بما فيها كيفيّة صبغة النظام، وتقنين نظام الضرائب، ودروس القوانين الحقوقيّة والجزائيّة، وما يرتبط بنظام البلد من تهيئة الجيش وإدارة الدوائر الرسميّة، وكلّ ما يرتبط بالحكومة وكيانها...**».

يؤكّد الإمام قدس سره، من جانب آخر، على إقامة الحكومة الإسلاميّة بمجالاتها وأبعادها كافّة، فيقول: «**أساسُ الحكومةِ الإسلاميّةِ: القوّةُ التشريعيّةُ، والقوّةُ التنفيذيّةُ، والقوّةُ القضائيّةُ، وبيتُ مال المسلمين، والجهادُ في سبيل الله، إن كان دفاعًا عن البلاد والدين، أو هجومًا لبسط رقعة الإسلام؛ هذا كلّه أتى مفصّلًا في القرآن والسنّة. فالقرآن كما هو دستور ومجموعة قوانين، فهو مهتمّ بالجانب التفيذيّ أيضًا، وكما وصفَ ودرسَ ميزانيّة البلاد بأحسن وجه، فهو كذلك رسم لنا الطريق بكيفيّة إدارة البلاد والحفاظ عليها**».

وبعد هذا، يتطرّق إلى شرح أصول الدستور الإسلاميّ وتفصيله، في مجال القضاء (الحقوقيّ والجزائيّ والجنائيّ)، والنظام (الجبريّ والاختياريّ)، والضرائب (وكيفيّة جمعها وصرفها)، و... إلخ، مُستندًا إلى دلائل وأصول فقهيّة. فمثلًا، عندما يتطرّق إلى شرح بنود الضرائب، يقول: «**في النظام الإسلاميّ، تتفرّع الضرائب إلى فروع، فبعضها**

يُفرَض فرضًا، وبعضُها يُؤَدّى ندبًا واختيارًا. وأرى من الضروريّ شرحها باختصار.

تنقسم الواجبة أيضًا إلى قسمَين:

الأوّل: الضرائب السنويّة الدائمة، وهي التي تُؤخَذ في حالة السلم، وعند قيام الحروب والانتفاضات.

والثاني: الضرائب المؤقّتة، وهي التي تُؤخَذ عند الضرورة، وهي غير محدّدة. بالطبع، تُفرَض حينما ترى الحكومة الإسلاميّة عدم كفايتها واعتمادها على الضرائب من القسم الأوّل؛ ولأنّها ضرائب غير مباشرة، فللحكومة الخيار بتحديد الكمّيّة التي تتطلّبها، قد تجعلها الحكومة قرضًا موقّتًا إذا رأَت في ذلك صلاحها -ويجب مراعاة العدل والقسط بذلك- أمّا عند عدم كفايتها، واحتمال الضرر على الحكومة وكيانها، فلها أخذ ما يملكونه كلّه لدفع الضرر».

ومن ثمّ يتطرّق إلى شرح البنود الخمسة من الضرائب المباشرة: «**التي تُصرَف لإدارة البلاد، ولاحتياطيّ الميزانيّة، ولتأمين مصالح البلاد والجيش، التي هي من قسم الضرائب المفروضة**».

سؤال يطرح نفسه، وهو: هل القوانين والأحكام التي أشارَت إليها الكتب الفقهيّة وصرّحت بها، هل هي كافية لإدارة بلد إسلاميّ بمستحدثاته وظروفه المستجدّة؟ وإذا لم تكن هناك تصريحات وأخبار بهذا الصدد، ما هو واجب الدولة الإسلاميّة تجاهها؟ يجيب الإمام قدس سره قائلًا:

«إنّ القوانين التي تستجدّ وتُستَحدَث بمرور الزمن، وتشكّل ركنًا من أركان الدولة الإسلاميّة، تُطرَح للدراسة والبحث... فإذا وافقَت الشرع، ولم تخالف الدستور الإسلاميّ، وهي بذاتها عائدة بالمصلحة والنفع على البلاد والعباد، فإنّها تُقَرَّر حسب الشريعة الإسلاميّة، عبر علماء الدين من ذوي الاختصاص والمهارة، وتخرج إلى حيّز التنفيذ... ولو لم يأتِ لها ذِكرٌ في النصوص والأخبار».

ومضافًا إلى شرحه بعض قوانين الإسلام، فإنّه تطرّق إلى النشاطات الداخليّة ضمن

الإطار الدينيّ والإسلاميّ، من قِبَل منظّمة الإعلام الإسلاميّ ودائرة الإرشاد الدينيّ، فيقول:

«**دائرة الإرشاد الدينيّ هي من أكبر الدوائر في الحكومة الإسلاميّة وأهمّها، ويشكّل منتسبوها أبناء الشعب جميعهم من رجال ونساء**». مَهمّة هذه الدائرة هي القيام بالنشاط الدينيّ عن طريق الصحف والمجلّات والإذاعة، وتقوم بتربية الشعب على الأخلاق الإسلاميّة الفاضلة، وهي مُقيّدة «**ببثّ الجوّ الروحانيّ في صفوف الجيش**»؛ من أجل بناء الروح الإلهيّة الفدائيّة في قلوبهم، وهذا هو الذي «**يدفع المقاتل للتضحية والجهاد حتّى آخر قطرة دم في عروقه**».

يعتقد الإمام قدس سره أنّ جميع قوانين الله -سبحانه وتعالى- لها جانبان: معنويّ ومادّيّ. ونلاحظ البُعد الدنيويّ والبُعد الأُخرويّ: «**فمثلًا، نرى نداء التوحيد والتقوى للبشريّة من قِبَل الله -سبحانه وتعالى- بلغ أهمّيّة قصوى في الجانب المعنويّ، حيث تدخَّل في بناء نظام الدولة والحياة الاجتماعيّة والتطوّر والتمدّن بشكلٍ كاملٍ وملحوظ**».

وهذه المعنويّة دخلَت أيضًا في المجال المادّيّ، فمثلًا «**قانون الضرائب... الذي يؤمّن الحياة الاقتصاديّة للحكومة وإدارتها للبلد... صِيغَ بشكلٍ نلحظ فيه الجانب المعنويّ؛ فالذي ينفق ماله استجابةً لقوانين الدولة الإسلاميّة، يحسّ ويشعر بأنّه يسير في طريقٍ يتقرّب به إلى الله -تعالى-، والذي يضمن به الروح المعنويّة والإنسانيّة، وكذا الحال بالنسبة لقوانين القضاء وغيرها... وهذا من فضل هذا النظام المتكامل**»، وهو خلاف «**ما جاءت به البشريّة من قوانين مادّيّة بحتة، تدعو الجماهير للسير نحو حياة فانية، غافلين عن الآخرة الباقية**». مضافًا إلى أنّ الحكومات غير المسلمة تبني نفسها على المصالح الذاتيّة والديكتاتوريّة، وإن تغيّرَت ألقابها وأسماؤها:

«**... منذ أوّل حكومة سجّلها التاريخ لنا، وليومنا هذا، فإنّ جميع الحكومات العظمى قامت بحدّ السيف والقوّة على رؤوس الضعفاء، متّخذةً أسماءً وألقابًا**

مصطنعة، تخدع بها الشعوب، وتخضع لها رقابها، وتقدّمها قرابين لمصالحها وغرائزها... تلك الأسماء والألفاظ كلّها -باختلاف ألوانها وألفاظها- هي غطاء لشكل واحد، وحكومة واحدة، ولا فرق بين تلك الحركة الدستوريّة والاستبداد والجور، ولا بين الديكتاتوريّة والديمقراطيّة، فكلّها حيل وخداع...».

وفي نهاية المطاف، نرى أنّه من الضروريّ الإشارة إلى بعض النقاط:

أوّلًا، يرى الإمام قدس سره أنّ جميع الحكومات الإسلاميّة والمتحضّرة السابقة هي حكومات غير إسلاميّة بكلّ معنى الكلمة، وذلك «**لعدم تمسّك زعمائها بالدين الإسلاميّ الحنيف وتعاليمه**»، وأنّ ما قاموا به من كسب وموافقات وتأييدات من رجال الدين «**كان شيئًا صوريًّا روتينيًّا**». ومع هذا كلّه، «**وإن كانت بعض قوانينهم بعيدة عن الإسلام، فالمسلمون أقاموا دولًا وحكومات عديدة ومتحضّرة أدهشوا بها العالَم آنذاك**».

أمّا النقطة الثانية التي تطرّق لها الإمام قدس سره، فهي مسألةُ انخداع بعض المتحضّرين المسلمين بثقافة الغرب وتحضّره... ففي طوال المئة والخمسين عامًا المنصرمة، انجرف كثيرٌ من المسلمين المغفّلين، وحتّى بعض الواعين أيضًا، في بحر الدعاية والإعلام الغربيّ، إذ كانوا يرون أنّ الغرب هو المطبّق الأصيل للتعاليم الإسلاميّة، دون دخول الإسلام إليهم؛ ولهذا وصلوا إلى هذه الدرجة من الرُقيّ والتحضّر، وما علينا إلّا أن نتّبع خطواتهم في كيفيّة تطبيق قوانين الإسلام حسب المنهج الغربيّ؛ فبذلك نرتقي إلى عصر الحضارة والتجدّد. وكان هذا مدعاة لشعور بعضهم بإحساسهم بالحقارة وبالذلّة أمام الحضارة الغربيّة، وإن وعى هذه الخديعة ثلّةٌ منهم فيما بعد. ويصوّر لنا الإمام قدس سره مشهدًا رائعًا لتنديده بهؤلاء الجهلة المغفّلين، ويشير إلى جرائم الأوروبّيّين أثناء الحرب العالميّة الثانية، فيقول:

«...إنّه لمن المؤسف حقًّا، بل هو من العار، أن يتصوّر أحدٌ أنّ الغربيّين طبّقوا تعاليم الإسلام وبلغوا هذه الدرجة من الحضارة! فأين هذه الحضارة؟ وإلى أين

وصلوا؟ هل حضارة أوروبّا، التي يتمنّاها ثلّةٌ من المنحرفين، هي جزءٌ من الأمم المتحضّرة؟ ما هي علاقة أوروبّا بالإسلام والدين الحنيف... أوروبّا التي قامت على سفك الدماء والقتل وإذلال الشعوب لأجل شهواتها وغرائزها وآمالها الدنيئة، فأين هذه وهؤلاء من الإسلام وعدالته وقوانينه الإنسانيّة؟... إلى أين بلغت أوروبّا كي نمدحها ونثني عليها؟ أوروبّا التي قضت على النساء والأطفال، وقطّعتهم إربًا إربًا بقنابلها وسلاحها، ومع هذا كلّه نعتبرها تحضّرًا؟! أين مكانة الإسلام في أوروبّا ؟ إنّ ما يجول في أوروبّا من ظلمٍ وجورٍ لَهو بعيدٌ عن الإسلام وعدالته أشدّ البُعد... لو كان الإسلام قد دخل أوروبّا حقًّا، لقضى على جميع فِتَنِهم وإرهابهم التي يقرفها حتّى الوحش... إنّ حياة أوروبّا اليوم هي أقذر حياة تمرّ بها القارّة الأوروبّيّة وأسخفها، بحيث لا تنسجم مع أيّ دين وعقيدة».

أمّا النقطة الأخرى والأخيرة، فهي تعرّض الإمام قدس سره لأفكار المستشرقين، أمثال «غوستف لوبون» و«جرجي زيدان»، الذين سُحِروا ببعض المظاهر، فابتعدوا عن فهم الدين الإسلاميّ واستيعابه، رغم ثقافتهم:

«... الناس أقلّ شأنًا من أن يعوا أبعاد التحضّر الإسلاميّ... أولئك لا يفهمون من حضارة الإسلام سوى الرسوم المزخرفة والفنّ المعماريّ الإسلاميّ والأبنية العجيبة والأقمشة المطرّزة وغيرها، التي لا هي، ولا مئات منها، تُحسَب على التحضّر الإسلاميّ والدينيّ».

وإلى هنا، نُنهي تعليقاتنا على كتاب «كشف الأسرار»، ونتركه للباحثين والدارسين والمحقّقين، سائلين المولى التوفيق والسداد.

الفصل السادس

الإمام الخمينيّ قدس سره بين أعوام 1942م و 1964م

القسم الأوّل: الإمام قدس سره والحوزة العلميّة

ينقسم نشاط الإمام قدس سره السياسيّ، في الفترة بين أعوام 1942 و1964م -حين وفاة آية الله العظمى البروجرديّ- إلى قسمَين:

الأوّل: هو ما قام به ضمن إطار الحوزة العلميّة في قمّ، ومن خلال علاقاته المتينة مع علماء الدين والمراجع الكبار.

والثاني: هو تحرّكه السياسيّ الملحوظ خارج نطاق الحوزة، وبالأخصّ خلال السنين المتأزّمة والملتهبة بين أعوام 1940 و1954م، وما بعدها.

وكما ذكرنا سابقًا، بدأ نشاط الإمام قدس سره السياسيّ علنًا بعد نشر كتابه القيّم «كشف الأسرار» عام 1944م، والذي ضمّ انتقادات شديدة وصارمة للاجتياح الاستعماريّ، وما نفّذه رضا خان لأسياده، و... وشمل كذلك تنبيهاتٍ وتحذيراتٍ للأمّة وعلمائها من تأزّم الأوضاع أكثر ممّا مضى... إلخ.

والحادثة الأخرى التي دعَت الإمام قدس سره للخوض في معترك الساحة السياسيّة أكثر، هي مسألة المرجعيّة الدينيّة، إثر وفاة المرجع الكبير آية الله السيّد أبو الحسن الأصفهانيّ عام 1947م، وتزامنها مع الفترة المتأزّمة والحسّاسة بعد هروب رضا خان.

بهذه المسألة، كانت للإمام قدس سره أفكار وآراء خاصّة به، نظرًا لِما يتمتّع به من مكانة علميّة مرموقة على صعيد الحوزة والعلماء والفضلاء. فهو يرى بأنّ المرجعيّة

الدينيّة يجب أن تكون واعية وعارفة بأمور زمانها وكيانها ومكانتها السياسيّة، بقدر ما هي ملتزمة ومهتمّة بالجانب الدينيّ والثقافيّ والفكريّ، وما يتعلّق بها من أمور دينيّة وعباديّة وفقهيّة بحتة. إنّ تفكير الإمام قدس سره هذا ناتجٌ عن خبرة سياسيّة طويلة شاهدها ومارسها بنفسه، فإنّه لم ينسَ إهمال بعض الزعامات الدينيّة وتقصيرها؛ والتي أدّت بالتالي إلى تثبيت أقدام رضا خان، حيث لزم بعضُ العلماء آنذاك الصمت، ومنها استطاع رضا خان أن يرسّخ قدميه، ويتعدّى على مقدّسات الدين الحنيف ورجاله والحوزة العلميّة، حتّى بلغ تطاوله التعدّي على كلّ مَن يتطرّق إلى الأمور السياسيّة منهم، فضلًا عن تشويه سمعتهم أمام الشعب والجماهير. ولم يكتفِ بهذا، فلقد تطاول أكثر فأكثر، وعبث بأمور الحوزة الداخليّة، وفرض نظام الامتحانات، وحدّد ارتداء الزيّ الروحانيّ الدينيّ، وفرض كلّ ما يريد عليهم دون أيّ رادع؛ لأنّ الهدف كان محوَ الحوزة والعلماء، وإنهاء الدين.

من خلال هذه التجارب والمحن، استطاع الإمام قدس سره أن يقوم بمهمّة في غاية الصعوبة، ويوصلها إلى النجاح. فحسب معرفته ودراسته لشخصيّة آية الله البروجرديّ -الذي كان من ألمع تلاميذ آية الله الآخوند الخراسانيّ قائد الحركة الدستوريّة، وأشهرهم- ولِما يتحلّى به السيّد البروجرديّ من مواقف مشرّفة وعريقة وشجاعة تجاه رضا خان ومحمّد رضا.

بذل الإمام قدس سره ما بوسعه من جهود لنقل السيّد البروجرديّ إلى قمّ، لاستلامه الزعامة الدينيّة بعد آية الله الأصفهانيّ. وقام الإمام قدس سره بتحرّك مكثّف ومستمرّ، وتنقّل عبر المدن والولايات، وخاض جولة واسعة بين علماء البلاد، وتمكّن من إحراز موافقة الجميع وتأييدهم تجاه زعامة آية الله البروجرديّ. وبعد اتّصالاته وإرساله الكتب المتواصلة، تمكّن الإمام قدس سره من نقل السيّد إلى مدينة قمّ؛ وإذا به، بدخوله، يَلمّ شَعثَ الحوزة العلميّة، فتستعيد كيانها وشخصيّتها بجهوده البنّاءة، وسرعان ما أخذت الجماهير بالتوجُّه نحوه، والالتزام بتقليده، حتّى ذاع صيته في أرجاء البلاد كافّة، بل وحتّى خارجها.

بعد مرور فترة هدوء واستقرار لبضع سنوات، ساد الحوزة العلميّة نظامٌ وانضباط خاصّ، وسارَت الأمور حسب منهج تربويّ وتعليميّ خاصّ، ونُظِّمت الرواتب الشهريّة، وفُتِحَت مدارس جديدة في مدن أخرى؛ لغرض توسيع رقعة الحوزة والتعليم الدينيّ، ولمساعدة الطلبة المتعسِّر حضورهم إلى مدينة قمّ. وبهذا، سُيِّرَت الأمور العامّة في الولايات والقرى البعيدة مِن قِبَل تلك المدارس وطلبتها، وفي جميع المجالات الدينيّة والثقافيّة والإعلاميّة. وكذلك، لأوّل مرّة، استطاع بعضُ أفاضل العلماء أن يسافروا إلى خارج البلاد، وبخاصّة إلى أوروبّا، وزيارة المسلمين؛ لإرشادهم وتوجيههم. كذلك ازداد الوعي الثقافيّ لدى الطلبة، فكثرَت المقالات والبحوث والخطابات وغير ذلك.

كان الإمام قدس سره، في تلك الفترة، حريصًا على مراقبة أوضاع الحوزة والبلاد والأمور السياسيّة، وكان يعكس كلّ ما يصله ويطرق سمعه من أخبار وأحداث إلى آية الله البروجرديّ، ليجعله على علم بجميع ما يدور في الساحة. ومن هنا، اقترح الإمام قدس سره تشكيل لجنة خاصّة بمراقبة أوضاع الساحة ومستجدّاتها ودراستها، وفي الوقت نفسه، مراقبة الحوزة وما يخصّها. وانضمّ الإمام قدس سره أيضًا إلى عضويّة هذه اللجنة، بعد أن شُكّلَت ونُفِّذ اقتراحه، وبهذا أحرز الإمام قدس سره توجيهَ آية الله البروجرديّ ورعايته، حتّى كان للإمام قدس سره كامل التصرّف والاختيار بالنيابة عنه، بل وأكثر من مرّة ندبه ممثّلًا له في المداولات والحوارات السياسيّة مع أطراف النظام، متمتّعًا بالصلاحيّات والاختيارات كافّة.

فمثلًا، بعد عام من إقامة السيّد البروجرديّ في مدينة قمّ، عزم على زيارة مرقد الإمام الرضا عليه السلام، فترك أمور الحوزة وإدارتها للإمام الخمينيّ قدس سره بينما كان هناك من هو أكبر سنًّا ومقامًا في الحوزة. كذلك عندما حدثَت فوضى وضوضاء من بعض العلماء المزيّفين، وبإيعازٍ من حزب توده (الشيوعيّ) عام 1953م، والتي أدّت إلى قتل عدد من الفوضويّين وجرحهم، أَوكل آية الله البروجرديّ مَهمّة دراسة القضيّة ومعالجتها للإمام قدس سره، ونصّبه ممثّلًا عنه في اللقاءات الصحفيّة، وقد أدرجت مجلّة

«الترقّي» نصَّ الحوار الذي دار بين مندوبها والإمام قدس سره حول الواقعة الآنفة الذكر. وأيضًا، أوفده السيّد البروجرديّ لاستقبال آية الله الكاشانيّ عند منطقة «عليّ آباد»، الواقعة على طريق قمّ - طهران، فاستقبله خير استقبال، وبحفاوة بالغة.

في عام 1953م، قام الإمام قدس سره، وبرفقة زميله المفكِّر آية الله الشيخ مرتضى الحائريّ -نجل آية الله الشيخ عبد الكريم الحائريّ- بدراسة مشروع وإعداده، لجمع عوائد الأوقاف في جميع أرجاء البلاد، والتي تُقدَّر بخمسين مليون تومانًا سنويًّا، لصرفها وبذلها في مجال ارتقاء الحوزة والوضع الاقتصاديّ للطلبة، وما تقوم به الحوزة وعلماء الدين من نشاطات وأعمال لصالح الدين والعقيدة، ولرفع المستوى العلميّ والاقتصاديّ للحوزة بصورة عامّة.

وبعد هذا، قدّما المشروع للسيّد آية الله البروجرديّ، وأدليا بأنّ هذه العوائد والمبالغ يجب أن تكون تحت اختيار الحوزة وتصرّفها، لا بيد رجال النظام الحاكم، الذين لا يتمتّعون بالصلاحيّات الشرعيّة والخُلُقيّة، وكانا على أمل بموافقة السيّد البروجرديّ وتأييده لهذا المشروع؛ كي يتسنّى لهم بعد ذلك رفعه إلى آية الله الكاشانيّ، ليطرحه في البرلمان أمام النوّاب، حيث كان السيّد الكاشانيّ رئيسًا للمجلس، والفكرة بمضمونها لم تواجِه حتّى مخالفًا واحدًا، إذ كان الإمام قدس سره قد أجرى محاورة مع السيّد الكاشانيّ مِن قَبل بهذه الفكرة. لكنّ آية الله البروجرديّ أعرب عن مخالفته للفكرة، مشيرًا إلى بعض الأمور التي يراها بتأمّلٍ وببُعدِ نظر، ولِما يراه من مصلحة عامّة، وخوفًا من احتمال الضرر وردود الفعل المعاكسة -لا سمح الله- في المستقبل.

لقد كان آية الله البروجرديّ محافظًا وحريصًا أشدّ الحرص على نظام الحوزة، وإعادة نشاطها الثقافيّ والدينيّ، الذي بات في عهد رضا خان مشلولًا ومعوّقًا، وصعّد من نشاطه الإداريّ والحوزويّ والتبليغيّ بجدّيّة وفاعليّة تامّة، طيلة زعامته الدينيّة ورئاسته للحوزة العلميّة بصورة عامّة. والذي دعا السيّد البروجرديّ إلى عدم التطرّق إلى الأمور السياسيّة بشكل مباشر، وإلقاء جميع ثِقله واهتمامه في الجانب الدينيّ

والثقافيّ للحوزة، وبالأخصّ في تلك الفترة -أي بعد سقوط رضا خان- عاملان مهمّان:

العامل الأوّل: هو انفتاح المجال بالتمام لنشاط الحوزة، ونشر الفكر والوعي الإسلاميّ، وإعادة إقامة الشعائر الدينيّة، وانسجام الشعب وإقباله على الحوزة وعلى علمائها بعد إطلاق الحرّيّة التامّة إثر سقوط رضا خان، وازدياد نشاط علماء الدين في الوعظ والإرشاد والخطابة والتدريس، والانشغال بالمساجد والمحافل الدينيّة، وأخيرًا، تصاعد الجوّ الثقافيّ الدينيّ تصاعدًا مذهلًا، مضافًا إلى اطمئنان الحوزة الظاهريّ من كيد الحكومة والأعداء.

العامل الثاني: هو تجارب آية الله البروجرديّ، وخبرته السياسيّة، وما قاساه من عذاب ومرارة أثناءها؛ ممّا دعا السيّد للأخذ بالاحتياط والحذر ممّا صدر بالأمس القريب من الحركة الدستوريّة، وما نتج عن ذلك.

إنّ السيّد البروجرديّ كان على اطّلاعٍ مباشر على أحداث الحركة الدستوريّة، فلقد كان من المقرّبين جدًّا من قائد الحركة الدستوريّة (آية الله الخراسانيّ)، ويتذكّر ويعي جيّدًا ما حلّ بعلماء الدين المجاهدين إثر عدم تدبّر الأمور وتكرار الاشتباهات وسرعة اتّخاذ القرارات، وما قام به المتربّصون من إشاعة الفرقة وتهديم الوحدة الفكريّة، والذي أدّى إلى قتل عدد من رجال الحركة الدستوريّة واغتيالهم، وكان من بينهم العلماء والصلحاء.

هذه الحوادث والوقائع ليست بقصص وروايات، بل هي دروس وعِبَر، زادَت من قوّة فكر آية الله البروجرديّ، ووعيِه السياسيّ الحاذق. لهذا نراه، إلى نهاية حياته، لم يتدخّل بالشؤون السياسيّة تدخّلًا اعتباطيًّا، إنّما كان يرى ذلك في الوقت المناسب، وبالفرصة المناسبة، حيث لا بدّ من التدخّل عند انتهاك الحرمات، أو الاعتداء على البلاد.

مضافًا إلى ذلك، هناك عامل مهمّ آخر لعب دوره بهذا المجال، وهو وجود بعض الأفراد والرموز، إذ كانوا يبثّون ويروون بعض الحوادث والوقائع مشوّهة بعيدة عن

الحقيقة، وأحيانًا يتسبّبون بعدم وصول الأخبار الهامّة إلى الزعامات، وإن كان تأثيرهم على الأحداث المصيريّة ضئيلًا أو منعدمًا. ومع هذا، كان الإمام قدس سره يبذل قصارى جهده لدعم مقام آية الله البروجرديّ على الصعيد القياديّ وزعامة الحوزة والجماهير، سياسيًّا ودينيًّا، وكثيرًا ما كان الإمام قدس سره يشكو من سوء تصرّفات بعض الذين كان يعتبرهم من غير اللائقين، ويكشف له عن خططهم ودورهم المخرِّب في الحوزة، وما ينعكس على الحوزة من سوء تصرّفاتهم، مضافًا إلى ذلك، شرح وتفصيل الوضع السياسيّ الحاكم، وما يقوم به رجالات الدولة والسلطنة من خطط وأفكار، حتّى أصبحت للإمام مكانة سامية وخاصّة عند السيّد البروجرديّ، إذ كان يقول بحقّه: «**إنّه قرّة عين الحوزة**». وكان الإمام قدس سره كثيرًا ما يتداول مع السيّد حوارات عديدة حول مستقبل البلاد والحوزة، وما تقوم به الحكومة تجاههما، وكان هذا عاملًا للحدِّ من زيارات الإمام قدس سره لمنزل آية الله البروجرديّ؛ لأنّ بعض أصحاب المصالح راحوا يَحُولون دون لقاء الإمام قدس سره بالسيّد بأساليب شتّى، وبهذا استطاعوا أن يحدّوا بعض الأنشطة.

ولكنّ الإمام قدس سره ومؤيّديه صمّموا على أن يطرحوا الموضوع على سماحة السيّد بشكل صريح، ولكن عندما رأوا أنّ ذلك من الممكن أن يعطي نتيجة عكسيّة، وقد يتسبّب بإزعاج السيّد وإقلاقه، وأنّ ما ينتج عن ذلك سوف يكون مضرًّا بسمعة الحوزة والمرجعيّة، فقد آثروا الصمت، وتماشوا تماشيًا تامًّا مع الزعامة والمرجعيّة، حفظًا للمصلحة العامّة، ولكرامة الحوزة، وقداستها، ومكانتها. فمثلًا، عندما بلغ الإمام قدس سره أنّ السيّد البروجرديّ غير مرتاحٍ تجاه درس الفلسفة، أوصى تلاميذه بعدم إقامة دروس كهذه، ولمّا رأى الإمام قدس سره عددًا من الطلبة المتحمّسين قصدوا السيّد البروجرديّ للاحتجاج، قام بهم خطيبًا، وأثنى على مرجعيّة آية الله البروجرديّ، وقال مخاطبًا إيّاهم:

«إنّ آية الله البروجرديّ اليوم عَلمٌ، وبالعَلَم نقتدي ونهتدي، وبه نحتمي، ونحن سائرون على خطاه ونهجه، ونُظهِر مطلق الطاعة لأوامره ونواهيه؛ لأنّ مرجعيّة اليوم تمركزَت واستقرَّت بهذا السيّد الجليل، ويجب أن لا يُخدَش بها».

وهكذا كان الإمام قدس سره أيضًا بعد رحيل السيّد البروجرديّ إلى الدار الآخرة، فاستمرّ بمدحه والثناء عليه، حتّى بعد انتصار الثورة الإسلاميّة، وطيلة الأعوام العشرة الأخيرة من عمره.

ففي السنين الأولى لإقامة آية الله البروجرديّ في قمّ، وقعَت حادثة تسبّبَت بوقوف الإمام قدس سره والسيّد البروجرديّ أمام النظام في خندق واحد. والحادثة هي تعرُّض محمّد رضا لعمليّة اغتيال مشكوك بأمرها، وذلك عندما قام بزيارة تفقّديّة لجامعة طهران عام 1949م، وأفلح بالنجاة منها. وأصبح محمّد رضا يتربّص الدوائر بأعدائه ومناوئيه، وكأنّ هذه الحادثة فتحَت له باب القمع والإرهاب والاغتيال. وقد رأى محمّد رضا أنّ تثبيت حكومته المتزلزلة بهذه الطريقة أفضل وأجدى من الطرق والمحاولات الأخرى، فقامت الحكومة بإعلان حالة الطوارئ وإقامة نظام الأحكام العرفيّة في ليلة يوم الحادث، وأُلقِيَ القبض على السيّد الكاشانيّ، واتّهموه بتدبير هذه العمليّة، وأُعلِنَ عن حلّ حزب توده (الشيوعيّ)، وأخذوا يطاردون قياديّيه وسياسيّيه في البلد.

وبعد أن تمكّن محمّد رضا من القضاء على هذَين التيّارَين، عزم على إعداد «مجلس المؤسّسين» وتشكيله، بعد أن أجرى محادثات وحوارات مكثّفة مع كبار السياسيّين من ذوي الخبرة. وكان القصد من وراء هذا الاجتماع الطارئ، هو منح اختيارات وصلاحيّات أكبر وأوسع لمحمّد رضا، طبقًا لموادّ الدستور؛ وعليه، يكون باستطاعته حلّ البرلمان ومجلس الشيوخ. ومع إلقاء القبض على آية الله الكاشانيّ، وإبعاده إلى لبنان، انفتح المجال أكثر أمام الشاه، ووقع البرلمان في حالةٍ من الرعب والهلع. لكنّ اضطراب الشاه لم يهدأ بهذا؛ لأنّه كان يخشى معارضة آية الله البروجرديّ المحتملة؛ وذلك بسبب ما أُشِيع في أوساط البلد من احتمال التعرُّض إلى فقرتَين أساسيّتَين من مُكمّل الدستور، الذي دُوِّن بعد الحركة الدستوريّة، وهما: الفقرة الأولى، والتي تنصّ على تعيين المذهب الرسميّ للبلاد، والفقرة الثانية تنصّ على اختيار خمسةٍ من المجتهدين الواعين الحاذقين لمراقبة قرارات البرلمان؛ لئلّا تخرج عن قواعد النظام الإسلاميّ عند التنفيذ.

وعزم الشاه على إرسال وزير الداخليّة الدكتور «إقبال» مُمثّلًا عنه إلى آية الله البروجرديّ، ليُطلعه على التغييرات التي حصلَت، وليُطَمْئنه على عدم التعرّض للفقرتَين المذكورتَين؛ وبهذا يكون إحراز الموافقة أو عدم المعارضة من السيّد، لتحقيق الاطمئنان والسكينة وراحة البال للشاه.

ينقل لنا السيّد حميد روحانيّ، في كتابه «دراسة وتحليل ثورة الإمام الخمينيّ في إيران»، يقول: لقد شارك الإمام الخمينيّ في تلك المحاورة، وبطلب من السيّد البروجرديّ، حيث عيّنه ممثّلًا في الحوارات السياسيّة مع الدكتور إقبال. وبعد أن أتمّ إقبال كلامه، ارتفع صوت الإمام عاليًا، وبشيء من الحدّة، قائلًا:

«نحن لا نُجيز لكم إطلاقًا العَبَث في موادّ الدستور. وإنّ مثل هذه التغييرات سوف تفسح المجال أمام الحكومة للعبث بكافّة القوانين وموادّ الدستور متى ما شاءت وأرادت أو اقتضت مصالحها؛ وعندما ترى عدم تحقُّق مصالحها السياسيّة وأهوائها ورغباتها، فإنّها تلغي قانونًا وتفرض آخر».

أمّا الدكتور إقبال، فأشار إلى لقائه مع آية الله البروجرديّ أثناء انعقاد بعض اجتماعات البرلمان، ولكنّه لم يُشر إلى لقائه مع الإمام الخمينيّ قدس سره، بينما أكّد أنّه التقى السيّد البروجرديّ مرّتَين، وطمأنه بأنّ «مجلس المؤسّسين»[1] سوف لن يتعرّض إلى مبادئ الدين الإسلاميّ مطلقًا. وخاطب أعضاء البرلمان ونوّابه قائلًا: «إنّني فردٌ مسلم وذو عقيدة، وأكنُّ احترامي البالغ إلى كبار العلماء كافّة، وأتمنّى أن يكون كافّة العلماء والفقهاء ملتزمين ومؤمنين وراسخي العقيدة كالسيّد آية الله البروجرديّ، الذي هو قدوة وأسوة وذخر لنا ولجماهيرنا. أتمنّى من الجميع أن يقتدوا به، فهو مسلمٌ بكلّ معنى الكلمة، وهو إنسان متديّن وعقائديّ، يبذل جميع جهوده وطاقاته لخدمة الدين ونشره لا غير. لقد تشرّفتُ بزيارته بأمرٍ من الشاه، وذلك لطمأنته بعدم التعرّض للشريعة الإلهيّة، والذي راح بعض المزيّفين ينقل له بعض الأساطير والاتّهامات

(1) مجلس المؤسّسين: مجلس مهمّته إعداد القوانين ودستور البلاد.

تجاهنا وتجاه قراراتنا؛ على أنّنا نريد هدم الدين الإسلاميّ في البلاد... في الحقيقة، وكما ذكر سعادة رئيس البرلمان، إنّ كلّ ما حدث هو من قبيل الحرص على تعاليم الدين الإسلاميّ. فقد اصطحبتُ السيّد المحافظ، وتشرّفت بلقائه، وأدليتُ له بتصريحاتٍ وتوصياتٍ من صاحب الجلالة، وأبديتُ خالص شكري وتقديري لسماحته على مدى اهتمامه هذا بالشؤون الدينيّة للبلاد. وكما ذكرت آنفًا، فإنّ الدين هو إحدى دعائم وأُسُس حكومتنا، هذا ما جرى فحسب... وكان حاضرًا في المجلس عددٌ آخر». فأجاب السيّد قائلًا: «إذا كان الأمر هكذا، فلا شيء إذًا».

وهنا سؤالٌ يطرح نفسه، وهو: هل كان لقاء إقبال مع الإمام الخمينيّ قدس سره أثمر شيئًا؟ أم استدعى الأمر لقاءً آخر مع السيّد البروجرديّ، كما يدّعون؟ وعلى العموم، فإنّ محمّد رضا استقرّ واطمأنّ بعد هذا اللقاء الأخير، وابتدأ نشاط «مجلس المؤسّسين»، واستمرّ لمدّة واحدٍ وعشرين يومًا.

أمّا مسألة سكوت آية الله البروجرديّ، فقد فُسِّر بعلامة الرضا والموافقة، وانعكس هذا في داخل الحوزة وخارجها. وعندها، قام بعض كبار الحوزة وفضلائها، بما فيهم الإمام قدس سره، باستفتاءٍ مفتوح قُدِّم إلى السيّد البروجرديّ. ونصّ الاستفتاء هو الآتي:

«س: سماحة آية الله العظمى السيّد حسين البروجرديّ - متّع الله المسلمين بطول بقائه، لقد طرق لقاء سماحتكم بأعضاء مجلس المؤسّسين أسماعَ الجميع، وفُسِّرَت نتيجة الحوار بالتأييد والموافقة لكلّ ما يقوم به التجمّع المزبور. ونظرًا لعواقب هذا الاجتماع على الصعيد الدينيّ والوطنيّ والاجتماعيّ، وما يخرج به من قوانين جديدة قد لا تتلائم مع المصالح الدينيّة ومستقبل البلاد، مضافًا إلى الصلاحيّات الجديدة لبعض النوّاب، والتي قد تساهم في الوقوف أمام مفاجآت كبيرة وخطيرة في المستقبل، رأينا من الضروريّ لفت أنظار الجميع حول نظركم المبارك لِما انتشر من أقاويل ودعايات بهذا الصدد، وبيان الواجب الشرعيّ تجاه المسألة، ودمتم».

22 جمادى الأولى 1370 (1950م).

فأجاب آية الله البروجرديّ بجوابٍ مفصّل، ولمّح على الفور بعدم موافقته.

نصّ الجواب كالآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، نحن على أمل كبير بالعلماء عند ظهور تناقضاتٍ وفتنٍ كهذه، للقيام بمجابهتها والوقوف في وجهها. إنّ الجميع يعرف تصرّفاتي وأفعالي وأفكاري جيّدًا، ومدى حرصي على حفظ ديننا ومصالح بلادنا، إنّما ليس من الضروريّ أن يعلم العامّة بكلّ خطوة نخطوها. وثانيًا، عندما أمر الشاه بـمجلس المؤسّسين، حرصًا منّا على المساس بالأمور الدينيّة، قمنا بتحذير الحكومة وإنذارها من المساس بتلك الفقرات والبنود. وبالمقابل، حضر وزير الداخليّة والمحافظ، وردّوا عليّ الجواب من قِبَل الشاه، وأعطونا المواثيق بعدم التعرّض للأمور الدينيّة وما يخصّها من قوانين. ومع هذا، إنّني لم أُلمِّح، ولم أُفْصِح بأيّ موافقة أو تأييد في المجالس كافّة التي دار فيها الحوار حول هذه القضيّة، وكثيرٌ من السادة والعلماء والفضلاء قد حضروا هذه المجالس، وهم شهودٌ على ما ندّعي. ثمّ كيف يحقّ لي قبولها والرضى بها، وبعض جوانبها غامضة ومبهمة لي؟».

وممّا هو جدير ذكره، أنّه في هذه الفترة، كان آية الله الكاشانيّ[1] مُبعدًا عن بلده، وهو بالمنفى، فأصدر بيانًا ونشره في إيران، قد تطرّق البيان إلى هدف تشكيل مجلس المؤسّسين، والذي هو -برأيه- تغيير بعض قوانين الدستور لصالح أهداف خاصّة ضدّ الشعب والدين، وطلب من الجماهير أن تعلن معارضتها لهذا القرار.

وفي عام 1956م، أخذ البهائيّون يشقّون الطرق، ويتوغّلون في الدوائر الرسميّة والمراكز الحسّاسة، وازداد تحرّكهم هذا يومًا بعد آخر؛ الأمر الذي دعا الإمام قدس سره أن يقتحم عقبة منزل آية الله البروجرديّ، ويدخل على السيّد، رغم المخالفة والمعارضة لبعض الرموز المشبوهة والمتنفّذة -التي أشرنا لها سابقًا- ويعرض المسألة بتفاصيلها

(1) آية الله الكاشانّي: أحد أبرز علماء الدين الإيرانيّين، الذي قاد حركة الشعب ضدّ النظام الشاهنشاهيّ، وساعد في ارتقاء الدكتور مصدّق إلى رئاسة الوزراء.

على سماحة السيّد. ولأجل مطاردة هذه الفرقة الضالّة، كثّف الإمام قدس سره من نشاطه ضدّهم، وصعّد من زياراته ولقاءاته مع آية الله البروجرديّ، ولكنّ جميع المحاولات كانت دون جدوى، وكان السيّد رحمه الله يبدي برودًا تجاهها؛ ولهذا تُرِكَت المسألة للقضاء والقدر.

من نشاطات الإمام قدس سره السياسيّة المهمّة في العقد الخامس: جهوده المتواصلة والمكثّفة لإلغاء حكم الإعدام عن أربعة أشخاص من «حركة فدائيّي الإسلام»[1]، ومن ضمنهم السيّد «نوّاب صفويّ». هؤلاء اتُّهِموا بعمليّة اغتيال لبعض رموز الدولة، وبعض ممثّلي بريطانيا عام 1956م. وبعد أن تحمّلوا شتّى أنواع التعذيب في السجون لمدّة أشهر من اعتقالهم، أصدرَت المحكمة العسكريّة حكمَ الإعدام بحقّ هؤلاء.

وكان لمساعي الإمام قدس سره هذه، لنجاة هؤلاء من حكم الإعدام، دلائل:

فأوّلها: أنّ الذين اغتيلوا هم من الرموز الخونة للبلاد أو العميلة للأجانب.

وثانيها: أنّ هذه العمليّة كانت مؤيَّدة من قِبَل آية الله الكاشانيّ، المجتهد الجامع للشرائط آنذاك.

ثالثها: في قاموس أحكام الإعدم، تُفسَّر ظاهرة إعدام السيّد نوّاب صفويّ، بزيِّه الدينيّ، عمليّة إعدام لعلماء الدين، وبهذا سوف تكون مقدّمة لحملة اعتقالات ومحاكمات وإعدامات واسعة، على نطاق الحوزة والعلماء المجتهدين. وبالفعل، وكما رأينا، مباشرةً بعد إعدام نوّاب صفويّ، ألقوا القبض على آية الله الكاشانيّ بتهمة التنسيق مع تلك الجماعة، وأودعوه السجن.

فلعلّه بدافع هذه الدلائل، وبالأخصّ عندما رأى الإمام قدس سره صمتًا ومعارضةً من قِبل الزعامة الدينيّة، ولِما يحسُّ به من واجب شرعيّ ملقًى على عاتقه، نظرًا لما يتمتّع به من دراسة وبُعد نظر لعواقب هذه الأحداث، قام بتوجيه ثلاث رسائل إلى ثلاث

(1) حركة فدائيّي الإسلام: حركة مناهضة للنظام الشاهنشاهيّ، بقيادة الشهيد السيّد نوّاب الصفويّ، كانت لها اليد في عمليّات عدّة ضدّ رموز الشاه.

شخصيّات مرموقة ذات مكانة عليا في النظام، وهم: المحافظ «رفيع» و«بهبهانيّ» و«صدر الأشراف»، وطلب منهم التدخّل وعدم تنفيذ القرار بحقّ أولئك الأربعة، نظرًا لِما قدّمه من دلائل وبراهين تبرّر عمليّتهم الجهاديّة تلك. هذا، وقد ردّ عليه أحدُهم بجوابٍ هادئ، بينما أحجم الآخرون عن الجواب.

القسم الثاني: الإمام قدس سره والانتفاضة الوطنيّة

إنّ ما وحّد بين صفوف القطاعات الدينيّة والوطنيّة طيلة العقد الرابع، وألّف بين قواهم، وجمع ما بين رؤوسائهم وكبارهم، هو الأهداف المشتركة فيما بينهم، وعلى رأسها مسألة تأميم النفط. فطبقًا لقرار عام 1900م، كان النفط الإيرانيّ يدخل كلّه بمُلكيّة البريطانيّ «ويليام ناكس دارسي وشركاه»، وقد عُرِف هذا القرار بـ«قرار دارسي». وبعد سبع سنوات من هذا القرار -أي عام 1907م- تحوّل اسم الشركة إلى «شركة النفط الإيرانيّة البريطانيّة»، حيث ابتاعت بريطانيا إحدى وخمسين سهمًا من أسهم الشركة، وعاد هذا بالمنفعة الكبرى على بريطانيا، مقابل حصص إيران المتواضعة.

ونظرًا لموقع إيران الجغرافيّ والسياسيّ، ولوجود ثروات طائلة وغنيّة به، تحوّلت مسألة النفط الإيرانيّ إلى مسألة اقتصاديّة سياسيّة كبيرة. ومن هنا، اشتدّ حرص بريطانيا على استعمار إيران والتسلّط عليها. وقد رأينا كيف أخذَت تشكيلة الحكومات في إيران تتبدّل من هيئة إلى أخرى، وفي فترات قصيرة، حفظًا لمصالح بريطانيا. ولهذا، أصبح النضال من أجل تأميم النفط هو نضالٌ ضدّ الاستعمار، ولاستقلال البلاد. ولأهمّيّة هذه المسألة التاريخيّة، وعلاقتها بالانتفاضة الوطنيّة العارمة طيلة العقد الرابع، نرى من الضروريّ إلقاء الضوء على بعض جوانبها المهمّة والحسّاسة.

أ. النفط من عام 1942م وحتّى 1954م

بعد هروب رضا خان بسنوات عديدة، ونظرًا لغياب القيادة السياسيّة الرشيدة، وكذلك عمالة كثير من رجالات الدولة ورؤساء الأحزاب السياسيّة، بقيَت قضيّة النفط

وأهمّيّتها غير واضحة عند الشعب بصورة عامّة، إذ لا أحد هناك يعلم بأنّ هذه المادّة الغنيّة هي بمثابة الدم الذي يجري في عروق الاستعمار.

قضيّة النفط لم يتطرّق إليها البرلمان الثالث عشر-الذي كان في عهد رضا خان- أبدًا، لكن في انتخابات الدورة الرابعة عشرة للبرلمان(1) عام 1944م، ولنفوذ السلطة فيه تمامًا، استطاع بعض المرشّحين الشعبيّين، الذين يحظون بتأييد كبير من الأمّة والجماهير، أن يخترق الحواجز ويتمركز في البرلمان، أمثال السيّد أبو القاسم الكاشانيّ، والدكتور محمّد مصدّق.

أمّا بريطانيا، التي تحمّلَت الويلات والمصائب من وقوف آية الله الكاشانيّ أمام مخطّطاتها الاستعماريّة، فقد اعتقلَته قبل بدء الانتخابات، وأودعَته السجن، ومكثَ فيه مدّة سنتَين وأربعة أشهر، وبهذا حُرِمَ من النيابة والعضويّة في البرلمان.

في عام 1945م، قُدِّمت اقتراحات ومشاريع للحكومة مِن قِبَل شركات أمريكيّة وبريطانيّة، ووُضِعَت قيد الدراسة والتحليل. وقام الدكتور «راد منش» ممثّل حزب توده (الشيوعيّ) في البرلمان، نيابةً عن حزبه، بمعارضة التعامل مع الدول الجنبيّة وبيعها حصصًا من النفط. وبعد أشهر، قدّم الكتور مصدّق مشروعًا منسّقًا كاملًا، وصوَّت عليه البرلمان، ينصّ على عدم التعامل مع الدول الأجنبيّة بالنفط مطلقًا، ولا يحقّ للحكومة وأعضائها إجراء محادثات بهذا الصدد.

واقترح نائبٌ آخر مشروعًا جديدًا، وهو سحب صلاحيّة نفط الجنوب من اتّفاقيّة «دارسي» عام 1900م؛ لأنّها عُقِدَت في زمن الحكومة الجائرة، وسرى مفعولها بعهد رضا خان الديكتاتوريّ، وتحمّلَت إيران من جرّاء هذا خسائر ماليّة فادحة. لكنّ هذا الاقتراح باء بالفشل؛ لعدم موافقة النوّاب.

في انتخابات الدورة الخامسة عشرة للبرلمان، حدث تزوير كبير من قِبَل بعض المتآمرين في جهاز الحكم. ومع هذا، استطاع عددٌ ضئيل من ممثّلي الشعب الحقيقيّين

(1) في تلك الفترة، كانت مدّة عمل المجلس سنتان.

كَسْبَ مقاعد في البرلمان. وتعرّض السيّد الكاشانيّ للاعتقال أيضًا من قِبَل رجال الدولة، في يوم الانتخابات عام 1947م، وأُودع السجن، ولبث فيه عامًا وحدًا، ولمّا يكمل بعد سنة واحدة من إطلاق سراحه. وكان من المؤمّل بدخول السيّد الكاشانيّ إلى البرلمان، نظرًا لمكانته الدينيّة والسياسيّة، أن يترأّس الخطّ المعارض للدولة، وتبدّدَت الآمال ثانيةً باعتقاله للمرّة الثانية، وبقي الأمل في أولئك النوّاب القلّة الذين ساروا على خُطاه، وأوقفوا كثيرًا من المحادثات، بالأخصّ بيع حصصٍ من النفط، والتي أُرجِئَت للدورة التالية.

أمّا انتخابات الدورة السادسة عشر، التي أُجرِيَت عام 1951م، فقد حظيَت بنوعٍ من الحرّيّة والانفتاح، واستطاع عددٌ لا بأس به من ممثّلي الشعب الحقيقيّين أن يفوزوا بعضويّة في البرلمان، كالدكتور مصدّق، وآية الله الكاشانيّ، الذي كان مُبعَدًا إلى لبنان إثر اتّهامه بتدبير عمليّة اغتيال الشاه. واضطرَّت الحكومة لإعادته؛ نتيجة تصاعد أصوات الناخبين له في العاصمة طهران. وبعد سنة ونصف من إبعاده، عاد إلى البلاد عام 1950م، واستقبلَته الجماهير استقبالًا لم يشهد له التاريخ نظيرًا ليومه ذاك.

وقد أصدر بيانًا فور دخوله البلاد، شرح فيه أسباب إبعاده إلى الخارج، منها: معارضته لتمديد اتّفاقيّة «دارسي» عام 1933م، ومخالفته لعقد مجلس المؤسّسين، الذي اعتبره فاقدًا للصلاحيّة والاعتبار، وكذلك لإرهاب الجماهير وإلقاء الرعب في نفوسهم. وأكّد قائلًا: «إنّ نفط إيران ملكٌ للشعب الإيرانيّ كلّه، وكلّ ما يصدر حوله من قرارات واتّفاقيّات إجباريّة أو إكراهيّة، ليس لها أيّ اعتبار قانونيّ أو قضائيّ، ولا يستطيع أحدٌ أن يسلب أيَّ حقّ من حقوق الشعب المحروم».

صعَّد هذا البيان -الذي ألقاه الدكتور مصدّق في البرلمان- من عزيمة نوّاب الأقلّيّات في البرلمان وحماسهم، فهو يُعَدّ بحقّ، بمثابة صرخة قويّة في وجه المؤامرات التي تُحاك في جهاز الحكم، بمساعدة أغلبيّة النوّاب الخونة، والعلماء في بريطانيا. وكما كان متوقَّعًا، ازداد نشاط الجهاد والنضال لدى الأمّة ضدّ الاستعمار والاضطهاد.

سعَت الحكومة آنذاك، معتمدةً على نوّاب البرلمان الخونة، لتكثيف ضغوطها على البرلمان؛ كي يرضخ للتصويت على اللائحة الملحقة بقرار عام 1933م، والتي عُرِفَت فيما بعد باتّفاقيّة «غِسْ-غلشائيان».

بموجب هذه اللائحة، يرتفع سعر الطنّ الواحد من النفط من أربع إلى ستّ شلنكات، لصالح الحكومة الإيرانيّة، أمّا في حال مبيعه إلى إيران، من قِبَل شركة النفط، فبسعر يعادل 25 بالمئة من سعر النفط المصدَّر.

وكما ذكرنا آنفًا، فلسبب معارضة بعض النوّاب المعارضين ومخالفتهم، لم تُفلح هذه اللائحة بالنجاح، وتسبّبَت بإعادة تشكيل هيئة الدولة مرّتَين.

وتزامنًا مع تشكيل الدورة السادسة عشر، انتقل «رزم آراء» من رئاسة الجيش إلى رئاسة الوزراء. وكان الهدف من وراء هذا الانتقال هو إرغام البرلمان على الموافقة على اللائحة الملحقة المعروفة بـ«غِس-غلشائيان»، نظرًا لِما يتمتّع به «رزم آراء» من القوّة والحزم. لكنّ العكس بالتمام هو الذي حدث، ووقف السيّد الكاشانيّ والدكتور مصدّق وآخرون في صفّ واحد في وجه المؤامرات الدنيئة، التي كرّسَت جهودها لإيقاف مسيرة تأميم النفط.

أعلن آية الله الكاشانيّ عن معارضته لدولة «رزم آراء». أمّا الدكتور مصدّق، الذي كان يرأس قسم النفط في البرلمان، وما حُوِّل إليه من قرارات واتّفاقيّات، بما فيها اللائحة الإلحاقيّة، للدراسة والبحث، فأعلن -أثناء لقائه مع إحدى الصحف به- عن مخالفته للحكومة، وأنّ كلّ ما اتّخذ من قرارات واتّفاقيّات، كاتّفاقيّة «دارسي» عام 1933م، وكذلك اللائحة الإلحاقيّة، هو باطل غير قانونيّ، وليس له أيّ اعتبار.

وبعد أشهرٍ، طالَبَ عددٌ من النوّاب، وعلى رأسهم الدكتور مصدّق، بتأميم النفط في البلاد كافّة. ومباشرةً بعد هذا، أعلن آية الله الكاشانيّ عن رأيه الصارم، ودعا جميع أبناء البلاد إلى القيام بمهمّتهم الدينيّة والوطنيّة، وإلى الوقوف بجانبها، وسانده جمعٌ غفير من العلماء والفضلاء في الحوزة العلميّة في قمّ، أمثال السيّد محمّد تقيّ الخوانساريّ

والشيخ بهاء الدين المحلاتيّ والشيخ عبّاس عليّ الشاهروديّ وشخصيّات أخرى، وأعلنوا عن تأييدهم المطلق عبر إصدار الفتاوى والبيانات. وتصاعدَت المشاحنات، وتأزّم الجوّ السياسيّ تأزّمًا ملحوظًا. فمن جهةٍ، اشتدّت المعارضة من قِبل أقلّيّة النوّاب، فوقفوا إلى جانب الدكتور مصدّق وآية الله الكاشانيّ؛ ومن جهةٍ أخرى، برزَت مقاومة رئيس الوزراء «رزم آراء» والأكثريّة الغالبة في البرلمان. فأدّى ذلك كلّه إلى عرقلة نشاط البرلمان، وإيصاله إلى طريقٍ مغلقٍ مسدود. وتزامنًا مع هذا الوضع، اغتيل «رزم آراء» على يد خليل طهماسبي -الذي ينتمي إلى حركة فدائيّي الإسلام- عام 1950م؛ على إثر هذا الحادث، أُصيبَت الحكومة والبرلمان بنكسة كبيرة، وانتابهم رعب وهلع كبيرَين. وفي اليوم الثاني من الواقعة، صادَقَ البرلمان على اقتراح لجنة النفط في البرلمان، وصُوِّت عليه بعد أيّام عدّة، ووافق مجلس الشيوخ عليه فورًا، وأُعلِن عن تأميم النفط في أرجاء البلاد كافّة.

وبعد أسبوع واحد من اغتيال «رزم آراء»، عُيِّن «حسين علاء» رئيسًا للوزراء، وهو أحد عملاء بريطانيا، ومن أياديها الخبيثة. لكنّ هذا الأمر واجَهَ معارضة شديدة من قِبَل البرلمان والشعب، واضطرّ «حسين علاء» أن يستقيل من منصبه على وجه السرعة. واقترح البرلمان على الدكتور مصدّق استلام هذه المهمّة، وبعد محاولات كبيرة من آية الله الكاشانيّ، وافق الدكتور مصدّق على استلام رئاسة الوزراء (1953م).

أعلن السيّد الكاشانيّ أنّ البرلمان خوّل جميع الصلاحيّات لاختيار الوزراء إلى الدكتور مصدّق، وسوف لن يتدخّل بأيّ شأن من شؤونه، وسوف يبذل البرلمان قصارى جهوده للدفاع والذبّ عن دولته.

ولاقى الدكتور مصدّق -بمهمّته هذه- صعابًا كثيرة، وعارضه ووقف أمامه عددٌ من الخونة عملاء بريطانيا، داخل البرلمان وخارجه، وأخذوا يحاولون عرقلة جميع نشاطاته وقراراته، وقد أُحبِطَت جميع مؤامراتهم عندما دعا العلماء كافّة الناس إلى الاتّحاد والعمل على دعم حكومة الدكتور مصدّق. وحرّض آيةُ لله الكاشاني عامّةَ الشعب

على المظاهرات المؤيّدة للدكتور مصدّق، وشجّعهم على إفشال المؤامرات الاستعماريّة، وأُغلِقَت على إثرها القنصليّات البريطانيّة، وقام موظّفوا شركة النفط بالتوقّف عن العمل.

ب. نشوء الاختلافات السياسيّة بين آية الله الكاشانيّ والدكتور مصدّق

في حزيران عام 1952م، نشب خلافٌ بين الشاه والدكتور مصدّق حول استلامه منصب وزير الدفاع، وعلى إثره، قدّم الدكتور مصدّق استقالته دون مشاورة آية الله الكاشانيّ. أمّا الشاه، الذي كان يتمنّى هذه الفرصة، أصدر على الفور قرارًا بتنصيب «قوام السلطنة» رئيسًا للوزراء، وأصدر «قوام السلطنة» بيانًا يهاجم به المناوئين للسلطة -أي الشعب والسيّد الكاشانيّ- وهدّد بالمقابل القوى العسكريّة، وحذّرهم من أيّ تحرّك يصدر، وأمر بانتشار القوّات المسلّحة والدبّابات في شوارع العاصمة طهران وساحاتها. أمّا آية الله الكاشانيّ، فأصدر بيانًا يدعو فيه الشعب والجماهير إلى الجهاد والنضال، جاء فيه:

«... يجب على كافّة إخوتي المسلمين التأهّب للجهاد الأكبر لمقارعة الاستعمار والخونة. فليُثبِتوا أمام الجميع، مرّة أخرى، أنّ الاستعمار وأياديه وكافّة الخونة المرتزقة لا مكانة لهم في بلادنا، وسوف لن يعود العهد البائد أبدًا...».

وبعد هذا، دعا مندوبي الصحف الداخليّة والأجنبيّة، وأعلن خلال لقائه الصحفيّ هذا، أنّه سوف لن يعلن الجهاد والثورة، وسيرتدي بنفسه كفن الشهادة، إذا لم يتنحَّ «قوام السلطنة» عن مركزه هذا. وعلى إثرها، خرج الناس معارِضين ومندِّدين بالحكومة، وهم يطوفون في الشوارع والأزقّة، وإذا بالقوّات العسكريّة تداهمهم، وأسقطَت الكثير منهم قتلى وجرحى. وتعرّض قائد الجيش ورئيس الدرك إلى قافلة المجاهدين، الذين قَدِموا من مدينة «كرمانشاه» للوقوف بجانب الجماهير الثائرة في طهران، فرشقوهم بالرصاص، فسقط الكثيرون مضرّجين بدمائهم؛ نتيجة طيش الجيش والدرك وحماقاتهم.

ولمّا زاد قلق الشاه من تحرّكات السيّد الكاشانيّ، عمد إلى إرسال ممثّلين عنه لزيارته؛ كي يرغموه على السكوت بأيّ وجه كان، لكنّه ردّهم خائبين، وأعلن بصراحة تامّة، مطالِبًا بإرجاع الدكتور مصدّق إلى منصبه ومهمّته من جديد. وبعدها بأيّام، بعث رسالة إلى وزير البلاط حسين علاء، جاء فيها:

«سعادة السيّد علاء، أفيدكم علمًا أنّه بالأمس، وبعد زيارتك، وفدَ إليّ «أرسنجانيّ» المبعوث من قِبل «قوام السلطنة»، وعرض عليّ اقتراحًا يقضي باختيار ستّة من الوزراء من قِبَلي أنا، مقابل السكوت وعدم تحريض الجماهير. فرددتُ عليهم فورًا، أطلب منك أن تخبر الشاه وتحذّره، إن لم يُرجِع مصدّق إلى رئاسة الوزراء خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة، سوف أقود ثورة عارمة، وأتقدّمها شخصيًّا، وسأُداهم البلاط بنفسي...، على أمل تنفيذ المطلوب بجدّيّة تامّة».

في اليوم التالي لهذا الإنذار، خرج الشعب إلى الشوارع والأزقّة والساحات، تنفيذًا لأوامر آية الله الكاشانيّ، ودفاعًا عن الدكتور مصدّق، على الرغم من فرض منع التجوّل من قِبَل الحكومة. وواجهَت القوّات العسكريّة حشود الجماهير، وشتّتها بالرصاص، وأردَت المئات منهم قتلى وجرحى. وعُرِفَت هذه المذبحة بواقعة «30 تير/ 21 تمّوز». ونتيجة لذلك، رضخ الشاه لأوامر آية الله الكاشانيّ، وعزل «قوام السلطنة»، وأعاد الدكتور مصدّق إلى منصبه في 22 تمّوز 1952م، مضافًا إلى منحه مهمّة قيادة وزارة الدفاع. وتحقّق هذا النصر بوقوف الجماهير المسلمة بعضها إلى جانب بعض، وامتثالها لإرشادات قائدها الدينيّ آية الله الكاشانيّ وبياناته:

إنّ واقعة «30 تير» كانت قمّة التآلف والتضامن بين الجبهة الإسلاميّة بقيادة آية الله الكاشانيّ، والجبهة الوطنيّة بقيادة الدكتور مصدّق. وتلا ذلك انشغال الوطنيّين والإسلاميّين فيما بينهم، إلى أن عمد أحدهما إلى عزل الآخر نهائيًّا، وبهذا فقدت الجبهة الوطنيّة شعبيّـها التي كوّنها وشيّدها الكاشانيّ، وأصبح هذا سببًا لوقوع انقلابٍ أمريكيّ في 19 آب عام 1952م.

ولعلّه من الضروريّ أن نذكر شيئًا عن أسباب اختلاف الجبهتين المذكورتين ودواعيه، بشيء من الاختصار: بعد تحقيق هذا النصر الكبير، سلّم الدكتور مصدّق بعض المهامّ والصلاحيّات إلى بعض من الرموز والشخصيّات التي لم تحظَ بتأييد آية الله الكاشانيّ. ومن خلال مطالبة الجماهير وآية الله الكاشانيّ وبعض من نوّاب البرلمان، لمعاقبة ومحاسبة الذين تسبّبوا في سفك الدماء وقتل الأبرياء في واقعة «30 تير»، ووُوجِهوا بالإعراض عن الاستجابة لمطالبهم. وممّا زاد الطين بلّةً، هو اختيار اللواء «وثوق الدولة» قائدًا للجيش، وهو الذي رشق الثوّار القادمين من كرمانشاه إلى طهران بالرصاص، كما ذكرنا آنفًا، وانتُخِب اللواء زاهدي، الذي كان مطاردًا من قِبل آية الله الكاشانيّ في البرلمان، وزيرًا للداخلية. كذلك استطاع شاهبور بختيار أن يصعد إلى منصب عالٍ في وزارة العمل والشؤون الاقتصاديّة، إذ كان مديرًا لدائرة العمل في محافظة خوزستان قبل تأميم النفط، والتي كانت دائرةً تحت نفوذ شركة النفط الإيرانيّة البريطانيّة وسلطتها آنذاك، مضافًا إلى كشف وثائق جاسوسيّة في منزله، تعود إلى مدير شركة النفط الإيرانيّة البريطانيّة. هذا مضافًا إلى عدم تقيّده ببعض الالتزام والأمور الإصلاحيّة، كعدم منعه قانون استعمال المُسكِرات، وسكوته عن بعض رجالات الدولة الذين يتطاولون على رجال العلم والدين، ويتعرّضون لهم بالأذى، مضافًا إلى سفر الشاه المفاجئ إلى الخارج في ربيع عام 1952م، والتي يراها آية الله الكاشانيّ مؤامرةً دوليّة متّفق عليها، يجب الحذر منها... إلخ. ومن الأسباب المهمّة جدًّا لوجود هذه الاختلافات، هو مطالبته بإعطاء الصلاحيّات المطلقة ذات الستّة أشهر، ومن ثمّ تجديدها وإنهاء إجراء الاستفتاء العامّ لحلّ دورة البرلمان السابع عشر، الذي كان يحظى الدكتور مصدّق بدعم كبير من نوّابه، مضافًا إلى وجود آية الله الكاشانيّ فيه كرئيسٍ له.

ويرى بعض المؤرِّخين أنّ اختلاف نظرات وآراء كلّ من الطرفين يتعدّى المسائل السياسيّة والدينيّة وما يدور حولها؛ والسبب الرئيس لذلك هو نوع المنهج الفكريّ وأسلوبه لكلّ منهما، وهما اللذان لا يتّفقان على أيّة نقطة.

يقول المؤرّخ «سبهر ذبيح»: إنّ الدكتور مصدّق هو رجل سياسيّ ليبراليّ صرف، وغير عقائديّ أو دينيّ، ويرى أنّ رجال العلم والحوزة يجب أن يؤهّلوا الجماهير للوقوف إلى جانب الحركات الوطنيّة والدفاع عنها، لا غير، أمّا مسألة تدخّلهم بالشؤون التنفيذيّة وما شابهها، فهو أمر غير لائق بهم. وهذه هي العلّة الأساسيّة للخلاف بين الجناح الدينيّ والجناح الوطنيّ، والتي لم تصل يومًا لحلّ سليم ودائم، بل صعّدَت من الخصومة والجدال بينهما؛ ممّا أثّر تأثيرًا كبيرًا في سقوط حكومة مصدّق في 19 آب عام 1953م.

وعلى أيّة حال، ومن هنا، ابتدأ نشاط الأعداء من جديد، بعد أن كانوا ينتظرون هذه النتيجة بفارغ الصبر، وبتدبير أنواع الحيل والمكر؛ لأجل توسيع رقعة الخلاف بين كبار قياديّي الثورة. وتحامل حزب توده على السيّد الكاشانيّ، وأخذ يفتري عليه الافتراءات، ويُلصق به التهم، ويتعرّض له بالكلام الرديء، وينهال عليه بالسباب في الصحف والمجلّات علنًا، وشجّع شبابه المنخدعين على نشر تلك الاتّهامات والافتراءات في أوساط الشعب؛ من أجل محاربة آية الله الكاشانيّ، وتشويه سمعة العلماء والحوزة العلميّة. وتسابق في هذا المجال أيضًا، بعضُ مؤيّدي الدكتور مصدّق من الوطنيّين المتشدّدين، وراحوا يبثّون سمومَهم وأفكارهم واتّهاماتهم للسيّد الكاشانيّ، عبر وسائل الإعلام الحكوميّة. أمّا بالنسبة لشخص الدكتور مصدّق نفسه، وفضلًا عن عدم تعرّضه لتلك الافتراءات الباطلة والسخيفة، فقد التزم الصمت؛ معلّلًا ذلك بأنّه مسألة حرّيّة الصحافة، وبهذا فسح لهم المجال أكثر لاعتدائهم على آية الله الكاشانيّ.

ولإمامنا الراحل قدس سره خواطر وذكريات مؤلمة عن تلك الأيّام، حيث تطرّق في إحدى خطبه لهذه المسألة قائلًا:

«لقد واجَهَ المرحوم آية الله الكاشانيّ حملةً شنيعة مِن قِبل الوطنيّين، حتّى إنّهم ربطوا كلبًا على باب البرلمان، ووضعوا نظّارات على عينيه، وجعلوا اسمه الكاشانيّ؛ وقد حدث هذا فعلًا!».

وأصدر علماء الدين، في كلٍّ من الحوزة العلميّة في النجف الأشرف وقمّ، بياناتٍ منفصلة، تطالب البرلمان والحكومة بالحدّ من تلك الافتراءات والاتّهامات الباطلة والمزيّفة، احترامًا لِما قدّمه السيّد الكاشانيّ من خدمات وجهود للثورة الشعبيّة والوطنيّة، وتقديسًا لمكانته ووجاهته الدينيّة.

لقد أثّرت هذه الإشاعات والأفكار السامّة على عامّة الناس البسطاء، ولكن لمرّة أخرى، نهض الشعب، واستطاع أن يمسك بزمام الثورة، ويرشد الجماهير إلى طريقها الصائب. وبعد أن عرّضوا بمنزلة السيّد الكاشانيّ وأبعدوه عن الساحة والثورة، تراجع كثيرٌ من الشعب والجماهير عن مواصلة الثورة، وتركوا حكومة مصدِّق دون مساندة أو دعم؛ لأنّهم هم الذين قدّموا القرابين من الشهداء والقتلى والجرحى، وتعرّضوا للقوّات المسلّحة، وبعثروا صفوفها بأمرٍ وإرشادٍ من آية الله الكاشانيّ، وهم الذين ساروا وأخذوا بنهجه.

وعلى الرغم من جميع تصرّفات الدكتور مصدّق المنفردة، وسكوته وتساهله بالأمور، بعث السيّد الكاشانيّ رسالةً إليه -قبل وقوع الانقلاب بيوم واحد- ودعاه إلى الصلاح والتُقى والتزام ما يخدم البلاد والشعب، وأن يترك المصالح الشخصيّة والعواطف الذاتيّة. وأكّد له في حال استمرار هذا الوضع، فسوف يتعرّض الوطن إلى حدوث انقلاب جديد، ونخسر جميع الجهود المبذولة، وطلب منه مدّ يد العون والمساعدة والتضامن للوقوف أمام المؤامرات الهادفة للإطاحة بنا. لكن بلغت غطرسة الدكتور مصدّق إلى حدّ أنّه أجابه بجواب مختصر، وبعبارةِ مَن يردُّ دعوة الاتّحاد والتضامن، ويدّعي بأنّ الجماهير واقفةٌ خلفه لمساندته ودعمه. وفي هذه الأجواء المحمومة، قام اللواء «زاهدي»، وبمساعدة معاونيه ورجاله، بعمليّة انقلاب كبرى ومدبّرة، وذلك بأمر من وكالة الاستخبارات الأمريكيّة، وأطاحوا بالدكتور مصدّق، وشيّدوا صرح الشاه، وقوّموه من جديد. ووقتئذٍ، رجع الشاه إلى البلاد، بعد أن تركها ألعوبة بيد الأجانب.

هكذا قُضِيَ على آمال الشعب جميعها، وما قدّمه لأجل استقلاله، وحفاظًا لدينه وعقيدته.

إنّ كلّ ما قدّمناه من عرض سريع وموجز، هو من أجل إلفات نظر القارئ الكريم إلى مواقف الإمام الخمينيّ قدس سره، والتي أشار إليها خلال بعض خطاباته، وفي مناسبات أخرى؛ للتدليل على مدى اهتمام الإمام قدس سره بدراسة الحوادث السياسيّة وتتبّعها بوعي تامّ، وما نجم عنها في ذلك الحين، مضافًا إلى علاقاته المتينة بالسيّد الكاشانيّ، والتي يرشدنا إليها عددٌ من الرسائل والدلائل وبعض الخطب، فضلًا عن مذكّرات شهود المعاينة.

نضيف هنا أنّ هذه الروابط والعلائق المتينة بين الإمام قدس سره وآية الله الكاشانيّ، هي ليست سببًا لأنْ لا يقوم الإمام قدس سره بتوجيه النقد لجميع تحرّكات آية الله الكاشانيّ ونشاطه وقيادته للانتفاضة الوطنيّة والسياسيّة.

ج. الإمام قدس سره والقوميّون

لتحليل مواقف الإمام قدس سره تجاه الوطنيّة ودراستها، وما دار من حوادث ووقائع في هذه الفترة، نضطرّ إلى دراسة مواقفه في ثلاثة مجالات رئيسة وهامّة:

1. فكرة القوميّة

يرى الإمام الخمينيّ قدس سره أنّ فكرة القوميّة وليدة فكرةٍ غربيّة استعماريّة؛ إذ لمّا كان الاستعمار يخطّط منذ أبعد القرون للاستيلاء على البلاد الإسلاميّة، ولم يرَ مقاومة أمامه سوى الفكر الإسلاميّ، أخذ يفكّر بكيفيّة تمزيق الأمم التي وحّدها الدين الإسلاميّ، ولم يرَ حلًّا إلّا بثّ العنصريّة والأفكار الجاهليّة وما كانت عليه تلك الأمم قبل مجيء الإسلام. واستطاع بالفعل أن يحرز تقدّمًا بمخطّطه هذا، ونشبَت النزاعات والحروب بين الدول الإسلاميّة، وتسلّط على البلاد والعباد والثروات...

جاء في إحدى خطب الإمام قدس سره (9 أيلول 1964م) الآتي:

«إحدى الخطط والحيل التي بثّها الاستعمار في بلادنا، وسيطر بها علينا، هي مسألة التفرقة العنصريّة وإحياء القوميّة... فالتركيّ يجب أن يؤدّي طقوسه الدينيّة على

الطريقة التركيّة، والإيرانيّ يجب أن يتعلّم ويرجع إلى لغته الأصليّة الفارسيّة البحتة، والعربيّ يجب أن تكون حكومته وكيانه مبنيَّين على أساس العروبة، لا على أساس الدين والإسلام. وإنّ بعضًا من إخواننا وكبارنا، مع شديد الأسف، وقعوا في هذا الفخّ الواهي، وأصبحوا كالأطفال الذين نُشغلهم باللعب؛ كي نُسَرّ بهم ونأمن صراخهم. وهكذا الحال لرؤساء الدول وقادتها، لماذا نطلق على فلان بالعربيّ، وعلى الآخر بالتركيّ، وآخر كذا وكذا...؟ وغفلنا عن ديننا ووحدتنا ومبادئنا الإسلاميّة الموحّدة...؟ وللأسف الشديد... لقد شتَّتَ الاستعمار شملنا، وبدَّد جموعَنا بسرقته لمبادئنا وأفكارنا السليمة. ولا أعلم، ولا أدري إلى أين سيؤول بنا هذا الوضع المتشرذم...؟».

وأعاد الكرّة، وردّد الفكرة، وحذّر من مؤامرات المستعمرين وما يهدفون إليه، وذلك عبر بعض خطبه بعد انتصار الثورة الإسلاميّة المباركة، وأشار محذّرًا إلى الآتي:

«... بذلَت الدول العظمى جهودًا كبيرة وواسعة منذ مئات السنين... وبعد دراسةٍ وبحثٍ طويل وعميق أجروه على شخصيّاتنا وكبارنا وأحزابنا وشعوبنا... فخلصوا إلى نتيجة هامّة واحدةً لا غير، وهي عقبة الإسلام، فهو الخطر والمهدِّد الوحيد لهم ولأهدافهم؛ ولهذا أصبح موضوع اهتمامهم البالغ. ولم يرَوا حلًّا لنفوذهم إلّا من خلال الحكومات الإسلاميّة الضعيفة والفاسدة، التي لا تعرف إلّا الحكم وعبادة الملذّات والشهوات. واستطاع الغربُ أن يصطنع حكومات موالية له؛ لبثّ سمومه وأفكاره، وترسيخ أقدامه، والعمل على التفرقة العنصريّة والقوميّة؛ إذ استطاع أن يحقّق أهدافه، فأصبح العربيّ يشتم العَجميّ، والعَجميّ يسيء للعربيّ، والتركيّ يعتدي على فلان، وهلمّ جرًّا...

على العموم، فإنّ فكرة الوطنيّة والقوميّة هي فكرة تطالب بإحياء الجذور والأُسُس للنزعة العنصريّة التي تتعارض مع فكرة الدين الشاملة والعامّة. لقد كرّرتُها أكثر من مرّة...

وإنّ أساس انحطاط المسلمين هو ذلك التعصّب القوميّ والعنصريّ الأعمى...

أمّا الإسلام، فقد جاء معلِنًا روح التسامح والتضامن: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى»... إنّ الإسلام أتى وقال: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾[1]**، وقال: «النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ المِشْطِ»، وأكّد أن «لَا فَضْلَ لِأَحْمَر عَلَى أَسْوَد» و... إلخ. فالأفضليّة هي التقوى، والميزان هو مدى الالتزام بتعاليم الإسلام. فكانت الدعوة إلى العنصريّة والقوميّة مِن قبيل الدعايات والإشاعات التي روّجها الغرب؛ لإضعافنا وتمزيقنا والاستيلاء علينا».**

2. القوميّون: تاريخهم وأهدافهم

تطرّقنا إلى هذا البحث سابقًا، وأشرنا إلى أنّه كان أحد الركيزتَين لعقيدة نظام رضا خان وأسلوبه، وتوسّعَ نطاقُه توسّعًا كبيرًا، بالأخصّ خلال النصف الثاني من عهد رضا خان. وإذا كان القوميّون المتشدّدون قد سبقوا هذه الضائقة زمنيًّا، فإنّ نشاطهم كان من أجل تركيز جذور سلطة رضا خان وتثبيتها، على أنّه القدوة والمثال للوحدة الوطنيّة، والحريص على وحدة إيران وعدم تمزّقها. بينما أعرب القوميّون المعتدلون، الذين برزَت نشاطاتهم بشكل واضح وجليّ خلال العقد الرابع، أعربوا عن شعورهم الداخليّ وهو إيمانهم بأنّ القوميّة هي الطريقة الأمثل لمحاربة الاستعمار، والحدّ من اجتياحه للبلاد. وعلى الأظهر، نشأت هذه الفكرة بعد تطوّر الأوضاع المتأزّمة التي خلّفتها الحرب العالميّة الثانية. ومع ما تظهره القوميّة هذه من وقوفٍ أمام الاستعمار، إلّا أنّها في واقع الأمر لا تختلف شيئًا عن عقيدة القوميّين المتشدّدين؛ لأنّهم متّفقون معهم من حيث المبنى الفكريّ العامّ، وعدم انسجامهم مع الفكر الدينيّ والإسلاميّ. وما الفرق بينهما، إذا كانت تلك وليدة فكرة تعمل لبناء نظام رضا خان، وهذه وليدة فكرة تدعم هذا الكيان، فضلًا عن اشتراكهما في نقاط بارزة، والتي ترى بأنّ رضا خان هو الوجه الحقيقيّ والقدوة والأسوة لكلّ وطنيّ، وهو المدافع عن كرامة الوطن وأصالته.

---

(1) سورة الحجرات، الآية 13.

ومن هنا، نرى الإمام قدس سره ينادي قائلًا:

«إلى متى نتلقّى صفعات من هذه الشعارات وأمثالها؟ إنّني لا أريد أن أتطرّق إلى تلك الوطنيّة التي حكمتنا بعهدِ «مصدّق»، حيث راحوا يؤيّدونها أشدّ التأييد، وإلى ما لقينا منها صفعات وصفعات».

وأظهر مؤكّدًا سوابق الجبهة الوطنيّة، وابتعادها عن الإسلام من حيث المبدأ، قائلًا:

«بعض التيّارات والجهات الوطنيّة كُشِفَت حقائقها منذ اليوم الأوّل لبدء تأسيس تلك الجهات الوطنيّة. ولقد عُزِل الإسلام عن الخطّ الفكريّ والمنهجيّ لهم تمامًا... إنّ كلّ ما تفانوا من أجله هو الوطنيّة، التي تُعَدُّ مبعثًا للشكّ والريبة. لقد رأينا كبارهم ورؤساهم -المعروفين بالوطنيّين وحبّ الوطنيّة- كيف حطّموا آمال الشعب، ووقفوا ضدّه... إذًا، أين الوطنيّة؟ ولِمَ التكالب عليها؟».

ويرى الإمام قدس سره أنّ مسألة حبّ الوطنيّة والتفاني من أجلها عند أولئك، هي شيء مزيّف وبعيد عن الواقع؛ إذ إنّ هؤلاء كانت لهم أهداف ومآرب لم تُحَقَّق، ولن تُنجَز، إلّا عن طريق هذا الغلاف؛ ولهذا نراهم، ولأكثر من مرّة، ضدّ الشعب، وقمعوا تحرّكاته -ملمِّحًا إلى حكومة بختيار والانقلابيّين في معسكر «نُوجه»[1]- ومن خلال دراسته وتتبّعه لتحرّكات وخطب الوطنيّين، خرج الإمام قدس سره بهذه النتيجة:

«لم نَجْنِ من هؤلاء الوطنيّين سوى الدمار. إنّهم جيوشٌ للشياطين، وأتباعٌ لهم... وللدول العظمى المعادية للقرآن والدين الحنيف.

الوطنيّون لم ولن يخفّفوا من آلامنا شيئًا، بل إنّ النخوة والمروءة والشهامة من سِمات المسلمين الموحِّدين فقط. لقد جرّ لنا الوطنيّون الويلات المتلاحقة... لذا، فإنّنا نريد الإسلام حاكمًا وقائمًا، لا هؤلاء...».

3. ماهيّة الانتفاضة الوطنيّة وأهدافها

إنّ الثورة الشعبيّة التي حدثَت في العقد الرابع، هي ثورة مادّيّة في رأي الإمام قدس سره،

(1) قاعدة جوّيّة كانت مركزًا للانقلابيّين، وقد كُشِف أمرهم قبل القيام بأيّ عمل.

ولكونها حاربت الاستعمار من أجل النفط لأهمّيّته، فهي ثورة سياسيّة. وعلى العموم، فهي خارجة عن نطاق الإسلام والهدف الإلهيّ. وأشار الإمام قدس سره لهذا المعنى مرّات عديدة، وفصّل ضمن خطبه خصائص هذه الثورة، فقال:

«كانت هتافات الجماهير سابقًا لأجل النفط والمادّة، بينما هتافات جماهيرنا بهذه الثورة «الإسلاميّة» هتافاتٌ إسلاميّةٌ تُطالب بالسير على خُطى الإسلام. وثمّة فرق شاسع بين مَن يجاهد ويناضل لأجل الدين والعقيدة، ومَن يقاتل ويناضل من أجل المادّة. إنّ النهضة السابقة كانت مادّيّة، بينما نهضتنا اليوم نهضة إسلاميّة وإنسانيّة، كنهضة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم... أمّا ثورة مصدِّق، فقد كانت سياسيّة بحتة، وثورتُنا هي سياسيّة دينيّة وذات أصول وجذور عميقة وعريقة...».

إنّ الإمام قدس سره يقدّس ثورة هذه الأمّة، كونها ثورة إسلاميّة لا تريد سوى وجه الله -تعالى-؛ وبهذا، فجذورها وأُسُسها ضاربةٌ في أعماق الجماهير، وهي أصل عقيدتهم، وركيزة ثقافتهم. ونظرًا لوجود قيادة حكيمة ورشيدة، فسوف يصل فداء الأمّة وإيثارها ونضالها إلى الهدف المنشود. ومن هنا، أتَت ثقة الإمام قدس سره بانتصار أمّةٍ كهذه.

والعكس بالعكس، فكثير من الثورات السياسيّة الماضية، بما فيها الوطنيّة، مُنِيَت بالفشل، فتقهقرَت لكونها بعيدة عن الأهداف الإسلاميّة والإلهيّة، ولا تملك أيّة صفة من صفات الثورات الإسلاميّة؛ ولهذا فهي إمّا أن تتقهقر في منتصف الطريق، كالحركة الدستوريّة، أو تتقدّم خطوات لتصطدم بحواجز تقلبها رأسًا على عقب، كالنهضة الوطنيّة. يقول الإمام قدس سره:

«... الحركات والنهضات والثورات التي شاهدناها على التاريخ، أو تلك التي رأيناها بأمّ أعيننا -كالثورة من أجل النفط- اضمحلَّت وذابت وغابت في عالَم النسيان، بل تبخّرَت بتمامها؛ لأنّ أهدافها لم تكن إسلاميّة، بل كانت وطنيّة، ومثلها حركة تأميم النفط التي وضعَت أقدامها على طريق النجاح، وأخفقَت...».

وبهذا الصدد، نرى انتقاد الإمام قدس سره للحركة الوطنيّة الإسلاميّة ولقادتها، انتقادًا

بنّاءً وأصوليًّا، فيعتقد { بأنّ القيادة الدينيّة للحركة -آية الله الكاشانيّ- كان عليها ترسيخ جذور الثورة وتعميقها إسلاميًّا وعقائديًّا، من حيث الشكل والمحتوى، لا أن تتجاهل هذه الأمور، فتتعالى وتطغى عليها الحنكة السياسيّة، وتستأثر بالمنهج السياسيّ لها -أي القيادة الدينيّة-.

ولقد أعلن الإمام قدس سره عن رأيه هذا بصراحة تامّة قبل الثورة الإسلاميّة، حيث قال:

«عندما قامَت ثورة الكاشانيّ ومصدّق، التي طغى عليها الجانب السياسيّ دون الدينيّ، بعثتُ برسالة إلى السيّد الكاشانيّ، طلبتُ منه فيها الاهتمام بالإسلام، والتركيز على الطابع الدينيّ، فلم يهتمّ بها، بل اتّخذ مسارًا عكسيًّا، وآثر الجانب السياسيّ، إلى أن أصبح رئيسًا للبرلمان، فأضحى موضعًا للشبهة. ولقد رجوتُه أن يكرّس نشاطَه لصالح الدين، لا أن يصبح سياسيًّا محترفًا...».

وفي نهاية المطاف، إنّ الإمام قدس سره يعتقد أشدّ الاعتقاد، بأنّ أيّة نهضة أو حركة ثوريّة في العالَم الإسلاميّ، لم تجعل أهدافها إسلاميّة، ولم تخطُ بخطواته، فإنّ مصيرَها الفشل؛ لأنّها جعلَت هدفها المنشود هو الاتّجاه السياسيّ، ولم تتّجه إلى الله -سبحانه وتعالى-؛ وبمثل هذا، تضيع الآمال، وتذهب الجهود أدراج الرياح، بينما تُعقَد الآمال عندما تكون الثورة أو النهضة سائرةً بخطى حثيثةٍ نحو تحقيق المبادئ الإسلاميّة والإلهيّة، وعند ذلك سوف تتبعها الأماني السياسيّة لا إراديًّا، وإلى هذا يشير قائلًا:

«... طريقنا ليس طريق النفط، فلا هو ولا تأميمه هدفٌ وغاية لنا. إنّ ذلك عينُ الخطأ وذاته. غايتنا الإسلام وحده لا غير. فعندما يحكم الإسلام، سوف يرضخ النفط لأحكامه، ويصبح تحت سيطرته. نحن هدفنا الأوحد هو الدين الإسلاميّ، لا النفط الذي إذا أمّمَهُ شخصٌ ما، فإنّه ينتهي به المطاف إلى العدول عن الإسلام والتنحّي عنه...».

والجدير بالذكر في آخر هذا الفصل، هو ما قام به الإمام قدس سره من إبراز مشاعر التقدير والتبجيل لآية الله الكاشانيّ، تجاه نضاله وجهاده الذي قارع به الأعداء لسنوات مديدة متواصلة. وعلى الرغم من المضايقات والقيود المفروضة، أقام الإمام قدس سره مجلس عزاءٍ استمرّ ليومين، إثر رحيل آية الله الكاشانيّ إلى دار الخلود. تغمّده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنّاته.

الفصل السابع

سياسة الشاه الداخليّة والخارجيّة (1953م- 1963م)

عاد الشاه إلى عرشه في اليوم التاسع عشر من آب عام 1953م، إثر انقلابٍ مُدبَّرٍ ومُنسَّقٍ من قِبَل إدارة المخابرات الأمريكيّة والبريطانيّة، عبر رجالاتهم وعملائهم في الداخل. وبهذا، قُضِيَ على منجزات الحركة الوطنيّة جميعها، سياسيًّا واقتصاديًّا، وبالأخصّ عندما دعا زاهدي شركات النفط الأوروبّيّة والأمريكيّة، ووقّع معاهداتٍ واتّفاقيّاتٍ معها. وبناءً على ما جاء ضمن العقود والمعاهدات، تمّ توزيع الحصص والأسهم فيما بين الشركات على النحو الآتي:

- شركة «بريتِش بتروليوم» (شركة النفط الإيرانيّة البريطانيّة سابقًا): 40%.
- مجموع خمس شركات أمريكيّة: 40%.
- الشركة البريطانيّة الهولّنديّة «رويال داش - شل»: 14%.
- شركة «فرانس دويترول» الفرنسيّة: 6%.

وكما يُلاحظ، فقد تقاسم مُدبِّرو الانقلاب حصصهم بالسويّة، لينالوا ثمرة جهودهم بالتساوي. بيدَ أنّ الأمر لم يستمرّ على هذا النحو، وأخذ كلُّ واحدٍ يكيد للآخر، ويطمع بأكثر من المقسوم له. من هنا، شهدَت البلاد تحوّلات سياسيّة واقتصاديّة متضاربة مِن قِبَل بريطانيا وأمريكا، إلّا أنّ الأولى خسرَت المعركة؛ نتيجة هيمنة هذه الأخيرة وسيطرتها على سياسة البلد واقتصاده، نظرًا لِما لها من اعتبار ومكانة على الصعيد الدوليّ والعالميّ. ونعود هنا ونؤكّد أنّ هذا ليس بدليلٍ على انعدام الوجود البريطانيّ،

إنّما تضاءل نشاطُهم، وقُلِّمَت أظافرهم، وبالأخصّ منذ بدء الستّينات، التي لُوحِظ فيها التواجد الأمريكيّ بشكل واضح وجليّ.

لقد استأنف الأمريكيّون، بعد عام 1953م، توظيفَ خبرائهم ورجالاتهم في أهمّ المراكز الحسّاسة في البلاد، كالمراكز السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة، والتي برزَت من خلالها هيمنتُها على البلاد كافّة. وسنتطرّق إلى نشاطات الأمريكيّين وخططهم ونفوذهم في البلاد، ونفصّل بعض أطرافها؛ كي يدرك القارئ الكريم السبب والعلّة الرئيسة التي وقف الإمام الخمينيّ قدس سره من أجلها متحدّيًا أمريكا العدوّ اللّدود، والشيطان الأكبر.

خلال السنوات 1953م- 1963م، استخرجت الشركات النفطيّة 340 مليون طنّ من النفط الخام، والذي فاق ما استخرجَته بريطانيا ونهبَته طيلة خمسين عامًا منذ اتّفاقيّة «دارسي»، ومع تزايد عوائد النفط خلال هذه الفترة، شهدَت ميزانيّة الدولة عجزًا كبيرًا، وبلغَت الديون حدًّا تصاعديًّا سنةً بعد أخرى؛ وذلك لسبب تقوية البنية العسكريّة، وكثرة الاختلاسات العظيمة من قِبل الشاه ورجالاته.

بعد عقدٍ واحد من الانقلاب، أُسِّسَت مئات الشركات في البلاد برؤوس أموال أجنبيّة، وأخرى مشتركة داخليًّا، وحظيَت هذه الشركات بإعفاء من الضرائب الجمركيّة والسنويّة وغيرها. وبلغَت أموال أوروبّا خلال 1959م مليار دولار، وظّفَتها بشركات ومؤسّسات إنتاجيّة، وفي مجالات عديدة. وللترغيب في فتح شركات أجنبيّة أخرى في البلاد لنهب خيرات البلاد وثرواتها، قامَت الحكومة في نهاية شتاء 1955م، برفع جميع العقَبات التي قد تؤدّي إلى عدم رغبة الشركة للاستقرار في البلاد، وفسح المجال لها للعمل بحرّيّة؛ فمثلًا، ضمِنَت الحكومة لأصحاب الشركات الأجنبيّة عدمَ التعرُّض لمنتجاتها، ووعدَت بأنّها سوف تقف ضدّ أيّ موقف يقضي بتأميم الشركات في إيران، هذا مضافًا إلى تحسين التعامل معهم، ومعاملتهم كمعاملة التجّار وأصحاب رؤوس الأموال الإيرانيّين. وبهذا، فإنّ التاجر الأجنبيّ يستطيع -مثله كمثل الإيرانيّ- إخراج

جميع عوائده وفوائده خارج البلاد بحرّيّة، ودون أيّة رقابة تُذكر. وعلاوةً على ما سبق، فقد صدر قانونٌ خاصّ آخر في بداية عام 1956م، يضمن سلامة التجّار الأمريكيّين وأمنهم في البلد، والمحافظة عليهم.

لقد تصاعدَت عوائد النفط والشركات، وبدلًا من أن تُستَخدَم لخدمة الشعب ولصالح البلاد، راحَت تُصرَف على القوّات العسكريّة، وتقوية البنية العسكريّة، وعلى رجال البلاط، ولمشتهيات الشاه، ولإشباع غرائزه النهمة. فلقد بلغَت نفقات السلاح وتكاليفه بين أعوام 1953م - 1961م، ما يعدل 65 مليار ريال. وبعد عشر سنوات من الانقلاب، تضاعفَت ميزانيّة الجيش والقوى العسكريّة إلى أربعة أضعاف.

وبالتزامن مع تصاعد نفقات الجيش والمصاريف الكماليّة، كانت ميزانيّة الدولة تأخذ بالعدّ التنازليّ والعجز الماليّ، سنةً بعد أخرى. فمثلًا، بلغَت ميزانيّة الدولة عام 1958م رصيدًا قوامه 1965 مليار ريال، بينما بلغَت في عام 1963م مبلغًا قدره 3775 مليار ريال؛ أي ضعف ما كانت عليه الميزانيّة قبل خمسة أعوام، مضافًا إلى تصاعد الديون في هذا العام إلى 574 مليون دولار.

على العموم، فإنّ نفوذ أمريكا اقتصاديًّا وعسكريًّا في البلاد، كان يحتاج إلى حزامٍ أمنيّ يدفع احتمال أيّ ضرر يتوجّه إلى المصالح الأمريكيّة، وهذا كان يكمن في الدور السياسيّ فقط. من هنا، دخلَت حكومة إيران -برئاسة حسين علاء، وبإيعاز من أمريكا- في حلف بغداد. وفي آذار عام1957م، أعربَ الرئيس «إيزنهاور» عن تأييده لهذا الانضمام الذي أُعلَن عنه في كانون الثاني عام 1956م.

وفي عام 1956م، تأسّسَت منظّمة السافاك -الأمـن والمخابرات- بإيعازٍ من الأمريكيّين، وكان دورها -منذ بدأت هيمنة الشاه، وحتّى نهايتها- هو مطاردة المتمرّدين والمعارِضين، وقمع الحركات المخالِفة، وتعذيب المناضِلين والمجاهِدين ضدّ الطغمة الحاكمة. وبعبارة مختصرة، هدفها النهائيّ ضمان الأمن والاستقرار للشاه وسلطته، وإلقاء الرعب والخوف في قلوب الجماهير. وفي عام 1958م، عُقِدَت معاهدة عسكريّة

بين إيران وأمريكا، وبها تركت إيران الخيارات جميعها لأمريكا. وتنصّ المعاهدة على تدخّل أمريكا العسكريّ حين تَعَرُّض البلاد لأيّ عدوان، مباشر أو غير مباشر، مِن قِبل دولة ثالثة. وعلى إثر هذه المعاهدة، تدفّقَت أعداد هائلة من المستشارين والخبراء الأمريكيّين إلى البلاد، وأقاموا معسكرات ووحدات رصد وقواعد متعدّدة في أرجاء البلاد كافّة. لكن في أواخر العقد الخامس، اضطرّت أمريكا لتغيير سياستها القائمة على الصعيد العسكريّ، لأسباب داخليّة وخارجيّة.

فعلى الصعيد الداخليّ، تردّى الوضع الاقتصاديّ والمعيشيّ، فازدادَت القروض والديون الأجنبيّة، وفسد النظام الإداريّ، وقُمِع المخالفون السياسيّون... وثمّة عوامل وأسباب تعتبرها أمريكا مسبّبات لثورة داخليّة، تنتهي لصالح نفوذ الروس. أمّا على الصعيد الخارجيّ، فشهدَت المنطقة والعالَم أحداثًا كبيرة، لم تسلم إيران بدورها منها، فيما إذا استمرّ الوضع كما هو عليه، كانقلاب عام 1958م في العراق، إذ طُويَ به ملفّ الملكيّة، وحلَّ محلّه النظام الجمهوريّ، والانقلاب العسكريّ في تركيا عام 1960م، والقضاء على الحكم الملكيّ في مصر عام 1952م، وانحياز مصر إلى الاتّحاد السوفياتيّ.

لكنّ الأكثر أهمّيّة هو ما زرعَته بعض الثورات في الجماهير مِن عداء وحقد للاستعمار، ونخصّ بالذكر ثورة الصين وفيتنام وكوبا، التي طالما قارعَت المعتدين والمستعمِرين، وحرّضَت المظلومين من الطبقة العاملة والفلّاحين للقيام بوجه الإقطاعيّين الجبابرة، الذين ولّدَهم الاستعمار، وجعلهم يعيثون في الأرض فسادًا وظلمًا وإلحادًا. ولهذا، قامت أمريكا بإجراء إصلاحات زراعيّة في مستعمراتها المحدودة ذات الثروة الزراعيّة؛ خوفًا من نقمة الشعوب، ودعمًا لحكوماتها العميلة، وتحسُّبًا لاحتمال الضرر والنفوذ الاشتراكيّ.

بناءً على هذا، قام الرئيس الأمريكيّ «ترومن» عام 1950م، باقتراح البند الرابع، الذي يؤكّد على مساعدة الدول المتخلّفة والنامية ودعمها، لرفع المستوى الاقتصاديّ والمعيشيّ فيها؛ والتي يهدف من خلالها إلى تكوين الأنظمة الديمقراطيّة وبنائها فيها.

واضطرَّت أمريكا لهذا الحلّ الوحيد، وبخاصّة عندما أحسَّت بالخطر من خلال بروز انتفاضات وثورات فلّاحيّة، تزامَنَ معها انتشار المدّ الشيوعيّ إبّان العقد السابع. ومن هنا، جاءت أيضًا الحركة الإصلاحيّة للزراعة والاقتصاد، والوضع الاجتماعيّ في الدول المستعمِرة والتابعة لأمريكا، فكانت شعارًا للحزب الديمقراطيّ الأمريكيّ إبّان الانتخابات الرئاسيّة، التي فاز بها جون كنيدي عام 1960م.

وبناءً على هذا، كانت تهدف الحكومة الديمقراطيّة الجديدة من وراء الحركة الإصلاحيّة الزراعيّة إلى أهداف مختلفة ومتنوّعة، أهمّها:

أ. مهاجمة ما تبقّى من رموز الاستعمار من العهد البائد، كبريطانيا وفرنسا وهولّندا والبرتغال وبلجيكا و... لإزاحتهم عن الطريق.

ب. تضليل مُثقّفي الدول المتخلّفة ومُفكّريهم، وجذب أنظارهم وأفكارهم تجاه الغرب، وكسبهم إلى جانبهم.

ج. فسح المجال أمام التجّار وذوي الصناعات ورؤوس الأموال، من أجل غزو الأسواق بالبضائع والمنتجات الأمريكيّة، لرفع المستوى الاقتصاديّ والدخل المادّيّ.

د. وأخيرًا، بسط سلطتهم الاستعماريّة، وإغلاق جميع النوافذ والمجالات أمام باقي المستعمرين، وبالأخصّ بريطانيا.

وبعد رجوع الشاه من أمريكا عام 1949م، أعلن عن استعادة الأراضي التابعة لدائرة أراضي الشاه، وتوزيعها على الفلاحين، وأخذ بتشجيع أصحاب الأراضي والمتموّلين والمالِكين على بيع أراضيهم الشاسعة إلى الحكومة، والتي ستقوم بدورها بتقسيمها وتوزيعها على الفلّاحين والأيدي الكادحة. وقد بقيَت هذه الدعوة والوعود حبرًا على ورق.

وفي هذه السنة نفسها، أُعِيد كثيرٌ من الأراضي الزراعيّة المحسّنة، التي كانت بحوزة رضا خان قبل هروبه من البلاد، وأُعِيدت إلى ملكيّة الشاه بعد أن صوّت البرلمان عليها. ولكن بعد ضغوط أمريكيّة، وحفاظًا لمصالحها وسمعتها السياسيّة، أمر الشاه ببيعها إلى

الفلّاحين والمزارعين. وعُقَيْبَ هذه الخطوة، أعرب وزير الزراعة الأمريكيّ عن ارتياحه لهذا التصرّف من قِبل الشاه، إذ قال: «نحن على عقيدة تامّة بأنّه ما دام الفلّاحون واقفين ومشرفين على أراضيهم وأملاكهم، فليس هناك أيّ خطر يهدّدنا من الاشتراكيّة».

واستمرّ بيع الأراضي من قِبل الحكومة بشكلٍ متقطّع وبطيء. وبعد عشر سنوات، انتقدَت مجلّة الاشتراكيّة طريقة تقسيم هذه الأراضي، قائلة: «لقد مضت عشر سنوات على تقسيم الأراضي وتوزيعها، ولم تُقَسَّم سوى 120 قرية من أصل 2200 وحدة زراعيّة متعلّقة فقط بعائلة البهلويّ، وإذا استمرّ الوضع على هذا النحو، فسنحتاج إلى مئة سنة لتوزيع الأراضي الخاصّة بهذه العائلة... وعلى هذا الترتيب، فإنّنا بحاجة إلى 2000 عامًا لتقسيم جميع قرى البلاد وأريافها، وتوزيعها».

من الطبيعيّ جدًّا أن لا يرغب الشاه ببيع أراضيه، فضلًا عن عدم استطاعته الكاملة إقناع أصحاب الأراضي الكبيرة والإقطاعات الزراعيّة بهذا، وخاصّة أنّ معظمهم كان من كبار رجالات الحكومة والبلاد. وبما أنّه كان يعي جيدًّا أنّ انتصار الديمقراطيّين في أمريكا سوف يفرض الإصلاحات الزراعيّة عليه قسرًا، صمّم على مماطلة الانتخابات الأمريكيّة، منتظِرًا نتائجها بفارغ الصبر. وعندها، قام الدكتور إقبال[1] بتقديم لائحة «تجديد أوراق الثبوت المِلكيّة» إلى البرلمان في كانون الثاني عام 1959م. كذلك صُوِّت على قانون آخر في هذا العام، لغرض مكافحة الفساد والخلل الإداريّ، والذي عُرِف بقانون «مِنْ أينَ لك هذا؟». من جهة أخرى، كان الشاه يحبّذ فوز الحزب الجمهوريّ الأمريكيّ بقيادة نيكسون، وصرف مبالغ طائلة لمساعدتهم وتقويمهم ومساندتهم، ضمانًا لجميع مطامعه السياسيّة داخل البلاد.

لقد واجهَت لائحة تجديد أوراق الثبوت الملكيّة تعديلًا وترميمًا من قِبل البرلمان، وهي في حقيقة الأمر ورقة عمل لتخفيف الضغوط السياسيّة الخارجيّة، حيث أصبحت موضع استهزاء وسخريّة من قبل الحكّام اللاحقين، الذين اعتبروها لائحة تهدف إلى

(1) رئيس وزراء، ومن ثمّ رئيس شركة النفط الوطنيّة، من أبرز المقرّبين للشاه، عضو المحفل الماسونيّ في الشرق الأوسط.

تثبيت الملكيّة المتعلّقة بها، لا وسيلة للقضاء عليها.

بالمقابل، كان الأمريكيّون على وعي وفهم تامّ بما يجري من فساد وخلل في النظام الإداريّ في البلاد، وأنّ ما ادُّعِيَ من إصلاحات صوريّة وشكليّة، سوف لن يحقّق أيّ إنجاز لها؛ ولهذا صمّمت على إجراء الإصلاحات الاقتصاديّة والاجتماعيّة بعد فوز جون كيندي في انتخابات عام 1959م. وقد احتاجَت أمريكا إلى أرضيّة سياسيّة مناسبة لبعث الاطمئنان والثقة في الجماهير والأحزاب السياسيّة كافّة. ولكي يتمّ تنفيذ الإصلاحات الاقتصاديّة والاجتماعيّة المعنونة بالديمقراطيّة، كان لا بدّ من الانفتاح السياسيّ، متزامنًا مع شيءٍ من الحرّيّة. ومن هنا، انفتح المجال للفئات والأحزاب كافّة، وكذلك الحكومة، بين أعوام 1963م- 1963م، وشهدَت البلاد تحوّلات وتغييرات سياسيّة واجتماعيّة مهمّة ولافتة للنظر، والتي سوف نتطرّق إليها بالتفصيل، إن شاء الله، بعد إشارة مختصرة إلى تاريخ الأحزاب والتكتّلات السياسيّة وحالهم، منذ الانقلاب، وحتّى سنوح هذه الفرصة والانفتاح السياسيّ في عام 1960م.

الفصل الثامن

الأحزاب والكتل السياسيّة بعد الانقلاب (1953م - 1963م)

بعد وقوع الانقلاب، قدّم بعضُ أعضاء الجبهة الوطنيّة والموالين للدكتور مصدّق اعتذارَهم للشاه، نادمين على ما فعلوه بالأمس، واستطاع بعضُهم أن يرتقي بعض المناصب والمراكز العليا، بينما حُكِم على البقيّة الباقية من الموالين الخلّص للدكتور مصدّق بالسجن، وأُعدِم أحدُهم ظلمًا وعدوانًا، وشكّل آخرون حزبًا وتكتّلًا جديدًا يُدعى حزب «المقاومة الوطنيّة»، لكن ما إن نشبَت بعض الخلافات بين أعضائه، استطاع النظام الحاكم كشفهم وإلقاء القبض على بعض كبارهم؛ ما أدّى إلى حلّ الحزب.

في هذه الفترة، أدبر الكثيرون من كبار رجال الثورة الوطنيّة عن نشاطهم السياسيّ، وانصرفوا إلى نشاطات اقتصاديّة وتجاريّة، ما عاد عليهم بالأرباح والأموال الطائلة. وقام بعض اليمينيّين واليساريّين بالدفاع عن السياسة الأمريكية وتأييدها طوال هذا العقد؛ فلقد أصدر «اللهيار صالح» -رئيس حزب إيران عام 1956م- بيانًا يقضي بتأييد حزبه لطروحات الرئيس الأمريكيّ إيزنهاور ومواقفه، وأعرب عن قلقه من نفوذ الاشتراكيّة في أوساطهم.

وراح «خليل مكّي» زعيم الحركة الاشتراكيّة يتطرّق إلى المشاكل والأمور الاجتماعيّة في مجلّة «العلم والحياة»، ليُعرِب عن قلقه إزاء الميول الماركسيّة، وتفسير ما يقابلونهم به

وتوجيهه، وأعلن عن تأييده الكامل لنموّ الرأسماليّة المرتبطة بالإقطاع ودفعها، وكذلك الإمبرياليّة الأمريكيّة الموازية للإمبرياليّة البريطانيّة. وقد لاقَت الجهود والتصريحت والبيانات دعمًا وتأييدًا بالقياس إلى طروحات إيزنهاور، ووُصِفَت بأنّها «مساعٍ حميدة وناجحة للخروج من المأزق»، على أنّها خير وسيلة للوقوف أمام الخطر الشيوعيّ.

في عام 1954م، فُتِك بقوّات حزب تودة الشيوعيّ المسلّحة؛ وعلى إثرها، تهدّم الحزب بأكمله، وأُلقِيَ القبض على مئة عضوٍ منهم، من بينهم كبار القادة، وأُعدِم عدد منهم، بينما أعرب الكثير عن ندمهم واعتذارهم، واعترفوا بأنّهم عملاء للأجانب، يرتجون الرحمة والعفو من الشاه. وعُفِي عن عدد منهم، وسلّموهم مَهمّات جديدة في دائرة الشرطة والمخابرات -السافاك-، فاستثمرت هذه الدوائر طاقاتهم وخبراتهم وتجاربهم التي اكتسبوها إبّان انتمائهم للحزب المذكور ونشاطهم فيه، ووُظِّف آخرون في مجالات جاسوسيّة، مندسّين بين عناصر المعارضة. هذا هو حال الأحزاب والكتل السياسيّة خلال السنوات العشر الأولى من الانقلاب.

وفي عام 1955م، أُلقِي القبض على رؤساء منظّمة فدائيّي الإسلام وأعضائه، الذين لهم اليد الطولى في مقارعة الظلم والطغيان خلال سنين عدّة متواصلة، وأُودِع الكثير منهم في السجون، بينما لقي آخرون حتفهم وقضوا شهداء في سبيل الله.

أمّا خلال فترة الانفتاح السياسيّ الأمريكيّ عام 1960م، فقد استطاعَت تلك الأحزاب أن تستعيد أنفاسها وتجدّد حياتها من جديد. ففي أواسط عام 1960م، تقاربَت واتّحدَت تكتّلات وأحزاب عدّة، وشكّلوا «الجبهة الوطنيّة الثانية»، وبعد أشهرٍ من هذا، وإثر ضغوط أمريكيّة، مضافًا إلى معارضته الأحزاب السياسيّة لتزوير الانتخابات، اضطرّ الشاه إلى إلغاء انتخابات الدورة العشرين للبرلمان. وممّا جاء في وثائق السفارة الأمريكيّة، حسب تقرير أحد أعضائها: «وقع التزوير بالفعل، ولكن هذا ليس بجديد؛ لأنّه بإمكاننا أن نحكم على جميع الانتخابات السابقة بالحكم نفسه».

وتصاعدَت قوّة الجبهة الوطنيّة تصاعدًا كبيرًا منذ عام 1960م، وحتّى عام 1963م.

وخلال هذه الفترة، استطاعَت أن تُبدي بعض النشاطات الكبيرة، وبحرّيّة كاملة؛ فمثلًا، عقدَت مؤتمرًا كبيرًا لها -حيث بدأ الانشقاق بين صفوفهم- ونشرت بياناتها ومناشيرها علنًا، وقدّمَت رسائل مفصّلة وعرائض كبيرة للحكومة، وأقامَت جلسات وندوات مُصغّرة لم تعارِض من خلالها أيّ إجراء حكوميّ، ولم تعلن عن أيّة مخالفة للدولة، بل راحت الجبهة الوطنيّة تخوض في حوارات وبحوث طويلة وعريضة للنظام الداخليّ كطريقة للسيطرة، وفصل الكتل والتجمّعات بعضها عن بعض؛ ما أدّى بالنهاية إلى حلّ الجبهة وهدم كيانها. ولأجل مسايرة الشاه والوصول معه إلى اتّفاق شامل، لاذ كبار أعضاء الجبهة بالصمت، وعملوا على مجاملة الحكومة، وابتعدوا عن أيّة حركة يمكن أن تُفَسَّر بالمعارضة أو المخالفة، وبلغ الحدّ من الحذر والخشية أنّهم رفضوا حضور الندوة الطلّابيّة في الجامعة. وعلى الرغم من أنّ أعضاء الجبهة كانوا يعتقدون ويتصوّرون أنّ الجبهة الوطنيّة الثانية هي وريثة سياسة الدكتور مصدّق والجبهة الأولى، فإنّ الدكتور مصدّق كان غير مبالٍ ولا مكترثٍ لِما تقوم به الشورى المركزيّة للجبهة، والذين لم يكونوا محترسين على استمرار حركتها، وإن قام الدكتور مصدّق بمعارضتهم.

وفي عام 1961م، انشقّ الجناح الأصوليّ من الجبهة الوطنيّة، وأعلن عن وجوده ونشاطه، حاملًا اسم «حركة تحرير إيران». وكان في موقف هذه الحركة السياسيّ شيءٌ من التصلّب والتشدّد أكثر ممّا كانت عليه الجبهة الوطنيّة، وانضمّ بعض أعضاء هذه الحركة الأخيرة من الأصوليّين إلى الحركة الجديدة.

وقد أعلنت «حركة تحرير إيران» عن نهجها وفكرها على الصعيد السياسيّ والدينيّ، وممّا جاء في بيانها: «... أوّلًا، نحن مسلمون، ونعتقد بأنّ السياسة جزءٌ لا يتجزّأ من الدين... ثانيًا، إنّنا إيرانيّون... ثالثًا، منهجنا يسير على خُطى الدستور... رابعًا، نحن أنصار مصدّق، سائرون على نهجه وفكره...».

وفي هذه الأجواء والأحوال التي كانت الجبهة الوطنيّة فيها منشغلةً بالنزاع والجدل السياسيّ داخليًّا، ومتأهّبةً لاستقبال تشكيل الوزارة الجديدة من قِبَل الشاه، أصدر

الشاه بيانًا يعلن فيه تعيين «شريف إمامي»[1] رئيسًا للوزراء، بعد أن قدّم الدكتور إقبال استقالته من رئاسة الوزراء (1956م- 1960م). وشريف إمامي هذا، الذي كان يتحلّى بتأييد المجتمع، وله مكانةً ووجاهةً على الصعيد السياسيّ، أُوكِلَت إليه مَهمّة تهدئة الأوضاع، ومسايرة الأحزاب والكتل السياسيّة، واستتباب الأمن والاستقرار؛ لإقامة انتخابات الدورة العشرين، ولتتوفّر الأرضيّة اللازمة لإجراء الإصلاحات المطلوبة وتنفيذها. ولهذا، أدلى بوعوده منذ البدء، بالقضاء على الحالة المتأزّمة التي لحقَت بهم، وبضمان الحرّيّة في الانتخابات، وملاحقة المخالفات وحالات خرق القوانين السابقة. ومع هذه الحرّيّة التي سنحَت، ظهر النوّاب السابقون بأجمعهم مرّة أخرى على مقاعد البرلمان، باستثناء عدد قليل منهم.

(1) دخل السلك الحكوميّ عام 1960م، وتنقّل في مناصب عدّة: رئيس وزراء، ووزير، ورئيس مجلس الشيوخ، و... وأحد أقطاب المحفل الماسونيّ في الشرق الأوسط.

إصلاحات الشاه الأمريكيّة

خلال هذه الفترة، وقع محمّد رضا شاه في مأزق حرج، وبين دفّتَين متناقضتَين: إحداهما الضغوط الأمريكيّة لتنفيذ الإصلاحات، والأخرى خشيته من موقف آية الله البروجرديّ المعارِض لتلك الإصلاحات المذكورة. لذا، سعى بتغيير الوزارة وفتح المجال أمام الأحزاب والكتل السياسيّة، واعتمد على الوعد والوعيد لتنفيذ الإصلاحات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والإداريّة؛ ليخفّف من ضغوط أمريكا، ومن ثمّ ليقنعهم ويرضيهم بشيءٍ ما. إلّا أنّ «كنيدي» كان مصرًّا على تنفيذ ما يريده من إصلاحات بحسب ما تقتضي مصالحهم وأهدافهم، لا بتغييرات جزئيّة وشكليّة. لذا، صمّم على تغيير الحكومة كلّيًّا، وأمر بتنصيب الدكتور عليّ أميني، بعد أن درس الموضوع وانتهى إلى النتيجة التي لا تؤدّي معنًى مقصودًا، أو مفهومًا خاصًّا يمكن أن تقدّمه الحكومة والأطراف المعنيّة. ومن جهة أخرى، وكما ذكرنا، فالشاه كان لا يستطيع أن يشرع بإصلاحاته هذه دون اطمئنانه لعدم تعرُّض آية الله البروجرديّ، فضلًا عن تأييده وموافقته.

آية الله البروجرديّ -الذي يتمتّع بزعامة الطائفة الشيعيّة في إيران والعالم الإسلاميّ- أبدى عدم موافقته البتّة بهذا الصدد، وعلى الرغم من أنّ الشاه قد أرسل له وفودًا للتفاوض معه، إلّا أنّه رفضهم وأجابهم بأنّ هناك إصلاحات أخرى لها حقّ الأوّليّة على هذه.

وقد زال هذا المانع والحاجز من أمام الشاه، وانتفى القلق الداخليّ، بعد أن انتقل آية الله البروجرديّ إلى الدار الآخرة في أيّار عام 1961م.

وبعد سنوح هذه الفرصة، التي لطالما كان الشاه يحلم بها، حوَّلَ مَهامّ رئاسة الوزراء إلى الدكتور عليّ أميني، المرغوب أمريكيًّا، بعد أن عجز شريف إمامي عن أداء واجبه، وانهار أمام الأزمات والمشاكل. وبوصول أميني إلى السلطة، وابتداء الحركة الإصلاحيّة، فقدَت الجبهة الوطنيّة صلاحيّتها السياسيّة والعسكريّة، وسحبوا ما بحوزتها من سلاح وذخائر ومعدّات. ولم ترَ الجبهة الوطنيّة مكانًا لها بَعدُ -بالأخصّ وقد وعَت بأنّ الأمر ليس قرارًا داخليًّا، وإنّما هناك أوامر وضغوط وترتيبات أجنبيّة مفروضة- وشرع أميني بتسخير طاقاته واستعمال حيله ليسيِّر الحركة الإصلاحيّة بأفضل ما يكون، وكان على وعيٍ كامل بأنّ ذلك سوف لن يكون إلّا بمداراة أهل العلم والعلماء، ومسايرتهم، ومراوغتهم بالهدوء والسكينة. هذا، وبعد بضعة أشهر، عزم على زيارة «قمّ» معقل العلم والعلماء والمراجع والحوزة العلميّة. وخلال زيارته هذه، التقى بجمعٍ من أهل العلم والعلماء الكبار على انفراد، وتبادل معهم وجهات النظر بشكل خاصّ وسرّيّ، بينما امتنع الإمام الخمينيّ قدس سره من اللقاء به سرًّا[1] أو بشكل خاصّ ومنفرد. وكان أحد الطلبة -حجّة الإسلام العقيقيّ- قد شارك في الجلسة المفتوحة هذه، وسجّل بعض النقاط من خلالها -وبالأخصّ امتناع الإمام قدس سره من اللقاء الخاصّ- ومن ثمّ نشَرَها في إحدى الصحف آنذاك. كان هدف الإمام قدس سره من وراء هذا، هو خشيته استغلال الدكتور عليّ أميني هذا اللقاء على هذه الصورة السرّيّة، حيث إنّه إذا تمّ اللقاء بشكل انفراديّ، فلعلّه يعلن عن اتّفاق مزيّف حول برامج ومشاريع غير إسلاميّة، مدّعيًا بأنّه شاور رجال العلم والمراجع فيها، وحظيَ بموافقتهم عليها.

وقد نشر الشيخ العقيقيّ مقالًا في إحدى صحف تلك الفترة عن هذا اللقاء، حيث قال: بعد تبادلهما التحيّة، شرع الإمام قدس سره بشرح المسؤوليّات الملقاة على عاتق رجال الدولة وأصحاب السماتْ، وما يتوجّب عليهم من مهامّ تجاه إخوانهم المواطنين، فخاطبه قائلًا:

(1) راجع: مقال الشيخ العقيقيّ، مجلّة الثقافة الإسلاميّة، العدد (43)، أيّار وحزيران 1992م، ص67.

«بما أنّكم اليوم، يا سعادة السيّد أميني، أصبحتَ رئيسًا للوزراء، وتسلّمتَ زمام الأمور، فلقد حمّلتَ نفسك مَهمّة كبيرة وصعبة. يجب عليك أن تتعامل بشكل سليم للغاية مع الشعب والجماهير، وتخطو خطوات بالغة ومؤثّرة تعود بالمنفعة على المجتمع والوطن، وتؤدّي خدمتك بأفضل ما يكون؛ كي تحرز رضا الله -عزّ وجلّ-، وتأمن عقابه، وتصبح مرتاح الضمير والوجدان. لقد شهد مسرح الأحداث في إيران رؤساء كثيرين، أمثال أمير كبير والفراهانيّ و... الذين خلّدهم التاريخ، وكلّما مرّ ذكرهم على أفواه أبناء وطننا، ذكروهم بالخير، وترحّموا عليهم؛ لأنّهم جعلوا أعمالهم لله، وخدموا الشعب والوطن، وقارعوا الاستعمار ودحضوه. وبالمقابل، هناك الكثيرون من الرؤساء والوزراء الذين جرَّعوا الشعب آلامًا مريرةً من العذاب، وكلّما جاء ذكرُهم، لم يُحرزوا شيئًا سوى اللعن والغضب والبغضاء. أدعوك راجيًا أن تتمسّك بالواجب الدينيّ تجاه الجماهير والأمّة؛ كي تُخَلَّد في الوطن، وعلى مرّ العصور، وإلى الأبد، فسوف لن يذكرك الشعب إلّا بالخير والحبّ والوفاء».

بعد هذا، تطرّق الإمام قدس سره إلى دور العلماء ورجال العلم في المجتمع، وعلى الأصعدة كافّة، وبالأخصّ في مجال التعليم، وبناء الأسرة، التي هي أساس المجتمع، وسبيل حلّ مشاكل الناس وهمومهم العامّة والاقتصاديّة.

ويضيف الشيخ العقيقيّ قائلًا: «الجدير ذكره في ذلك اللقاء، هو إعجاب الدكتور ومرافقيه واندهاشهم الكبير بما لاقوه من شجاعةٍ وفصاحةٍ وشهامةٍ عُليا من الإمام؛ إذ تطرّق الإمام إلى عمالة رضا خان للأجانب، وشهَّر به وبخطط الاستعمار التي أُوكِلت إليه. وعندها ردّ أميني عليه قائلًا: إنّ الواجب الملقى علينا اليوم هو واجب أهل العلم فقط؛ لأنّه آنذاك لم تكن هناك طبقة مثقّفة وواعية سوى العلماء فقط، وكان عليهم مقارعة الحضارة الغربيّة الزائفة والفكر الغربيّ بذلك الوقت. ولو كان ذلك، لَما كُنّا اليوم بهذا الشكل. كان عليهم التوجّه إلى مراكز البلد الثقافيّة والتعليميّة ليتصدّروها ويقضوا على النفوذ الغربيّ؛ لأنّ المسؤوليّة انحصرت بهم، ولم يكن في البلد رجال فكر وعلم سواهم.

فأجابه الإمام قدس سره بكامل القوة والشجاعة قائلًا:

ما استعرضتَه كان صحيحًا وحقًّا، فإنّه لم يكن سوى تلك الطبقة المفكّرة. ولكنّك تعلم جيّدًا أنّ البلاد وحكومتها كانت بيد الأجانب، وكان رجالها أُناسًا خونة وعملاء، في الوقت الذي كنّا نفتقر فيه إلى قوّة أو جبهة أو حكومة مستقلّة. ألم يكن رضا خان عميلًا للغرب؟ كيف تظنّ أنّ بإمكان رجال الحوزة التصدّي لمَهامّ ووظائف حكوميّة تتعاون وتتساعد مع أولئك الخونة العملاء؟ وكيف نتوافق مع أهداف أولئك الأجانب المعتدين؟ أوَلستَ كنتَ تحكم علينا بالعمالة والقصور لو كنّا نتعاون مع رضا خان عميل بريطانيا القذر؟ ولكُنتَ تتّهمنا كذلك بالوقوف إلى جانبه وتقوية كيانه، وتتّهمنا أيضًا بتأييد الحوزة العلميّة بأكملها له؟ في تلك الفترة التي حكمَنا فيها ديكتاتور عميل، وحكمَتنا فيها العمالة الأجنبيّة، لم نرَ بُدًّا من الابتعاد عنهم، والعدول إلى بناء بذور الكتل الشعبيّة والجماهيريّة، وزرعها. اتّخذنا ذلك من أجل تقوية وبناء كيان الثورة الشعبيّة والوطنيّة؛ للوصول إلى يومٍ نقف فيه أمام السلطة المعادية للشعب والوطن، لنطيح بها».

لقد تصاعد غضب الشعب على الحكومة نتيجة الأوضاع المتردّية والسيّئة؛ فلقد عمّ الفسادُ الدوائر، وضُيِّق المجال السياسيّ، وقُمِع الكثير من السياسيّين المعارضين، بالإضافة إلى تردّي الوضع الاقتصاديّ، وتصاعد الديون الخارجيّة، وهبوط الاحتياطيّ للميزانيّة. إنّ أمريكا أدركت الهدف، وأصابَت عندما رأت أنّ العوامل المحفِّزة للثورات في الدول المتأخّرة، كإيران، والتي تُدار حكوماتها بالظلم والجور والاستبداد، هي هذه العوامل نفسها، وأنّ القوّة العسكريّة ليس لها أيّ شيء بهذا المضمار. ويشير «كنيدي» إلى هذه النقطة بالذات، عندما ألقى خطابه في إحدى المؤتمرت في أمريكا في 25 أيّار عام 1960م، قائلًا: «... إنّ المعاهدات والمساعدات العسكريّة هي ليست حلًّا لبلدٍ ساده الجور والفساد والاقتصاد المدمَّر، ممّا فتح الباب للثورات والانتفاضات والغوغاء. أمريكا بمقدورها أن تعالج مشاكل الدول المتخلّفة بالطرق العسكريّة فقط. ويشمل

هذا الوضع حتّى الدول التي تحوّلَت أراضيها إلى ساحات معارك وحروب طاحنة. لذا، يجب أن يكون موقفنا أكبر وأوسع نطاقًا من أن نتعامل بالخيارات الأخلاقيّة والإنسانيّة، لا العسكريّة. نحن نريد بناء الآمال في هذه الدول... فإذا صمّمنا على حلّ مشاكلهم بالطرق العنيفة والعسكريّة، فإنّنا واقعون في خطأ كبير؛ حيث إنّه مهما بلغت المساعدات الأمريكيّة والقوى والضغوط، فإنّه ليس بالإمكان تسيير وتسخير الحكومات التي لا تستطيع أو لا تريد تنفيذ الإصلاحات الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي تهدف لها...».

هذه النقطة فيها الكفاية لوعي أمريكا ومثابرتها وجدّيّتها لتنفيذ أهدافها في بلادٍ عديدة كإيران. وعُقيب هذا، رفع أميني شعار الحركة الإصلاحيّة للدوائر وللمعسكرات وللوضع الاقتصاديّ ومحاربة الفساد والخلل، وأعلن عن تردّي الوضع الاقتصاديّ وتأزّمه وانحطاطه في البلد؛ ليتّخذ ذلك حجّةً ووسيلةً لاستمداد القروض الأجنبيّة، ولدعوة الشركات وأصحاب الثروات في الخارج. أمّا الشاه الذي كان يتهرّب من الإصلاحات الزراعيّة والملكيّة، حسب الظاهر، وخلافًا لباطنه، فقد استعدّ لتنفيذها، وقال مخاطبًا أصحاب الأراضي والتجار: «اعدلوا عن طريقكم، وإلّا سنواجه كبيرة». وكذلك أعرب أميني قائلًا: «بعقيدتي وبرأيي، إنّه من صالحكم، ولفائدتكم، أن تخطوا هذه الخطوات... وإذا أحجمتم عن ذلك، فسوف نتضرّر بأجمعنا، دون استثناء». وأعلن «حسن أرسنجاني» -وزير الزراعة والقائم بمَهمّة الإصلاحات الزراعيّة والأراضي المِلكيّة- قائلًا: «الهدف من وراء هذا هو نجاة أصحابها المالكين والتجّار الكبار، ونجاة ثرواتهم».

إنّ هذه ليست تهديدات وتحذيرات، بل وكما تؤكّده تجاربنا، إنّها الحقيقة بذاتها، وإنّها خطوة لنجاة أولئك الظلمة، وفخٌّ نصبوه للمزارعين والفلّاحين. على العموم، وبعد دعايات مكثّفة، صوَّت البرلمان يوم 10 حزيران 1961م على اللائحة الإصلاحيّة هذه، وأُظهِرَت إلى حيّز التنفيذ. أمّا الإمام قدس سره، فعلى الرغم من علمه بأنّ هذا ليس من

صالح المزارعين والفلّاحين، ولن يعود عليهم بالخير، بل بتجرُّع الغصص، إلّا أنّه سكت وأحجم؛ لئلّا يستثمر الشاه اعتراضه فيما إذا أعرب عنه.

عُلِمَت مكانة أميني، وازدادت هيبتُه داخل البلاد، إثر إجرائه الإصلاحات الزراعيّة، وبالأخصّ حين حارب وقمع الفساد الداخليّ. من جهة أخرى، أحرز أميني عنايةً خاصّة من أمريكا، وأصبح معتمدًا لديها، بينما زاد قلق الشاه نتيجة إعراض أميني عنه وعن إرشاداته وتهاونه. لذا، صمّم على مغادرة البلاد، متّجهًا إلى أمريكا، ليعطي المواثيق والعهود لحكومة «كنيدي»، ولإجراء الإصلاحات التي تهدف إليها أمريكا دون قيد أو شروط أو تباطؤ، مضمِّنًا مواثيقه هذه خشيتَه وقلقَه إزاء مواقف أميني.

عندما أحرز الأمريكيّون اطمئنانًا خاصًّا من قِبَل الشاه بهذا الشأن، صمّموا على دعمه وتأييده بجدّيّة تامّة. وقد أعلنَت صحيفة «اطّلاعات» المؤرّخة بـ 15 نيسان 1962م، إبّان رجوع الشاه إلى إيران، الآتي: «لقد اطمأنّ جلالة الشاه بأنّ أمريكا سوف تستمرّ بتقديم الدعم السياسيّ والعسكريّ له. وبالمقابل، اطمأنَّت أمريكا بأنّ سعادة الشاه سوف يؤمّن جميع مطالبها، وسينفّذ الإصلاحات الاقتصاديّة والاجتماعيّة على أسرع وجه، وبالصورة التي يرغبها».

بعد هذه المعاهدات والاتّفاقيّات بين الشاه و«كنيدي»، أحجمَت أمريكا عن استعدادها لتنفيذ طلبات أميني وآماله بدلائل عدّة، ومن ثمّ اضطرّ أميني إلى الاستقالة (18 تموز 1962م)، وسلّم الشاه زمام رئاسة الوزراء لـ «أسد الله عَلَم».

بعد رحيل آية الله البروجرديّ، أرسل الشاه برقيّة تعزية إلى علماء النجف ومراجعها، دون مدينة قمّ، وفسّر زعماءُ الحوزة في قمّ ذلك بأنّه إهانة لهم، وبذاتها هي خطوة أولى للقضاء والسيطرة عليهم. وما هو جدير ذكره، أنّه في الوقت الذي كان فيه أميني يتقرّب إلى بعض رجال الحوزة، ويُجري لقاءات وحوارات معهم، كان الشاه يتوعّدهم ويندّد بهم عبر رجاله.

وأُشِيع في قمّ أنّ الشاه يريد أن يستثمر غياب المرجعيّة في هذه المدينة، ليفتح دُور الملاهي والبارات والنوادي الليليّة. وعلى إثر ذلك، قام عددٌ من الطلّاب بترتيب بيان مفصّل وموقّع من قِبَل أكثر طلبة الحوزة، أعلنوا من خلاله عن معارضتهم ومخالفتهم لهذه الخطط، ولما تقوم به الحكومة.

يقول مؤلّف كتاب «تحليل ودراسة ثورة الإمام الخمينيّ»: لقد أهمل بعض العلماء في قمّ هذه الخطوة، ولكنّ الإمام فقط قام باستدعاء مدير الشرطة والأمن، وسلّمه البيان المذكور، وحذّره تحذيرًا شديدًا وصارخًا. وشجّع الإمام قدّس سرّه الطلبة المناضلين على مواصلة الكفاح، والانتباه إلى الدسائس كافّة، ثمّ قام بتحذير أحد الطلبة المغفّلين وتأنيبه، والذي كان مع الذين قَدِموا إلى البلاط وباركوا للشاه بقدوم وليده الجديد.

ومع أنّ الإمام قدّس سرّه لم يطبع وينشر رسالته العمليّة(1)، إلاّ أنّه كان متأهّبًا ومستعدًّا لمعارضة الحكومة والقوى المسيطرة، ولأيّة حركة قد تصدر عن الشاه وتضرّ بالدين والشعب والوطن.

في هذه السنة أيضًا، فُجِعَت الطائفة والأمّة بمصيبة أخرى، عندما انتقل آية الله الكاشانيّ إلى دار الخلود. وبهذه الحادثة المؤلمة، زالت العقبة الثانية من وجه السلطة والشاه، وأقام الإمام قدّس سرّه مجلس تعزية ضخم، إجلالًا لمقام السيّد الكاشانيّ ومكانته السامية، وتصدّر المجلس بنفسه.

وبهذا، تسنّى لـ«أسد الله عَلَمْ»(2) أن يشرع بتنفيذ الخطط التي رُسمت له من قبل، وتطبيقها، وسوف نتحدّث عنها في الفصول القادمة، إن شاء الله، ونسلّط الأضواء على الأساليب الاستعماريّة الجديدة ومواقف الإمام تجاهها.

---

(1) رسالته العمليّة: مجموعة الأحكام الفقهيّة؛ العبادات والمعاملات.

(2) أحد كبار الإقطاعيّين في منطقة قائنات بمحافظة خراسان، رئيس وزراء، ووزير بلاط الشاه.

الفصل العاشر

الإمام قدس سره ومحمّد رضا بهلويّ

القسم الأوّل: تعديل موادّ انتخابات البرلمان ومخلّفاتها

إنّ مسألة لائحة إصلاحات موادّ الانتخابات هي نقطة الانطلاق لنشوب النزاع والمواجهة بين الإمام قدس سره ودولة «أسد الله عَلَم»، والتي توسّع نطاقها؛ ممّا أدّى أخيراً إلى مواجهة بين الإمام قدس سره والشاه، حيث انفجرت انتفاضة 15 خرداد (5 حزيران)، أدّت في النهاية إلى إبعاد الإمام قدس سره من البلاد، ونفيه إلى الخارج. إذًا، فقضيّة لائحة إصلاحات الانتخابات نستطيع أن نعبّر عنها بأنّها نقطة انطلاق الحركة الإسلاميّة السياسيّة بقيادة الزعامة الدينيّة المتمثّلة بالإمام الخمينيّ قدس سره، والتي خاض بها غمار معارك عديدة، حتّى وصل بها إلى انتصار الثورة الإسلاميّة المباركة. وهذا المجال بالذات، تناوله أكثر من مؤرّخ وباحث ومحقّق، وأُلِّف أكثر من كتاب حوله، ما يدعونا إلى التمسّك بالاختصار، وعدم الإطالة والتعمّق، تاركين التفصيل لحضرات السادة القرّاء، بمراجعتهم المصادر والوثائق المتعلّقة بهذا الشأن.

بغياب مرجعيّة آية الله البروجرديّ، تصوَّر الشاه والحكومة أنّ الحوزة العلميّة افتقرَت إلى العامل الأوّل والأساس للوقوف أمام مشاريعهم ومخطّطاتهم؛ وبهذا سوف يكون الأفق واسعًا ليتحرّكوا من خلاله بحرّيّة مطلقة، دون خشية أو قلق. وللاطمئنان أكثر، صوَّتوا على اللائحة الإصلاحيّة للأراضي، وأخرجوها إلى حيِّز التنفيذ بسرعة فائقة، وأرادوا بذلك استمالة الحوزة لجهتهم، وفي حال نشوب الاختلاف والمعارضة، فطريق

التمسّك بالأساليب الأخرى مفتوح، كتعريفهم، وإلقاء الشبهات عليهم، وتضليل الرأي العامّ تجاههم، بأنّ مَهمّة الحوزة هي مخالفة الإصلاحات الزراعيّة، وأنّها وقفَت في صفٍّ واحد مع الإقطاعيّين، معتقدين بأنّ ذلك سيؤدّي لموافقتهم وتراجعهم، وبه ستُفتَح آفاق جديدة للخوض في برامج ومشاريع أخرى.

أمّا الإمام قدس سره، فهو أكبر من أن يُخدَع بخططٍ وألاعيب كهذه، فقد كان بعيد النظر، واعيًا، يرى بأنّ المسألة أكبر وأبعد من هذا؛ ولهذا اختار السكوت والصبر، متحسِّبًا ومتأهِّبًا لقرارات وخطوات أُخر؛ كي ينقضّ على خصمه في الوقت المناسب؛ وذلك لأنّ الخطّة الإصلاحيّة -لذلك الوقت- لم تُدرك جميع أبعادها وثمارها العمليّة، ويرى أنّ التسرّع بهذا المجال شيءٌ خارجٌ عن الحكمة.

ولمّا أدرك «عَلَمْ» بأنّ خطّته تبخَّرَت وتطايرَت، عمد إلى إخراج سيناريو جديد، وهو «لائحة تعديل موادّ الانتخابات في البرلمان»، التي قدّمها للبرلمان، وصُوِّت عليها بتاريخ 1962/10/8م.

بموجب هذه اللائحة، تقرَّر حذف عدد من الشروط للناخبين والمنتخَبين، ومن بينها حذف كلمة «الإسلام»، وكذلك باستطاعة المنتخَب أن يؤدّي القسم بأيّ كتاب سماويّ، مضافًا إلى فسح المجال للمرأة بإدلاء الرأي والتصويت.

بناءً على هذا، وتحسُّبًا للمستقبل المظلم، وما قد تلاقيه الحوزة العلميّة والبلاد من خطر كبير، قام الإمام الخمينيّ قدس سره بدعوة جميع العلماء والفضلاء الكبار في الحوزة العلميّة لمداولة الأمور المهمّة، والتأهّب لمواجهة المؤامرات المستجدّة. وضمن حواره وكلامه، تطرّق بالتفصيل إلى أهداف الحكومة من وراء هذه الإجراءات والخطط، وأبدى رأيه في اتّخاذ تدابير فاعلة لمواجهة التحدّيات كلّها، وانتهى الاجتماع بالاتّفاق على ما يأتي:

1. إبلاغ الشاه برقيًّا بمعارضة الحوزة والعلماء ومخالفتهم للائحة المذكورة، مطالِبين بإلغائها على الفور.

2. إبلاغ جميع رجال العلم والعلماء في المدن كافّة بمواقف الحوزة ومعارضتها

لتلك الإجراءات، حتّى يتمّ إبلاغ الشعب، ومن ثمّ التأهّب للمواجهة المحتملة.

3. اجتماع العلماء وفضلاء الحوزة أسبوعيًّا -مرّة واحدة أو أكثر حسب اللزوم- للمشاورة والتداول في الأوضاع والأمور الهامّة، والمتعلّقة بمصير الدين والشعب والوطن؛ وذلك لأجل وحدة العمل والهدف.

وأمر الإمام قدس سره بطبع نصّ البرقيّة الموجّهة إلى الشاه، وتوزيعه، ونشره في الأوساط الاجتماعيّة. وممّا جاء في ذلك:

«**لقد قلق علماء الدين والحوزة وسائر شرائح الشعب المسلم ممّا نشرَته الصحف من اتّخاذ الدولة قرارها بحذف كلمة الإسلام من شروط الناخبين والمنتخَبين. إنّ صلاح البلاد كامنٌ في حفظ الشريعة المقدّسة والدين الحنيف، ففي الدين اطمئنان النفوس، متمنّين توجيه إرشاداتكم وأوامركم للأطراف المعنيّة بحذف كلّ ما يعارض الشريعة الإلهيّة ومذهب البلاد الرسميّ، وما ترومه الأحزاب وغيرهم من رجالات الدولة ضدّها**».

وبعد مضيّ ستّة أيّام، وصلَت البرقيّة الجوابيّة من الشاه إلى الإمام قدس سره، واتّصل هاتفيًّا بثلاثةٍ من مراجع الحوزة آنذاك، ملمِّحًا بجوابه أنّ ما صدر هو شيء طبيعيّ وغير مهمّ، وأنّه حوّل هذه المَهمّة إلى الدولة، وألمح قائلًا: بأنّ هذا هو من مقتضيات الزمن والظروف الراهنة.

وبعد أن أحال الشاه المهمّة إلى «أسد الله عَلَم»، قام المراجع بالاتّصال به. وأوضح الإمام قدس سره خلال برقيّته بأنّ اللائحة المذكورة «**معارِضة للشريعة المقدّسة**» و«**ناقِضة لِما جاء في الدستور**». وأكّد بأنّه يجب على الدولة احترام الإسلام ودستور البلاد، وأضاف «**بأنّ علماء الدين والمسلمين سوف لن يسكتوا على أيّ تعرُّض يهدّد الشريعة الإسلاميّة**».

تلقّى «عَلَم» برقيّات وبيانت ووسائل معارضة كثيرة من سائر العلماء ورجال العلم، ولكنّه لجأ إلى الصمت، وأهملها بالمرّة، ما أثار حفيظة العلماء والمراجع، وأبرقوا

تحذيرات للشاه من جديد. وتطرّق الإمام قدس سره في برقيّته الموجَّهة إلى الشاه، إلى أنّ أسد الله عَلَم نقض «الدستور»، واستهان بـ«قوانين البرلمان»، وأهمل «نصائح العلماء وإرشاداتهم»، وأضاف: «**لقد ظنّ «عَلَم» أنّ القسم واليمين بالكتب السماويّة سوف يُخرج القرآن الكريم عن إطاره الرسميّ...**» وأنّ الشاه سوف «**يعظِّم ويبجِّل كلّ من يُهين القوانين الإسلاميّة، هادفًا إرضاء الشاه، طمعًا بالمصالح الشخصيّة**». وختم برقيّته بقوله:

«**آملين بإصدار أوامركم اللازمة كي يتقيّد «عَلَم» باحترام قوانين الإسلام والدستور، وأن يقدّم اعتذاره عن اعتدائه وجسارته على حرمة القرآن المقدّس**».

وإنّ الموقف الذي اتّخذه عَلَم تجاه برقيّات الإمام قدس سره والمراجع في النجف وقمّ، حفَّز الإمام قدس سره إلى تكرار العمليّة، ولكن بلهجة أشدّ، وبتحذير أكبر. وابتدأ برقيَّته قائلًا:

«**الظاهر أنّكم عزمتم على عدم الاهتمام والالتزام بنصائح رجال العلم والعلماء الأفاضل وإرشاداتهم، والذين هم عماد الأمّة، وملاذ الجماهير، والناصحين المشفِقين، وتظّنون بأنّكم تستطيعون الوقوف أمام القرآن والدستور ومشاعر الجماهير المسلمة...**»، وحذّره قائلًا: «**... إذا كنتم مصمِّمين على هجر القرآن وإهانته، وعازمين على إحياء التراث الجاهليّ، فإنّكم واقعون في خطأ كبير، وغارقون بحلمٍ لا يراه إلّا الخائبون**». كذلك أكّد عليه «**ضرورة التمسّك بأوامر الله -سبحانه وتعالى-، والالتزام بقوانين الدستور**»، وحذَّره من «**تبعات التهاون بتعاليم القرآن وإهانتها، وإرشادات علماء الإسلام، ومخالفة القوانين**»، وأن يتجنّب كلّ ما يهدّد البلاد من خطر، وإلّا «**فعلماء الإسلام والمراجع سوف يتّخذون الإجراءات اللازمة**» [1962/11/6م].

وفي هذه التحذيرات جميعها، أكّد «عَلَم» خلال إحدى خطبه، بأنّه سوف يقمع أيّ تحرّك معارِض؛ فوصَف العلماء والفضلاء بالرجعيّين بدل أن يُقدِّم لهم اعتذاره، وقال: «إنّ الزمن لا يرجع إلى الوراء مطلقًا، والدولة مصمِّمة على تنفيذ الإصلاحات بأيّ

ظرف كان». وعلى هذا، انتفض الشعب وكافّة القطاعات العاملة في طهران، لمساندة العلماء ورجال العلم، وراح الخطباء والوعّاظ يصعِّدون مهاجماتهم ومعارضتهم للنظام الحاكم، وسعَت الدولة إلى إجراء الإصلاحات وتوزيع الأراضي، عسى أن تقضي على هذه المعارضة التي وصفوها بالغوغائيّة، إلّا أنّ محاولاتهم باءت بالفشل.

وبعد توتّرٍ دام ستّة أشهر، أرسل «عَلَم» في 1962/11/13م، برقيّةً جوابيّةً إلى ثلاثةٍ من مراجع قمّ، دون الإمام قدس سره، يُظهِر فيها مواقفته لتلبية طلباتهم. وأشار إلى هذا أيضًا أثناء لقاء صحفيّ له، متزامنًا مع برقيّته هذه؛ يقصد من وراء ذلك الاستهانة بالإمام قدس سره، ومن ثمّ عزله جانبًا، بينما أدركت الجماهير بأنّ الحكومة تخاف الإمام قدس سره وتخشاه أكثر، ولهذا ازدادَت شعبيّته، وكثر التفاف الجماهير حوله.

وخُدِع بعض الرجال بهذه البرقيّات، وتصوّروا بأنّ المسألة انتهَت بتقديم «عَلَم» اعتذاره لهم، لكنّ الإمام قدس سره الذي انتبه إلى المؤامرة جيّدًا، أعلن بأنّ اللائحة المذكورة لم تسقط ببضع برقيّات سرّيّة، بل يتوجّب على «عَلَم» أن يُعلن بشكل رسميّ في الصحف عن ذلك.

وتزامنًا مع هذا الموقف، قامَت مختلف القطاعات في سوق طهران باستفسارات من الإمام قدس سره حول لقاء «أسد الله عَلَم»، مستوضِحين ردود فعل الإمام قدس سره الإيجابيّة والسلبيّة، فأجاب الإمام قدس سره ببيان علنيّ جاء فيه:

«بعقيدتي، أنّ لقاء رئيس الوزراء هذا ليس له أيّ اعتبار قانونيّ، وإنّني لم أحصل على مواثيق وعهود وضمانات... وذلك لأنّ المصوَّت عليه من قِبَل الوزراء كافّة لا يمكن نفيه بسحبة قلم من رئيس الوزراء، وأنّ ذلك يتمتّع بقوّة وفاعليّة... وإن لم تُعَدْ دراسته من جديد من قِبَل الوزراء كافّة، فإنّ القانونَ قانونٌ، وسيادته مفروضة...».

بعد هذه الحوادث والوقائع، أعلن الإمام قدس سره، ولأوّل مرّة في تاريخ إيران، خطر مداهمة الصهيونيّة وتأثيرها على الوضع السياسيّ والاقتصاديّ للبلاد، فقال:

«انطلاقًا من المسؤوليّة الشرعيّة الملقاة على عاتقي، أُحذّر الأمّة الإسلاميّة والإيرانيّة

من خطر الصهيونيّة على البلاد! وأُعلن بأنّ القرآن والإسلام مُهدَّد بالخطر! إنّ استقلال البلاد واقتصادها متعرّضان لسيطرة الصهاينة، الذين ظهروا في البلاد باسم البهائيّة. وبالتراجع والسكوت، سوف لن تمضي فترة إلّا ونرى اقتصاد البلاد الذي يملكه الشعب، بأيدي هؤلاء، وسوف ينزعون جميع ما يملكه الشعب، ويصبح صفر اليدَين في المجالات جميعها... إنّ الأمّة الإسلاميّة سوف لن يهدأ لها بال، إلّا باجتثاث جذور هذه المخاطر، وإنّ من يسكت على حقوقه، ويصمت ويتراجع عنها، فهو مسؤولٌ أمام الله، وهو زائلٌ لا محالة، إذ سوف لن يُبقي عليه الزمن، ولن يبقى له أيُّ أثر...».

إنّ تحرّكات الإمام قدس سره هذه ليست معارضة لبعض القوانين واللوائح والمصوِّبات... إلخ، بل إنّ المتتبِّع والمراقب لكلمات الإمام وخطبه وتحرّكاته، يدرك بأنّه قدس سره كان قد بدأ شوطًا كبيرًا من الجهاد والنضال ضدّ النظام بأجمعه وضدّ أسياده، وأنّه بجهوده ونشاطاته هذه، يدرّب ويهيّئ الأمّة لمواجهةٍ كبيرة وعنيفة. وقد أثمرَت جهودُه الأوّليّة هذه، وكان من ثمارها مساندة رجال العلم والعلماء له، والتفاف الجماهير حوله، وقام إثرها بدعوةٍ عامّة، وبالأخصّ لعلماء العاصمة ورجالها، إلى اجتماعٍ عَقَدَهُ في أحد المساجد، لحلّ الأزمة القائمة مع النظام نهائيًّا. واضطرَّت الحكومة قبل يومٍ من الاجتماع -أي في 1962/11/28- أن تعلن رسميًّا إلغاءها لائحة تعديل موادّ الانتخابات، وإبلاغ ذلك مراجعَ الحوزة، باستثناء الإمام قدس سره.

أمّا الإمام قدس سره، فقد أعلن مرّة أخرى عن عدم الاكتفاء بهذا، وطالب الحكومة بإعلان ذلك رسميًّا في الصحف. وفي يوم 1962/11/30م، وفدت عليه جماعات وكتل شعبيّة من طهران؛ وأثناء خطابه، قال مهدِّدًا:

«مع أنّ مضمون البرقيّة التي أُرسِلَت إلى السادة العلماء في الحوزة يؤيّد شيئًا ما صحّة القرار، لكن إن لم تعلن الحكومة عن ذلك رسميًّا وعلنًا في الصحف الرسميّة، فسوف لن يكون بمقدورنا التراجع عن قرارنا، وإن أحجمَت الحكومة عن طلبنا هذا، فإنّنا سوف نعتبر البرقيّة شيئًا لم يكن مذكورًا، وسوف نواجهها بالمعارضة والكفاح».

وأخيرًا، رضخ «عَلَم» لأوامر الحوزة، وأعلن الإمام قدس سره -في لقائه الصحفيّ يوم السبت 1962/12/1م- عن إلغاء اللائحة، ووصَفَها بأنّها غير قابلة للتنفيذ.

وباختتام هذه الجولة، نشر الإمام قدس سره بيانًا يُظهر فيه امتنانه وشكره لجهاد الأمّة ووقوفها جنبًا إلى جنب مع علمائها ومراجعها، وأشاد بمواقفها البطوليّة، وممّا جاء فيه:

«... إنّ مواقفكم هذه كانت درسًا وعبرةً للأجانب. إنّني أُلفت أنظار إخوتي المسلمين إلى الحذر والانتباه أكثر ممّا مضى، أرجو منكم وعي الحوادث والوضع المتغيّر، وأن تنتبهوا لمصالح الإسلام؛ لئلّا تقع فريسةً بأيدٍ قذرة تُسيء إلى الدين ومقدّساته...».

وفي يوم الاثنين 1963/1/2م، استأنفَت الحوزة العلميّة دروسها، بعد وقفةٍ دامَت شهرَين. وبهذه المناسبة، ألقى الإمام قدس سره خطابًا تاريخيًّا مُهمًّا حول الحوادث الأخيرة وما نتج عنها.

وممّا أشار إليه أثناء خطابه هذا، هو موقف الإمام عليّ وسائر الأئمّة عليهم السلام مِن حكّام الجور والطغيان، وتطرّق إلى ماهيّة حكومة الإمام عليّ عليه السلام، وتطرّق إلى مواقف علماء العصر إزاء الحكومات الظالمة والاستعمار، الذين تمثّلوا بدورهم مواقف الأئمّة عليهم السلام. وممّا يتعلّق بالحوادث الأخيرة، أشار قائلًا:

«فليأتوا ولينظروا كم وَفَد إلينا من وفود، وكم وصلَنا من برقيّات، وليروا ما قالوا وما كتبوا. زارتنا شخصيّات عديدة تطلب منّا أن نتمسّك بالجانب الدينيّ والروحيّ، ولنرَ ما سيحدث مستقبلًا. لو كانت كلمةً واحدةً مدوّيةً تصدر منّا، لشهدوا انفجارًا ليس له مثيل. مَن الذي سيطر على هذا وسخّره؟ إلى متى تبقون عديمي الإحساس؟ لماذا تُصرَف تلك الجهود للقضاء على هذه القوّة العظيمة؟ لماذا يعمدون إلى قمع هذه القوّة التي هي عماد استقلال الوطن وحرّيّته؟... لماذا بموت عالِمٍ، يتعزّى عالَمٌ بأكمله؛ بينما بسقوط دولةٍ، يطير الناس فرحًا؟».

ثمّ يشير إلى خطط الاستعمار ومشاريعه، التي تعنونَت بالحرّيّة الاجتماعيّة،

فينتقدها قائلًا:

«لماذا يُلقون بحبل الصحف على غاربه، ويدَعونها تنال من العلماء والمراجع ومقدّسات الإسلام؟ لماذا يطلقون كامل الحرّيّة لاحتفال (17 دي)[1]؟ إنّ هذا مدعاة لنفور الشعب من حكومته، وعامل محفّز لسوء ظنّ الشعب برجالاته وكباره الذين هم على رأس السلطة. فلا تجعلوا الجماهير تبتعد عنكم بسمومكم هذه، وكُفُّوا عن هذه الاحتفالات، وأزيحوها عن طريق الشعب، فإنّ رقيّ البلد وتقدّمه ليس كامنًا في احتفالٍ كهذا، وإنّما ذلك كامنٌ بمعاهد العلم والجامعات ومراكز الفضيلة...».

ثمّ يتطرّق بخطابه إلى ظاهرة الاستعمار والعمالة للأجانب وخيانة الأمّة والوطن، وبالأخصّ في المجالات العلميّة والتقنيّة والاقتصاديّة، ويؤكّد قولَه: بأنّ خلاف الحكومة مع العلماء والحوزة هو خلاف من أجل الاستقلال والحرّيّة، والعلم والفضيلة، وما يتطلّبه العصر؛ ذلك ما تريده الحوزة والعلماء، أمّا تريده الحكومة، فهو ادّعاء ورسم خطط مدمّرة تهدف إلى الإطاحة بالإسلام والدين، وقال:

«هل كان العلماء ورجال العلم يومًا ما يخالفون التحضّر والتقدّم العلميّ؟ ففي أيّ مجال من هذا القبيل قاموا بالمخالفة؟ هل أردتم بناء مدارس ومعاهد وخالفكم العلماء؟ هل أردتم استيراد معمل مفيد وعارضوكم؟ أين معمل صهر الحديد الذي طبّلتم له؟ هل عزمتم على اختراع مركبة فضائيّة تحلّقون بها في الفضاء لدراسة الأجرام السماويّة، ومنعكم علماء الدين من ذلك؟ نحن نطالب بعدم جرِّ النساء إلى ساحات الفساد والفحشاء، صيانةً لهنّ من الانحراف. إنّ العشرين وبضع سنين انقضت من السفور ومنع الحجاب، فبماذا عادت علينا وعلى رجالنا وبلادنا؟... انصرفوا عن هذه الألاعيب، ودعونا منها، وارفعوا أيديكم عن القرآن والدين الإلهيّ، ولا تعتدوا على دستور البلاد باسم الرقيّ والتحضّر والتمدّن الكاذب».

(1) 7 كانون الثاني، اليوم المشؤوم في تاريخ إيران، حيث تمّ إعلان السفور رسميًّا من قِبل رضا خان، وكانت تُقام الاحتفالات في جميع أنحاء إيران ابتهاجًا بهذا العمل من قِبل النظام البائد.

إنّ ما يؤكّد عليه الإمام قدس سره خلال خطابه هذا -وكما مرّ سابقًا حول الالتزام بالدستور- لم يكن إلّا فرصةً كان ينتهزها ويسخّرها لصالح الحركة والمسيرة الإسلاميّة، لا لأهداف أخرى. فبذلك الوقت، حيث الوضع المتأزّم، كانت الكثير من الأحزاب والكتل السياسيّة تطالب بالالتزام بالدستور، حتّى وإنّ النظام نفسه كان كثيرًا ما يؤكّد على الالتزام بدستور البلاد واحترامه. ومن هنا، تأكيد الإمام قدس سره لهذا؛ كي يجعله جسرًا يعبر من خلاله إلى أهدافه الخاصّة. ولا ننسَ بأنّ تأكيده هذا لحاجة في نفس يعقوب، ليس إلّا؛ فلا ينسَ قارئنا الكريم أنّ ما تطرّقنا إليه سالفًا بالنسبة لمتمّمات الدستور، وبالأخصّ البند الثاني منه، والذي يؤكّد على مرقابة خمسة من العلماء المجتهدين لِما يُسَنّ من القوانين والدساتير، خشية تعارضها مع أحكام الدين والقرآن المجيد. وقد تعرّض الإمام لهذه النقطة بالذات في خطابه هذا نفسه، حيث قال:

«إنّ ما نؤكّد عليه باسم الدستور، هو ليس بالضرورة معبّرًا عن تأييدنا القاطع له، إنّما نؤكّد على ذلك من باب «ألزموهم بما ألزموا أنفسَهم به». إذا كان علماء الدين يتكلّمون عن الدستور، فإنّهم يخصّون بندَه الثاني من الملحق؛ لئلّا يخالف شيئًا من القرآن والشريعة، وإلّا «فما لنا والقانون»؟ نحن مع القرآن، مع الإسلام، مع السيرة النبويّة، ومع أحاديث أئمّتنا عليهم السلام. كلّ ما يصدر مسايرًا ومتماشيًا مع الإسلام، نحن ننفِّذه ونتقبّله ونُظهر تواضعنا واحترامنا له؛ وكلّ ما خالف الدين والقرآن، نحن نخالفه ونعارضه، ولو كان قانونًا أو دستورًا للبلاد، بل حتّى وإن كان اتّفاقًا دوليًّا أو عالميًّا.

هذه حقائق يجب أن تُطرح، وتحذيرات يجب أن تُقال، ولكن، يا للأسف! أين الآذان الصاغية؟ وإذا كان ذلك، فأين العلاج الشافي الذي لا يلتئم الجرح إلّا به؟».

وإنّ ما يلفت النظر في خطاب الإمام قدس سره هذا، أنّه كان يخاطب مخاطَبيه بالاحترام والوقار، وإلى جانب انتقاداته السياسيّة الشديدة، فقد كان يدعوهم إلى تزكية النفس وتهذيب الأخلاق. ولعلّ هذا مثيرٌ للاستفسار والتساؤل مِن قِبَل الذين ليست لهم معرفة تامّة بسجايا الإمام قدس سره وفضائله وأخلاقه، حول علاقة هذا الأسلوب بالهدف

الذي يرنو إليه قدس سره، وبالأخصّ عندما نلاحظ بأنّ الخطاب يُلقَى على قطاعٍ خاصّ من الأمّة؛ أي العلماء وطلبة العلم والفضيلة. باعتقادي، رأيي الشخصيّ أنا -المؤلّف- أنّ الإمام قدس سره أراد بذلك تنبيه العلماء ورجال العلم المناضِلين بأنّ جهادنا ليس «جهادًا سياسيًّا صرفًا»، وهو ليس جهادًا ونضالًا لأجل «بسط السلطة والنفوذ»، ولم يكن له كذلك «هدفٌ اجتماعيٌّ متعالٍ صرفًا»، إنّما أراد بذلك أن يعطيهم الطابع الدينيّ والأخلاقيّ؛ ليُبعدهم عن استعمال الكلام البذيء الذي لا يليق بالعلماء وبمكانتهم، بل يتنافى مع تعاليم الإسلام.

«يجب عليكم أن تهذّبوا أخلاقكم وتزكّوا أنفسكم، يجب أن تعتدلوا وتعدلوا، وإنّ التعرّض للوزراء والرؤساء بالسبّ والشتم ليس حلًّا لمشكلة الأمّة، وإنّكم أكبر من أن تكونوا سبّابين ومتهتّكين، وذلك لا يناسب وقاركم ومكانتكم...».

كانت نظرة الإمام قدس سره هي نظرة إلى الجهاد والنضال لهدف ما وراء المادّيّات وما وراء الطبيعة، ذلك هدف إلهيّ، وتكليف دينيّ، لا علاقة به بالانتصار والهزيمة في عالَمنا هذا، إنّما نحن سائرون وفق أوامر الله -سبحانه وتعالى-...

«... كلّ ما يحدث ليس خارجًا عن حالَتَين اثنتَين: إمّا النصر، وإمّا الهزيمة. وإذا انهزمتم، فذلك ليس محفِّزًا لهزيمة العزم والثبات، أو التراجع. الهزيمة الظاهريّة ليست مهمّة... الهزيمة هي لشخصٍ علّق آماله وأهدافه داخل حدود هذه الدنيا التي وعَت قلبَه وهيمنَت عليه، الهزيمة صفةٌ لأناسٍ اعتمدوا على الشياطين، وأساؤوا الظنّ بالحياة الآخرة، وإنّ من يتّكل على الله، وينظر إلى خارج هذا العالَم المادّيّ المحدود، فسوف لن يعرف أيّ معنى للهزيمة».

ثمّ يضيف الإمام قدس سره قائلًا:

«منذ اليوم، نباشر مَهامَّنا، ونعود إلى مواقعنا... نستأنف الدراسة والبحث وطلب العلم، الذي هو أكبر العبادات... وإذا داهمَنا العدوّ تارةً أخرى من الخارج، فنحن متأهِّبون لصدّه وردعه، والأمّة هي هي، والدولة كما هي».

إنّ قضيّة لائحة الإصلاحات، وتعديل موادّ الانتخابات البرلمانيّة، كان لها بُعدان:

1. فمن جهة، كانت مقدِّمة لاستئناف مشاريع وخطط كبيرة مكمِّلة ومتمِّمة للإصلاحات الأمريكيّة.

2. ومن جهة أخرى، كانت لعبةَ استفتاءٍ وبلورة؛ لفرز المعارِضين والمؤيِّدين والمحايِدين، مضافًا إلى دراسة ردود فعل الرأي العامّ.

القسم الثاني: استفتاء الثورة البيضاء وثورة الإمام قدس سره عليها

ثمّة لائحة واجهت ردًّا عنيفًا وشديدًا من الإمام قدس سره وعددٍ كبير من العلماء ورجال العلم المناضلين، وبدا للشاه أنّ هذه المعارضة هي نتيجة تبنّي «أسد الله عَلَم» تنفيذَها وإجراءاتها؛ لأنّه الرجل الثاني للبلاد، وأنّه لو يتبنّاها بنفسه، فسوف تخمد المعارضات والمخالفات جميعها، وتبلغ جميع الآمال أهدافها المنشودة. إنّ الهاجس الأوّل الذي دفع بالشاه إلى تحمّل هذه المسؤوليّة -وكما ذكرنا سابقًا- هو تعهّده لأسياده الأمريكان بإجراء الإصلاحات، وذلك منذ أن استسلم لهم بعد تنحّي الدكتور أميني عن السلطة. لذا، كان مفروضًا على الشاه تنفيذ هذه الخطّة لا محالة. ومن هنا، وبتاريخ 1963/1/9م -أي بمناسبة ذكرى ما سُمِّي بالإصلاح الزراعيّ- كان ينوي طرح مبادئه الستّة، التي أسماها بـ«الثورة البيضاء»، للاستفتاء العامّ، وهي في الواقع «ثورة فوق»، اعتادت أمريكا أن تُمليها على زعماء بلدان العالَم الثالث، لتُنَفَّذ في هذه البلدان، وقد تمَّ بالفعل إعداد مسودَّة هذه الثورة.

وما إن اطّلع الإمام قدس سره على الأمر، حتّى بادر فورًا إلى دعوة العلماء والمراجع إلى الاجتماع في قمّ، حيث تقرّر في الاجتماع مطالبةُ الشاه توضيحَ شأنِ أبعادِ خطوته المزعومة وجوانبها، وقد تمّ بالفعل إرسال آية الله «كمال وند» إلى الشاه، ليستجلي حقيقة الأمر منه مباشرة. وبدل أن يجيب بشكل واضح وصريح على أسئلة العلماء، ركّز على الأهمّيّة السياسيّة لهذه الخطوة، مع استخدامه لأسلوب التهديد والوعيد،

وإعطائه وعودًا كاذبة بتحسين وضع العلماء وتلبية مطالبهم، وقال مقسمًا: «لو أطبقَت السماء على الأرض، أو رُفِعَت هذه إلى تلك، لَما تخلَّيتُ عمّا هو ملقى على عاتقي. ولو فعلتُ ذلك، فلسوف أُعزَل من مكاني هذا، وسيُولُّون عليكم أشرارًا من بعدي، لا يعتقدون ولا يؤمنون قيد أنملةٍ بكم، بل وسيهدمون مساجدكم ويفنونكم ويزيلونكم من الوجود»، ثمّ يضيف: «فيما إذا كفّ المراجع عن معارضتهم لمخطّطنا الإصلاحيّ، فأنا على عهدٍ معهم بأن أُلبّي أيَّ طلب يتقدّمون به إلينا».

ثمّ يتطرّق بعد ذلك إلى موقف العلماء في إيران، من رجال النظام والبلاط، وأنّهم ليسوا كغيرهم من علماء البلدان الإسلاميّة الذين يؤيّدون السلاطين والملوك، فأجابه آية الله «كمال وند» مقاطِعًا: «يجب أن تعيَ الفرق، بأنّ علماء الشيعة ومراجعهم، على طول تاريخهم الذي يمتدّ لأكثر من ألف عام، لم يكونوا أبدًا موظّفين في الحكومات، ولن يكونوا كذلك مستقبلًا، وعليك أن تفرّق في تصوّرك بين هاتَين المجموعتَين من العلماء».

بعد رجوع آية الله «كمال وند» إلى قمّ، اجتمع العلماء ثانيةً حتّى يدرسوا ردود الشاه بشأن هذه القضيّة، وقد أدرك الإمامُ أنّ المؤامرة محاكةٌ من قِبَل أمريكا، وهي إن نُفِّذت، فإنّها ستُحقّق مصالح أمريكا على حساب المصالح الوطنيّة؛ لذلك فقد حدَّد موقفه الصريح تجاه مخطّط الشاه قائلًا:

«عليكم، أيّها السادة، أن تنتبهوا... إنّ ما يُحاك لبلدنا من مخطّطات يُنبّئ عن مستقبل أسود، ما يزيد من مسؤوليّاتنا ويجعلها صعبة للغاية. وإنَّ الأحداث التي تجري اليوم تهدّد أساس الإسلام، وتُعرّضه للخطر الكبير والدمار الشامل، حيث إنّ المؤامرة محاكة بدقّة ضدّ الإسلام والشعب المسلم واستقلال إيران.

ولو أنّنا تمكّنّا من أن نبثّ الوعي في نفوس الناس، ونوقظهم من سباتهم، ليقفوا بوجه هذه المؤامرات وباقي مخطّطات الشاه، ولا ندع مجالًا لممارسة الاستعمار أساليب الخداع بألاعيبه المريبة، فإنّنا سنتمكّن من هزيمته ودحره، ونحول دون تنفيذ

مخطَّطه الخبيث. نحن إذا استطعنا أن نوقظ الأمّة من غفلتها، ونوجّهها إلى وعي مؤامرات الشاه وما يُحيكه لها، فإنّنا سوف ننتصر عليه بالتأكيد لا محالة، بإذن الله».

وفي جوابٍ للإمام قدس سره على رأي بعض العلماء الذين رأوا أنّه ليس من صالح الأمّة أن يواجَه الشاه مباشرة بسبب امتلاكه للقوّة العسكريّة الضخمة، قال:

«إنّنا لا نريد أن نخوض حربًا بالمدفع والدبّابة، حتّى لا يقول أحدٌ عنّا: لا يمكنكم فعل شيء تجاه الشاه، بل إنّ أكبر عمل نريد أن نقوم به، وأهمّه، هو توعية الناس وإرشادهم؛ وآنذاك سيعرف الجميع ما نملكه من قوّة عظيمة، لن تزول أبدًا، ولا يمكن حتّى للمدفع والدبّابة أن ينافسها. وفي الوقت ذاته، فإنّ أمامنا طريقًا صعبًا وخطيرًا، وإنّ مَن يَعتبر المواجهةَ من واجباته، عليه أن يدرس جوانب القضيّة بدقّة، ويستعدّ لعواقب الأمور، ويُحدّد مدى قدرته على الصمود والاستقامة في مواجهة المصائب والنوائب التي تتمركز في هذا الطريق الشائك».

في 1963/1/22م، أصدر الإمام قدس سره بيانًا حرَّم فيه المشاركة في «الاستفتاء العامّ»، أو كما سمّاه الشاه: «المصادقة الوطنيّة»، وأطلق سماحتُه عليه اسم «الاستفتاء الإجباريّ».

وعلى إثر هذا، تعطّلَت الأسواق في طهران، وخرجَت الجماهير متظاهرةً رافعةً شعار المعارضة على الاستفتاء المزعوم، وانتقلَت الانتفاضة إلى داخل الجامعات، وخرج الشباب الجامعيّ بمسيرات معارضة، بيد أنّ الشرطة واجهتهم بالسلاح، فسقط منهم القتلى والجرحى. وكان الشاه قد أعلن من قبل بأنّه سوف يقصد مدينة قمّ لإجراء حوارات مناقشات مع علماء الدين والمراجع، بما فيهم الإمام قدس سره؛ ليضمن عدم معارضتهم ومخالفتهم للاستفتاء الذي سيجري بعد ذلك.

وقام محافِظ قمّ بالضغط والتهديد غير المباشر على العلماء والمراجع؛ وذلك لإقناعهم باستقبال الشاه عندما يفد إلى قمّ، لكن سرعان ما تدخّل الإمام قدس سره وحال دون ذلك، وفورًا أصدر بيانًا يُوصي به الجماهير والأمّة لزومَ المنازل وعدم التجوّل. ودخل الشاه قمّ يوم 1963/1/14م، والمدينة خالية من الناس، عدا رجال الشرطة والأمن، والموكب

العسكريّ الذي تصدّره. وهذا ممّا زاد في عداء الشاه له، وتصاعد غضبه، إذ وصف المراجع في خطابه بأنّهم «الرجعيّة السوداء المظلمة»، وأنّهم «أردأ من حزب توده الشيوعيّ بمئة مرّة» وأنّهم «ضدّ الإصلاح»... وقد بالغ بتعريتهم وشتمهم وإهانتهم.

وفي يوم 1963/1/26، أُجرِيَ الاستفتاء، علمًا بأنّ الجماهير لم تشارك به في معظم المدن والولايات. وأعلنَت الصحف، دون أيّ حياء، وبصفاقة، بأنّ اللائحة صوَّتَ عليها خمسة ملايين وستّمئة ألف ناخب، وخالفَها أربعة آلاف ومئة وخمسون ناخبًا! بعد إعلان النتائج وفرز الأصوات، مباشرةً أزجى «كنيدي» تبريكاته وتهانيه للشاه، وصرّح قائلًا: «إنّ الطريق الذي سلكه الشاه -أي الإصلاحات الأمريكيّة- سوف يلاقي دعمًا ومساندة أمريكيّة»، وقابله الشاه بجوابٍ أشار فيه إلى موقف الشعب ومشاركته في الاستفتاء، قائلًا: «إنّني على ثقة تامّة بحسن نوايا رفاقنا الأمريكان نحو تنفيذ مشاريعنا الاجتماعيّة والاقتصاديّة... إلخ».

وتطرّقَت صحيفة نيويورك تايمز إلى هذا الموضوع، مشيرةً إلى «أنّ إيران حظيَت بموقع ممتاز تستطيع من خلاله كسب دعم أمريكا ومساعداتها». هذا وأعلنَت صحفٌ أخرى عن رأيها ودعمها للحركة الإصلاحيّة في إيران.

ولم تكن الصحف الروسيّة بعيدة عن هذه الأجواء، فأعربَت عن تأييدها للثورة البيضاء، ووصفَتها بأنّها حركة ضدّ الإقطاعيّين، ومَن خالفها فهو إقطاعيّ لا محالة، إذ أنّه فَقَدَ مصالحه الشخصيّة، وراح يحارب الشاه من أجلها.

بعد يومَين من الاستفتاء -أي يوم 1963/1/28م، الذي صادف اليوم الأوّل من شهر رمضان- دعا الإمام قدس سره عددًا من كبار الحوزة والمراجع للاجتماع، واقترح بأن تُعَطَّل النشاطات الدينيّة جميعها في هذا الشهر، وبكافّة المساجد في إيران؛ كعدم إقامة صلاة الجماعة وإلقاء الخطب والوعظ والإرشاد الدينيّ. وعلى إثر هذا، أصبح الشعب أكثر وعيًا عندما رأى هذه المبادرات والتصرّفات من العلماء، وأخذَت نظرة العلماء ورجال العلم للشاه تسترعي انتباه العامّة والشعب أكثر فأكثر.

وفي عيد الفطر، وفد إلى قمّ حشودٌ من أهالي طهران لزيارة الإمام قدس سره، حيث ارتجل قدس سره خطابًا أفصح فيه عن ماهيّة «**الاستفتاء المزيّف**»، وأشاد بمواقف الشعب عندما أعرض عن المشاركة بالاستفتاء وأحجم عنها، وعبّر عن موقفهم هذا بأنّه انتصار كبير لنا، وهزيمة كبرى للشاه. وأكّد قائلًا: «**إنّ النظام الحاكم لن يستطيع أن يحجب الحقائق بإيداع العلماء والفقهاء والوعّاظ السجونَ والزنزانات**». وبتاريخ 31 آذار1963م، هاجم الشاه مراجع الدين والعلماء أثناء خطابه، وراح ينال منهم علنًا، بعبارات دميمة وقبيحة، وهدّد المناضلين والمجاهدين، متوعِّدًا بتصفية حساباته معهم، وملوِّحًا باتّخاذ تدابير قمعيّة جديدة.

بينما ازداد الإمام قدس سره حماسة وقوّة، وأعرب عن موقفه الصارم؛ وذلك لإيقاظ الأمّة وإطلاعها على ما ينفّذه الشاه من مؤامرات ودسائس، ووزّع بيانًا بذلك اليوم، طالبَ فيه الشعبَ بالحداد العامّ في أعياد رأس السنة الإيرانيّة (21 آذار). من هنا، كان مدى قوّة ردود الفعل واضحًا إزاء تحرّكٍ خطيرٍ كهذا التحرّك ضدّ النظام الحاكم.

مذبحة المدرسة الفيضيّة وموقف الإمام قدس سره

عندما ازداد غضب الشاه وحقده على الإمام قدس سره ومواقفه الصارمة، عزم على مواجهة الحوزة ومداهمتها بقسوة وشدّة؛ لإلقاء الرعب والهلع في قلوبهم، والعمل على إخضاعها وإذلالها، لتلتزم الصمت. بمناسبة مرور ذكرى شهادة الإمام جعفر الصادق عليه السلام، والتي صادفت في حينها بتاريخ 22 آذار 1963م، أُقيمت مجالس تأبينيّة كثيرة في قمّ، ومن جملتها مجلس الإمام الخمينيّ قدس سره في داره، الذي شهد زخمًا هائلًا من المشاركين والمؤبّنين. وفي اليوم ذاته، طرق المدينة شرٌّ عظيم، فدخلَت حافلات عدّة قادمة من طهران، تُقِلُّ أناسًا عاديّين حسب الظاهر، توجّهوا مباشرةً إلى منزل الإمام قدس سره، وتغلغلوا بين الجماهير المحتشدة في المجلس، وراحوا يُثيرون البلبلة والضوضاء عند خطاب الإمام قدس سره، للقضاء على هيبة المجلس والهيمنة عليه. وعندما لاحظ الإمام قدس سره هذه الظاهرة من بعيد، أعلن -عبر أحد الطلبة- بأنّ كلّ من يسعى

لخلق البلبلة والفوضى، سوف يضطرّني إلى أن أنقل هذا المجلس إلى الحرم الشريف، وأعلن عن أشياء وأسرارٍ يتلهّف الشعب لسماعها، فالويل كلّ الويل لكم حينها! بعد هذا، هدأ المجلس وانتهى بسلام، ولكن حضر أولئك الأشخاص ثانيةً عصر ذلك اليوم في مجلس الفيضيّة، وتمكّنوا من قلب المجلس رأسًا على عقب، فبرزَت المشاحنات والاختلافات، وإذا بالمجلس يتحوّل إلى ساحة معركة بين رجال العلم والطلبة، وأولئك المدسوسين. وتدخّلَت القوّات الخاصّة، وحمِيَ الوطيس، وقد رأى الطلبة أن لا خيار لهم إلّا أن يقابلوا تلك القوّات بالحجارة والحصى، في حين أنّ قوّات الشاه الخاصّة كانت قد طوّقَت المدرسة بأكملها، وفتحت النيران على الجماهير والطلبة، وهتكوا حرمة الحرم.

فسقط العشرات من الطلبة قتلى، وسقط المئات منهم جرحى مضرّجين بالدماء. واستمرّ هذا الهجوم حتّى الساعة السابعة مساءً. وأخيرًا قامت القوّات بجمع كتب الطلبة، وأثاثهم، وحتّى ألبستهم، في ساحة المدرسة، وأشعلوا فيها النيران، ومن ثمّ تركوا المدرسة والدخان يتصاعد منها، والقتلى والشهداء والجرحى أشلاء متناثرة هنا وهناك، والآخرون تتصاعد منهم الآهات والأنّات، يستغيثون ولا مغيث لهم. وقد تكرّرَت الحادثة أيضًا في المدرسة العلميّة الطالبيّة في تبريز، وشهدَت الواقعة عشرات القتلى والجرحى.

وعندما بلغ الخبر الإمام قدّس سرّه، وما فعله أوغاد الشاه، عزم على الخروج من منزله قاصدًا المدرسة الفيضيّة، وحاول الطلبة والناس المجتمعين في داره منعه من ذلك، خشيةً على سلامته. فأغلق بعض الطلبة الباب خوفًا من اقتحام رجال الشرطة والقوّات الخاصّة البيت. ولمّا رأى الإمام قدّس سرّه ذلك كلّه عندما كانت متّجهًا إلى خارج المنزل، هتف بأعلى صوته قائلًا: «**مَن الذي أجاز لكم إغلاق الباب؟**»، ثمّ بعد ذلك أدلى بخطابٍ تاريخيّ في تلك الأجواء الراعبة والموحشة، وتعرّض من خلاله للشاه والنظام، وأعطى الجماهير شحنةً جديدةً من القوّة والصبر والثبات، وقال:

«... حذارِ من القلق والهلع! وتحاشوا الاضطراب، واخلعوا رداء الخوف عن أنفسكم. إنّكم أتباع أئمّة وعظماء تحمّلوا شتّى المصائب والآلام في سبيل الله، وعند ذكركم مصائبهم وآلامهم سوف تخفّ عليكم جميع المصائب والصعاب. أئمّتنا عليهم السلام تحمّلوا مصائب عظمى، كمصيبة العاشر من محرّم وليلته، رغبةً في إقامة دين الله. تُرى ممّ تخافون؟ ومن أيّ شيءٍ تقلقون؟ إنّه عارٌ على أيّ مسلم يدّعي التفاني والولاء لأهل البيت والأئمّة عليهم السلام أن يتنازل عن مطالبه، ويتقهقر أمام حوادث وصعاب كهذه التي صدرت عن النظام الحاكم. إنّها بعملها هذا، قد أثبتَت ضعفها وخوفها، وأعلنَت عن ماهيّتها المغوليّة الوحشيّة والهمجيّة. إنّ النظام قرّب زمن سقوطه، ولفّ حبل المشنقة حول عنقه بيده، عندما اقترف هذه الجناية. إذًا... نحن منتصرون، إن شاء الله! انتصرنا؛ لأنّ الله كشف عن هويّة النظام، وعن حقيقته. إنّ عظماءنا تحمّلوا السجون، وتعرّضوا لمختلف أنواع التعذيب، وقدّموا أنفسهم قرابين في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله ودينه الحنيف؛ ولهذا سَلِم الإسلام وبقي إلى يومنا هذا. اليوم، وقع العبء علينا، وإنّ واجبنا المقدّس أن نتحمّل المصائب والصعاب لقطع أيدي الخائنين، ودحض الكافرين الطامعين...».

لقد تصوّر الشاه أنّه بعمله هذا، سوف يُبعد الحوزة، وعلى رأسها الإمام قدس سره، عن الساحة السياسيّة والتدخّل بشؤون الدولة والنظام، أو على الأقلّ يفتح ثغرة بين العلماء ورجال العلم والحوزة، ويقسّمهم إلى فئتَين متناحرتَين أو أكثر، إلّا أنّه بفعله هذا، جعل الإمام قدس سره يزداد صلابة، فوقف قدس سره في وجه الشاه وأعوانه، غير هيّاب ولا وجل؛ ممّا زاد في وحدة الحوزة ورصِّ صفوفها وتكاتفِها.

وفي ذلك اليوم، بل وفي تلك الأجواء، ألقى الإمام قدس سره خطابًا دعا فيه إلى عدم التظاهر بالتقيّة، وشجّعهم على كسر حواجز الخوف والاضطراب، وأكّد ذلك ببرقيّةٍ كان قد أرسلها إلى علماء طهران، قال فيها:

«... إنّ هجوم القوّات الخاصّة للشاه، الذي تسانده الشرطة، لم يكن سوى تجديد

الخواطر لأعمال المغول الوحشيّة، مع فرقٍ واحد، هو أنّ أولئك هاجموا بلادًا أجنبيّة، وهؤلاء هاجموا أبناء وطنهم ودينهم من الطلبة ورجال العلم... هؤلاء باسم الشاه، سحقوا مقدّساتنا، وأهانوها، وتعدّوا على مقدّسات الإسلام، وتجاوزوا حقوق المسلمين، واعتدوا كذلك على معاهد العلم والتربية. إنّهم وجّهوا بهجومهم هذا، ضربةً تكاد تكون قاضيةً على القرآن والإسلام...

وإنّني أسترعي انتباه إخوتي الفضلاء إلى خطر اضمحلال الدين وأصوله في البلاد. إنّ القرآن والدين في خطر؛ ومع هذا، فإنّ التقيّة لا مكان لها اليوم، وإظهار الحقائق أمرٌ واجبٌ اليوم مهما كانت النتائج».

وتطرّق الإمام قدس سره إلى الفاجعة الأليمة، والقتل المروّع في المدرسة الفيضيّة، محمِّلًا الشاه وجلاوزته والنظام مسؤوليّة كبرى، وحذّر من تحوّلات كبيرة ستشهدها البلاد في المستقبل، إذ قال:

«... بأيّ تصريح، وبأيّة موافقة سُمِحَ لكم بانتهاك حرمة مجالس العزاء في يوم وفاة الإمام الصادق عليه السلام؛ فاستبحتم دماء الناس والطلبة، وارتكبتم تلك الجرائم العظيمة؟ لقد هيّأتُ نفسي وجسدي وصدري لاستقبال رماحكم وسهامكم، وسوف لن أرضخ لكم، أو أتنازل، أو أتقهقر أمام جبروتكم واضطهادكم، بإذن الله -تعالى-.

سوف لن أسكت عن أيّ عمل مخالف للإسلام ولمصلحة البلاد يصدر عنكم. وما دام القلم بيدي، فسوف أسطّر الفتاوى والبيانات والمنشورات لمحاربتكم أبد الدهر. عيون المسلمين اليوم تذرف دموعها، وتسكب عبراتها لِما هي عليه بلادنا، وتُهمَل هي الأخرى من شدّة الجور على ديننا. إنّ النظام الحاكم -الذي يشعر بنهايته ومصيره المحتوم؛ وبسبب دموعكم وعبراتكم هذه- أخذ يتخبّط بتصرّفاته وحركاته وسكناته، ويعرّض نفسه للسقوط والاضمحلال. نسأل الله العليّ القدير أن يحفظنا من كيد الأعداء، وأن يسبغ علينا السكينة والثبات...».

لقد سعى بعضهم، وبطرق شتّى، للتخفيف من حماس الإمام قدس سره، وإعادة الهدوء والطمأنينة إلى نفسه. في الوقت الذي كان الإمام قدس سره يصرف معظم طاقاته لتوحيد رجال العلم والمراجع والعلماء، ووضعهم في خندق واحد -واستنادًا لوثائق المخابرات «السافاك»- بعد 16 يومًا من ارتكاب الفاجعة في المدرسة الفيضيّة، التقى بعضُ رجالات الدولة «شريعتمداري»، وأعطاهم المواثيق والعهود بأن يجمّد تحرّكاته ونشاطاته كلّها ضدّ النظام، ولأئمّة الإصلاحات بالذات، وأن يحترس عن إصدار أيّ بيان أو إعلان مناوئ، وكذلك أن يبذل ما بوسعه لمنع الإمام قدس سره التهجّمَ على السلطة. ولمّا وجد نفسه عاجزًا عن الوقوف في وجه ثورة الإمام قدس سره، صدر بيانًا وهميًّا ينطوي على المجاملة عن هذه الأخيرة والمحاباة، وذلك رغبة منه لتهيئة جوّ سلميّ ومهادن للنظام، أصدر بيانًا ملفّقًا ومتملّقًا، وكان هذا قبل يومٍ واحد من اعتقال الإمام قدس سره. [الوثيقة رقم 2][1].

وفي هذه الفترة، عزم الشاه على فرض الخدمة العسكريّة الإلزاميّة على طلبة الحوزة والمعاهد الدينيّة؛ وذلك لتفريق جمعهم، ولإذلالهم واحتقارهم وإهانتهم. وكان هذا بمثابة صاعقة نزلَت على كثير من الطلبة الذين يرون في ذلك قمّة الإهانة والإذلال[2]، وأنّهم أعلى وأكبر بكثير من أن يكونوا جنودًا مطيعين للنظام الشاهنشاهيّ الظالم.

أمّا الإمام قدس سره، فقد زفّ لهم البشرى ببيانه الذي أصدره في هذه المناسبة، ودعاهم إلى الثبات والصبر وعدم التقهقر، وسمّاهم جنود الإمام المهديّ عجل الله فرجه، وأنّهم رسلٌ إلى المعسكرات والمخيّمات لتبليغ الدين الإلهيّ، وتعرية النظام أمام الجنود والقادة والضبّاط، وحمّلهم مسؤوليّة كشف الحقائق وما يدور في الكواليس لفضح جرائم الشاه. وأوصاهم بالتربية الرياضيّة للروح والبدن.

---

(1) وثائق محضر اجتماع مجلس الوزراء بعد انتفاضة 5 حزيران 1963م، وقد نشرتها عام 1974م مديريّة العلاقات العامّة والمكتب الخاصّ لرئاسة مجلس الوزراء.

(2) من الذين أدّوا الخدمة الإلزاميّة، سماحة رئيس الجمهوريّة هاشمي رفسنجانّي، والسيّد محمّد خاتمي وزير الثقافة والإرشاد الإسلاميّ السابق [انتُخِب رئيسًا للجمهوريّة في عام 1997م].

وبحلول ذكرى الأربعين على أحداث الفيضيّة، أصدر الإمام قدس سره بيانًا موجّهًا للشعب، أشار فيه إلى مواقف رجال العلم والطلبة، وأعرب عن أسفه الشديد لهتك حرمة الحوزة العلميّة والعلماء والأعلام. وممّا جاء فيه، قوله:

«... ذنبُنا هو دفاعنا عن الإسلام، وعن استقلال البلاد. لقد تحمّلنا هذه الإهانات من أجل الإسلام، وسنتحمّل أكثر وأكثر. لقد جلسنا على قارعة الطريق، وفي السجون، وتحمّلنا الظلم، وحُكِمَ علينا بالإعدام؛ من أجل إعلاء كلمة الله. دع النظام يرتكب ما يريده من جرائم لاإنسانيّة، فليقطعوا أوداج الشباب، وليسحبوا المرضى من على أسرّتهم، دعوهم يبيدونا بالقتل وهتك الأعراض، لا ضير في ذلك، فليهدموا المدارس ومراكز العلم والفضيلة»، وأشار أيضًا إلى عدم خشية الحوزة من التجنيد الإلزاميّ، وطالب المعسكرات والقوّات المسلّحة بمدّ يد الأخوّة لهم، فقال:

«... نحن غير مبالين بخدمة أبنائنا العسكريّة، دعوهم ينخرطوا في صفوف الجند والعسكر؛ ليرفعوا من مستواهم الثقافيّ والدينيّ. دعوا أبناءكم الخلّص النجباء يقتحموا المعسكرات؛ فوجود عناصر الخير والإخلاص في صفوف الجيش قد يكون مدعاةً لنصر الله أبناءنا ووطننا. نحن على ثقة تامّة بأنّ الضبّاط وأصحاب الرتب والصلاحيّات الكبيرة في جُلّ المعسكرات هم من النجباء الكرماء، وسوف يقدّمون ما بوسعهم لإعلاء راية الوطن خفّاقة عالية مستقلّة. إنّني على يقين بأنّ أولئك النبلاء بعيدون البُعد كلّه عن تلك الجرائم، إنّني على علم كامل بما يُمارَس عليهم من الضغوط، إنّني أمدّ يد الإخاء والتضامن لأولئك على أن ننقذ الإسلام والبلاد، إنّني على اعتقاد كامل بأنّ أولئك ليسوا من الضعفاء الجبناء الذين ترتعد فرائصهم بمجرّد سماع كلمة «إسرائيل»، إنّهم لم يرضخوا ولا لمرّةٍ واحدة لليهود، ولن يخضعوا لهم أبدًا».

وأخيرًا أضاف:

«... إنّه من اللائق جدًّا، وعلى قدر المستطاع، أن تعيد الأمّة الإسلاميّة مراسم العزاء والفاتحة على أرواح الشهداء الذين سقطوا في المدرسة الفيضيّة، وأن لا تنسى

هذه الأمّة التوجّه باللعن والطعن لأولئك الذين تسبّبوا في هذه الجريمة...». وارتفع عدد المآتم والمجالس التأبينيّة لأربعينيّة الشهداء، ولم تعارض الحكومة ذلك، لكن عندما كادت تلك المجالس تصبح مركزًا للنيل من الشاه ونظامه، شرعَت السلطة بمنع إقامتها. خلال هذه الأيّام، أصدر الإمام قدس سره بيانًا آخر يندّد بالشاه ويهدّده ويضع النقاط على الحروف، بينما أخذ يتساءل عن أسباب منح ألفَي شخص من فرقة البهائيّة جوازات سفر إلى لندن، في الوقت الذي تُلقَى المعاذير والحجج لعدم إمكانيّة الدولة للسماح بالسفر إلى حجّ بيت الله الحرام. ثمّ عاد تارةً أخرى يحذّر من الخطر اليهوديّ، مطالِبًا الجماهير والشعب بالوقوف في وجه السلطة ومخطّطاتها، وأكّد أخيرًا على ضرورة الجهاد، فقال:

«**لقد عزمتُ على النضال والجهاد، وسوف لن أتقهقر أبدًا إلى أن أرى، بعينيَّ هاتَين، انهيار النظام الشاهنشاهيّ، أو أفدَ على ربٍّ غفورٍ رحيمٍ، حاملًا عذري معي. يا علماء الإسلام، ويا مراجع المسلمين، توكّلوا على الله، فإنّ النصر حليفنا**».

وبدأت أيّام الشهر المحرّم تقترب، وأخذَت تتقارب معها احتمالات المواجهة بين الإمام قدس سره والشاه، وذلك بسبب فرض الحصار، وممارسة الضغوط، وعدم منع قيام المناسبات بين أحداث الفيضيّة وشهر المحرّم، ولم نشهد خطابًا أو كلامًا من الإمام قدس سره سوى بعض البيانات والإعلانات التي مرّ ذكرها آنفًا. إنّ أيّام الشهر المحرّم هي أفضل ظرف وأحسن مناسبة لتعرية النظام الحاكم، والكشف عن مؤامراته الدنيئة. ولهذا، وجّه «السافاك» دعوة لحضور كافّة الخطباء والوعّاظ، وحذّرهم من التطرّق إلى ثلاثة مواضيع فقط، وأمّا ما سواها، فلهم الحرّيّة التامّة، وتلك هي:

1. عدم المساس بشخصيّة الرجل الأوّل للبلاد.
2. عدم التطرّق إلى إسرائيل نهائيًّا.
3. الكفّ عن الكلمات والعبارات الحماسيّة المحرِّضة للشعب، كذكر الإسلام والخطر الذي يواجهه.

وبعد هذا مباشرةً، وجّه الإمام قدس سره بيانًا إلى الخطباء والوعّاظ والهيئات الحسينيّة، وصف فيه مطالب «السافاك» هذه بأنّها خارقة للقانون، ولا يترتّب على مخالفتها أيّ أثر، وإنّ كلّ من يلتزم ويتعهّد بتلك المطالب فهو إنسان مجرم، ويستحقّ الجزاء والتأنيب. وهاجم الإمام قدس سره الشاه، وتحدّاه على ما كان يزعم بأنّ الشعب يؤيّده ويطالب بالثورة البيضاء.

فقال: «**إذا كان حقًّا ما تدَّعون، فنرجو منكم إعطاء الشعب هذه الأيّام حريّته الكاملة، ولنرَ كيف أنّ الشعب أيّد السلطة. فلتظهر الحقائق للعالَم بأسره، وإلّا فإنّ الادّعاءات كاذبة، والإشاعات واهية، لا تضرّ إلّا بالأمّة والوطن، وإنّ القانون سيلاحقها ويفرض العقوبات على كلّ من يقف وراءها**».

وأكّد أيضًا على موقفه الصارم من الكيان الإسرائيليّ وعملائه البهائيّين، وأضاف:

«**إنّ النظام الحاكم يبذل قصارى جهوده لمساندة إسرائيل وعملائها -الفرقة الضالّة والمُضِلَّة- ومساعدتهم. لقد فتحَت أبواب البلاط أمامهم، وفُسِحَ المجال لهم، ولقد تمركزوا في جميع المراكز والنقاط المهمّة، وشغلوا الوزارات والمعسكرات والمجالات الثقافيّة**».

ثمّ طالب الخطباء والوعّاظ بالتعرّض لإسرائيل، وتحذير الشعب من الخطر القادم، رغمًا عن الحكومة والشاه، وأن لا يكفّوا عن إرشاد الناس وتوعيتهم؛ لأنّ «**السكوت في هذه الأيّام هو تأييد ودعم للسلطة وللجبابرة ولأعداء الإسلام كلّهم**».

القسم الثالث: خطاب الإمام قدس سره في يوم عاشوراء وانتفاضة (15 خرداد - 5 حزيران 1963م)

عقد الإمام اجتماعًا مع كافّة العلماء والمراجع في الحوزة العلميّة، اتُّفِق فيه على فضح جرائم الشاه والحكومة ودسائسهم يوم العاشر من المحرّم، وذلك أثناء خطبهم التي نُسِّقَت من قبل مع أصحاب المآتم والمجالس. ولكن مع شديد الأسف، انسحب

السيّد شريعتمداري من الاتّفاق هذا قبل العاشر من المحرّم بيوم، وتبعه آخرون؛ وذلك خشية العواقب. كذلك سعى بعضهم لثني الإمام قدس سره عن خطابه، حتّى قبل لحظات من ذهابه إلى المدرسة الفيضيّة، بيدَ أنّ الإمام قدس سره مضى بعزيمة قويّة، ولم يبالِ بشيء. وبينما هو في طريقه، فإذا بأحد الأجانب يسير بجانبه، ويهمس بأذنه قائلًا: «إنّني مبعوثٌ من قِبل صاحب الجلالة لأحذّرك من عملك، وإيّاك أن تلقي الخطاب! وإذا كنت مصرًّا على ذلك، فسوف تعترضك القوّات الخاصّة، وعندها سترى ما لا يُحمَد عقباه!»، فأجابه الإمام قدس سره: **«وعندها أيضًا سوف يؤدِّب الطلبةُ ممثّلي الشاه!»**.

وفي تمام الرابعة عصر يوم عاشوراء 1963م، اعتلى الإمام قدس سره المنبر، وألقى خطابه التاريخيّ أمام حشود كبيرة من رجال العلم والجماهير ومواكب العزاء، التي قَدِمت من العاصمة ومن محافظات أخرى. وهاجم الإمام قدس سره النظام الحاكم، وفضح مؤامراته وخططه وتآمُرَه مع أسياده على الوطن، قائلًا:

«بسم الله الرحمن الرحيم، نعيش الآن أجواء العاشر من محرّم، ويتبادر للذهن أحيانًا عددٌ من التساؤلات والتصوّرات حول واقعة الطفّ؛ فمثلًا، يخطر سؤالٌ بالبال، ويطرح نفسه: لو كان الخلاف والعداء منحصرًا بين بني أميّة وحكومة يزيد بن معاوية وبين الحسين عليه السلام، إذًا ما بال النساء والأطفال اللواتي سُبِينَ وتعرّضْنَ للتمزيق من قِبَل أولئك الوحوش الكواسر؟ ما ذنب النساء والأطفال؟ ما ذنب الطفل الرضيع؟ أعتقد أنّ أولئك كانوا يقصدون هدفًا أكبر وأبعد، وذلك هو خلافهم مع أساس الفكرة، لا مع الحسين عليه السلام وعياله وأطفاله كأناس. إنّ بني أميّة كانوا يريدون محوَ العترة، كانوا حاقدين على بني هاشم، هدفُهم هو القضاء على هذه الشجرة الطيّبة.

ويعود هذا السؤال يطرح نفسه اليوم مرّة أخرى: ما الذي يريده النظام الحاكم المتغطرس من العلماء والمراجع؟ لماذا يهاجمون علماء الإسلام؟ لماذا يُمزّقون ويحرقون القرآن في المدرسة الفيضيّة؟ [يقصد الإمام هنا تمزيق القرآن من قِبل جلاوزة الشاه في مجزرة المدرسة الفيضيّة].

من هنا، نفهم أنّ عداء هؤلاء ما هو إلّا عداء للإسلام وللعلماء ولأصل الفكرة. إنّ إسرائيل لا تريد أن ترتفع راية القرآن في بلدنا. إنّ إسرائيل لا تريد علماء في هذا البلد. إسرائيل لا تريد الإسلام في هذا البلد.

إنّ إسرائيل هاجمَت المدرسة الفيضيّة عبر عملائها الخونة، هاجمتنا نحن، وتهاجمكم أنتم أيّها الشعب الأبيّ. ذلك كلّه، من أجل سيطرتها على ثرواتنا. إنّ إسرئيل تريد إزالة الحواجز جميعها التي تقف في طريقها، والحواجز هي: الإسلام، والقرآن، ورجال العلم، والمراكز العلميّة، والمدارس الفقهيّة، والطلبة المجِدّون. وجزاء الطلبة هو قذفهم من أعلى الأبنية إلى الأرض؛ لقتلهم وتكسير أيديهم وأرجلهم، لماذا؟ لأنّ إسرائيل تريد الوصول إلى أهدافها، بمساعدة حكومتنا الخائنة ومساندتها.

يا أهالي مدينة قمّ الصامدة! لقد شهدتم بأُمِّ أعينكم يوم الاستفتاء القهرَ، ورأيتم تلك اللعبة المفضوحة، رأيتم كيف جرى الاستفتاء بحدّ السيف والقوّة، لقد شاهدتم كيف انتشرَت القوّات المسلّحة في شوارع المدينة وأزقّتها، ودنّستها بآثامهم، لقد رأيتم وسمعتم كيف استلّوا سيّارات الإعلام، وراحوا يطلقون العبارات التافهة علينا، لقد صاحوا بأنّ حياة النهب قد انقضَت، وحياة الراحة والبطر قد انطوَت، وحياة العلماء ورجال العلم وأهل الدين انتهت.

بالله عليكم، هل إنّ طلّابًا يقضون زهرة شبابهم بحُجَرٍ وغُرَفٍ كهذه، ولا يتقاضون سوى 40 تومانًا في الشهر، هم أهل البطر وأهل راحة ونعيم؟ بينما أولئك الذين تتدفّق عليهم المبالغ الطائلة والملايين تباعًا، هم ليسوا بأهل بطر ونعيم، وأهل نهب وسرقات واختلاس؟

هل آية الله الحائريّ كان منعّمًا، حيث انتقل إلى الدار الآخرة وفي ليلته تلك ينام أطفاله جياعًا؟ أم هل السيّد البروجرديّ كان منعّمًا ومتبطّرًا، حيث ترك الحياة الدنيا وعليه قروض قدرها ستّمئة ألف تومان؛ من أجل تسديد معاش الطلبة؟ إنّ أولئك الذين نهبوا وينبهون أموال الشعب والوطن، وملؤوا بنوك أوروبّا، ويسعون

إلى النهب والاختلاس والسرقة كلّ يوم؛ ليؤمّنوا مصالح إسرائيل، هم ليسوا بأهل نعيم وبطر؟

يجب أن يحكّم التاريخ، أن تحكّم الشعوب... مَن المتبطِّر والمتنعّم؟ إنّني أنصحك أيّها الشاه، يا حضرة الشاه! إنّني أنصحك أن تبتعد عن هذه الحيل والألاعيب. إنّني لست براغب أن يأتي يومٌ يزفّ أساتذتك إليك التهاني أمام عيون شعبك ووطنك، إنّني لا أريدك أن تصبح مثل أبيك.

أيّها الشعب، إنّكم على علم كامل، أنتم أيّها الشيوخ، أنتم أهل الأربعين، بل وحتّى الثلاثين... إنّ ذاكرتكم لن تخونكم. تذكّروا ما جرى في الحرب العالميّة الثانية، أظنّكم لم تنسوا البهجة الكبرى والفرحة العظمى حينما هاجمَت ثلاث دول عظمى بلادنا -أي بريطانيا وأمريكا وروسيا- وسيطروا على البلاد، وعاثوا فيها فسادًا، وأهلكوا الحرث والنسل. لكن مع هذا كلّه، تعاظمت الفرحة عندما أُقِيل رضا خان من السلطة، وفرّ هاربًا. إنّني لا أريدك أن تصبح هكذا، تصبح كأبيك. استمع إلى هذه النصيحة، وأصغِ لِما يقوله أهل العلم والعلماء، امتثل لأوامر الإسلام.

هؤلاء يريدون صلاح الملّة، صلاح الوطن. أعرِض عن إسرائيل صفحًا، فإنّها لن تنفعك يومًا، بل ساعة. أيّها التعيس! أيّها الذليل! لقد انقضى من عمرك خمس وأربعون سنة، تأمّل قليلًا، تدبّر قليلًا، لاحِظ عواقب الأمور، اعتبِر بما مضى كلّه، اعتبِر بأبيك، لا تُصغِ إلى ما يلقّنونك إيّاه من أكاذيب ودجل، إنّك مسلم، وحالك حال الجميع، إنّك لست عدوّ الدين والعلماء، لا تتأثّر بما يشيرون به إليك. لِمَ هذا الهراء كلّه؟ من هي الرجعيّة السوداء؟ الإسلام والعلماء؟ أم أنت يا صاحب الثورة البيضاء؟ ما هي هذه الثورة؟ عرِّفنا جذورها، اكشف النقاب عن أساسها، إلى متى تطمع بالسلطة؟ وإلى متى تريد تضليل الشعب؟ لِمَ تهدّد الشعب والجماهير؟

لقد بلغني اليوم، أنّك أرسلتَ المخابرات إلى عدد من السادة الخطباء والوعّاظ والمرشدين، فحذَّروهم وهدّدوهم من التعرّض لمواضيع ثلاثة: أولًا: عدم المساس بالشاه، ثانيًا: عدم التعرّض لإسرائيل، ثالثًا: عدم الإكثار والتكرار من القول: إنّ الإسلام في خطر. وما دون ذلك، فسطِّروا ما شئتم.

إنّ جميع مشاكلنا واختلافاتنا هي مُنْصَبّة في هذه المواضيع الثلاثة. فإذا ما عدلنا عن هذه المواضيع، فلا مشكلة إذًا هناك، ولا خلاف. وهل إذا أعرضنا عن تعرية الشاه، فهل الشاه سوف يكون مبرّءًا ممّا ادّعينا؟ وهل إذا أعرضنا عن قول الإسلام في خطر، فهل الحقيقة والواقع هكذا؟ وهل إذا صمَتنا عن إسرائيل وخطرها، فهل هذا يبرّئ إسرائيل ممّا هي عليه؟ ولنتأمّل قليلًا هنا، ما هو السرّ الذي جعل المخابرات تدعو في آنٍ واحد إلى عدم التعرّض للشاه ولإسرائيل؟ هل بعقيدة المخابرات أنّ الشاه شخصٌ إسرائيليٌّ، أم تربطه علاقات متينة مع إسرائيل؟

هناك نقطة مهمّة كبيرة، وحسّاسة للغاية، وأكبر ممّا يُتَصَوَّر، هناك أسرار وراء الستار، البلاد في خطر، الإسلام في خطر! إنّنا قلقون، خائفون ممّا يبنونه ويشيّدونه من صرحٍ أو كيان مجهول لا نعرف سوى ومضان منه. إنّنا في قلق وهلع شديد تجاه ما يداهم البلاد، بلادنا الخربة، بلادنا الفاسدة، إدارةً وحكومةً، نرجو من العليّ القدير أن يصلح أمورنا وأمور المسلمين...».

وفي منتصف ليلة الرابع من حزيران، وبعيدًا عن أعين الناس، وبهدوء كامل، هاجمَت القوّات الخاصّة المتستّرة بالزيّ العاديّ منزل الإمام قدس سره، وأُلقِي القبض عليه. إنّهم على علمٍ كافٍ بما يواجهونه من الجماهير فيما لو كانوا ينفّذون مهمّتهم علنًا. ونقلًا عن الإمام قدس سره، إنّهم كانوا مرتدين زيًّا أسود، وعندما تمكّنوا من الإمام قدس سره، دفعوا السيّارة التي تقلّه بأيديهم إلى نهاية الزقاق؛ لئلّا يسمع الجيران صوتًا! وانطلقوا بالإمام قدس سره إلى طهران مباشرة. وكان قد أحجم عن الكلام نهائيًّا، ولم يتكلّم مع هؤلاء الأوغاد شيئًا. وحينما اقتربوا من طهران، وبانت نيران مصافي النفط[1]، أخذ يقول: «**لقد أصبحنا فديةً وقربانًا لهذا النفط. من أجل هذا نهبوا جميع ثرواتنا وينهبون**». كان القلق يبدو جليًّا على وجوه أولئك الخاطفين الأوغاد، خوفًا من ملاحقة الجماهير لهم فيما إذا علموا بالأمر، وعلى هذا، لم يستجيبوا لطلب الإمام قدس سره حينما كرّر عليهم

(1) تقع هذا المصافي على طريق قمّ - طهران.

الرجاء لبضع دقائق أن ينزل ويؤدّي صلاة الصبح جانب الطريق، ممّا اضطرّه إلى التيمّم والصلاة بالسيّارة، وهي تخطف الطريق كالبرق نحو زنزانات النظام.

بعد دخولهم العاصمة مباشرةً، حلّوا بنادي الضبّاط، وأودعوا الإمام قدس سره في زنزانة منفردة. وعند الغروب، نُقِلَ إلى «معسكر القصر»، ولبث بهذا السجن 19 يومًا؛ أي لغاية 25 حزيران، ومن ثمّ نُقِلَ إلى معسكر «عشرت آباد».

بعد إلقاء القبض على الإمام قدس سره بدقائق، انتبه بعض الأفـراد المجاوِرين للإمام قدس سره، وهتف مناديًا الناس في الشارع، فاجتمع الناس وتوجّهوا إلى حرم مرقد السيّدة المعصومة -فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام- وشهد الحرم حشودًا كبيرة من الشعب، معترضةً على إلقاء القبض على الإمام قدس سره. وتكاثرَت الجماعات والجماهير صباحًا، وأُطلِقَت عبارات وشعارات عديدة، كالموت للشاه، وتحيّة للإمام... ولكن سرعان ما أُخمِدَت صيحاتهم بالنيران والرصاص، ولم يرَ الناس بُدًّا من المواجهة بالحجارة وقِطَع الحديد والخشب، واستمرّت القوّات المسلّحة بفتح نيرانها حتّى عصر ذلك اليوم، حيث سقط المئات من الناس قتلى، وجُرح الكثير.

في صبيحة اليوم الخامس من حزيران، طرق الخبر أبـواب العاصمة طهران، واندلعت مسيرات الطلبة من الجامعة، رافعةً شعارات المعارَضة ضدّ الشاه، ولحقهم فئات وهيئات حسينيّة كبيرة، مناديةً: «إمّا الموت، وإمّا الإمام»، و«الموت للشاه»... إلخ. وتوسّعت المسيرة، وتعاظمت، وأحدثت ضجّة كبيرة في البلاد؛ ما أدّى إلى تدخُّل القوّات المسلّحة بالعنف والسلاح، فسقط المئات من الناس قتلى، وامتلأت الشوارع والميادين بالجرحى مضرّجين بالدماء، وأُلقِيَ القبض على عدد كبير منهم. وبمجرّد وصول خبر اعتقال الإمام قدس سره لأهالي منطقة «ورامين»[1]، انطلقَت الجماهير نحو العاصمة مرتديةً أكفانها، ولكن سرعان ما قامت القوّات المجرمة باعتراضها، وسقتهم كؤوس حتوفهم، فأبادَتهم عن بكرة أبيهم. وتسرّبَت المظاهرات والمعارضات إلى

(1) تبعد 40 كيلومترًا جنوب شرق طهران.

مدينتَي مشهد وشيراز، بيدَ أنّ القوّات الحكوميّة تمكّنَت من السيطرة عليهم. وخلال هذه الأيّام الثلاثة الملتهبة والمتأجّجة، تمكّنَت المخابرات من إلقاء القبض على جميع الخطباء والوعّاظ والمرشدين، وكثير من رجال العلم والعلماء المجاهدين في العاصمة. أمّا في تبريز، وبناءً على توصية السيّد شريعتمداري «بعدم التظاهرات والمعارضة»، وعدم المساس «بجلالة صاحب الجلالة الشاه»، لم تخرج إلّا بضع مظاهرات بسيطة وغير فاعلة، وأُلقِيَ القبضُ على بعض رجال العلم الموالين للإمام.

بهذه الفاجعة الأليمة والواقعة السقيمة، تمكّنت البلاد من استعادة أنفاسها، بقيادة شخص يدّعي الروحانيّة والزعامة الدينيّة... وبالمقابل، فمن اليقين عندنا أنّه كان من العملاء للأجانب؛ حيث بعد مضيّ فترة من الزمن، طرق أسماعنا من راديو حزب توده الشيوعيّ، بالمديح والثناء على ذلك الشخص، فوصفه مرّاتٍ ومرّات بآية الله، ولا نعلم كيف التَأَم هذا وذاك، فأين الإلحاد من الإيمان؟ إنّ حادثة الخامس من حزيران لخير دليل على ائتلاف جناحَي الرجعيّة السوداء والاشتراكيّة الحمراء، اللذَين كانا يسترزقان من بعض أصحاب الأراضي المشمولة بقوانين الإصلاحات. وعلى العموم، فهذه التصريحات لها دلالاتها وتفسيرات الواضحة والجليّة، ولا حاجة لنا للخوض فيها؛ لأنّها لا تستحقّ النظر والتدقيق.

ولنترك جهاد الإمام قدس سره ونضاله ضدّ الطغمة الحاكمة هنيهة، لتسليط الأضواء على هذه الفاجعة من خلال تحليل مواقف الشاه والحكومة والأحـزاب والكتل السياسيّة في البلاد، مشيرين إلى تحليل الصحف الداخليّة والخارجيّة إبّان تلك الفترة؛ وذلك لاستيعاب ردود الفعل تجاه هذه الانتفاضة الجماهيريّة العظيمة.

أ. موقف الشاه والسلطة

بعد يومَين من الواقعة، أي في السابع من حزيران، ظهر الشاه على مسرح الأحداث، ووجَّهَ خطابًا بهذه المناسبة: «بكلّ أسف، يجب أن أكشف لكم عن أفعال مسبِّبي حادثة الخامس من حزيران، مع أنّ الكثير من الجرحى والسجناء يبرِّئون أنفسهم، ويدّعون

بأنّهم قاموا بهذه الغوغاء مقابل استلام كلّ فرد منهم ما يعادل 25 ريالًا، على أن ينادي «فليعش فلان»[1]. لقد أدركنا جيّدًا من أين أتتنا هذه النماذج، وسوف نوضّح للشعب جميع تفاصيل الحادثة، ونعلن عن الجنايات كلّها. ولكن الآن، أتساءل فقط وأقول: ما الذي ينبغي أن نفعله تجاه إيرانيّ يثور على شعبه بأموال الأجانب؟ بأيّ وصف نصف شخصًا كهذا؟ ثانيًا: ما العلاقة بين السنّة والشيعة، حتّى يُقْدِم شيعيٌّ ويمدّ يده إلى فردٍ سنّيّ[2]؟ مَن المسؤول عن الدماء التي أُرِيقَت يوم الخامس من حزيران؟ إنّ كلّ من تسبّب في إشعال فتيل تلك الفاجعة، وتسبّب في الغوغاء والضوضاء وقتل الأبرياء من الناس، سوف يلقى جزاء أعماله، وبأسرع وقت...».

كذلك عاد مؤكّدًا في كتابه «الثورة البيضاء»[3]، على معاقبة مسبِّبي حادثة حزيران، ملوِّحًا بالتهديد والتأنيب. وممّا جاء فيه: «... هذه الغوغاء سبّبَتها عوامل الرجعيّة السوداء».

وقد تطرّق أسد الله عَلَمْ لهذه الحادثة في يوم 7 حزيران، عند لقائه الصحفيّ بصحيفة نيويورك هرالدتريبون، قائلًا: «لقد أُلقِيَ القبض على 15 شخص من كبار رجال الدين الذين شاركوا في الثورة ضدّ الحكومة، وسُلِّموا إلى المحاكم العسكريّة، التي قد ترى نفسها مكلّفة بإعدامهم». ثمّ أضاف: «خلال هذه الواقعة، قُتِل 20 شخصًا، واعتُقِل آخرون، واختفى الكبار منهم، ولكنّنا استطعنا أن نعتقل رؤساءهم».

وقال العميد باكروان، رئيس دائرة «السافاك» المخابرات، خلال لقائه الصحفيّ في عصر يوم الحادثة: «في الفترة الأخيرة، اتّخذ رجال الدين مسلكًا لم يرتح له كبار رجال البلاط ورجال السلطنة، ما دعاهم إلى التدخّل، حفظًا لمصالح البلاد العظمى... هذه العناصر المغرضة سحقَت جميع مصالح البلاد، ووقفَت إلى جانب رموز المرجعيّة، وظلَّت تستثير الشعب، وتُشيع الافتراءات، وتلصق بهم التهم والكلام الفارغ، ولم نسلم

(1) يقصد بذلك الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ.
(2) يقصد بذلك جمال عبد الناصر.
(3) يُقال بأنّ هذا الكتاب من تأليف أحد أعوانه الجامعيّين.

من هؤلاء العملاء، وقد وصل بهم الأمر إلى أنّهم اتّصلوا بالقوى الخارجيّة والأجنبيّة. ولو تمعَّنّا بأحاديثهم وخطاباتهم، لَلَمسنا هذا جيّدًا، وبدون تكلُّف...». وعندما اعترضَه أحدُ الصحفيّين بسؤاله عن أولئك الأجانب الذين موّلوهم بالأموال، مطالبًا بالكشف عن هويّتهم، أجاب قائلًا: «هذا ما سنعلن عنه مستقبلًا». ثمّ أعرب عن رأيه تجاه الانتفاضة هذه في نهاية لقائه الصحفيّ، دون أيّ حياء أو خجل، قائلًا: «المهمّ هو أنّنا لمسنا شيئًا واحدًا، وهو أنّ الشعب كان بعيدًا عن هذه الواقعة أشدّ البُعد، وبريئًا منها».

وعندما نشرت وثائق حكومة أسد الله عَلَمْ 1984م المتعلّقة بأيّام 5 و8 و9 حزيران عام 1963م، لوحِظ بأنّها كانت تعبّر عن مدى تزلزل أقدام النظام وخشيته، بما فيهم الوزراء ورئيس الوزراء، من عواقب تلك الواقعة. إنّهم وإن كانوا يعبّرون عنها بأنّها كانت مثالًا «للرجعيّة» و«الاشتراكيّة»، لكنّهم اعترفوا بأنّ «هنالك واقعة كبيرة حصلت»، وأنّ إعلان حالة الطوارئ والأحكام العرفيّة هو «آخر حلٍّ للوقوف في وجه الانتفاضة».

إنّها انتفاضة عظيمة! وكفاها فخرًا أن يصفها أولئك الأوغاد بأنّها: «حادثة لم يسبق لها مثيل، إنّها لأعظم وأخطر من واقعة 21 تموز/ 30 تير!». ولهذا، ومع وجود كافّة رموز المخابرات والقوّات المسلّحة المتأهّبة، فإنّهم لم يستطيعوا الوقوف في وجهها أو التعرّض لها.

لقد سعى أسد الله علم جادًّا، متّبِعًا السبل كافّة لإعطاء هذا التحرّك صبغةً أجنبيّة -خارجة عن نطاق الشعب- ممثّلةً بالعراق ومصر، وبمساعداتهم الماليّة، بينما نفى وزير الخارجيّة احتمال ضلوع العراق بهذه المؤامرة؛ لأنّ «حكومة العراق منعَت نشر بيانات رجال الدين [العراقيّين]. وإنّ الحكومة العراقيّة أكّدت على صداقتها وحسن جوارها معنا». على هذا، فإنّهم اعترفوا بثورة الشعب ومشاركة أقطابه وقطاعاته كافّة، وحتّى موظّفي الدوائر الحكوميّة، حتّى إنّهم اعترفوا بأنّ «النساء والفتيات شاركن في الانتفاضة، بمسيرتهنّ التي شهدتها العاصمة عصر يوم الحادث».

من هنا، كان مفروضًا على الحكومة مراعاة الشعب «بتأبين قتلاهم». ونؤكّد بأنّ هذه الأساليب غير مُرضية وغير مقنعة، ويجب احتمال الخطر مرّة أخرى. وعليه، «فيجب اتّخاذ تدابير صارمة جديدة، وإلّا فسيُسحَب البساط من تحتنا». ويجب خلق مجالات اجتماعيّة عديدة وجديدة؛ لحفظ الشعب من خطر المتديّنين، ولإبعادهم عنهم، «فالقوّة والقمع حلّ صحيح لمواجهة المشكلة، وهنا يجب إشغال الجماهير وحرف الأمّة عنهم، فالضغط يولد الانفجار. إنّني ألفتُ أنظاركم [الكلام هنا لويزر الاقتصاد] إلى أنّ المشكلة باقية، والخطر كامن» [وثيقة رقم 3].

هذا مضافًا إلى سيطرة المخابرات على الصحف والمجلّات وما تصدَّرها من أخبار وشؤون متعلّقة بالحادثة، فكانت الصورة المشوّهة والمزيّفة ملموسة في المقالات المدرجة في الصحف بشكل عامّ. فمثلًا، جاء في صحيفة «اطّلاعات» المؤرَّخة في 5 حزيران: «إنّ متظاهري الرابع من حزيران انقسموا إلى فئتَين: الأولى قوامها مئتا نفر، والأخرى تقارب المئة نفر من الوحوش الضارية، ومن الدراويش المفترسة الذين خرجوا إلى الشوارع دون هدف، سوى إلقاء الرعب والأذى؛ إذ كانوا يطيحون بأيّ شخص يلاقونه في طريقهم. فمثلًا، عارضوا سيّارة نقل آنسات وسيّدات محترمات؛ ما أدّى إلى تدخُّل القوّات المسلّحة، وسقط العديد من القتلى نتيجة الاصطدام الذي حصل».

ب. رؤية الأحزاب والحركات السياسيّة الداخليّة للواقعة

فالجبهة الوطنيّة الثانية كانت الكتلة السياسيّة البارزة طوال فترة «الانفتاح السياسيّ» المُدبَّر أمريكيًّا. وكانت متّصفة بضبط النفس، والالتزام بالاحترام المتبادل، حتّى أصبحَت موضع اعتماد وثقة لدى كلّ من الشاه والأمريكان، طامعين بمستقبل زاهر تعلو فيه حكومة وطنيّة. ولهذا، وعلى حدّ تعبير أحد أعضاء الجبهة، كان زعيم الجبهة على اتّصال دائم بالشاه والأمريكان. وجاء في وثائق وكر الجاسوسيّة الأمريكيّة في طهران، أنّ أحد رموز السفارة التقى بالدكتور مهدويّ -أحد زعماء الجبهة الوطنيّة- عصر الخامس من

حزيران، ودار الحديث بينهما حول الواقعة، وكتب قائلًا: «لقد أكّد مهدويّ بأنّ الجبهة الوطنيّة ليس لها أيّ يدٍ وأيّة مشاركة ودعم لِما وقع يوم الرابع من حزيران».

وقال أيضًا: «لقد استدعَت المخابرات الدكتور مهدويّ، مستفسرةً عن موقف الجبهة تجاه الانتفاضة، وهل ستشارك وتدعم الانتفاضة فيما بعد؟ فأجاب الدكتور مهدويّ بالنفي. وفي عصر ذلك اليوم قام الطلبة الجامعيّون من أتباع جناح الجبهة الوطنيّة المنشقّ، برفع لافتات وشعارات ضدّ الشاه والحكومة، كالموت للمستبدّ وغيرها، وتسبّبوا أيضًا بإشعال النار في سيّارة نقل حكوميّة. وحين وصل النبأ إلى الجبهة، اتّصل الدكتور مهدويّ برجال المخابرات، طالبًا التدخّل السريع لإخماد فتيل الحركة هذه، والقضاء عليها».

كذلك أكّد العميد «باكروان» خلال لقائه الصحفيّ عصر الخامس من حزيران، وحينما ردّ على سؤال أحد المراسلين، أكّد بأنّ الجبهة الوطنيّة لم تشارك مطلقًا في المظاهرات جميعها، منذ اليوم الأوّل المصادف 3 حزيران، وحتّى الآن.

أمّا الدكتور مصدّق، الذي أُبعِد إلى قرية «أحمد آباد»، والذي كانت له اتّصالات مستمرّة مع أعضاء الجبهة، فآثر السكوت والصمت تجاه هذه الواقعة.

أمّا حزب توده الشيوعيّ، فأخرج رأسه من مكمنه، متضامنًا مع الشاه، مناديًا بتنفيذ الإصلاح الزراعيّ والثورة البيضاء المزعومة، ووصف انتفاضة الخامس من حزيران بأنّها نتائج «الرجعيّة السوداء ضدّ الحركة الإصلاحيّة وحرّيّة المرأة».

لقد أدرجَت صحيفة «حزب توده» مقالًا في عددها (تمّوز 1963م)، جاء فيه: «ليس ثمّة أدنى شكّ بأنّ ما قام به المغفّلون من الناس البسطاء، بأعمالهم المتوحّشة تلك، كان نتيجة استغلال جماعات رجعيّة لمراسم العزاء والبكاء الدينيّة، وقد استطاعوا أن يثيروا مشاعر العامّة والبسطاء وأحاسيسهم؛ للقضاء على الإصلاحات الإنسانيّة والتحضّر والحرّيّة».

وأضافت من جهة أخرى، قائلة: «إنّ أوّل من خالف الإصلاح الزراعيّ وعارض حرّيّة

المرأة ومشاركتها بالانتخابات هم الإقطاعيّون وأصحاب الأراضي، الذين كانوا يتلقّون دعمًا ومساندة من رجال الحوزة والدين. والآن، صمّم الرجعيّون على الخروج من مرحلة النظريّة، إلى التطبيق والعمل».

بينما نشر حزب العمّال والكادحين الوطنيّ بيانًا في 6 تمّوز 1963م، أعلن فيه عن حياده، ومسايرة الاتّجاهين، وأظهر ولاءه ودعمه لقيادة الإمام الخمينيّ قدس سره وزعامته الدينيّة لشيعة العالَم، وحذّر السلطة من القيام بمحاولة محاكمته. لكن في الوقت نفسه، طالب بلمّ شتات الآراء المتضاربة والمختلفة، وجعلها تصبّ في مجرى واحد، هو «الالتزام الكامل بالدستور، وما يصوِّت عليه البرلمان حصرًا». ومن البديهيّ أنّ هذا الأمر كان مخالِفًا لرأي الإمام قدس سره، كما أشرنا في الفصول الماضية.

ج. أقوال الصحف الأجنبيّة

من الغريب والمثير للدهشة أنّ الصحف الشرقيّة والغربيّة كافّة، شنّت هجمة شعواء ضدّ هذه الحركة الجماهيريّة، ونتكفي بذكر مقتطفات من أقوالها: صوّرَت صحف الولايات المتّحدة الأمريكيّة انتفاضة الخامس من حزيران أبشع صورة، وبالغَت بإطلاق مختلف العبارات الهزيلة والسخيفة تجاهها.

جاء في مجلّة «التايم»، في مقالتها الافتتاحيّة، والصادرة بتاريخ 14 حزيران 1963م، الآتي:

«باتت طهران ثلاثة أيّام بلياليها في ساحة معركة دامية، والناس يستغيثون، وصوت الرصاص يُسمَع في كلّ مكان، وارتفع دخان النفايات المحترقة، ليختلط مع الغازات المسيّلة للدموع. يا لخيبة الأمل! انظروا ما يفعله الدهر تجاه التقدّم والتحضّر».

ووصفَت الشاه بقولها: «إنّه المصلح المفكّر الخارق للعادة»، وأشادت بمواقفه البطوليّة ضدّ الإقطاعيّين، لقلبِ وجهِ الوطن إلى وجهٍ حضاريّ متقدّم، وأضافت: «إنّ أعداءه يتشكّلون من «بعض رجال البلاد الفاسدين» و«أصحاب الأراضي الشاسعة»، ورجال الدين الذين يحرمون المرأة حرّيّتها ومشاركتها بالانتخابات، ويقفون ضدّ

الرواتب الشهريّة للكادحين والفلّاحين الذين يحرثون الموقوفات والأراضي الخاصّة».

وجاء في «يونايتد برس إنترناشيونال»: «إنّ آلاف المسلمين المتعصِّبين هاجموا قلب العاصمة طهران». وفي تقرير آخر، وصفَت مسبّبي هذه الحوادث بأنّهم معارِضون لإصلاحات الشاه؛ «لأنّها تعارض مصالحهم الشخصيّة والماليّة، التي تتعلّق بالأراضي التي وهبها الشاه للفلّاحين».

وإنّ ما يلفت النظر هنا، أنّ إذاعة الاتّحاد السوفياتيّ [سابقًا] وصحفه، التي هي لسان حال الحزب الحاكم هناك، راحَت تردّد عبارات الصحف الأمريكيّة والأوروبّيّة ذاتها حول فاجعة الخامس من حزيران. لقد عبّرَت إذاعة موسكو الناطقة بالفارسيّة، ليلة السادس من حزيران، عن رأيها تجاه الواقعة، قائلة: «لقد تظاهر اليوم الشعبُ في كلٍّ من طهران ومشهد وقمّ، بإيعاز من العناصر الرجعيّة المتخلِّفة المعارِضة للتحضّر والتمدّن، وبالأخصّ تجاه إصلاحات الشاه ورفع رواتب الموظّفين وفسح مجال الحرّيّة للمرأة... وإنّ زعماء هذه الحركة الهدّامة هم رجال الدين... لقد تسبَّبَ الرجعيّون في حرق سوق طهران التجاريّ، وداهموا مراكز المبيعات والمراكز التجاريّة، وسطوا على معظمها، وعطّلوا حركة السير، وحرقوا الباصات والسيّارات، وداهموا بعض الوزارات».

أمّا مجلّة «أيزفستيا» الناطقة بلسان الحكومة في الاتّحاد السوفياتيّ [سابقًا]، فتطرّقت إلى الحادثة في عددها الصادر في 7 حزيران، وقالت: «نتيجة استغلال الشعب من قِبل رجال الدين المسلمين في إيران، حدثَت مظاهرات وحوادث عدّة في طهران وقمّ ومشهد. لقد استغلّ الغوغائيّون أيّام العزاء والمراسم الدينيّة، وداهم عددٌ من الشباب المغفّل المراكزَ التجاريّة، وأضرموا النيران في السيارّات».

وأعربت مجلّة «العصر الجديد» الروسيّة عن رأيها، في عددها الصادر في اليوم نفسه، قائلة: «إنّ الخمينيّ وأتباعه حرّضوا المؤمنين على السلطة، واتّخذوا من إعطاء حقوق المرأة ذريعةً لتعصّبهم الأعمى، والخروج إلى الشوارع، وأحدثوا ضجّة كبرى».

ونكتفي بهذا القدر من مطالعة آراء الصحف والإذاعات الأجنبيّة وأقوالهم حول فاجعة 5 حزيران 1963م.

الفصل الحادي عشر

الإمام الخمينيّ قدس سره منذ اعتقاله وحتّى إطلاق سراحه حزيران 1963م - آذار 1964م

ذكرنا آنفًا أنّ الإمام قدس سره بعد اعتقاله مباشرةً نُقِل إلى العاصمة طهران، وأُوقِف في «معسكر القصر» لبضع ساعات، ونُقِل بعدها إلى معسكر «عشرت آباد». واستثمر الإمام قدس سره أيّامَ سجنه هذه بمطالعة الكتب المختلفة، كالتي تدور حول «استقلال الهند» و«استقلال أندونيسيا» و«الثورة الدستوريّة».

في 2 آب، نُقِل من السجن إلى منزلٍ أُعِدَّ له في منطقة «داووديّة» في طهران. وقبل يومٍ من انتقاله هذا، كان قد أُودِع في زنزانة انفراديّة، لا يزيد عمقها على الأربعة أقدام. لقد ازدادَت وتصاعدَت البرقيّات المعارِضة والمندِّدة للشاه والحكومة، مطالِبةً بالإفراج عن الإمام قدس سره، مِن قِبَل العلماء والمراجع من أرجاء إيران كافّة. وعندما علم الناس بموضع إقامة الإمام قدس سره الجديد، أخذَت الجماهير تشقّ الطرق نحوه زرافاتٍ ووحدانًا؛ من أجل التشرّف بلقياه والاطمئنان على سلامته، مع أنّ المنزل كان بعيدًا شيئًا ما، ومراقَبًا من قِبَل رجال المخابرات والشرطة، بيدَ أنّهم لم يكونوا على أهبّة الاستعداد للتصدّي لتلك الجموع الكثيرة.

إنّ الإمام قدس سره منذ لحظة اعتقاله، وحتّى ساعة حلوله في المنزل، لم يكن يعلم بما جرى من حوادث ووقائع يوم الخامس من حزيران في طهران ومشهد وقمّ، لكن عندما أُتيحَت له الفرصة، واستطاع بعض المقرَّبين منه قدس سره مقابلته، عندها علم بما قام به

الشعب تجاهه وتجاه الوطن والدين، وإذا به يتمتم مع نفسه قائلًا:

«**إنّ مسؤوليّتي كبرَت وتعاظمَت... إنّني لم أقدّم شيئًا للأمّة مطلقًا...**».

لقد وقفَت الجماهير أمام المنزل تنتظر بفارغ الصبر لحظة إطلالة نور وجه الإمام قدس سره من الشبّاك المطلّ على الخارج؛ وتقديرًا لهذه المشاعر، بالفعل واجه الإمام قدس سره الجماهير، التي ما إن أشرق نور وجهه عليها، حتّى انهالت دموعُها، وجرَت عبراتُها من شدّة الفرح الذي غمرها. ولم يتمالك الإمام قدس سره نفسَه، فصاح معتذرًا:

«**كيف أستطيع أن أُقابل هذه المشاعر والأحاسيس من الأمّة؟**».

وانحدرَت دموعه على وجناته بغزارة. إنّ هذه أوّل مرّة، وآخر مرّة، يُرى فيها الإمام قدس سره باكيًا، باستثناء مجالس العزاء على الإمام الحسين عليه السلام.

لقد انفعل الإمام قدس سره بشدّة عندما سمع بفاجعة الخامس من حزيران، وكانت محور حديثه الدائم قبل الثورة الإسلاميّة وبعدها، والتي لطالما كان يصفها بالفخر بالشعب والتبجيل له، وبالذلّ والهوان للسلطة والشاه.

إنّ عمليّة نقل الإمام قدس سره من السجن إلى منزل سكنيّ في أحد أحياء طهران كانت عمليّة سياسيّة ماكرة لهم، فيها مآربُ خاصّة وأهداف بعيدة. فبعد انتقال الإمام قدس سره إلى هذا المنزل بيوم واحد -أي في 3 آب- أعلنَت المخابرات عن هذا بصيغة ماكرة، بحيث يفسّرها الشعب والناس بأنّها نوع من التفاوض بين الإمام قدس سره و«قوى الأمن». وصيغة الإعلان هي كالآتي:

«استنادًا إلى تقرير دائرة المخابرات والأمن، بلغَنا الآتي: اتّفق رجال الأمن والسادة العلماء: الخمينيّ، والقمّيّ، والمحلاّتيّ، على عدم تدخُّل العلماء بالأمور السياسيّة، وأُخِذَت المواثيق منهم على عدم تعرّضهم لمصالح البلاد وأمنها... وبناءً على هذا، تمّ نقلهم إلى منازل خاصّة تؤويهم».

في هذه الفترة، لم ينسَ الإمام قدس سره المحرومين والذين يُدفَع لهم مساعدات ماليّة

من الخمس، فأرسل رسالةً لنجله الشهيد آية الله السيّد مصطفى، يأمره بإعطاء المساعدات، ولا ينسى المحرومين الذين كانوا يتقاضون المبالغ شهريًّا.

بيدَ أنّ هذه المؤامرة فشلَت وبدّدتها الرياح، عندما أصدر مراجع الحوزة والعلماء بيانًا يُكذِّب هذه التلفيقات والمؤامرات.

واستمرّ النظام يبعث برجال وأفراده إلى الإمام قدس سره طيلة فترة اعتقاله، للتفاوض والتفاهم معه. فسلكوا أسلوب الترغيب والترهيب لإرغامه على التنازل عن بعض مطالبه أمام السلطة والشاه، أو على الأقلّ العمل على إقناعه ليلتقي مع الشاه شخصيًّا، إلّا أنّ السيّد الإمام قدس سره لم يكترث بهم ولا بمغرياتهم، ولم يأبه لمكرهم أو لتهديدهم ووعيدهم.

لقد تصوّر الشاه أنّه بارتكابه جريمة الخامس من حزيران، وإلقائه القبض على الإمام قدس سره، وإذلاله لبعض علماء الدين، وإشاعة نبأ التفاوض بين الإمام قدس سره ورجال السلطة، بأنّ المسألة قد أشرفَت على النهاية، وأنّ الهدوء والاستقرار سيعمّ البلاد. فعمد إلى عزل «أسد الله عَلَم» من منصب رئاسة الوزراء، متذرّعًا بأنّه هو المسبِّب لما جرى من حوادث مؤسفة، وعمد إلى تضليل الرأي العامّ من خلال إعلانه بأنّ أحد المواضيع كان ضمن الاتّفاق والتفاوض مع الإمام قدس سره، وعيَّن «حسن عليّ منصور» بدلًا من «عَلَم»، وسرعان ما ظهر «حسن عليّ» على ساحة المسرح، ليُلقي خطابًا سياسيًّا يعتمد فيه أسلوب المراوغة، ليؤكّد من خلاله على ضرورة احترام الدين والمقدّسات، وأثنى على الإسلام، ووصفه بأنّه «من أكمل الأديان السماويّة وأروعها»، وتطرّق أيضًا إلى مواقف الشاه واحترامه الشديد للدين والمذهب والمقدّسات.

وبعد يومَين من خطاب «حسن عليّ منصور» -أي في ليلة 7 نيسان- أُدخِل الإمام قدس سره مدينة قمّ دون إعلامٍ مسبق، وأُطلِق سراحه. ومنذ الدقائق الأولى، وحتّى صباح اليوم التالي، تصاعدَت زيارات الجماهير له وكثرت، وانتشر النبأ في أنحاء البلاد

كافّة، وتوالت الحشود الجماهيريّة على منزله قدس سره من جميع أرجاء البلاد، لزيارته وللتزوّد من روحه النضاليّة المجاهدة.

وفي اليوم نفسه، أصدرَت صحيفة «اطّلاعات» مقالًا تحت عنوان «الثورة البيضاء وأمريكا»، وجاء فيه: «إنّه لمن المفرح حقًّا، ومن دواعي سروري، أن نرى المرجعيّة الدينيّة اليوم والشعب، تقف إلى جانب الحكومة؛ لبدء حركة الإصلاح وإقامة الثورة البيضاء التي دعا إليها الشاه!». هكذا أرادوا الانتقاص من المرجعيّة وشخص الإمام قدس سره؛ بغية تحقيره وتصغيره في أعين الشعب والجماهير المسلمة.

وبعد مطالعة الأمر ودراسته وتبلوره لدى الإمام قدس سره، ألقى قدس سره خطابًا مهمًّا في يوم 10 نيسان، أثناء اجتماعه بالطلبة الجامعيّين الذين قدِموا من العاصمة لزيارته ومقابلته، حيث كان هذا أوّل خطاب يُلقيه الإمام قدس سره بعد خروجه من السجن.

تطرّق الإمام قدس سره في بداية خطابه هذا إلى إرشاد الطلبة، وتقديم النصائح لهم، وبيَّن لهم أنّ المسألة ليست مسألة إفراج عن شخص أو أشخاص من السجن، بل إنّ الهدف أكبر وأعظم، إذ قال:

«لو لم تكن مرارة السجون وعذابها، لَما كانت هناك لذّةٌ للنصر. حقًّا، كان الهدف أكبر من السجن وإطلاق السراح... هدفنا هو الإسلام، استقلال البلاد، نفي عملاء إسرائيل ومسخهم، الاتّحاد مع البلاد الإسلاميّة كافّة».

ونبَّه إلى خطر إسرائيل وعملائها في البلاد، قائلًا:

«إنّ اقتصاد البلاد الآن بيد إسرائيل. وعملاء إسرائيل[1] تسلّطوا اليوم على معظم المراكز الاقتصاديّة، اقتصاد البلاد الآن بقبضتهم واختيارهم... إنّ بلدنا لا يمكن أن تديره إسرائيل».

(1) يقصد البهائيّين.

ثمّ عاد مشيرًا إلى هدف الإفراج عنه، بأنّه كان «**عارًا**» و«**هزيمةً**» للنظام، قد أُفرِج عنه نتيجةً لضغوطٍ سياسيّة داخليّة وخارجيّة، وأشار أيضًا إلى الإشاعات التي صدرَت من قِبَل الحكومة حول مفاوضاته واتّفاقه معها، قائلًا:

«لقد نشرَت صحيفةُ «اطّلاعات»[1] المنحطّةُ مقالاً تحت عنوان «الاتّحاد المقدّس»، يتّهم المرجعيّة بأنّها توصّلَت إلى وفاق واتّفاق مع ثورة الشاه والشعب. فأيّ ثورة هذه؟! وأيّ شعب هذا؟! إنّ هذه الثورة ليست لها أيّة علاقة مع المرجعيّة والشعب. أيّها الطلبة الأعزّاء، بلِّغوا كلَّ مَن لم يصل له صدانا بأنّ المرجعيّة معارِضةٌ ومخالِفةٌ لهذه الثورة.

نحن نمرُّ بفترة اختناق، وليست لدينا أيّ أداة إعلاميّة... ولهذا يُضلَّل بعض الناس المنقطعين عنّا بهذه المؤامرات، ويُخدَعون بالأكاذيب والادّعاءات. أين المرجعيّة من هذه المفاسد؟ هنالك بون شاسع...».

ومن ثمّ تطرّق إلى موقفه السياسيّ، وقال:

«إنّ الخمينيّ سوف لن يجلس على مائدة التفاوض، حتّى وإن عُرِّض لحبل المشنقة... إنّني لستُ من أولئك المعمَّمين ورجال الدين الذين لا يعرفون من الإسلام سوى الجلوس والتسبيح والتهليل. إنّني لست كالبابا؛ كي أخرج في الأسبوع يومًا لأداء الطقوس الدينيّة، وأركن باقي الأيّام إلى أموري الخاصّة وزعامتي العامّة.

يجب علينا أن نُخلِّص هذه الدولة والأمّة من هذه المصائب... نحن لسنا أعداء لأيّ شخص، ولسنا مخالِفين لأيّ فرد. إنّما عداؤنا ومخالفتنا هي لنوع العمل والطريق والمسلك».

ثمّ تطرّق بخطابه هذا إلى ما يُطلقه النظام من إشاعات حول الإصلاحات، وكذلك يشير إلى الوضع الاقتصاديّ والاجتماعيّ للشعب، فيقول:

(1) هذه الصحيفة نفسها نشرت مقالاً مُهينًا لشخص الإمام قدس سره؛ ما أدّى إلى اندلاع الثورة العارمة في مدينة قمّ، ومن ثمّ تبريز، وجميع مناطق البلاد. وقد سقط جرّاء هذا عددٌ كبير من الشهداء عام 1977م.

«... لا يمكن القيام بالإصلاحات بالحراب [بالسلاح]. ولا يمكن أن يصلح البلد بكتابة «الخمينيّ خائن» على جدران طهران! فهل لاحظتم أنّكم أخطأتم؟... لقد لفَتَ نظري مقالٌ في صحيفة «اطّلاعات» حول أوضاع المناطق الجنوبيّة الفقيرة، واستغربتُ كيف أقدمَت هذه الصحيفة على نشره. لقد كتب مراسلُ الصحيفة الذي زار منطقة الجنوب، قائلًا: «إنّ القرى والأرياف في جنوب البلاد تفتقر إلى الأطبّاء، والعلاج، والماء الذي كان ينعدم وجوده. وقد رأيتُ إحدى القرى، وكان أكثر أهاليها فاقدي البصر. وخلاصة القول: إنّهم محرومون من أبسط الحقوق!». وفي ذلك الوقت، كانت تُعقَد مؤتمرات وندوات يُدعَى إليها ممثّلون من دولٍ عظمى وصغرى، وعندما كان الأعضاء المشاركون، سواء من الدول الصغيرة أو الدول الكبيرة، يتحدّثون بالمشكلات الاقتصاديّة لبلدانهم، كان الوفد الإيرانيّ يصف الوضع الاقتصاديّ في إيران بأنّه جيّد للغاية، ولا يعاني أزمةً ما!».

وفي مجال آخر، يتعرّض لحياة الضعفاء والفقراء قائلًا:

«... عندما كنت في السجن، بلغني أنّ درجة الحرارة في همدان هبطت إلى 33 درجة تحت الصفر، وعقّبَه نبأ ثانٍ يقول: بأنّ متضرّري الكتلة الهوائيّة الباردة هذه بلغ 2000 مواطن(1). وحينها لم أستطع أن أفعل شيئًا، وما الذي كان بوسعي أن أعمله ويداي مربوطتان؟ وتأمّلوا هنيهة، فهذا وضع همدان! فكيف حال القرى والمناطق البعيدة والمنقطعة عنّا؟ فما الذي قدّمته الحكومة؟ في ظروف كهذه، وحيال مثل هذه المصائب، بينما يقوم رجال البلاط بطلب أنواع الزهور من هولّندا، وتنقلها بالطائرات الخاصّة للبلاد لتقدّم لأسيادهم في المراسم والاحتفالات، وهكذا تُبذَّر أموال الشعب المحروم، حيث إنّ كلفة رحلة واحدة من هولّندا إلى إيران تعادل 300 ألف تومان!

---

(1) أجهش الحاضرون بالبكاء عند سماعهم هذا الكلام.

صحِّحوا أعمالكم هذه. فإذا كان ما تدّعون حقًّا، فهيّا، أفسِحوا المجال للشباب العاطل عن العمل. شبابنا بعد عشرين سنة من الدراسة يريدون عملًا، طلّابنا الجامعيّون يتخرّجون من جامعاتهم إلى ساحة البطالة. المواطن الذي لم تُؤمِّن حياته ولم تُوفَّر له لقمة العيش، يفقد دِينه بسرعة.

هل تعتقدون بأنّ السارق يُعرِّض نفسه للخطر ليتسلّق جدران منازل الناس؟ أو تلك المرأة التي تبيع كرامتها وشرفها، هم مقصِّرون ومذنبون؟ لا... فالسبب الرئيس هو فساد الوضع الماليّ والاقتصاديّ، وهو وحده الذي يسبِّب مثل هذه الجنايات والجرائم التي تعرضها الصحف كلّ يوم».

والنقطة التي تلفت النظر هنا، هي أنّ الكثير من العلماء المسلمين القدامى والمعاصرين يرون أنّ البدع والأفكار المنحرفة هي طريق الانحراف فقط، وهي الخطر الأكبر للدين الإلهيّ والعقيدة الإسلاميّة، بينما نرى الإمام قدس سره يرى غير ذلك، ويؤكّد عليه مرارًا وتكرارًا؛ ألا وهو مسألة «الفقر المادّيّ والاقتصاديّ». يرى أنّ ذلك هو السبب الأكبر لفساد المجتمع، والدافع الأوّل لمسخ الدين والأخلاق. وبعبارة أخرى، فإنّ الإمام قدس سره لا يتطرّق إلى معالجة المشاكل بشكلها الظاهريّ، إنّما يطرح فكرًا أساسيًّا لحلّ المشكلة من أساسها، واقتلاع الفساد من جذوره.

والنقطة الأخرى الجديرة بالذكر، هي وصاياه وإرشاداته للطلبة الجامعيّين بالالتزام الدينيّ والخُلقيّ، والتمسّك بتعاليم الدين الحنيف؛ لأنّها المنهج الوحيد والنظام الأكفأ لإيصال حياتنا الاجتماعيّة والفرديّة إلى التكامل والسعادة. وشجّع الطلبة على الاتّحاد والتعاون والتماسك فيما بينهم؛ لأنّهم مظهر الدين والإسلام في الجامعة، وقال:

«**بالله، إنّ هذا ليس بإسلام، الإسلام كلّه سياسة. لقد حرّفوا مفهوم الإسلام الحقيقيّ. السياسة المدنيّة أساسُها من الإسلام... إنّ الإسلام يهتمّ بالإنسان منذ ولادته وحتّى يوم دفنه، وسَنَّ لكلّ مرحلة ولكلّ يوم من حياته دستورًا، وسَطّر له تعاليم عظيمة».**

وفي ختام خطابه، عرّج على واقعة الخامس من حزيران، قائلًا:

«... ملحمة يوم الخامس من حزيران كانت أبشع وأقسى ممّا يفعله العسكر والجيش بأمّةٍ معادية لنا. إنّ أولئك لم نسمع يومًا ما عنهم بأنّهم تعرّضوا لقتل طفل أو لقتل... إنّ أمّتنا ما دامت على قيد الحياة، فهي معزّاة بهذه الفاجعة. لقد سمعتُ أحدَهم يقول: إنّ حدث الخامس من حزيران وصمة عار للأمّة والشعب الإيرانيّ. لكنّني أرى هذا الكلام ناقصًا، فأُكمله وأقول: نعم، إنّه وصمة عار للشعب؛ لأنّ الرصاص الذي رشقهم كان من أموال الشعب، وبسلاحه هو بالذات تعرَّض للقتل والدمار».

وقد أعلن في خطابه هذا عن موقفه الصارم والشجاع، وفنّد جميع الادّعاءات والأكاذيب التي ألصقوها به، وصمّم على المضيّ في الطريق إلى أن يصل إلى الهدف المنشود، مهما بلغ الثمن، متمسّكًا بمبدأ الإسلام، ومقتديًا بسيرة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم والأئمّة الميامين عليهم السلام.

وبعد أيّام من هذا الخطاب، وبالتحديد في 15 نيسان، شهد المسجد الجامع في مدينة قمّ حشودًا كبيرة من مختلف القطاعات، بما فيهم علماء الدين وكبار أهل العلم، وذلك لاستماع خطاب الإمام الخمينيّ قدّس سرّه الذي واجَهَ فيه الدعايات والإشاعات التي تُطرَح وتُطلَق ضدّه وضدّ الإسلام. وممّا جاء في خطابه هذا:

«يتّهموننا بالتخلّف وبالرجعيّة و... الصحف الأجنبيّة تصفنا بأنّنا ضدّ الإصلاحات، إنّهم يدّعون بأنّنا لا نريد الكهرباء، لا نريد الطائرات... إنّنا نريد الرجوع للقرون الوسطى! إنّ علماء الدين يعارِضون هذه الإصلاحات؛ لأنّها تدحض التخلّف والرجعيّة...

كلّا، إنّنا نخالف الوحشيّة، نخالف القتل، نخالف الدكتاتوريّة. هل هذا رجعيّة وتخلّف؟ إنّنا نصرخ قائلين: لا، وألف لا للعمالة. إنّنا ندعو إلى التحرّر والاستقلال، نقول: لا تمدّوا أيديكم إلى بضع دولارات وتبيعون كرامتكم... نحن نريد تطبيق

القانون... إنّكم أنتم الذين عرّضتم الجماهير للقمع والقتل والنفي، أنتم الذين ملأتم زنزاناتكم وسجونك بالأبرياء... أأنتم متحضّرون؟ أأنتم غير رجعيّين وغير متخلّفين؟... نحن لسنا معارِضين للتحضّر والتمدّن، إسلامنا لا يخالف التحضّر... هذه أفكار قيّمة وذات أهمّيّة لدى علماء الإسلام...، لكنّ الرجعيّة هي الانصياع للغير، ووضع المخازن والمصانع بِيَد الأجانب، التخلّف هو العمالة للأجانب، الرجعيّة هي حكم الشعب بالقوّة والسلاح... أأنتم المتحضّرون؟ وأنتم لا تعرفون من القانون شيئًا، لا تعرفون من الدين شيئًا، إنّكم لا تريدون من الشعب سوى إذلاله ونهبه. عجبًا لكم! أهذا هو الرقيّ؟!».

ثمّ تطرّق بخطابه إلى اجتياح الاستعمار الثقافيّ للبلد، وأبدى رأيه ووجهة نظره بعزمٍ ثابتٍ وجزمٍ كاملٍ، فقال:

«إنّكم -مسؤولي البلاد- تدّعون التحضُّر والرقيّ، لكن ما إن يدخل البلد هذا الرقيّ، حتّى نرى الحرام ينقلب إلى حلال، والحلال إلى حرام! هل هذا تحضّرٌ وتمدّنٌ حينما تقوم الإذاعة ببثّ برامج مسمومة كهذه؟ هل هذا تحضّرٌ حينما أصبحَت الصحف والمجلّات تنشر تلك الصور المبتذلة؟ ألم تكن هذه أفكارًا استعماريّة لإفساد الشباب وحرفهم عن الصواب؟ لا شكّ في أنّ الأمور كلّها خططٌ استعماريّة بحتة، لا تريد وجودَ شبابٍ متميز، وأيدٍ عاملة نظيفة ومفكّرة في البلاد. الاستعمار هو الذي يرتّب برامج الإذاعة والتلفزة حسب أهدافه الخاصّة، فيعمد إلى فتح طرق شرّيرة لإرهاق أعصاب المستعمين والمشاهدين وإضعافها، ولإيهان قواهم وتشويش أذهانهم وأفكارهم.

نحن نخالف هذا التحضّر... نحن نؤكّد على سلامة الجامعات، وعدم التعرّض للشباب وإلقائهم في بؤر الشبهات والانحرافات والفساد. نحن نريد من جامعاتنا أن تصنع وتنتج عقولًا مفكّرة مخلِصة للأمّة والوطن، تُخرِّج شبابًا يُسيِّرون البلاد بإخلاص وأمانة، ويقفون في وجه أيّ خطر أجنبيّ أو نوع من أنواع الاستعمار.

وأمّا ما أُشِيع عن المرجعيّة بأنّها تخالف وتعارض حرّيّة المرأة، من قِبل وكالات الإعلام الشرقيّة والغربيّة، فهو مردودٌ عليها، ونحن نقول:

لسنا مخالِفين لتحضّر المرأة وتمدّنها؛ نحن نخالف الفحشاء والمنكر، نخالف هذه المشاريع والبرامج المبتذلة. ومن ثمّ متى كان الرجال أحرارًا وطلقاء، حتّى أصبحت النساء مقيّدات ويطالبن بالحرّيّة؟ هل الحرّيّة هي تحريك لسان فقط؟».

ثمّ تعرَّض لإسرائيل مرّة أخرى، وقال:

«إنّكم تستقبلون بعثات من الخبراء والمتخصّصين الإسرائيليّين، وترسلون بطلباتنا إلى إسرائيل... إنّنا نعارض ونخالف هذا كلّه... أيّها العالَم، إنّ أمّتَنا معارِضةٌ لأيّ اتّفاق يحصل بين حكومتنا وإسرائيل. أمّتنا، علماؤنا، مراجعنا، والمسلمون كافّة يعارضون أيَّ تقارب واتّفاق مع إسرائيل...».

لقد اقترح الإمام قدس سره على العلماء، اقتراحًا يقضي باجتماع علماء الدين والحوزة، ولو لمرّة واحدة في الأسبوع، لدراسة الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة للبلاد، وكلّ ما يستجدّ من مستجدّات وحوادث. واتّفق أيضًا على إقامة اجتماع آخر لعلماء الدين في باقي المحافظات، في أقاليمهم المتقاربة؛ نظرًا لبُعد المسافة بينها وبين العاصمة الدينيّة قمّ. بيدَ أنّ هذه الفكرة تعرّضَت للانهيار بعد فترة وجيزة؛ بسبب معارضة بعض العلماء ورجال الدين، وكذلك نتيجةً لضغوط المخابرات، وخشية بعضهم الآخر وخوفهم.

وبعد فترة من الزمن، أصدر الإمام قدس سره بيانًا شديد اللهجة، عندما عزمَت المحكمة العسكريّة إلى تنفيذ حكمها على كبار «حركة التحرير» (المرحوم آية الله الطالقانيّ، والمهندس مهديّ بازركان)، ووصفَها بمحاكمة الزور والبهتان، وقال: يجب «أن تعيد النظر في القرار»، وعارضَ إجراءَ المحاكمة بصورة «سرّيّة»، والتعرُّضَ لهم قبل «ثبوت أيّ دليل على الاتّهامات الواردة».

وهاجم إسرائيل ثانيةً، وكشف القناع عن الروابط بين إيران وإسرائيل، فقال:

«إنّي أعلن لكافّة الدول الإسلاميّة، ولمسلمي العالَم أينما كانوا، أنّ الأمّة الشيعيّة العزيزة ساخطةٌ على إسرائيل وعملائها، وتُعرِب عن سخطها واستنكارها للدول المساوِمة لإسرائيل. وليس الشعب الإيرانيّ الذي يُقدِم على مساومة إسرائيل المنبوذة، بل الحكومات التي لم تحظَ بتأييد الشعب مطلقًا، هي التي تسعى لذلك، والشعب الإيرانيّ بريءٌ من هذا الذنب العظيم!».

الفصل الثاني عشر

محمّد رضا بهلويّ وخطواته المهمّة بعد الانقلاب

قبل أن نتناول خطاب الإمام قدس سره التاريخيّ حول منح للحصانة للأمريكان، بالبحث والدراسة والتحليل، نرى من الضروريّ تقديم مقدّمة ترتكز على ثلاث نقاط مهمّة، نحصرها في فصلٍ مستقلّ ومختصر؛ وذلك لأنّها كانت تحظى باهتمامٍ وتأكيدٍ متواصل من قِبَل سماحة الإمام قدس سره طيلة سنواتٍ مديدة، تحسُّبًا لعواقبها ومخلّفاتها، وهي:

1. منجزات الثورة البيضاء.
2. تكريس الروابط مع أمريكا وتصعيد الاتّكال عليها.
3. توطيد العلاقات الإيرانيّة الإسرائيليّة.

1. منجزات الثورة البيضاء

أشرنا سابقًا إلى أنّ السلطة والشاه كثيرًا ما كانوا يتباهون ويتفاخرون بتنفيذ البند الأوّل -الإصلاح الزراعيّ- من البنود الستّة لورقة العمل الإصلاحيّة الملقّبة بالثورة البيضاء، وتطبيقه؛ وذلك لإثارة حفيظة العلماء والحوزة، التي واجهَت الكثير من الاتّهامات والدعايات المغرضة على أنّهم المساندون والمعاضدون للإقطاعيّين الذين يرون زوال أهدافهم الذاتيّة بإجراء الإصلاحات القيّمة هذه. لكنّ الإمام قدس سره أكبر من أن يُخدَع بمراوغاتٍ وحِيَلٍ كهذه؛ ولهذا، أحجم عن معارضته للبند الأوّل، منتظِرًا فرصةً زمنيّةً أخرى مناسِبة. وبعد مضيّ عامٍ على التصويت على الإصلاح الزراعيّ، قدّم الشاه ورقة عمله الإصلاحيّة ذات البنود الستّة إلى الاستفتاء العامّ، وعندها نهض

الإمام قدس سره بوجه النظام، معلنًا معارضته ومخالفته، مشيرًا إلى عواقبها ومخلّفاتها المدمِّرة. ومن المناسب أن نورد هنا بعض النماذج من مخلّفات الإصلاحات الزراعيّة وعواقبها في القرى والأرياف، وما تعرَّض له القرويّون والمزارعون قبل تنفيذها وبعده؛ ليكون القارئ الكريم على علمٍ كافٍ بادّعاءات النظام والشاه، التي لم تكن سوى طبول مليئة بالهواء، وليعي أكثر أهداف الإمام قدس سره عبر إرشاداته وتوصياته.

بعد عامٍ من استئناف الإصلاحات الزراعيّة، عُقِدَت ندوة رسميّة بين كبار اقتصاديّي البلاد (عام 1963م)، وتطرّق مدير البناء والعمران الريفيّ والقرويّ أثناء خطابه بهذا الصدد، وقال: «... القرية عبارة عن مجموعة دُورٍ طينيّة تحتوي على غرف عاديّة مسقوفة بالخشب وسعف النخل وأغصان الأشجار، تُؤوي هذه الغرف البسيطة عائلة بأكملها؛ أي الأب والأم والأبناء، بل وأحيانًا يشاركهم الصهر بذلك! وإلى جانب هؤلاء، توجد حظيرة صغيرة للأبقار والأغنام، وهي عبارة عن مسكنٍ وملاذ لها؛ وعلى هذا الترتيب، فإنّ الميكروبات والجراثيم والعفونة تختلط بحياة هذه الأُسَر.

وأثاث هذه العوائل يتشكّل من بعض المستلزمات البسيطة دون الاعتياديّ، كالبطّانيّات التي تُثقلها الأقذار والأوساخ، والتي لم تعرف طعم المساحيق أو الصابون مطلقًا، كذلك ترى في طرفٍ آخر من المسكن عددًا من الصحون والأواني الصغيرة وإبريق الشاي وبعض الفناجين والملاعق الخشبيّة. وإذا انتقلتَ إلى بعض الأُسَر الأحسن حالًا منهم، فإنّك قد تشاهد عددًا من الصحون النحاسيّة والملاعق الفلزيّة، وربّما ترى مصباحًا نفطيًّا عند بعضهم الآخر.

أمّا غذاؤهم المثاليّ أيّام الصيف والخريف، فهو الخبز واللبن والحليب، وبعض مشتقّاته أحيانًا. أمّا في أيّامهم الصعبة؛ أي الشتاء والربيع، فيقتصر غذاؤهم على الخبز اليابس أو خبز الشعير، وأحيانًا تتواجد إلى جانبه بعض الخضار، كالشغلم المسلوق أو... إلخ. ونادرًا ما يتناولون شيئًا من اللحم، وقد يقتصرون على ذلك مرّةً أو مرّتَين خلال

السنة... وإنّ معظم القرى تفتقر إلى العلاج والأطبّاء والمحلّات والحمّامات الصحيّة[1]، وإنْ طرق أسماعَنا شيءٌ من هذا القبيل، فإنّ ذلك يكون ضمن إطار الدعاية والإعلام فقط.

ومعدّل المحاصيل الزراعيّة متدنٍّ جدًّا قياسًا إلى وحدة المساحة الموزَّعة على عدد النفوس، وما يعود عليهم من المحاصيل ضئيلٌ جدًّا، حيث يتقاسمها الأقوياء وأفراد العصابات، أو تتعرّض للغارات وما شابهها. وخلاصة القول، فإنّ سكّان القرى هم أُناسٌ متخلِّفون، جياع، عراة، أذلّاء، مرضى، وسقيمون. هذا هو حال طبقة الشعب الذي يُعتبَر العموم الفقريّ للبلاد، وهذا هو وضع جماهيرنا التي تحتضن القرى القسم الأعظم منهم».

في الملتقى الخامس للخبراء والمتخصِّصين الاقتصاديّين، أعلن أحدُهم -والذي أصبح فيما بعد معاون وزارة الإصلاح الزراعيّ- الآتي: «إنّ سوء التغذية وشيوع الأمراض ناتجٌ عن شحّ الموادّ الغذائيّة، وانعدام الفيتامينات والبروتينات الحيويّة، وبالأخصّ عند الأطفال، والتي تسبّب في ارتفاع نسبة الوفيّات في القرى والأرياف». وأضاف: «إنّ نسبة الوفيّات هذه يُقَدَّر معدّلُها بحدود 45.6 بالمئة».

في عام 1968م، أدرجَت صحيفة «اطّلاعات» عريضةً من قِبَل فلّاحي محافظة مازندران، موجّهةً إلى الشاه، وممّا جاء فيها: «إنّنا الموقِّعون أدناه، نمثّل ما يقرب من مئتَين وأربعين قرية، ومئة ألف قصبة تتعلّق بمنطقة «جهار دانكه» من محافظة مازندران، نحيط صاحب الجلالة عِلمًا بأنّ هذه المنطقة بأكملها أُلقِيَت في عالَم النسيان، والناس يقضون حياتهم بأصعب الظروف وأقساها، عِلمًا بأنّ المنطقة من أغنى المناطق الزراعيّة المثمرة في إيران وأشهرها، وتضمّ مئات الآلاف من الأهالي المزارعين، وتُنتج مئات الآلاف من الأطنان ثمرًا ورزقًا، إلّا أنّها تعرّضَت للتلف، والناس

(1) معظم قرى إيران كانت قبل الثورة الإسلاميّة تفتقر إلى كافّة الخدمات، وبعض سكّان القرى لم يروا الحمّامات في حياتهم. ولكن بعد انتصار الثورة الإسلاميّة المباركة، وبأمر من الإمام ﴿قدس سره﴾، تأسّسَت مؤسّسة تُعرَف بجهاد البناء، حيث قامت بفتح الطرق وإنشاء الحمّامات وتمديد الكهرباء ومياه الشرب...

يتعرّضون لضغوط متنوّعة، ويعانون ما يعانون من سوء المعيشة، ويفتقرون إلى أبسط الحقوق الطبيعيّة؛ بسبب انقطاع الطرق وبُعد المسافة، وأحيانًا لكثرة الأمطار والسيول التي تغيّر الطرق الرمليّة، وتقطع السير، وتبدّل الاتّجاه الرئيسيّ. إنّ الموت وتصاعُد الوفيّات يهدّدنا بأجمعنا؛ لأنّنا نفتقر إلى الأطباء والعلاج المناسب، مضافًا إلى شيوع الأمراض، وعدم وجود الأجواء الصحّيّة. وكان من المفروض شقُّ طريق مُعبَّد بين مدينة «سارى» و«كياسر»[1]، بيدَ أنّ الأمر هذا مضى عليه سبعة عشر عامًا، ولم يُنجَز منه سوى عشرين كيلومترًا فقط، ووُضِعَت الجسور الجانبيّة المؤقّتة وغيرها. إنّ هذا ممّا يزيد من محنة الناس ومعاناتهم على مدى حياتهم هذه...».

ولقد قام متخصّصان فرنسيّان بدراسة المـوادّ الغذائيّة في مناطق عشائر «القشقائيّين»[2] وتحليلها، فجاء في تقرير لهما: «إنّ العشائر تلك قد ضربها قحطٌ شديد؛ نتيجةً لنفاذ الموادّ الغذائيّة. ويجب إغاثتهم بأسرع وقت، وإلّا فسيتعرّضون للهلاك. كذلك، فإنّ أرياف طهران الفقيرة شَهِدَ سكّانُها نوعًا من الأمراض والضعف والانهيار العضليّ؛ نتيجة انعدام الفيتامينات والبروتينات من موادّهم الغذائيّة. إنّ فقر الدم يجتاح البلاد بأجمعها تقريبًا، وعوارض الغدّة الدرقيّة أصابت سكّان المدن البعيدة عن البحار، وتشوُّه الأبدان والخلقة انتشر في أصفهان، وشهد سكّان ساحل الخليج الفارسيّ ضعف البصر وشحّ الفيتامين (أ)، وكذا الحال في سائر المناطق...». واستنادًا لتصريحات المتخصّصين الإيرانيّين، جاء الآتي: «طبقًا لإحصائيّات منظّمة الشؤون الغذائيّة، إذا كان استهلاك الموادّ الغذائيّة في أنحاء إيران كافّة قبل الانقلاب يعادل ربع ما تستهلكه أوروبّا بأسرها، فإنّ المحاصيل الوطنيّة اليوم لا تؤمّن ما يحتاجه 30 بالمئة من أبناء الوطن!».

ويضيف قائلًا: «قبل تطبيق الإصلاح الزراعيّ كانت القرى هي التي تمدّ المدن وتغذّيها بأجمعها، لكن بعد هيمنة السوق العالميّة على إيران، وقيام الشركات الأجنبيّة

---

(1) مدينتان تقعان شمال إيران.

(2) يقطنون في إقليم شيراز (فارس).

بتعليب الموادّ الغذائيّة، صارت المدن تسعف القرى بالغذاء(1)! والحقيقة والواقع أنّ العجز بلغ في هذه القرى مبلغه، حيث أصبحت عاجزةً عن تغطية ما يحتاجه سكّانها البسطاء من الموادّ الغذائيّة الأوّليّة. ومن هنا، قامت الشركات التعاونيّة الحكوميّة بإرسال الموادّ الغذائيّة المستوردة من الخارج إليهم. وبهذا ارتفع معدّل الاستهلاك المحلّيّ؛ فلقد كانت المستوردات تسدّ حاجات المدن، وإذا بها تتعدّاها إلى القرى والأرياف، وإنْ كان استهلاك القرويّين لا يعادل شيئًا من استهلاك المدنيّين».

2. تكريس الروابط الإيرانيّة الأمريكيّة وزيادة الاتّكال على أمريكا

تطرّقنا سابقًا إلى الروابط بين إيران وأمريكا بعد نجاح انقلاب 1954م، وقلنا بأنّ أمريكا استطاعت أن تهيمن على البلاد سياسيًّا وعسكريًّا وأمنيًّا، بعد أن نقلَت أعدادًا هائلة من خبرائها ومختصّيها إلى إيران، حيث شغّلتهم في مراكز ومواقع حسّاسة للغاية في المجالات السياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة، وبهذا أصبحَت عجلة البلاد تسير تحت إمرة أمريكا بشكلٍ لا شعوريّ. وبعد مضيّ عشر سنين على الانقلاب، بلغَت ميزانيّة الجيش أربعة أضعاف ما سبق، وارتفعَت المصاريف والتكاليف العسكريّة سنويًّا 26 بالمئة، وانهالت المعدّات والأسلحة على البلاد بشكل مذهل، وارتفع عدد الخبراء والمتخصّصين الأمريكيّين بالتدريج ارتفاعًا كبيرًا. وكثيرًا ما كانوا يدّعون بأنّ السلاح هذا لتقوية البُنية العسكريّة للبلاد؛ خشيةً من الروس وتهديداتهم وخطرهم على البلاد. أمّا الجميع، فقد كان على علمٍ بأنّ هذه الأسلحة أُعِدَّت لفرض السيطرة وقمع الحركات والثورات الداخليّة.

يذكر مؤلِّفو كتاب «إيران ضدّ الشاه» في إحدى زواياه: «لقد بلغَت البُنية العسكريّة في إيران حدًّا، حيث دعَت قائد أركان الجيش الإيرانيّ في عام 1962م لأنْ يدعو الجنرال الأمريكيّ هوبرت همفري بمتابعة الدعم العسكريّ، قائلًا: «ادّخرنا من السلاح قدرًا،

(1) معدّل الهجرة من الريف إلى المدينة، واشتغال الفلاّحين بالأعمال الكاذبة (بيع الدخان في الطرقات، غسيل السيّارات...)، وانتشارهم في العاصمة طهران وغير ذلك من الأمور.

بحيث يمكننا الآن قمع أيّ تحرُّك أو ثورة داخليّة، والآن نستمدّكم أكثر؛ كي نبلغ مرحلة تشجيعنا على الوقوف أمام الروس».

لقد كان اضطراب الشاه وهلعه من احتمال مداهمة الروس لبلاده أمرًا مصطنعًا ومفتعلًا، بل صوريًّا ماكرًا؛ لتضليل الرأي العامّ تجاه ما ينهال على البلاد من سلاح ومعدّات.

وبعد ستّ سنوات من انقلاب 1953م، انتبه المفسّر والمحلّل السياسيّ الأمريكيّ المعروف «والتر ليبمان» لهذه اللعبة، وراح يحلّلها مستندًا إلى مصادر ودلائل، قائلًا: «إنّ مساعداتنا العسكريّة لإيران هي ليست لمواجهة الخطر الروسيّ كما يتوهّم بعضهم، إنّما هي لبناء القوّة العسكريّة للوقوف أمام الحركات الداخليّة الخطرة. هذه المساعدات بعيدة عن المخطّطات الاستراتيجيّة والتكتيكيّة الفنّيّة، فهي لغرضٍ سياسيّ داخليّ، لا غير. إنّ ما يدّعونه من خطرٍ روسيّ هو ادّعاءٌ باطل وفارغ. إنّما هم يقصدون من وراء هذا الضغط على أعضاء الكونغرس، كسبَ تأييدهم ودعمهم لمساعدات أمريكا للشاه. إنّ الهدف الحقيقيّ من وراء هذه المساعدات الأمريكيّة ليس هدفًا استراتيجيًّا متعلِّقًا بحربٍ عالَميّة، بل هو هدفٌ لتثبيت حكومة الشاه وتقويتها؛ لتبقى إيران إلى الأبد من رفاقنا المخلصين الأوفياء».

في عام 1975م، وجَّه رئيس لجنة التحقيقات في مجلس الشيوخ سؤالًا إلى وزارة الدفاع الأمريكيّة، فكان الجواب كالآتي: «إنّ مَهمَّة مُمثّلنا العسكريّ في إيران هي المشاورة وتبادل وجهات النظر مع وزير الداخليّة الإيرانيّ؛ لإرشاده إلى كيفيّة التعامل مع مسائل عديدة، كالتربية والتعليم وحدود الاختيارات في وزارة الداخليّة، وكذلك حول كيفيّة استخدام المعدّات التي أُرسِلَت إليهم بالشكل المناسب، مضافًا إلى أمور أخرى متّفق عليها».

وبطبيعة الحال، لا أحد يعلم بالمقصود من «أمور أخرى متّفق عليها»! أمّا ما يلفت النظر هنا، فهو الآتي: «بعد رفع التقرير هذا إلى لجنة التحقيقات في مجلس الشيوخ،

فإنّه لأوّل مرّة، وبعد 22 عامًا، تُبَلَّغ الحكومة الأمريكيّة بشكل رسميّ عن وجود قوّات عسكريّة في إيران، تشارك الجيوش والقوّاد في مَهامِّها، وحتّى دوائر الشرطة وقوّات الدرك، التي تقتصر مَهمَّتها على الأمن والاستقرار الداخليّ، ولحفظ كيان الشاه ودولته!».

وفي عام 1966م، أُدمِجَت دائرة التحقيق التابعة للشرطة مع الشعبة الثانية لقيادة أركان الجيش، وأُلحِقَت بدائرة المخابرات العامّة «السافاك». بعد هذا، وقعَت هذه الدائرة بأتمّها تحت نفوذ وكالة المخابرات الأمريكيّة وسيطرتها، وتولَّت مَهامَّها وتنظيمها وتدريب أفرادها. ومنذ تلك السنة، تصاعدَت بعثات رجال المخابرات والأمن إلى أمريكا؛ لتَلَقّي الدروس والمهارات العالية هناك.

ومنذ عام 1970م، اتُّفِق على إرسال 250 ضابطًا إلى أمريكا سنويًّا؛ لتَلَقّي أحدث فنون القتال والمواجهة؛ وذلك استعدادًا لمواجهة أيّ ردّ فعل أو تحرُّك جماهيريّ ضدّ السلطة والشاه.

وأمّا جواسيس المخابرات الأمريكيّة، فلم يُعرَف عددهم يومًا ما، ولكن على أقلّ التقديرات، كانوا يبلغون المئات. المهمّ لدى أمريكا هو تقديم كافّة المساعدات والإمكانات لحفظ كيان الشاه، مهما بلغ الأمر، ولبسط سلطة قوّات أمن النظام ونفوذهم، ولضمان الاستقرار الداخليّ، والسيطرة الكاملة عليه. لقد كانت المخابرات الأمريكيّة تبثُّ عيونًا وجواسيس في كلّ مكان ومجال. ومضافًا إلى قمع الحركات والأشخاص المدنيّين، كان لها نفوذ داخل الجيش الإيرانيّ والمعسكرات؛ فهي تبعث بتقارير دائمة عمّا هي عليه حالة العسكر والجند. وبدورها، كانت تصل إلى الخبراء والمستشارين الأمريكيّين، ومن ثمّ يتّخذون القرارات اللازمة إذا اقتضى الحال.

إنّ استمرار الحكومة وبقاءها وبقاء الشاه كان مرتبطًا بحضور هؤلاء المستشارين وقوّتهم وفعاليّتهم؛ ولهذا كان الشاه يرضخ لأيٍّ منهم ويهيّئ السبل، وبالأخصّ عندما جُوبِه بالضغوط الأمريكيّة لتنفيذ الإصلاحات السياسيّة والاقتصاديّة بأسرع وقت؛

ولهذا استسلم الشاه لهم، ومنحهم الحصانة الأمنيّة. صدر ذلك منه بعد أن وقّع عليه كافّة أعضاء حكومة «أسد الله عَلَمْ» في تشرين الأوّل 1963م، ومن ثمّ وافق عليه مجلس الشيوخ[1] في أيّار 1964م، وفي أيلول قدّمه «حسن علّي منصور»[2] للبرلمان، وصادق عليه بالإجماع. وبهذا، فلقد حمّل الشاه والحكومة بلادَهم عارًا لم يسبق له مثيل في تاريخ إيران!

بموجب هذا القانون، أصبحَت الأحكام الصادرة عن المحاكم ودُور العدالة في إيران لا تنطبق على أتباع أمريكا، وغير شاملةٍ لهم، وإنّ أيّ خطأ أو جريمة أو حادثة تصدر من عسكريّ أو مستشار أو متخصّص أمريكيّ، تُوجب عليه المحاكمة والعقاب، فإنّ ذلك ما تقوم به لجنة خاصّة من قِبَل أمريكا فقط، إذ ليس لإيران أيّ دخل بهذا المجال مطلقًا.

ومن هنا، هُيِّئَت الأرضيّة لارتكاب مختلف أنواع الجرائم والاعتداءات من قِبَل الأمريكيّين المقيمين في البلاد؛ فلهم مطلق الحرّيّة دون أيّة خشية أو ريبة، وهذا ما حدث فعلًا. وبعد سنين، اعترفَت وزارة الدفاع الأمريكيّة بأنّ معظم المتخصّصين والخبراء الأمريكيّين في إيران هم من ضبّاط الجيش وأفراده المسرَّحين من حرب فيتنام! وقد نشر أحد الصحفيّين الأمريكيّين مقالًا استطلاعيًّا حول الأمريكيّين في إيران في صحيفة «واشنطن بوست»، جاء فيه:

يقول أحد شركاء شركة «بل»، واصفًا أولئك الذين حرّضوه على العمل في إيران: «إنّ هؤلاء الأمريكيّين الذين ترونهم هنا، هم أفراد الجيش الأمريكيّ القديم. أولئك من القدماء الذين لا يعرفون كيف يدبّرون حياتهم اليوميّة والشخصيّة، لكنّهم منذ أن دخلوا هذه البلاد، أصبحوا من المتموِّلين، وتحسّنَت ظروفهم المعيشيّة نوعًا ما»[3].

(1) كان في إيران مجلس الشيوخ وبرلمان.

(2) اغتيل بعد فترة على يد أحد أعضاء منظّمة فدائيّي الإسلام.

(3) يتقاضى «الخبير» الأمريكيّ 5000 دولار شهريًّا، مضافًا إلى السكن مجّانًا، ووسيلة النقل، وعلاوات أخرى، على بقائه في إيران.

ويضيف أحد أصدقائه قائلًا: «إنّني لا أعلم لماذا يجب علينا أن نوظّف هؤلاء في شركتنا، هؤلاء نُقلوا من سجون «تكساس» و«تينيسي» إلى إيران، وأُجبِرنا على توظيفهم. إنّهم أُناس قساة، لا يعرفون معنى للرحمة، وهم أشخاص مدمنون على تناول الكحول وعلى الاستهتار، وقلّما تشاهد بينهم رجلًا لم يرتكب جريمة، أو لم يُودَع في السجن في حياته، ولو لمرّة واحدة على الأقلّ!».

يقول الدبلوماسيّون الأمريكيّون: «لقد دخل بعضهم بالدرّاجات البخاريّة داخل مسجد الجامع في طهران. وكما تعلمون، فإنّ المسلمين يقدّسون ويحترمون هذه الأماكن... وذات مرّة، وفي القاعدة الجوّيّة، اعتدى أحدُ الطيّارين على زوجته الألمانيّة، فضربها، في حين أنّه لم يمضِ على زواجهما سوى فترة وجيزة، وبضربته تلك فصم كتفها، فقضى عليها وماتت».

يقول أحد مدرِّسي اللغة: «إنّ أغلبهم من المستهترِين والحقراء المعتَدِين، أولئك أرذال البِيض المجرمين الفقراء، والذين أُرسِلوا إلى هنا لهدفٍ واحد لا غير ذلك، هو المال فقط».

بينما الأمريكيّون البِيض العاديّون لهم مزايا خاصّة، «... لا يبذلون أيّ جهد لتهيئة ما يحتاجونه يوميًّا؛ تُعرَض لهم البضائع والموادّ الغذائيّة المعلّبة بسعر زهيد ومناسب. إنّهم يعيشون بعيدًا عن أجواء عامّة الناس، ولأبنائهم مدارس خاصّة، ولا يلتقون ولا يتزاورون إلّا فيما بينهم، وبحدود مجتمعاتهم الكنسيّة. أمرَتهم وزارة الدفاع الأمريكيّة بعدم تناول الحليب ومشتقّاته المحلّيّة كافّة، وتبعث كلّ يوم طائرة نقل من طراز [C-130]، تحمل لهم الأطنان من الحليب والألبان المعلّبة على اختلاف أنواعها».

3. توطيد العلاقات الإيرانيّة - الإسرائيليّة

يعود تاريخ العلاقات الإيرانيّة - الإسرائيليّة إلى عام 1951م. وفي عام 1960م، اعترفَت إيران بإسرائيل بشكل رسميّ. وعلى هذا، تعزّزَت الروابط رسميًّا بين البلدَين،

وبالأخصّ بعد الانقلاب. وخلال هذه السنين المتواصلة، استقبلَت إسرائيل ضبّاطًا وعقداء وعمداء إيرانيّين عديدين؛ لتلقّي أحدث التدريبات وآخِر التجارب، بإشراف جهاز المخابرات الإسرائيليّة «الموساد». وبالمقابل، انهال عددٌ كبيرٌ من رموز المخابرات الإسرائيليّة وكبارها إلى إيران؛ لمساعدة المخابرات الإيرانيّة «السافاك»، وللتنسيق معهم.

جاء في أحد أعداد مجلّة «نيوزويك» لعام 1974م: «ولقد كانت إسرائيل تؤكّد على روابطها مع إيران، وكانت تدّعي بأنّ لها اليد الطولى في تدريب طاقم السافاك وإعداده. إلّا أنّها وبعد حربها مع العرب عام 1973م، أنكرَت مرارًا وتكرارًا أيَّ تدخُّلٍ لها في المخابرات الإيرانيّة، وادَّعَت بأنّ كلّ ما في الأمر هو علاقة تبادل أمنيّ مشترك. بينما أكّد الشاه خلال إحدى لقاءاته الصحفيّة، بأنّ إيران لها علائق أمنيّة وعسكريّة مع إسرائيل».

وعلى الرغم من وجود علاقات سياسيّة وأمنيّة وعسكريّة بين البلدَين، فقد وُجِدَت علاقات أخرى على الصعيد الاقتصاديّ؛ فإيران كانت المموّل الرئيس لإسرائيل بالمحروقات، وما تحتاجه من النفط، في الوقت الذي اتّفقَت الدول العربيّة على عدم التعامل مع إسرائيل بهذا المجال. وبالمقابل، كانت إسرائيل تُرسِل بعثات زراعيّة عديدة مكوَّنة من كبار الاختصاصيّين والخبراء الإسرائيليّين في مجال الزراعة، لتوظيفهم في المنشآت الزراعيّة، مضافًا إلى تصديرها أنواعًا من مختلف المحاصيل الزراعيّة والغذائيّة إلى إيران. وناهيك عن هذه الروابط العلنيّة والاعتياديّة، فكما ذكرنا سابقًا، فإنّ إسرائيل وعملاءها من البهائيّين كانت لهم اليد الطولى في تسيير مراكز البلاد الحسّاسة والهيمنة عليها، كالمراكز العسكريّة والاقتصاديّة والثقافيّة.

الفصل الثالث عشر

الإمام قدس سره وموقفه من الحصانة للأمريكيّين

بعد أن صادق البرلمان على لائحة الحصانة للأمريكيّين في أيلول 1964م، عزم الإمام قدس سره على تفنيد كافّة المؤامرات التي تُحاك سرًّا مع النظام الحاكم ضدّ الإسلام، وضدّ استقلال البلاد. ووعد الجماهير المسلمة بخطابٍ مهمٍّ يلقيه في يوم ولادة السيّدة الزهراء عليها السلام، وكان النظام يهيّئ الأوضاع للاحتفال بذكرى ميلاد الشاه[1].

وسرعان ما بعث الشاه أحدَ رجاله إلى قمّ، ليلتقي الإمام قدس سره ويتباحث معه، وليصرفه عن عزمه هذا. وقد رفض الإمام قدس سره استقبالَه، ولم يرَ بُدًّا من إبلاغ رسالة الشاه الشفويّة إلى نجل الإمام الشهيد السيّد مصطفى -وأكّد على لسان الشاه- محذّرًا الإمام قدس سره من التهجُّم على أمريكا، ووصف ذلك بأنّه عمل خطير وله عواقب سيّئة، وأنّه أخطر من التحامل على رجل البلاد الأوّل (الشاه). بَيْدَ أنّ الإمام قدس سره لم يكترث لهذا التهديد، وخرج من داره في اليوم المقرّر، وألقى خطابَه بالساعة المحدّدة، على الرغم من جميع المحاولات اليائسة. وظهر الإمام قدس سره في ذلك اليوم حزينًا كئيبًا، فيما كانت آلاف الجماهير تحيّيه، وتهتف له بالنصر والمقاومة والسير على نهجه. ونظرًا لأهمّيّة خطاب الإمام قدس سره الكبيرة، ارتأينا نَقلَه بالكامل هنا؛ لنطلع القارئ الكريم على النقاط المهمّة كافّة، التي ركّز عليها الإمام قدس سره كثيرًا:

(1) كان النظام يحتفل سنويًّا بعيد ميلاد الشاه وزوجته وابنه وكلّ هذه الأيّام تعطّل فيها الدوائر والوزارات مدّة أسبوع لكلّ واحد منهم!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنّا لله وإنّا إليه راجعون

«إنّني لعاجزٌ عن إبداء جميع مشاعري القلبيّة! إنّ قلبي تعتريه حالة من الضغط والغليان منذ أن اطّلعتُ على الدسائس والمؤامرات الأخيرة، وعلى ما يُداهم البلاد. لقد تبدّلَت حياتي بأسرها، إنّ نومي لقليل، وقلبي عليل، أصبحتُ كئيبًا حزينًا. إنّني أنتظر الموت ساعةً بعد أخرى. [هنا أجهش الحضور بالبكاء].

إيران، منذ اليوم معزّاةٌ، ولا عيد لها بعد اليوم. لقد جعلوا عيد إيران مأتمًا. جعلوه مأتمًا، ثمّ أضاؤوا المصابيح [احتفالًا]! جعلوه مأتمًا، ثمّ رقصوا جماعيًّا! لقد باعونا، وباعوا استقلالنا، وأضاؤوا المصابيح ورقصوا مرّة أخرى!

ولو كنتُ محلَّهم، لمنعتُ إضاءة المصابيح، ولأمرتُ بنصب الرايات السود فوق الأسواق والمنازل [بكاء الحضور]؛ فقد دُعِسَت كرامتنا، وتلاشت عظمة إيران، وداسوا عظمة جيش إيران!

لقد عرضوا في المجلس قانونًا ألحقونا به بمعاهدة فيينّا أوّلًا، ومنحوا الحصانة للأمريكيّين ثانيًا. وذلك يعني أنّ جميع الخبراء العسكريّين الأمريكيّين وأُسَرهم وموظّفيهم الفنّيّين والإداريّين وخدمهم وكلّ من يتعلّق بهم، أصبحوا جميعًا يتمتّعون بالحصانة عن كلّ جريمة يرتكبونها في ايران. فإذا قام خادمٌ أمريكيٌّ أو طبّاخٌ أمريكيٌّ باغتيال مرجِعكم، فإنّ الشرطة الإيرانيّة لا يحقّ لها أن تمنعه من ذلك! ولا يحقّ للمحاكم الإيرانيّة أن تحاكمه وتحقّق معه، بل يجب أن يذهب الى أمريكا، حيث يحدّد الأسيادُ وضعَه!

وكانت الحكومة السابقة قد صادقت على (هذا القانون)، ولم تُفْشِ ذلك لأحد. وقدّمت الحكومة الحاليّة هذا القانون قبل أيّام إلى المجلس، وكانت قد قدّمته قبل ذلك إلى مجلس الشيوخ، وصادقوا عليه هناك بإشارة واحدة، ولم يتفوّه منهم

أحدٌ. ثمّ قدّموه في الأيام القليلة الماضية إلى مجلس الشورى، حيث أجروا مناقشات واعتراضات، وتحدّث بعض النوّاب معترِضين، إلّا أنّ القانون صُودِق عليه بكلّ وقاحة!

ودافعت الحكومة، بكلّ وقاحة، عن وصمة العار هذه. وقد جعلت الشعب الإيرانيّ أدنى من كلاب أمريكا؛ فإذا دهس أحدٌ كلبًا أمريكيًّا، يحاسبونه، وإذا دهس شاهُ إيران كلبًا أمريكيًّا، يحاسبونه، كما أنّه إذا دهس طاهٍ أمريكيٌّ شاهَ إيران، ودهس أكبرَ مسؤول، فلا يحقّ لأحدٍ أن يعترضه! لماذا؟ لأنّهم أرادوا أن يقترضوا قرضًا من أمريكا، وطلبَت منهم أمريكا إقرار هذا القانون، ولا بدّ أن يكون الأمر كذلك.

بعد ثلاثة أو أربعة أيّام، طلبوا قرضًا بمئتَي مليون دولار، وافقَت الحكومة الأمريكيّة على دفعه لإيران خلال خمس سنوات، على أن تأخذ ثلاثمئة مليون دولار خلال عشر سنوات! فهل عرفتم ماذا يعني هذا؟

يعني أنّها تُقرض حكومة إيران ونظامها مئتَي مليون دولار -كلّ دولار بقيمة ثمانية تومانات- في غضون خمس سنوات، على أن تأخذ -كما حسبوه- في ظرف عشر سنوات، ثلاثمئة مليون دولار من إيران؛ أي أن تأخذ مئة مليون دولار، أو ثمانمئة مليون تومان ربحًا من إيران مقابل هذا القرض. ومع ذلك، باعت إيران كرامتها من أجل هذه الدولارات، لقد باعت حكومة إيران استقلالنا، واعتبرتنا جزءًا من الدول المستعمرة، وأظهرَت شعبَ إيران المسلم في العالَم أدنى من الوحوش! أتعطي ثلاثمئة مليون دولار مقابل قرض مئتَي مليون دولار؟! فما نفعل مع هذه المصيبة؟ وماذا يفعل العلماء أمام هذا الأمر؟ وإلى أين يلجؤون؟ لأيّ بلد يشكون أمرهم؟

إنّ بقيّة البلاد تتصوّر أن الشعب الإيرانيّ هو الذي عمل على الحطّ من شأنه إلى هذا الحدّ، ولا يدرون أنّ هذه الحكومة ومجلس إيران (هما اللذان فعلا ذلك). وهذا المجلس لا علاقة له بالشعب، وهو مجلس الحراب، فأيّة علاقة لهذا المجلس بشعب إيران؟ شعب إيران لم ينتخبه، فقد قاطع معظمُ العلماء الكبار والمراجع الانتخابات، وتبعهم شعبُ إيران في ذلك، ولم يصوِّتوا، إلّا أنّ القوّة والحراب أجلسَت هؤلاء على هذه المقاعد.

لقد جاء في أحد كتب درس التاريخ الذي طُبِعَ هذا العام، ويجري تدريسه للأطفال، بعد ذكر بعض القضايا الكاذبة: (لقد تبيّن أنّ قطعَ نفوذ العلماء كان مفيدًا في تحسين وضع هذا الشعب)! فهل تحسين وضع الشعب هو في القضاء على العلماء؟ والحقيقة هي هذه:

لو كان للعلماء نفوذ، لَما سمحوا أن يكون هذا الشعب أسيرَ بريطانيا وأمريكا.

ولو كان للعلماء نفوذ ها هنا، لما سمحوا أن تُحكِم إسرائيل قبضتها على اقتصاد إيران، وأن تُبَاع البضائع الإسرائيليّة في إيران بلا رسوم جمركيّة!

ولو كان للعلماء نفوذ، لَما سمحوا أن يُكَبِّلَ هؤلاء شعبَ إيران بمثل هذا القرض الكبير، من دون مشورة أحد، ولا سمحوا أن تقع هذه الفوضى في بيت المال، أو تعمل كلّ حكومة ما تشاء، ولو كان ذلك ضدّ الشعب مئة في المئة!

لو كان للعلماء نفوذ، لَما سمحوا بتحوُّل المجلس إلى هذا الشكل من الابتذال، ولا أجازوا قيام المجلس بالقوّة وحدّ السيف ليرتكب مثل هذه الفضحية!

... ولو كان للعلماء نفوذ، لصفعوا هذه الحكومة وهذا المجلس على أفواههما، ولطردوا النوّاب منه!

ولو كانوا متنفّذين، لَما كان ممكنًا أن يتحكّم عددٌ من النوّاب في مصير بلد ويحكموه!

ولو استطاعوا، لَما سمحوا لعميلٍ أمريكيّ أن يرتكب مثل هذه الحماقات، ولَطردوه من إيران.

أنفوذ عالِم الدين ضارٌّ للشعب؟! لا، بل إنّه مضرٌّ بكم أنتم الخونة، لا يضرّ بالشعب. فقد رأيتم أنّكم لا تستطيعون أن تفعلوا ما يحلو لكم مع وجود نفوذ علماء الدين، فصرتم تريدون أن تقضوا على نفوذ عالِم الدين، وتصوّرتُم أنّكم تستطيعون، بحركاتكم المسرحية، بثَّ الخلافات بين العلماء؟ لا، لن يحصل هذا، ولا يتحقّق لكم هذا الحلم إلّا في الموت، ولا تستطيعون القيام بمثل هذا العمل! فعلماء

الدين متّحدون، وإنّني أُعَظِّم شأنَ جميع العلماء، وأقبّل أيديَهم جميعًا. وإن كنتُ سابقًا أُقبّل يدَ المراجع، فإنّني اليوم أقَبِّل يد الطلبة [بكاء الحاضرين]. إنّني اليوم أُقبّل أيدي البقّال أيضًا [بكاء الحاضرين].

أيّها السادة، إنّني أنذر بالخطر!

يا جيش إيران، إنّني أنذر بالخطر!

يا ساسة إيران، إنّني أنذر بالخطر!

أيّها التجّار، إنّني أنذر بالخطر!

يا علماء إيران، يا مراجع الإسلام، إنّني أنذر بالخطر!

أيّها الفضلاء، أيّها الطلبة، أيّها المراجع، أيّها السادة، أيّتها النجف، يا قمّ، يا مشهد، يا طهران، يا شيراز، إنّني أنذر بالخطر!

إنّ هناك خطرًا! وإنّ خلف الكواليس أمورًا نحن لا نعرفها! وقد قالوا في المجلس: لا تسمحوا بكشف الستار! والظاهر أنّهم بيّنوا لنا أمرًا! وماذا سيفعلون أسوأ من هذا؟ ولا ندري ما الذي أسوأ من الأسر والذلّ! ماذا يريدون أن يفعلوا بنا؟ ماذا يُبيِّت هؤلاء؟ أيّة محنة جلبها هذا القرض على الشعب؟! وهل يجب أن يدفع هذا الشعب الفقير، خلال عشر سنوات، مئة مليون دولار؛ أي ثمانمئة مليون تومان، ربحًا لأمريكا؟! وفي الوقت نفسه، تبيعوننا من أجل هذا العمل!

ما الفائدة التي تعود عليكم من العسكريّين والخبراء العسكريّين الأمريكيّين؟ إذا كان هذا البلد تحت الاحتلال الأمريكيّ، فلماذا تعربدون إذًا إلى هذا الحدّ؟! ولماذا تتحدّثون إلى هذا الحدّ عن الرُقيّ؟ وإذا كان هؤلاء الخبراء خدمًا لكم، فلماذا إذًا تجعلونهم أسمى من الأسياد؟ ولماذا جعلتموهم إذًا أعلى من الشاه؟! إن كانوا خدمًا، فعامِلوهم مثل بقيّة الخدم. وإن كانوا موظّفين، فعامِلوهم كما تُعامِل بقيّةُ الشعوب موظّفيها. وإن كان بلدُنا تحت احتلال أمريكا، فقولوا ذلك، بل واطردونا نحن من هذا البلد!

ماذا يريدون أن يفعلوا بنا؟ وماذا تقول لنا هذه الحكومة؟ ماذا فعل بنا هذا المجلس؟ إنّ هذا المجلس غير القانونيّ، الذي قُوطِعَ بفتوى مراجع التقليد وحكمهم، لا يمثّل الشعبَ نائبٌ من نوّابه! هذا المجلس، الذي يدّعي ويقول: إنّنا انبثقنا من «الثورة البيضاء»!

أيّها السادة، أين «الثورة البيضاء» هذه؟! لقد حطّموا الشعب، وإنّني على عِلمٍ -والله يعلم أنّني أتألّم!- إنّني على عِلمٍ بأوضاع القرى والنواحي النائية، وبوضع قمّ البائس، وبمجاعة الناس، وبأوضاع زراعتهم.

أيّها السيّد، فكّروا في وضع هذا البلد، فكّروا في وضع الشعب. فإنّكم باستمرار تقترضون قرضًا بعد قرض، وتصبحون خدَمًا! والدولار طبعًا ترافقه العمالة، فتريدون أن تستفيدوا من الدولارات لأنفسكم، ونحن ندفع ضريبة عمالتها! فإذا دهسَتنا سيّارة، فلا يحقّ لأحدٍ أن يقول للأمريكيّين شيئًا. أنتم ترحّبون بمنافعها، وهذه هي الحقيقة، أفلا يجب أن نقول ذلك؟

ونسأل هؤلاء السادة الذين يقولون: ينبغي أن نخرس، هل يجب أن نخرس حتّى مقابل هذا الأمر؟ وهنا يجب أن نخرس؟! يبيعوننا ثمّ نخرس؟! يبيعون قرآننا ونخرس؟ فوالله، آثمٌ مَن لا يصرخ! والله، يرتكب معصيةً كبيرةً من لا يرفع صوته! [بكاء الحضور].

يا زعماء الإسلام أغيثوا الإسلام!

يا علماء النجف، أغيثوا الإسلام!

يا علماء قمّ، أغيثوا الإسلام!

لقد ذهب الإسلام! [بكاء الحضور].

أيّتها الشعوب الإسلاميّة! يا زعماء الشعوب الإسلاميّة! يا رؤساء جمهوريّات الشعوب الإسلاميّة! يا ملوك شعوب البلاد الإسلاميّة! أيّها الشاه[1]، أغث نفسَك! أغيثونا جميعًا!

---

(1) لاحِظ أيّها القارئ الكريم، أنّ الإمام قدس سره يقول هذا الكلام، والشاه في أوجّ قدرته وجبروته وطغيانه، ولا يهاب الإمامُ قدس سره من شيء أبدًا، إلّا من الله -سبحانه وتعالى-.

هل يجب أن نُسحَق تحت أقدام أمريكا؛ لأنّنا شعبٌ ضعيفٌ، لأنّنا لا نملك الدولار؟ إنّ أمريكا أسوأ من إنجلترا، وإنجلترا أسوأ من أمريكا، والاتّحاد السوفياتيّ أسوأ منهما، وكلّ واحد أسوأ من الآخر وأقذر!

لكنّنا اليوم مبتلون بهؤلاء الخبثاء، بأمريكا. على الرئيس الأمريكيّ أن يعلم بأنّه أبغض أبناء العالَم عند شعبنا! وقد ارتكب أبغضُ أبناء العالَم عند شعبنا مثلَ هذا الظلم بحقّ بلدٍ إسلاميّ، فخصمه اليوم هو القرآن، وخصمه اليوم الشعبُ الإيرانيّ! ولتعلم الحكومة الأمريكيّة أنّها فقدَت سمعتَها في إيران، وقضّت على نفسها!

وهل تمنحون الحصانة للمستشارين؟! وقد صرخ النوّاب المساكين بأن تطلبوا من أصدقائنا ألّا يفرضوا علينا كلّ هذا، ولا تبيعونا، ولا تجعلونا مستعمرة. فمن الذي استمع؟ إنّهم لم يتعرّضوا البتّة لإحدى فقرات معاهدة فيينّا، وهي المادّة 32، ولا أعرف ماهيّة هذه الفقرة، ولا يعرف ذلك رئيس المجلس، والنوّاب لا يعرفون أيضًا، ولكنّهم صوّتوا لمصلحة المشروع، ووقّعوا عليه. ولكنّ عددًا منهم اعترفوا بأنّنا لا ندري ما القضية -وربّما هم لم يصوّتوا ولم يوقّعوا. وعددٌ آخر كانوا أسوأ من هؤلاء، وهم من الجهلة.

لقد عُزل رجال السياسة وأصحاب المناصب الكبيرة في بلدنا، الواحد تلو الآخر، حتّى إنّه لم يعد في بلدنا شيءٌ بيد رجال السياسة الوطنيّين. وعلى قادة الجيش أن يعلموا أنّهم سيقيلونهم الواحد بعد الآخر، فهل أبقوا لكم من كرامة؟ وهل أبقوا لنظامكم (العسكريّ) قيمة، بعد أن أصبح الجنديّ الأمريكيّ مفضَّلًا على مشيرنا؟ لقد صار طاهٍ أمريكيّ في إيران مفضَّلًا على مشيرنا، فهل بقيَت لكم بعد الآن كرامة؟ لو كان الأمر يتعلّق بي، لقدّمتُ الاستقالة. ولو كنتُ عسكريًّا، لاستقلتُ، ولم أكن لأقبل بهذا الهوان. ولو كنتُ نائبًا في المجلس، لاستقلتُ.

فيجب قطع نفوذ الإيرانيّين، ويجب أن تكون الحصانة للطهاة الأمريكيّين، والميكانيكيّين الأمريكيّين، والموظّفين الإداريّين والفنّيّين الأمريكيّين، ورجالهم وأُسَرهم،

ولكنّ السيّد «القاضي» يُسجَن، والسيّد «إسلامي» يُؤخَذ مكبّلًا هنا وهناك، وخدم الإسلام وعلماء الإسلام وخطباؤه، هؤلاء يجب أن يُسجَنوا! وهكذا أنصار الإسلام في «بندر عباس»؛ لأنّهم أنصار العلماء، أو لأنّهم علماء!

لقد دسَّ هؤلاء في تاريخ إيران [أي الكتب المدرسيّة] وثيقةً تبيّن أنّ رفاهَه يكمن في القضاء على نفوذ العلماء، فماذا يعني هذا؟ وهل رفاه الشعب يكمن في قطع يد رسول الله ﷺ؟ ومن هذا الشعب؟ فالعلماء لا يملكون شيئًا من أنفسهم، فكلّ ما يملكونه هو من رسول الله ﷺ عن هذا الشعب. إنّهم يريدون ذلك، حتّى تفعل إسرائيل وأمريكا ما يحلو لهما براحة بال.

أيّها السادة، إنّ جميع مصائبنا من أمريكا وإسرائيل. وإسرائيل هي من أمريكا، وهؤلاء النوّاب هم من أمريكا، والوزراء من أمريكا، فتعيين الجميع يصدر من هناك، وإلّا، فلماذا لا يقفون في وجههم، ولا يصرخون؟

إنّ ذاكرتي ضعيفة الآن، ولا أستطيع أن أتذكّر الأمور جيّدًا، فحالي الآن منقلب. في مجلسٍ من المجالس السابقة، كان المرحوم السيّد حسن المدرّس نائبًا، وقد جاء إنذارٌ من روسيا لإيران، وَرَدَ فيه أنّه إذا لم تعملوا الأمر الفلانيّ -لا أتذكّر الآن شيئًا منه- نتوجّه إلى طهران من المكان الفلانيّ -يبدو أنّه كان قزوين- ونحتلّ طهران، فضغطَت الحكومة الإيرانيّة على المجلس لإقرار ذلك الأمر.

ويذكر أحد المؤرِّخين الأمريكيّين أنّ عالِم دينٍ [السيّد حسن المدرّس] وقف خلف منصّة الخطابة بيدٍ مرتعشة، وقال: أيّها السادة، إذا كان مقرَّرًا أن نزول، فلماذا نزول بأيدينا نحن؟ ورَفَضَ المشروع، فتجرّأ المجلس ورفض الطلب الروسيّ، ولم يستطع الروس أن يعملوا شيئًا. هذا هو عالِم الدين، عالِمٌ دينيٌّ واحدٌ داخل المجلس، عالِمٌ ضعيف، هو حفنة من العظام، رفض إنذار روسيا المتعجرفة!

إنّهم يرون أنّه يجب أن لا يكون هناك عالِم دين، ينبغي قطع يد عالِم الدين حتّى يحقّقوا آمالَهم وأمنيّاتهم. فماذا أقول؟ المواضيع كثيرة، والمفاسد في هذا البلد

كثيرة كثيرة؛ لا أستطيع أنا، بوضعي هذا، وصدري هذا، أن أذكرها، ولا أستطيع أن أشرح الأمور لكم بالمقدار الذي أعرفه، إلّا أنكم مسؤولون عن إيصالها إلى اصدقائكم، والسادة مسؤولون عن اطّلاع الشعب وتوعيته، والعلماء مسؤولون عن توعية الشعب، والشعب مسؤول أن يحتجّ على هذه المسألة، ويرفع صوته معترضًا على المجلس والحكومة بهدوء، ويسأل: لماذا فعلتم ذلك؟ لماذا بعتمونا؟ وهل نحن عبيد لكم؟ أنتم لستم ممثّلينا. ولو كنتم نوّابًا، فعندما خنتم أنفسكم وبلدكم، طُرِدتُم من النيابة؛ لأنّ هذه القضيّة خيانةٌ للبلد. الهي إن هؤلاء قد خانوا بلدنا، الهي لقد خانت الحكومة بلدنا.

إلهي، لقد خانوا الوطن. إلهي، حكومة بلدنا خانت الإسلام، وخانت القرآن. نوّاب المجلس قد خانوا، والذين صوّتوا على هذا المشروع في مجلس الشيوخ خانوا؛ هؤلاء الشيوخ، ونوّاب مجلس الشورى، وأولئك الذين صوّتوا (على هذا المشروع) قد خانوا، وهم ليسوا نوّابًا. وليعلم العالَم أنّهم ليسوا نوّاب إيران؛ وإن كانوا، فقد عزلتُهم أنا! وهم معزولون عن النيابة، وكلّ القرارات التي دوّنوها، منذ الحركة الدستوريّة وحتّى الآن، غير صحيحة؛ حيث إنّه طبقًا لنصّ الدستور -إن كانوا يعترفون به- وطبقًا للمادّة الثانية من ملحق الدستور، لا يُعتبَر القانون قانونًا أساسًا، طالما لم يُشرِف العلماءُ المجتهدون على المجلس؛ والآن، أيُّ مجتهدٍ يمارس الإشراف؟ ولو كان في هذا المجلس خمسة علماء دين، أو واحد منهم، لَصَفعهم، ولم يسمح بذلك العمل.

منذ اليوم الأوّل من الحركة الدستوريّة وإلى يومنا هذا، أيُّ فقيه أو مجتهد كان مطّلعًا على القوانين المصوّبة واللوائح المقدّمة؟ لو كان واحدًا من المجتهدين في البرلمان لكان يقلب حساباتكم الخائنة هذه رأسًا على عقب.

إنّني أقول لمن عارَضَ في الظاهر: أيّها السادة، لماذا لم تنتفضوا؟ لماذا لم تنهضوا وتأخذوا بتلابيب ذلك القزم؟ لِمَ اكتفيتم بالمعارضة والجلوس مكانكم والتملُّق؟ هل هذه هي المعارضة؟ يجب أن تصرخوا، وتنزلوا إلى وسط المجلس، وأن يفعل الجميع

ذلك؛ لكي لا يسمحوا بذلك. فلا يصحّ الاكتفاء بالقول: إنّي مخالف. وعندما شاهدتم التصويت على المشروع، كان عليكم منع قيام مثل هذا المجلس، وطرد هؤلاء منه. إنّنا لا نعتبر ما صُودِق عليه في المجلس قانونًا، ولا نعتبر هذا المجلس مجلسًا، ولا نعتبر هذه الحكومة حكومةً. إنّهم خانوا إيران، إنّهم خونة خونة!

اللهمّ، أصلح أمور المسلمين. اللهمّ، تفضّل بالعظمة على الدين الإسلاميّ المقدَّس. اللهمّ، دمِّر مَن يخون هذا البلد، ويخون الإسلام، ويخون القرآن».

بالإضافة إلى هذا، قام الإمام قدس سره بنشر بياناتٍ تطرّق فيها لخيانة رجال النظام والمسؤولين تجاه المصادقة على لائحة الحصانة للأمريكيّين، ووصف الإمامُ قدس سره هذا القانون بأنّه:

«**إقرار على إذلال إيران والشعب الإيرانيّ**» و«**هو تأكيد على استمراريّة الاستعمار للبلاد**»، وإنّه «**إجراء لم يحدث له مثيل في السابق، مِن أيّ حكومة وسلطة اضطهدَت شعبها بهذا الشكل!**».

وأكّد أيضًا خلال بياناته هذه:

«**إنّني أؤكّد، معلنًا بأنّ مجلس الشيوخ والبرلمان هما عدوّان للإسلام والقرآن، مخالفان له، ولا يمتلكان أيّة صفة رسميّة وقانونيّة. أعضاؤهم أعداء للأمّة والوطن، إنّهم ليسوا ممثّلين للشعب، ولن يكونوا مطلقًا كذلك، إنّما فرضَتهم القوّة وحسب. آراؤهم وأصواتهم لا تعادل شيئًا عند الشعب المسلم. وإذا كان الأجانب يستندون إلى آرائهم وأصواتهم، فإنّ الشعب والأمّة الإسلاميّة سوف تقرّر المصير بنفسها. ليعلم أبناء العالَم بأسره، بأنّ جميع مصائبنا ومشاكلنا الأمّة الإسلاميّة، هي من أولئك الأجانب، من أولئك الأمريكيّين. العالَم الإسلاميّ يتبرّأ من الأجانب المستعمِرين عامّة، ومن الأمريكيّين خاصّة...**».

ثمّ يضيف قائلًا:

«**إنّ أمريكا هي التي تقف وراء إسرائيل. أمريكا هي التي تساند إسرائيل لدحر**

العرب المسلمين وتشريدهم. أمريكا هي التي تسيِّر أمور بلادنا عبر عملائها مباشرة، أو بصورة غير مباشرة. أمريكا هي التي ترى أنّ القرآن والإسلام خطرٌ عليها، وتريد دحضهما. أمريكا هي التي ترى علماء الدين المجاهِدين عائقًا وسدًّا منيعًا حائلًا أمام أهدافها ومآربها. أمريكا هي التي تأمر النظام بالمثول لأوامرها، وهي التي أمرتهم بالموافقة والمصادقة على هذا القانون الشنيع المذلّ للمسلمين ولمفاخرهم الإسلاميّة والوطنيّة. فالاقتصاد الإيرانيّ اليوم في قبضة أمريكا وإسرائيل. والسوق الإيرانيّة خرجَت من يد الإيرانيّ المسلم، وقد بدأَت ملامح الفقر والإفلاس على وجوه التجّار والمزارعين، وأدَّت إصلاحات السادة إلى إيجاد سوقٍ سوداء لأمريكا وإسرائيل، ولا مِن أحدٍ يُغيث الشعب الفقير».

ثمّ يؤكّد الإمام قدس سره قائلًا:

«... تحطيم السلاسل هذه ملقى على عاتق الأمّة، وعلى عاتق الجيش الإيرانيّ، الذي سوف لن يسمح للمعتدين بالتعرّض لنا... يجب علينا جميعًا إسقاط هذه الحكومة، يجب علينا أن نقضي على أعضاء البرلمان وأن نلقيهم خارجه، على الطلبة والمعمّمين مناشدة كبارهم من المراجع والمجتهدين لتحريضهم على الخروج من هذا السكوت والصمت... على طلبتنا الجامعيّين الوقوف أمام هذه الطغمة الفاسدة... يجب على الطلبة الجامعيّين في البلاد الأجنبيّة دعمَ الحركة الإسلاميّة، فليندّدوا بمواقف العملاء والمستعمِرين هذه».

لقد انعكسَت بيانات الإمام قدس سره هذه، مضافًا إلى خطابه التاريخيّ، انعكاسًا كبيرًا في أجواء البلاد. وأصبح الشعب يزداد بغضًا للحكومة والنظام يومًا بعد يوم. ومن هنا، وبعد أيّام من التفكير ووضع الخطط والطرق الفاعلة، صمّمَ الشاه على اتّخاذ قرار نهائيّ بحقّ الإمام قدس سره.

وبعد تسعة أيّام من خطاب الإمام قدس سره هذا؛ أي في 4 تشرين الثاني 1964م، شهدَت مدينة قمّ حشودًا كبيرة من رجال القوّات الخاصّة، حيث حاصروا منزل

الإمام قدس سره واقتحموه، وألقوا القبض على الإمام، وسرعان ما نقلوه إلى العاصمة، ومن ثمّ إلى المطار، فأقلّته طائرة شحن أُعِدَّت لهذه المهمّة من قبل، حيث نقلَته إلى منفاه في تركيا. وأعلنَت النبأَ الصحفُ الرسميّة لليوم التالي، وقد جاء ما نصّه: «استنادًا للدلائل والأسباب والشواهد الشافية التي لدينا حول تحرّكات السيّد الخمينيّ السرّيّة، وقيامه بمعارضة مصالح الوطن والشعب وأمن البلاد وتهديدها، ارتأت الجهات الرسميّة إقصاءه خارج البلاد، فتمّ ذلك بتاريخ 4 تشرين الثاني 1964م».

الفصل الرابع عشر

خصائص حركة الإمام قدس سره الجهاديّة

اتّصفَت حركة الإمام قدس سره الجهاديّة والنضاليّة طيلة حياته السياسيّة بصفات عدّة، أهمّها:

1. إنّ حركة الإمام قدس سره كانت مستلهمة أصلًا من فكر أهل البيت عليهم السلام، وأساسها هو العقيدة الإسلاميّة. وهي سائرةٌ على نهج القرآن ودستوره، وعلى خطى الرسول وأهل بيته عليهم السلام. ولهذا، لا يمكننا أن نقيس أو نقارن حياة الإمام قدس سره السياسيّة بالسياسيّين المحترِفين الكبار. وقد كان جهاد الإمام قدس سره نابعًا من شعور وإحساس بالمسؤوليّة الدينيّة والشرعيّة، لا لأجل الحصول على مكاسب دنيويّة ومادّيّة وسلطويّة؛ ولهذا كانت مسألة النصر لا تبعث على الغرور، والهزيمة الظاهريّة لا تشكّل أيّ خطر على حركته المباركة؛ لأنّ هدفه أبعد من هذا المجال والمستوى. ومن هنا، تمثّلَت القيادة الحكيمة بشخص الإمام قدس سره، وجعلَت منه قائدًا فذًّا ومهيبًا شجاعًا. إنّ الإمام قدس سره قد مضى بعزمٍ لا يلين، وقوّةٍ خارقة؛ لأنّه كان يقدّس حركته هذه، واضِعًا المسؤوليّة الشرعيّة الكبيرة نصب عينَيه؛ ولهذا لم نرَهُ يومًا يستسلم لأعدائه، أو يسير إلى جانبهم مراعاةً لمصالحه. والشعب كذلك كان معتقدًا بحركة الإمام قدس سره، ومتمسّكًا بها، ومطيعًا لأوامره؛ لأنّه مرجع تقليدهم وإمامهم وزعيمهم الروحيّ الكبير، فهم يرون أنّ طاعته من طاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّها واجبة عليهم، كباقي الفرائض والواجبات الدينيّة.

2. نهضة الإمام قدس سره كانت ثورة بوجه الطغاة والظالمين، الذين كانوا يبثّون الدعايات المضادّة للإسلام، ويُجهِدون أنفسَهم لعزل الجماهير عن المرجعيّة والزعامة الدينيّة، تحت شعار فصل الدين عن السياسة. لقد استطاع الإمام قدس سره أن يُوصِلَ جهودَ العلماء المجاهدين من السلف الصالح إلى النجاح. إنّ نضال الإمام قدس سره لم يكن ضدّ الظلم والجور والاستبداد فقط (كالحركة الدستوريّة)، ولم يكن ضدّ الاجتياح الاستعماريّ فقط (كالحركة الوطنيّة)، إنّما هو نضالٌ وجهادٌ قارَع به الظلم والطغيان والاستعمار في آنٍ واحد.

3. إنّ حركة الإمام قدس سره السياسيّة كانت موجَّهة للسلطة والبلاط وشخص الشاه بالذات في آنٍ واحد. ومنذ أن بدأ المعركة، كان يسعى إلى مداهمة الشاه مباشرةً أثناء خطاباته الانتقاديّة الموجَّهة للنظام ككلّ، خلافًا لبعض الحركات وبعض السياسيّين الذين لم تكن لديهم الجرأة على المساس بشخصيّة الشاه، والذين كانوا يعارضون الحكومة وبعض الإجراءات دون التعرّض له.

ونرى أنّ الإمام قدس سره، بعد مسألة الاستفتاء الذي أعلنه الشاه، انتفض بخطابه التاريخيّ الآنف الذكر، وخاطب الشاه بنفسه، ويدينه بالعمالة والخيانة و...؛ لأنّه يرى البلاط والنظام بأجمعه نمطًا واحدًا، ويدًا واحدة، والجميع خونة للإسلام والوطن والأمّة. بحركة الإمام قدس سره الجريئة هذه، انكشف القناع عن وجه الشاه المزيَّف -الذي لطالما لوّح للجماهير والشعب بأنّه رجل مسلم شيعيّ موالٍ لأهل البيت عليهم السلام، ويلتزم بالمقدّسات والاعتقادات الإسلاميّة كافّة- وبالأخصّ بعد قمعه الجماهير في انتفاضة الخامس من حزيران بشكلٍ مفجع لم يسبق له مثيل.

4. إنّ الإمام قدس سره قد طهّر حركته الجهاديّة الإسلاميّة هذه من كافّة الرواسب، ونزّهها وجعلها خالصة لله، يريد بها وجهه فحسب. وهذا عكس الكثير من الحركات والجبهات والشخصيّات السياسيّة، الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم

لتعزيز علاقاتهم بأمريكا، طمعًا بالسلطة التي يرونها الهدف النهائيّ لمسيرتهم وجهادهم. لقد تعرّض الإمام قدس سره لأمريكا منذ اليوم الأوّل لحركته المباركة، واعتبرها العدوّ اللدود للإسلام والقرآن والشعوب المسلمة، وبريطانيا والاتّحاد السوفياتيّ عدوًّا مشتركًا واحدًا يهدّد الإسلام والمسلمين في أراضيهم، ووصفَهم بالشيطنة والمكر حتّى على بعضهم بعضًا.

5. إنّ الإمام قدس سره هو الشخص الأوّل والوحيد الذي تعرّض لخطر إسرائيل على البلاد، وحذَّر منه. وهو أوّل من حارب البهائيّة في إيران، وحرّض الجماهير عليها. إنّه يرى الخطر الإسرائيليّ أعظم وأكبر من خطر أمريكا وغيرها من المستعمِرين. إسرائيل استطاعت أن تسيطر على اقتصاد إيران، وعلى ثقافة إيران، وعلى رجال السياسة في إيران، حتّى إنّه اتّهم الشاه بالعمالة لهم، وأنّه المسبِّب الأوّل لدمار الأمّة، والخائن الأوّل للوطن والشعب. ويرى الإمام الخمينيّ قدس سره أنّ العلاقة مع إسرائيل هي وصمة عار يصعب محوها، سَجَّلها الشاهُ في تاريخ إيران الإسلاميّ، إنّها لفاجعة عظمى وكارثة عظيمة.

6. ومن خصائص حركة الإمام قدس سره اللافتة للنظر أيضًا، والتي يفتقر إليها كثير من الزعماء والرؤوساء، عظمةُ نفوذه، وشدّةُ تأثير كلامه في قلوب الجماهير، وعظمةُ هيمنة أفكاره على عقول الناس، حتّى صارت تنصاع إليه متلهّفةً لسماع كلماته الحماسيّة والبطوليّة، فلا ترغب بمفارقته، حتّى لو أنّها أشبعَت نفسها، وشحنَت قواها بالطاقة الجبّارة النابعة من عمق العقيدة الإسلاميّة، والعقيدة بالله وبنصره للمؤمنين. وإنّ حَمَلَةَ خطاب الإمام قدس سره وكلماته وعباراته، يشكّلون طاقمًا من العلماء وأهل العلم المكلَّفين بحملها إلى كافّة نواحي البلاد، على سعتها، فتثير حميّةً وحماسًا وشجاعةً لا مثيل لها، في أُناسٍ لم يرَوا الإمام قدس سره قطّ.

7. حركة الإمام قدس سره كانت منطلقةً من الحوزة والأوساط الدينيّة، ومن قلب

الأوساط الفقهيّة والمرجعيّة. ومن هنا، اتّسمَت حركتُه بالحركة السياسيّة الدينيّة، التي أثّرت في النفوس تأثيرًا بالغًا، وسارَت على طريق النجاح بشكلٍ مذهلٍ وعجيب، أثّرت في الطلبة الجامعيّين بشكلٍ منقطع النظير. الطلبة الذين كانوا يعيشون الأوضاع السياسيّة المنحرفة والعميلة، أصبحوا يتوجّهون إلى حركةٍ إسلاميّة سياسيّة دينيّة مجيدة، ويشكّلون السواد الأعظم لها، خاصّةً في السنين الأخيرة من عمر السلطة البلهويّة.

الفصل الخامس عشر

المنهج السياسيّ للنظام بعد إبعاد الإمام قدس سره وحتّى عام 1971م

القسم الأوّل: المنهج السياسيّ الاقتصاديّ

بعد انتفاضة حزيران المجيدة، أصبح الشاهُ قلقًا على مصيره ومصير نظامه، من ثورة الشعب، وبعد أن زرع البغضاء والنفور في أنفسهم بارتكابه تلك الفاجعة الأليمة، وراح يوثّق علاقته بأمريكا، ويطوّر عمالته بها أكثر فأكثر؛ ليفوز بدعمها، حفاظًا على عرشه، ومساندةً لبقائه في الحكم. ومن هنا، توالَت المعاهدات المدمِّرة للوطن والأمّة، فجاءت الواحدة تلو الأخرى. إنّ ثورة الشاه البيضاء هيّأت الأرضيّة اللازمة لانحطاط الوضع الزراعيّ والاقتصاديّ للبلاد، وعبثَت في تعادل السكّان بين المدن والقرى والأرياف، إلى غير ذلك من الأمور التي أدّت إلى اعتماد البلاد على صادراتها النفطيّة فقط، بل وأصبحَت تستورد الحبوب والأرزّ من الخارج. وكثرَت المصانع والمعامل التجاريّة، التي حفّزَت المزارعين والفلّاحين وشباب القرى للانتماء إليها والعكوف عليها؛ وهذا بدوره شلّ من الحركة الزراعيّة، ومن جهة أخرى، ساعد على هجر القرى، وتضخُّم المدن الكبيرة، وبالأخصّ العاصمة. وتسبّبَت المصانع والمعامل هذه أيضًا في تغيير الحياة الطبيعيّة، وجَعلِها حياةً تقليديّة مصرفيّة بحتة؛ ما أدّى إلى انحلال الخُلُق الاجتماعيّة، وانتشار الفساد والفحشاء.

إنّه موضوعٌ طويل عريض، لا ينحصر في بضع عبارات أو صفحات أو فصول، بل وإنّ الحديث لذو شجون؛ وذلك لِما خلّفَته إصلاحاتٌ مزعومةٌ شاهنشاهيّةٌ أمريكيّةٌ.

وعلى الحصر، نذكر نموذجًا واحدًا من مخلّفاتها الهدّامة للوطن والأمّة، ولاستقلال البلاد.

في أيّار 1970م، أعلنَت الصحف الرسميّة عن سفر 35 تاجرًا متموّلًا أمريكيًّا إلى إيران، لمطالعة مشاريع اقتصاديّة تجاريّة عديدة في مجال السياحة والزراعة والتوزيع واستثمار الغابات و...

وصرّحَت صحيفة «اطّلاعات» آنذاك، قائلة: «يُشاهَد من بين الوفد التجاريّ الاقتصاديّ القادم إلى إيران، وجوهٌ لها صبغتها العالَميّة والدوليّة، أمثال: «راكفلور» و«ليليانتال» و«جـورج بوش» و... الذين تُقَدَّر كلُّ لحظة من لحظات حياتهم بعشرات الآلاف من الدولارات؛ ولهذا نرى حياتهم مبرمجةً على عدد الدقائق والثواني، كالساعات».

على العموم، وكما كان مرتقبًا، أُنفِقَت تلك الأموال الطائلة في مجالات تافهة، عادَت على البلاد بالضرر والحرمان والديون، بدلًا من أن تُصرَف وتُسَخَّر لأمور أساسيّة عمرانيّة واقتصاديّة للبلاد. ومن هنا، أضرَّت هذه الحركة بأجمعها في اقتصاد البلاد، وأدَّت إلى انهياره، وعادت بالفائدة العظيمة على الشركات الأجنبيّة والتجّار الأجانب.

القسم الثاني: المنهج السياسيّ الثقافيّ

إنّ نهضة الإمام قدس سره، بين سنوات 62 و1964م، تميّزَت من بين كافّة النهضات والثورات التي سبقتها؛ وذلك نظرًا للأهداف المرسومة لها، والروحانيّة التي اتّسمَت بها.

حقًّا، إنّها حركةٌ إسلاميّةٌ إيرانيّةٌ إلهيّةٌ، نابعةٌ من قلوب الجماهير وعواطفها السائرة خلف مرشدها وزعيمها المخلص لها. وهذا الأمر لم يكن شيئًا يسيرًا قابلًا للهضم، أو داعيًا للإهمال مِن قِبَل السلطة، وعلى رأسها الشاه؛ ولهذا عمد الشاه إلى اتّخاذ سياسة خاصّة تجاه هذه الحركة، تقاومها وتجتثّها من أصولها وجذورها. هذه السياسة هي

تشويه الطابع الثقافيّ والوعي الإسلاميّ لديهم؛ لإقصائهم عن الساحة الإسلاميّة، مهما بلغ الثمن. بَيْدَ أنّ الخطّة والمؤامرة هذه باءت بالفشل، حينما تصدّى لها جماعةٌ من الأفاضل الحوزويّين، وعلى رأسهم الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ، حقًّا، إنّها معركةٌ حامية الوطيس، وصعبة المراس، ولولا وعي الجماهير وإرشادات علماء الدين، لأُجهِضَت الحركة لمباركة وهي بمهدها؛ لأنّهم اتّخذوا من الإسلام والدين اسمًا لخططهم الهدّامة هذه، حيث يصعب على المسلم البسيط معرفة الأمر، فيتقبّله بشكل عفويّ.

لقد اتّسعَت رقعة الحركة الإسلاميّة، خلال الأعوام ما بعد عام 1963م، اتّساعًا مذهلًا وكبيرًا، رغم مكايد السلطة ودسائسها، فافتُتِحَت المدارس الدينيّة في طهران والمحافظات، وتصاعدَت الكتل والتجمّعات الإسلاميّة في الجامعات وخارجها، واستطاع بعض الطلبة الحوزويّين الانخراط في جامعات البلاد[1]، وتعدّدَت المجالس الإسلاميّة والاحتفالات بشكلٍ منقطع النظير. لقد كثرَت مراكز التوجيه الدينيّ والعلميّ، وتصاعد نشاطُها إلى حدٍّ كبير جدًّا، وكان لها الباع الكبير في تثقيف الشباب، وتسخير طاقاتهم لصالح الحركة الإسلاميّة المباركة، وكثرَت كذلك طباعة الكتب التوجيهيّة الدينيّة والعقائديّة والأخلاقيّة و... ونَشرِها، وقد لُوحِظَ هذا بشكل ملموس، فكان لها الدور الكبير في تثقيف الشباب بشكل خاصّ، والشارع الإسلاميّ بشكل عامّ. ونخصّ بالذكر هنا، تأليفات العلّامة الشهيد «مرتضى مطهّري»، والدكتور «عليّ شريعتي»، التي قلّما تجد بيتًا ومنزلًا لم تقتحم عقبة داره مؤلّفاتُهما. هذان المفكّران المبدعان خَلَقا، بجهادهما الفكريّ، جوًّا جديدًا واعيًا متفتّحًا في فهم الإسلام والدين الإسلاميّ. إنّهما بمؤلّفاتهما وخطاباتهما العديدة وجلساتهما المفتوحة، استطاعا خَلْقَ الجوّ الثقافيّ المرموق في البلد؛ ما جعل الكثير من الطلبة والحوزويّين والجامعيّين ينتمون إلى مجالسهم، وكذلك راح كبار المثقّفين والخطباء والعلماء في البلد يعكسون أفكارهما في قطاعات المجتمع كافّة. وبهذا، فهما قد قادا حركةً ثقافيّةً إصلاحيّةً لم تشهدها إيران قبل الستّينيّات.

(1) من هؤلاء، الشهيد محمّد مفتح، والشهيد العلّامة مرتضى مطهّري.

وبديهيّ أنّ الشاه لا يستطيع القضاء على هذه الحركة، أو إقصاء رجالاتها؛ لأنّها رسّخت جذورَها. أجل، لقد سبق السيف العذل! ما اضطرّ الشاه لأن يدخل مدخلًا خطرًا جدًّا، وهو وضع خطّة لتسخير هذه الحركة لأغراضه ومراميه بشكل أو بآخر. من هنا، ابتدأت الحيل والمراوغات والمكر والتزييف، فقد فرض طابعًا خاصًّا يظهر من خلاله تديّنَه، والتزامه بالفكر الشيعيّ، وولاءَه لأهل البيت عليهم السلام، متّخِذًا بعض الرموز الدينيّة مطيَّة له، ومسخِّرًا أياديه الخبيثة، حيث قصد بيت الله الحرام وأدّى فريضة الحجّ، وافتعل ضجّةً إعلاميّةً كبيرةً ملأ من خلالها صفحات الصحف والمجلّات وبطون الكتب والنشرات؛ ليخدع الجماهير المؤمنة. وقام بطباعة المصحف المبارك طباعةً منقطعة النظير، وطعّمَه بالذهب، وزيّنه وزخرفه... وأطلق عليه «قرآن آريامهر»، نِسبَةً لعائلته وعرشه، وأمر بتوزيعه. واهتمّ أيضًا بإقامة مجالس العزاء بشكل رسميّ للمناسبات الإسلاميّة، فكان يستقدم بعض رجال الدين حين يعزم على السفر، ليودّعه بتلاوة القرآن والدعاء... وشارك في المؤتمرات الإسلاميّة الإقليميّة والعالميّة... ولم يترك أسلوبًا من أساليب الخداع والمراوغة إلّا واتّبعه.

أمّا على الصعيد الجامعيّ، فقد استدعى أساتذة مستشرِقين للقيام بتدريس الموادّ الدينيّة والتاريخيّة في الجامعات. ومن الطبيعيّ أنّ هؤلاء كانوا لا يدركون من الإسلام أصولَه ومعانيه ومفهومَه الحقيقيّ كدينٍ حنيف، إنّهم يعرفون الإسلام والتحضّر الإسلاميّ على أنّه مجموعة من الآثار والفنون المعماريّة والفنّيّة القديمة، ويتعمّدون تزييف الأفكار العقديّة والتشريعيّة؛ للنيل من هذا الدين الحنيف، فتعمّدوا مثلًا إحياء أفكار شهاب الدين السهرورديّ الفلسفيّة وبلورتها، والتي هي في الحقيقة عبارة عن خليطٍ بين الثقافة والفلسفة الإسلاميّة والتراث الإيرانيّ القديم.

وبطبيعة الحال، إسلامٌ كهذا، وموادّ دراسيّة كهذه، لم تقتصر على مساعدة النظام إلى الوصول إلى أهدافه فحسب، وإنّما كانت هي الهدف النهائيّ لسياسة الشاه المدمِّرة للدين المحمّديّ الأصيل. ومن هنا أيضًا، نعي وندرك هدف الشاه من تأسيس «المركز الفلسفيّ

الشاهنشاهيّ»، الذي جمع فيه كبار المفكّرين الماركسيّين واليساريّين حول مائدته، لتشويه أفكار الطلبة والشباب المثقّفين، ولمحاربة الحركة الإسلاميّة المجيدة، والإطاحة بها.

«الإسلام الشاهنشاهيّ»[1] هو إسلامٌ مجرّدٌ من الإيمان والعمل، يحمل طابعًا فلسفيًّا وفكريًّا يتماشى مع الفكرة الغربيّة. لم يكن إسلامًا محمّديًّا، بل تجاوز المرحلة هذه ليتّخذ الطابع العموميّ للأديان كافّة على وجه البسيطة. وفي الوقت ذاته، كانوا يؤكّدون على التعارض بين «الالتزام الدينيّ» و«التطوّر العلميّ». إنّ إبعاد إسلام النبوّة المحمّديّة عن الدين الشاهنشاهيّ كان لغايةٍ خاصّة، هي إعطاءُ وجهٍ مشتركٍ بمفهومٍ واحدٍ لكافّة الديانات السماويّة، الظاهريّة والباطنيّة، بل وحتّى الوثنيّة؛ وذلك لصَبّ أصول المعرفة والكلام والعقيدة في مصبّ واحد و«جوهر واحد»؛ ليتمكّن النظام من السيطرة عليهم بأكملهم، فضلًا عن تشويه الطابع المحمّديّ وتحريفه.

إنّ الهدف النهائيّ هو تزوير الهويّة الإسلاميّة ومسخها، من خلال مزجها بالأديان والمذاهب القديمة، كالزرادشتيّة الهخمامنشتيّة، والزرادشتيّة الأشكانيّة، والساسانيّة، لينتهي الدور بالإسلاميّة الإيرانيّة على السياق الماضي.

ذلك إسلامٌ يَعتبر الملكيّة والشاهنشاهيّة منهجًا إداريًّا له، ويهتمّ بمقام المَلِك والشاه اهتمامًا بالغًا، يُطلق عليه اسم «ظلّ الله في الأرض»! بينما الإمام الخمينيّ قدس سره يعارض الفكرة من أساسها، ويقول:

«إنّ الإسلام ضدّ الملكيّة والشاهنشاهيّة. إنّ المطّلع على حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإداريّة، يرى أنّه بُعِثَ لمحاربة الشاهنشاهيّة، ولمحاربة الطغاة المتسلّطين ظلمًا وعدوانًا ودحضهم. وإنّ الشاهنشاهيّة هي مظهرٌ من مظاهر الرجعيّة فحسب».

وفي هذه الظروف والأجواء، عَمَدَت السلطة إلى منع الكُتّاب المسلمين وعلماء الدين من التأليف والتصنيف والتحرير، كما منعَت الخطباء والمرشدين من إلقاء الخطب والكلمات، واعتقلَت عددًا من الطلبة الجامعيّين، وطلبة آخرين من الحوزة العلميّة.

(1) كان الإمام قدس سره يطلق عليه في الأعوام الأخيرة: «الإسلام الأمريكيّ».

تماشيًا وتزامنًا مع هذه التدابير والإجراءات، شجّع النظام على نشر الفحشاء والمنكر والفساد وتعاطي الموادّ المخدّرة في أوساط الشباب. ومن هنا، قامت بعض أقطاب العائلة الحاكمة بفتح نوادٍ مخصّصة لهذا الغرض، وقدّمت التسهيلات والمساعدات للانتماء إليها، فمثلًا، «قصر الشباب»[1]، بدلاً من أن يكون مركزًا للتوجيه الروحيّ والتدريب الجسديّ السليم للشباب، أصبح محلّ فسادٍ وعبثٍ وطيشٍ. وكذلك الحال للسينما والتلفزيون والإذاعة والصحف والمجلّات، فهي كذلك مكرَّسة لدعم هذه الحركة الهدّامة. والهدف النهائيّ لهذا واضحٌ جدًّا، فمراكز البغي والفحشاء والإعلام والتلفزة، هذه الوسائل كلّها لإغراق الشباب في بُؤَر الشهوات والنزوات، ولمسخ أفكارهم وأذهانهم، وإبعادهم عمّا يدور في فُلك الحكم والسياسة وإدارة دفّة الحكم، ولإبعاده عن كلّ فكر دينيّ أو مذهب إسلاميّ فاضل. فالحفلات ومجالس السمر كانت هي الأخرى السبّاقة بهذا المجال لإشغال الشعب، ولإماتة روح القوّة والعزيمة للشباب خاصّة. وكانت نفقات هذه الحفلات والمجالس والبرامج الإذاعيّة والتلفزيونيّة والصحفيّة تبلغ الآلاف المؤلّفة، وتُنهَب من جيوب الشعب، ومن بيت مال المسلمين. هذا كلّه لإحياء مجالس اللّهو والترف والطرب، فمثلًا في عام 1961م، وبمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لتتويج الشاه، وفي عام 1962م، بمناسبة ذكرى تتويج المَلِك والملكة بتاج السلطنة الشاهنشاهيّة، صُرِفَت مبالغ طائلة لا حدود لها[2].

هذا كلّه، مضافًا إلى الحفلات والأعياد والمجالس، كاحتفال السلطة مثلًا، بمرور العام 2500 على الشاهنشاهيّة. يقول أحد المؤرّخين والكُتّاب المعاصرين: إنّه خلال سنة واحدة، تشهد البلاد أكثر من ثلاثين مناسبة وعيد وذكرى تعود لنظام السلطنة والعائلة الحاكمة! وللإمام قدس سره وقفات وملاحظات نتطرّق إليها في الفصول القادمة، إنْ شاء الله.

---

(1) في كلّ مدينة من إيران، كان هناك «قصْر للشباب».

(2) عدد قطع ألماس تاج الشاه 3380 قطعة تزن 1144 قيراط، و50 قطعة زمرّد وزنها 199 قيراط، وقطعتا ياقوت وزنهما 19 قيراط، و368 قطعة لؤلؤ كبيرة، وزن الذهب المصنوع منه التاج 2.800 كيلوغرام، وتاج الملكة 1.480 كيلوغرامًا، وعدد كبير من الأحجار الكريمة..!

الفصل السادس عشر

الإمام قدس سره في المنفى

القسم الأوّل: في تركيا

«من أجل استقلالِ وطني، نُفِيتُ عنه».

إنّها أوّل عبارة أطلقها الإمام قدس سره، مخاطبًا أحد مراقبيه في الطائرة التي أقلّته إلى تركيا. وهذا هو واقع الأمر بعينه؛ لأنّ جرمه وذنبه هو تنديده بالحكم الجائر، ومعارضته للسلطة، ومخالفته لدستور البلاد، حيث راح يدعو لطرد المستعمِرين والقوّات الأمريكيّة، وتطهير البلد من أدران أمريكا، حفظًا لاستقلال البلاد، وصيانةً لكرامتها من أولئك المعتدين الآثمين. أجل، إنّ هذه الدعوة هي، في نظر السلطة الخائنة، أكبر جرم، وأعظم ذنب يقترفه الإمام قدس سره.

إنّ مثل هذه الإجراءات والتهديدات والتصرّفات، لم تستطع يومًا تغيير شيء من النهج الذي انتهجه الإمام قدس سره، ولم تُثْنِ عزمه أو تزعزع ثباته وصموده، بل زادت من تعزيز معنويّاته وتجديد قواه، إذ إنّ ما يقوم به هو واجبٌ وتكليفٌ إلهيّ. وعلى الرغم من جميع الصعاب والعقبات، تأقلم الإمام قدس سره مع الموقف الجديد والموطن الغريب، وتكيّف مع الظروف والبيئة الجديدة، واستعاد نشاطه، وعاد إلى أعماله اليوميّة المنتظمة؛ فكان أوّل قرار يتّخذه الإمام قدس سره عند دخوله العاصمة أنقرة، هو التعرُّف على الأوضاع الاجتماعيّة والثقافيّة للبلد، واقتنى من مكتبة المطار نسخةً من كتاب تعليم اللغة التركيّة، وشرع بتعلُّمها. بعد ثلاثة أيّام، وإثر إصرارٍ شديدٍ منه على رجال الأمن، حصل على الموافقة للقيام بجولة سياحيّة استطلاعيّة في أرجاء

العاصمة لمدّة 40 دقيقة، تحت مراقبة رجال الأمن ومرافقتهم. وبعد ثلاثة أيّام، أعاد الكرّة، واستطاع خلالها زيارة بعض الأماكن الأثريّة، وبعض المراكز والمتاحف والجسور الجديدة والشوارع الكبيرة والرئيسة، والتعرُّف على أنقرة القديمة. إنّ مَن يقرأ هذه العبارات، يتبادر إلى ذهنه أنّ الإمام قدس سره قام بجولة ترفيهيّة ليخفّف عن نفسه بعض الآلام والمتاعب، إلّا أنّ جولته هذه كانت ذات أهدافٍ سياسيّة، على الرغم من أنّه مبعدٌ سياسيٌّ، وضيفٌ على تركيا، إلّا أنّه عمد إلى زيارة العلماء المسلمين، والشهداء الذين قُتِلوا على يد «أتاتورك» دكتاتور تركيا الظالم.

وبقيَت السلطة تلاحق أفكاره هناك، حيث فرضَت عليه ارتداء الزيّ الروحانيّ المتعارَف عليه في تركيا، وهو عبارة عن معطف طويل، مضافًا إلى وضع قبّعةٍ متعارف عليها، بدلًا من العمامة. وقد ارتدى الإمام قدس سره المعطف رغمًا عنه، إلّا أنّه لم يتنازل عن العمامة، لم يضع القبّعة الأتاتوركيّة، بل التزم لبس العمامة، التي كانت تثير حفيظة السلطات وتقلقهم، على الرغم من بُعد المسافة.

بعد مضيّ ثمانية أيّام على إقامته في أنقرة، نقَلَه رجالُ الأمن إلى مدينة «بورسا» المطلّة على بحر «مرمرة» -التي تقع على بُعد 460 كم من أنقرة غربًا- وذلك خوفًا من اجتماعه بالصحفيّين الأتراك والأجانب، الذين كادوا يكتشفون محلَّ إقامته في أنقرة.

وبعد وصول الإمام قدس سره إلى أنقرة، وانتقاله إلى محلّ إقامته، بعث برسالة إلى عائلته الكريمة[1]، ليُطلِعَهم على أوضاعه وأخباره، وعلى ما هو عليه في المنفى.

إنّ رسالةً من زعيمٍ دينيٍّ ومرجعِ تقليدٍ، عادةً ما تكون بالغة الأهمّيّة، يستعمل محرّرُها كلماتٍ وعباراتٍ دقيقةً للغاية، فكيف إذًا بزعيمٍ كهذا، ذي رسالة دينيّة وسياسيّة؟ إنّها رسالة معبِّرة ومهمّة للغاية، وكلّ كلمة منها لها حساب خاصّ... إنّها عبارات ذات وقع خاصّ ومدلول كبير، لا تنطلق من موقع ضعف أو ندامة، بل من موقع الشعور بالمسؤوليّة و... عبارات حماسيّة تنطلق من موقع القوّة والاقتدار والصمود والتحدّي؛ لتعيد أمجاد الأمّة، وتدعو الشعب لمواصلة مسيرته بعزم وحزم

(1) رسالة موجّهة إلى نجله الشهيد آية الله السيّد مصطفى.

كبيرَين. رسالة الإمام قدس سره كانت موجَّهةً إلى نجله الشهيد السيّد مصطفى، وهي بمثابة نداء للأمّة بأجمعها، وإليكم نصّها:

«29 جمادى الثاني 84، نور عيني السيّد مصطفى (أيّده الله -تعالى- ووفّقه لمرضاته)، بحمد الله -تعالى- وصلتُ إلى أنقرة صباح الأربعاء المنصرم بخيرٍ وسلامة. الجوّ هنا ملائمٌ وطيّبٌ، وهو أفضل من جوّ قمّ. أرجو أن لا تقلقوا علَيّ، فالحمد لله، إنّني بخير وعافية، ولا شيء يقلقني. إنّ الله لا يقدّر سوءًا لعباده. إنّني من هنا، أوصيكم وأوصي كافّة أفراد الأسرة والأقارب، بعدم الالتجاء إلّا إلى الله -تعالى-، وعدم الفزع للآخرين، وأطلب منك الصبر والثبات.

إنّ الذي يقدّره العزيز المتعالي يجب أن يُنَفَّذ. المهمّ هو أن أنبّهَك فيما إذا كنتَ تريد مرضاة الله -سبحانه- ورضايَ، أن تُحسِنَ معاملتَك للأسرة والعيال والأقارب والمعارف بأجمعهم. لقد عُرِضَ عليَّ حين السفر، وهنا أيضًا، فيما إذا كنتُ أودّ اصطحابَكم معي. لكن، مع كلّ شوقي إليكم، رفضتُ ذلك، وإنّني لا أرضى بمجيئكم إلى هنا بالمرّة؛ لأنّ بلد الغربة لا يلائم طباعكم وعاداتكم. وإنّ وسائط الراحة سوف تُهَيَّأ لي، إن شاء الله -تعالى-. ما أطلبه منكم هَيِّؤوه لي بأسرع وقت؛ لأنّه تمّ الاتّفاق على أن يأتيكم بعض الأفراد، ويأخذوا ما أريده ليحضروه لي إلى هنا. وإذا نسيت شيئًا لم أذكره هنا، فأرسِلوه أنتم. أرسِلوا لي كتاب «مفاتيح الجنان» و«الصحيفة السجّاديّة» وكتاب «المكاسب والحواشي»[1]، وبعض الألبسة، كالعباءة والثياب وغيرها. مضافًا إلى ذلك، أريد مقصّ الأظافر، ومقصّ الحلاقة، والسجّادة، والخواتم. أمّا بالنسبة لمصاريف هذا الشهر، فراجِعوا السيّد... ووزِّعوا الرواتب الشهريّة، وخُذوا ما تحتاجونه لشراء الفحم»[2].

(1) كتب تُدَرَّس في الحوزة العلميّة.

(2) رواتب طلبة الحوزة ومخصّصاتهم من الإمام قدس سره، لم تُقطَع حتّى في الأوقات العصيبة، وإعطاء الفحم للمحتاجِين أيضًا لم يُقطَع حتّى السنوات الأخيرة.

هذا، وبعد عشرة أيّام، أرسل الإمام قدس سره رسالةً أخرى، يؤكّد فيها على عدم الالتجاء إلى أحدٍ، ويؤكّد أنّ هذا كلَّه من قضاء الله وقدره، ويصف حالَه هذا بأنّه: «**لطف من الله، لا يصدر منه إلّا الجميل، وهذا يحتاج إلى صبر جميل**». وينبِّه نجلَه السيّد مصطفى بأنّه سوف تُجرَى بعض التخفيضات، وتُرفَع عنه بعض القيود؛ نتيجةً للضغوط الداخليّة والخارجيّة على النظام.

كان قدس سره يستقصي أخبار البلاد من الإذاعات ووكالات الأنباء، عبر المذياع الذي هُيِّئ له من ذي قبل. بعد شهر ونصف الشهر من إبعاده إلى تركيا، سُمِح له بإجراء اللقاءات الشخصيّة، وأوّل من التقى به هو مندوب آية الله الخوانساريّ، حيث نقل له أخبار البلاد الخاصّة، كمظاهرات السائقين وإضرابهم إثر ارتفاع أسعار المحروقات، وما قام به رئيس الوزراء من إعطاء وعود كاذبة وخادعة، حيث أظهر الإمام قدس سره قائلًا: «**نحن سوف نستمع لوعودٍ جديدةٍ في العام المقبل مِن هذا الشخص أو غيره...**». ثمّ تساءل الإمام قدس سره عن الأوضاع الاقتصاديّة في قمّ بالأخصّ، عندما ضربها برد شديد وقارس، سأل قائلًا:

«**لقد بلغني أنّ رئيس الوزراء يدّعي بأنّ الأمور على ما يرام، ولا شيء هناك غير طبيعيّ وناقص. وردتَني تقارير من مدينة قمّ مفادها أنّه إذا لم يصل الوقود الكافي والمناسب إلى هذه المدينة، سوف يتعرّض سكّانها إلى الهلاك، ولكن استطعت أن أوزّع 1000 طنّ من الفحم على هؤلاء الناس. ويقول رئيس الوزراء: كلّ شيء على ما يرام!**».

وكما تلاحظ عزيزي القارئ، إنّ الإمام قدس سره، بمكانه هذا وهو تحت رقابة السافاك، لم يكن ليحترز من بيان الحقائق والتعرُّض للسلطة الحاكمة. وعندما استجلى مندوب النظام رأيَ سماحة الإمام فيما إذا هيّأت له الحكومة مقدِّمات العودة للبلاد، أجابه قائلًا: «**... إنّ موقعي هذا لا بأس به، وسأبقى أجاهد إلى أن يكلَّ أحدُنا؛ إمّا أنا، وإمّا السلطة**».

وبعد ثلاثة أشهر، نفَت السلطةُ السيّدَ مصطفى نجل الإمام قدس سره إلى تركيا، ليلحق والدَه بمنفاه. يقول السيّد مصطفى: إنّه بمجرّد أن رآني والدي، قال لي: «**أتيتَ، أم أتوا بك؟**».

وعندما علم بأنّهم أبعدوني قهرًا، قال لي: «**لو كنتَ قد أتيتَ برغبتك، لأرجعتُك من حيث أتيتَ**».

نرى الإمام قدس سره بمواقفه هذه، هو أكبر حجمًا وأعظم مكانًا من أن يستسلم لعاطفته الأبويّة تجاه ولده الذي غاب عنه مدّة ثلاثة أشهر. إنّه بموقفه هذا، أراد أن يعرف إذا ما كان نجله قد وضع الوساطات للحصول على موافقة السلطة للسفر إلى تركيا لرؤية والده، أم هناك أمر آخر، حيث يترتّب على ذلك موقف سلبيّ تجاه حركته المباركة. يقول السيّد مصطفى: «**عندما وصلتُ إلى تركيا، رأيتُ طعام والدي بعد أيّامٍ ليس جيّدًا، ولو لم أصل بهذا الوقت، لسقط والدي بعد أيّام مريضًا، ولازم الفراش نتيجة الضعف البدنيّ الذي خيّم عليه؛ والسبب كان أنّه لا يطلب الطعام الذي يناسب صحّته ويلبّي حاجته، بل كان يأكل الطعام المقدَّم إليه**».

وبعد أشهر من هذا، وفد عليه ممثّل آية الله الكلبايكانيّ. وعندما تراءى له شخص الإمام قدس سره، وهو لا يضع العمامة، عادلٌ بردائه وزيّه الدينيّ، أخذَته العاطفة، ولم يتمالك نفسه حتّى تناثرَت عبراته الحزينة والمؤلمة لحال الإمام قدس سره وأوضاعه. وعندما سأله أحدُ ممثّلي بعض مراجع المسلمين آنذاك حول احتمال تسهيل سُبل العودة، أجاب مقاطِعًا:

«**لقد عاهدتُ الله ونفسي على أن لا أتراجع أمام السلطة، وأن لا أستسلم لأعمالهم الدنيئة**».

وقد وُفِّق الإمام قدس سره خلال فترة إقامته في تركيا، التي استمرّت أحد عشر شهرًا، إلى جمع فتاويه وآرائه الفقهيّة وتحريرها وتأليفها في كتابٍ عُرِف بـ«تحرير الوسيلة». جاء في قدّمة هذا الكتاب:

«... كنتُ قد علّقتُ على كتاب «وسيلة النجاة» وشرحتُه، وهو للحجّة الفقيه السيّد الأصفهانيّ (المرحوم آية الله السيّد أبو الحسن الأصفهانيّ). وإثر الحوادث المؤلمة الأخيرة التي حدثَت، نُفِيتُ إلى تركيا في أواخر جمادى الثاني 1384هـ، وعندما فُسِحَ لي المجال، وتوفّر الهدوء، عزمتُ على جمع التعليقات تلك وتدوينها، بنظم المسائل الجديدة والمستحدثة، وما يتطلّبه من المستجدّات في كتاب مستقلّ؛ ليسهل تناوله. أسال الله -تعالى- أن يوفّقنا للعمل الصالح، وأن يصون العالَم الإسلاميّ، وبالأخصّ مركز التشيُّع، من كيد الكافرين المستعمرين، إنّه سميع مجيب».

وفي الرابع من نيسان 1965م؛ أي بعد أحد عشر شهرًا من نفي الإمام قدس سره إلى تركيا، قامَت السلطة عبر عناصرها من رجال السافاك، بنقل الإمام قدس سره إلى منفاه الأخير في العراق. وهدفَت السلطة من وراء ذلك إلى هدفَين اثنَين:

أوّلًا: تفادي نشوب حركة جماهيريّة محتملة، قد تعمل على زعزعة الأوضاع من جديد. وليوهِم العالَم بأنّه أعطى امتيازًا للعلماء والمراجع.

ثانيًا: تضليل الرأي العامّ على أنّ الإمام قدس سره ترك السياسة، وانضمّ إلى الدرس والبحث في الحوزة العلميّة في النجف.

القسم الثاني: العراق

فجأة، دون علم مسبق، نُقِل الإمام الخمينيّ قدس سره بصحبة نجله السيّد مصطفى إلى بغداد، في الرابع من نيسان 1965م. وساعة حلوله بغداد، قصد زيارة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. فما هي إلّا دقائق، حتّى انتشر خبر قدوم الإمام قدس سره، وسرعان ما حضر عنده عددٌ من العلماء وأهل العلم وجمعٌ غفير من الإيرانيّين المقيمين في النجف وكربلاء، وقام السادة المراجع بإرسال ممثّليهم لتقديم تبريكاتهم وتهانيهم بمَقدم سماحته. وبعد يومين من إقامته في مدينة الكاظميّة، انتقل إلى سامرّاء، حيث استقبلَته حشودٌ كبيرة من الناس والعلماء، ومن ثمّ تفرّغ للقاء العلماء والجماهير المحتشدة.

وفي اليوم التالي، غادر البلدة، متّجهًا إلى مدينة كربلاء، حيث استقبلَته جموعٌ غفيرة أثناء حلوله المدينة، وهم يردّدون هتافات التبريك، ويزفّون البشرى لمقدَمه المبارك.

ووسط تلك الجموع الجماهيريّة الكبيرة، واكب مسيره حتّى بلغ المشهد الحسينيّ مثوى الإمام السبط الحسين بن عليّ عليه السلام. وأقام الإمام قدس سره في كربلاء أسبوعًا واحدًا، وأَمَّ سماحتُه المصلّين طيلة فترة إقامته، بدلًا من السيّد محمّد الشيرازيّ، نزولًا عند رغبة الأخير. وبعد مضيّ أسبوعٍ من إقامته، اتّجه الإمام قدس سره إلى النجف، واستقبلته المدينة استقبالًا منقطع النظير، حيث لم تشهد مدينة النجف استقبالًا مهيبًا كهذا قط!

وهنا، أخذ الإمام قدس سره يتحيّن الفرص الملائمة والجوّ المناسب لكشف القناع عن مؤامرات الدول العظمى، وخيانات الشاه والسلطة، وما يُحاك للعالم الإسلاميّ من دسائس خلف الستار؛ وذلك من أجل تماسُك علماء الدين وتعاضُدهم، والظهور بمظهر الوحدة والصمود والقوّة. وبعد أيّام أربعة من دخول الإمام مدينة النجف، التقى آيةَ الله السيّد محسن الحكيم زعيمَ الطائفة الشيعيّة في العراق آنذاك، وحاول خلال حديثه معه أن يَلقى بعضَ الدعم منه؛ لمواصلة مسيرة الكفاح والنضال ضدّ الأعداء المتربِّصين بأمّتنا، وضدّ أهداف الشاه التي ترمي إلى النيل من الإسلام[1].

إنّ ذلك اللقاء يعطي مؤشّرًا هامًّا، يحكي عن مدى وعي الإمام قدس سره للجوّ السياسيّ الحاكم.

بعد أربعين يومًا من دخول الإمام قدس سره العراق، افتتح حوزتَه الدينيّة والعلميّة في النجف في جامع الشيخ الأنصاريّ. وفي اليوم الأوّل من استئناف محاضراته، خطب بالحاضرين خطابًا مهمًّا، عبّر فيه عن مشاعره وأفكاره واتّجاهه ومنهجه، وأكّد على مجالات كثيرة ومهمّة، وتكلّم حول الكمالات الخلقيّة السامية، وعن جهاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في سبيل إعلاء كلمة الإسلام والتوحيد، وإقامة الدولة الإسلاميّة، وتطرقّ أيضًا إلى

(1) تفاصيل اللقاء هذا يجده المطالع والمنقّب عنه في المجلّد الثاني من كتاب «نهضة الإمام الخمينيّ»، ص151 و152.

الأحكام السياسيّة في الإسلام، وأبعاد الإسلام السياسيّة والاجتماعيّة، ومسؤوليّة العلماء ومراجع الدين تجاهها، وحذّر من الفرقة وخطر الصهيونيّة، وأكّد على تهذيب النفس وكسب الفضائل و... وممّا جاء في خطابه، قوله قدس سره:

«... الإسلام ليس جنبًا تعبُّديًّا ينحصر في إطار الصلاة والصيام والدعاء والتسبيح؛ هذا بابٌ واحدٌ من أبواب الإسلام. إنّ الإسلام له منهج خاصّ، وسياسة خاصّة به. الإسلام يعني إدارة البلاد، وإدارة الأمور العامّة، و... ومع الأسف الشديد، إنّنا اتّخذنا طرقًا ومناهج ليست مجدية، وبذلنا جهودنا في المجال الدينيّ البَحت فقط، ولم نتطرّق إلى أمور الأمّة وإدارة نظامها».

بينما نرى أكثر أحكام الإسلام تتعلّق بالإدارة والنظام، ودراسة المجتمع سياسيًّا وحكوميًّا، وقال أيضًا:

«... المساجد في عهد الرسول وفي الصدر الأوّل، كانت كلّها قواعد سياسيّة للإسلام. في المساجد كانت توضع مخطّطات الحروب... في المساجد كانت تُدار أمور البلاد... وكانت خطب صلاة الجمعة تدور حول السياسة والحروب وإدارة البلاد و...».

ثمّ تطرّق إلى مسؤوليّة العلماء والمراجع تجاه إقامة الحكومة الإسلاميّة، فقال:

«... كما أنّ رسول الله كان مسؤولًا عن إقامة الدولة الإسلاميّة، فعلماء اليوم هم أيضًا مسؤولون عن ذلك، ويجب عليهم أن يبيّنوا أحكام الإسلام بشكلها الصحيح، بدلًا من الوقوف عند صيغتهم الجامدة التي لا يعرفون منها سوى تحريك اللسان بها، وحمل كتاب الدعاء... على أولئك توضيح حقيقة الدين الإسلاميّ كما هي. يجب أن يعرف العالَم أنّ لنا دينًا متكاملًا شاملًا لمجالات الحياة كلّها، وأنّ لنا دينًا متكاملًا دنيويًّا وأخرويًّا. إنّ دينًا مثل هذا، مَن الذي يجب عليه أن يُظهِرَه؟ ألم تكن هذه وظيفة العلماء؟».

هذا الخطاب أبان للعالَم والنظام الشاهنشاهيّ أنّ الإمام قدس سره ماضٍ على ما مضى عليه في السابق، ولم يعدل عن مسيرته ومبادئه مطلقًا، خلافًا لتوقّعات الشاه والكثير

من المراقِبين السياسيّين، بل بدا لهم واضحًا أنّه مصمّمٌ على إقامة الحكومة الإسلاميّة، مهما كلّف الثمن. من هنا، بدأ النظام بنشر الدعايات، وبثّ السموم والافتراءات على الإمام قدس سره، عبر الجهلاء والمغفَّلين من الشباب والطلبة البسطاء، الذين استغلّهم لهذه المهمة، وغيرهم من العلماء والمأجورين.

قام الإمام قدس سره بإرسال عدّة رسائل وبرقيّات إلى الكثير من العلماء المجاهدين في إيران، يحثّهم فيها على متابعة النضال والجهاد والكفاح، ويعزّز من مواقفهم، ويمدّهم بشحنات إيمانيّة صلبة وصادقة. وقد جاء في بعضها:

«يؤلمني كثيراً ما حَلَّ بالمسلمين في إيران، بالأخصّ بعلماء الدين والطلبة الدينيّين، طلبة السنوات الأخيرة. بيدَ أنّ هذه الآلام والضغوط والتضحيات، التي تحمّلَتها الحوزة العلميّة والسادة الفضلاء وكافّة الإخوة المؤمنين، عادَت على المسلمين وعلى العالَم الإسلاميّ بالمنفعة، والحمد لله... إنّها من الألطاف الإلهيّة التي دعَت الأمّة أن تبلغ مرحلةً من النضج والوعي والتجدّد، لم تشهدها من قبل... إنّ مَهمّة علماء المسلمين اليوم قد تعاظمَت وكبرَت، وهي تحتاج اليوم إلى صمود وشجاعة، وصدٍّ عن حرمات الله، وعن الدين والمقدّسات والحوزة العلميّة، وعليهم تبليغ أحكام الإسلام بوعيٍ متفتّحٍ.

طلبتنا الشباب الأعزّاء (وفّقهم الله -تعالى- وأيّدهم) هم الآخرون المسؤولون عن دعم الحركة الإسلاميّة، والوقوف إلى جانب علمائهم وأساتذتهم. وعليهم أن يعوا المسؤوليّة الكبيرة الملقاة على عاتقهم، والتي ستتعاظم في المستقبل؛ لكي يستعدّوا للتصدّي لأعداء الأمّة، وللقيام بواجبهم المقدّس المثاليّ.

إنّ هذه الدنيا الدنيئة، بزخرفها وزينتها، سوف تمرّ علينا جميعًا. إنّه لمن دواعي السرور والفرح أن يقضي الإنسان عمره المعدود هذا في طاعة الله، وخدمة دينه القويم، وخدمة إخوانه المسلمين، ونصرتهم من ظلم المتجاوزين والمستبدّين».

ثمّ يبتهل إلى الله داعيًا، فيقول:

«إنّني أرفع يدَيّ نحو السماء، وتحت قباب أئمّتنا، وأتضرّع إليه، وأسأله نصرة الإسلام والمسلمين والحوزة والشباب المؤمن المناضل».

ونرى الإمام قدس سره متلهّفًا ومتشوّقًا إلى أيّامه الحوزويّة السابقة في قمّ، وذلك عبر رسائله التي كان يرسلها إلى علماء إيران طيلة خمس سنوات من الزمن، ويُرى الإمام قدس سره فيها حزينًا وكئيبًا لِما كان يلاقيه من جمود وخمول سياسيّ في الحوزة العلميّة في النجف. ويشيد بعلماء إيران والحوزة العلميّة في قمّ، فيقول:

«... لقد أشرفَت السنينُ الأخيرة من عمري، ولا أعلم أين سيؤول بنا الدهر، ونحن واقعون بين مطاردةٍ وضغوط بعضهم (يقصد الشاه ونظامه)، وبين تساهل بعضنا ولا مبالاتهم».

وجاء في إحدى رسائله الموجّهة إلى بعض مراجع الدين في قمّ، قائلًا:

«... إنّني مضطربٌ وواقعٌ في هلع شديد تجاه مستقبل الحوزة في قمّ مستقبلًا... مضطربٌ من احتمال إطالة إبعادي أكثر ممّا مضى، والذي قد يؤدّي إلى تهاون بعضهم وتراجعهم. إنّني أبتهل إلى الله، وأسأله أن يصلح أمورنا... أبلغ الجميع بأنّي مشتاقٌ جدًّا للمثول بين أياديكم، لأشارككم أفراحكم وأحزانكم، وإنّ أولئك الثلّة من العلماء الفضلاء الذين أثبتوا جدارتهم ووفاءهم تجاه قضيّتهم، هم الذين أنظر إليهم بأمل كبير. وإنّني لأرى طريقي مشرِقًا بأنوارهم. وإن شاء الله، سأكون بينكم في أوّل لحظة يسهّل الله بها عليّ».

إنّ أوّل بيان رسميّ صدر عن الإمام، كان بعد نفيه بعامَين ونصف العام، فضح من خلاله دسائس الاستعمار، عبر عميله الشاه، وكشَفَ النقاب عنها، وبَيَّن واجب العلماء وأهل العلم تجاهها وتجاه سلطة الجبابرة، مطالِبًا إيّاهم بعدم التراجع والتقهقر أمامهم، وموصيًا بالعزم والصمود والتصدّي. وجاء فيه:

«بين الآونة والأخرى، تصلني أخبار مفزعة ومؤلمة عن أوضاع البلاد والحوزة

العلميّة، وأنا قاطن بمنفاي هذا. إنّني على علم بما يجول في عقول السلطة الظالمة من أفكار تجاه المسلمين والإسلام والمقدّسات والقرآن وأحكامه. إنّكم عند رجال السلطة أناسٌ مجرمون! جريمتكم هي خدمة القرآن والدين الإسلاميّ، وعداؤكم للاستبداد والاستعمار، ومعارضتكم النهب والسلب والسرقات... وهدف الاستعمار هو قمع الدين ومحو الإسلام... كُتِب عليكم القتل والتشريد والسجن والظلم والإهانة والنفي؛ ذلك كلّه لفتح البلاد أمام الأجانب والإسرائيليّين. لقد كُتِب على الطغاة أن يغوصوا في بحار شهواتهم ونزواتهم، وترك بلادهم، والتوجّه إلى أنفسهم، وكُتِب عليكم التشريد والقتل والنفي والتعذيب؛ لوقوفكم بوجه هؤلاء...

أيّها الشعب الإيرانيّ البطل، إنّني أبشّركم بالنصر القريب، وبهزيمة النظام الجبّار! اصمدوا أمام الظلم والقمع. إنّهم زائلون لا محالة؛ وأنتم، أيّها الصامدون، باقون إن شاء الله. إنّ الظلم لا يدوم أبدًا أمام عواطف الأمّة الجيّاشة. لقد مرَّت علينا أيّامٌ صعبة سوداء من قبل، ممّن سبق هؤلاء الجبابرة. لقد وقفنا في وجههم طيلة أيّام حكمهم، ولم تتزلزل أقدامنا أبدًا، واجهنا ضغوطهم واغتيالاتهم وغاراتهم وظلمهم، ولم نركن للجمود والخمول والتراجع أبدًا. لقد صمدنا ووقفنا، حتّى انهاروا وسقطوا أمام أعيننا. وما عليكم سوى الصمود والوقوف أمام هؤلاء؛ كي يهووا من تلك المشارف المزيّفة، ليلقى كلُّ واحدٍ منهم جزاءه الموعود.

الاستسلام لا معنى له... إنّهم صمّموا على محوكم تمامًا. لا تُخدَعوا بأساليبهم ومكرهم إذ يأخذونكم باللين والرفق، وبمختلف الأساليب. وما عليكم سوى الاستقامة والصمود وإظهار الحقّ، حتّى يتقهقروا».

من خصائص الإمام قدس سره الجهاديّة، عدم تأكيده على مسائل عاديّة وبسيطة، بل كان يلقي بثقله على أهمّ المسائل، وعلى الأمور الكبيرة. وقد رأينا كيف خالف الإمامُ قدس سره الحكومةَ حول لائحة المجالس المحلّيّة، وكيف وقف في وجهها، وقد أراد من وراء ذلك إعلانَ موقفه تجاه السلطة، وفضح المؤامرات التي تُحاك ضدّ البلد، ولم

يُرِد اللائحة بذاتها. لقد قام بعضُ علماء قمّ بإرسال بعض الطلبة كممثّلين لهم إلى سماحة الإمام، وهو بمنفاه في النجف، ليستفسروا عن رأيه حول لوائح جديدة للبرلمان صدرَت حديثًا، تمسّ مقدّسات المسلمين والنظام الإسلاميّ. ولَمّا مَثَلوا بين يدَيه، أجابهم بأنّ المسألة أكبر حجمًا من هذا، وأنّها تكمن في إسقاط النظام فقط، فلو استجبنا لمثل هذا الإغراءات، وأقدمنا على مثل هذه الأفعال، فإنّنا سوف نقرّ بشرعيّة النظام القائم، وأنّ الخلاف يقع في مدى تطبيق القوانين فحسب. ومن هنا، أحجم الإمام عن إصدار أيّ بيان، أو إعطاء رأيه حول اللوائح الجديدة. كذلك أكّد الإمام في رسالة جوابيّة لأحد علماء الدين، أنّ القيام بنشر عدّة بيانات وإعلانات واتّصالات ببعض الهيئات الدبلوماسيّة والسياسيّة، وحتّى الأمم المتّحدة، ليست مثمرة، ولن تعود علينا بالفائدة. وحذّر جماعةَ العلماء المجاهدين وغيرهم ممّن هم في ساحة النضال، تحذيرًا شديدًا، وأعلن بأنّ هذا سوف لن يكون لصالح الحوزة والإسلام.

تزامنًا مع بيان الإمام الذي وجّهه إلى الحوزة العلميّة في إيران، أرسل سماحتُه رسالةً إلى رئيس الوزراء آنذاك «أمير عبّاس هويدا»[1].

وهذه الرسالة هي آخر نداء من سماحة الإمام يوجّهه إلى السلطة الجائرة، ليقيم عليها الحجّة، وليقطع كافّة الاتّصالات بهم نهائيًّا.

هذه الرسالة تذكّرنا برسائل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى النجاشيّ مَلِك الحبشة، وأكاسرة الإمبراطوريّة في إيران وروما آنذاك؛ وعلى الرغم من أنّ موقف بعض أولئك الملحدين والمشركين تجاه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان سلبيًّا، نرى أنّ دعوته ورسالته كان لها أثرها البارز والهامّ، وظهر مفعولُها بعد برهة من الزمن، وتحطّمَت القيصريّة والكسرويّة أمام عظمة الإسلام. وهذه الرسالة هي الأخرى سائرة على النهج ذاته، حيث لم يمضِ عليها إلّا بضع سنوات، حتّى شهد النظام آثارها، وكان ضحيّةً لمواقفه الخيانيّة، ولعنجهيّته واستبداده.

---

(1) بقي في هذا المنصب حتّى انتصار الثورة الإسلاميّة، وقد حكمَت عليه محكمة الثورة بالإعدام، وهو أحد أقطاب الماسونيّة والبهائيّة في إيران.

نصّ رسالة الإمام:

بسم الله الرحمن الرحيم

«لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

حضرة السيّد هويدا، أرى من الضروريّ أن أتقدّم إليكم ببعض النصائح، وأكشف عن بعض الأمور، وإن كان الخيار لكم في قبول ما أقول، أو عدم قبوله.

طوال هذه المدّة التي قضيتُها هنا منفيًّا من وطني، بجريرةِ معارضة قانون حصانة الأمريكيّين، الذي قوّض أُسُس استقلال البلاد، وأعيش في المنفى خلافًا للشرع والدستور، فإنّ قلبي يعتصره الألم ممّا أطّلع عليه بشكلٍ نسبيٍّ، مِن ظلمٍ ومصائب يُلحِقها النظام المتجبّر بالشعب الإيرانيّ الأصيل المظلوم.

إنّ ممّا يُؤسَف له أنّ معزوفة إصلاحاتكم النشاز لم تتجاوز تقريبًا سوى العرض الإعلاميّ في الإذاعة والصحف الموجَّهة، وبعض الكتابات المشحونة بالهراء، وكلّ يوم يزداد الشعب فقرًا وتردّيًا، وتتفاقم حالات الإفلاس بين التجّار في السوق.

ولم يكن لهذا الهراء الإعلاميّ كلّه غيرُ خَلقِ سوقٍ سوداء للأجانب، والإبقاء على الشعب بحالةٍ من الفقر والتخلُّف، بدعوى الشعب المتقدِّم. إنّ حكومتكم وحكومة أسلافكم، ونزولًا عند رغبة أولئك الذين يريدون الإبقاء على شعوب الشرق بحالتها المتخلِّفة، مارسَت وتمارس أبشع أنواع التسلُّط البوليسيّ. إنّها حكومةٌ من القرون الوسطى، حكومة الأسنّة والرماح والتعسُّف والسجون، حكومة الكبت وقمع الحرّيّات، حكومة الخوف والتسلُّط، تقوم باسم المشروطيّة بممارسة أسوأ أنواع الحكم الديكتاتوريّ المستبدّ، وتوجِّه باسم الإسلام أشدَّ الضربات إلى القرآن الكريم والأحكام السماويّة، وتنتهك باسم التعاليم السامية للإسلام أحكامَ الإسلام، واحدًا تلو الآخر. ولو أنّها وجدَت الفرصة -لا سمح الله- فإنّها ستواصل ذلك مستقبلًا، وستُبقي على البلاد في حالةٍ من التخلُّف، بدعوى التقدُّم والازدهار.

هذه حقائق مرّة، ينبغي عليّ أن أُطلِع الدنيا عليها، وألفتَ الأنظار إليها، حتّى

يتحرّك أولئك الغافلون أو المتغافلون، ويشعروا بمسؤوليّاتهم، ولا ينخدعوا بمراءاتكم ومظاهركم الخدّاعة.

وإذا أردتُ أن أشير إلى مظاهركم تلك، فلا أشير فقط إلى الاحتفالات غير الوطنيّة التي تُقام لشخصٍ واحد عدّة مرّات في كلّ عامٍ، ويرافقها في كلّ مرّةٍ مصائب مفجعة للإسلام والمسلمين، وللشعب الإيرانيّ الفقير البائس... في إحدى تلك الحفلات التي لا يمكنني إلّا أن أسمّيها بحفلات الهوس والشهوة والتلاعب بأحاسيس الناس، قِيل: إنّ الحكومة أنفقَت 400 ألف مليون ريال، تمّ تأمين نصفها من خزانة الدولة، ونصفها الآخر من جيوب التجّار في البازار وغيرهم، أُخِذَت بالإرعاب والتهديد.

إنّكم تُنفِقون دماء قلوب الفقراء؛ لتحقيق الشهرة والسلطة لكم. وما دام هذا الشعب في حاله من الجهل بدوره وحقوقه، فكلّ يومٍ لكم عيد ومسرّة، ولهذا الشعب النكبات والمصائب.

أشير فقط إلى ما يرافق هذه الاحتفالات غير الميمونة من هتكٍ لأعراض المسلمين وحرمات الإسلام، والتي يأنف القلم عن تسطيرها.

أنتم في قصوركم الفخمة التي تغيّرونها في كلّ بضعة أعوام بملايين التومانات، من النفقات التي لا يمكن للشعب مجرّد تصوّرها، تعكفون على جمعِ ذلك كلّه من جيوب المواطنين البائسين، وترون بأعينكم جوعَ الشعب، وانهيار البازار (السوق)، وبطالة الشبّان والخرّيجين، وتدهوُر الزراعة، واختلال أوضاع السوق، وسيطرة إسرائيل على الشؤون الاقتصاديّة في البلاد، بل وكما تشير بعض التقارير، فإنّهم يتدخلون الآن في الثقافة أيضًا!

... فكيف يقبل ضميركم أن تتملّقوا إلى هذه الدرجة للأجانب؛ من أجل حكومةٍ سرعان ما تزول، وتسلّمونهم ثروات الشعب مجّانًا، أو مقابل أشياء تافهة؛ لتُلحِقوا الظلم والاستبداد برعيّتكم؛ أعني هذا الشعب المظلوم؟ وكيف ترضون أن تبيّنوا للعالَم حكومتكم والدولة الإسلاميّة بمظهر التخلُّف والرجعيّة؟ فنقض الدستور دليلٌ على التخلُّف، وكذلك الاستفتاء غير القانونيّ والمزيَّف هو دليلٌ على التخلُّف. ومصادرة حرّيّة الشعب في انتخاب ممثِّليهم، وتعيين أفراد معروفي الاتّجاه تبعًا لأوامر الآخرين،

وبدون تدخُّل الشعب، هو دليلٌ على الضعف والتخلُّف أيضًا.

إنّكم تعلمون بأنّ الشعب إذا ملك خيار تقرير مصيركم، فإنّكم لن تكونوا على هذا الوضع، وإنّكم ستُنبَذون إلى الأبد. ولو أنّكم أعطيتم الحرّيّة للخطباء والكتّاب مدّة عشرة أيّام، فإنّ جرائمكم ستُكشَف للملأ العامّ... هل تعلمون ما هي الخيانة التي ارتكبتموها بحقّ هذا البلد، وبحقّ الإسلام، بمصادقتكم على هذا المشروع؟ وأيّة ضربة وجّهتموها لاستقلال البلاد؟ طبعًا، فإنّ المعارِض لهذا المشروع هو خائن، ويستحقّ النفي من البلاد!

... توقّفوا عن التعاون مع إسرائيل عدوّ الإسلام والمسلمين، التي شرّدَت أكثر من مليون مسلم مظلوم، ولا تجرحوا عواطف المسلمين، ولا تُفسِحوا المجال أكثر من ذلك لإسرائيل وعملائها الخونة للنفوذ في أسواق المسلمين، ولا تعرّضوا اقتصاد البلاد للخطر؛ من أجل إسرائيل وعملائها، ولا تخاطروا بثقافتنا من أجل شهواتهم وملذاتهم... لا تجعلوا علماء الأمّة يضطرّون للتصرُّف معكم بشكلٍ آخر...

كانت هذه ثلّة قليلة من الفجائع التي ارتكبتموها ضدّ الدين والشعوب، أقولها لعلّكم تتّعظون وترعوون، ولعلّ مراجع الإسلام والعلماء الأعلام والخطباء المحترَمين يستشعرون مسؤوليّتهم، ولعلّ... ولعلّ...».

ولم تهتمّ السلطة بتحذيرات الإمام قدس سره هذه، وأعرضَت عن الأمر نهائيًّا، واستمرّت بعقد المعاهدات التجاريّة والسياسيّة مع الأمريكيّين والأجانب بأكثر ممّا مضى. وبناءً على آخر الاتّفاقيّات، تعاهد الطرفان على تسليم كافّة الاختيارات، بما يتعلّق بالبلاد، إلى الاستثمارات الأجنبيّة. ولم يسكت الإمام قدس سره عن هذا أبدًا، وأعلن عن رأيه وتنديده للسلطة تارةً أخرى، وذلك بمناسبة استشهاد حجّة الإسلام «سعيدي»[1] على يد أزلام النظام في صيف 1970م. وأوضح الإمام قدس سره، من خلال بيانه هذا، أهدافَ أمريكا الرأسماليّة في إيران، وقال:

(1) أحد العلماء المجاهدين، الذي كان يهاجم النظام بخطبه الناريّة؛ وكان ذلك ما أدّى إلى اعتقاله، ومن ثمّ استشهد في السجن إثر التعذيب الوحشيّ، حيث تمّ ثقب رأسه بالمثقب الكهربائيّ.

«... إنّ المتخصّصين والخبراء الأمريكيّين الكبار، باسم الرأسماليّة والاستثمار، هجموا على بلادنا وعلى أمّتنا لنهب ثرواتنا. إنّ أولئك المستثمرين الذين كتبَت عنهم الصحف بأنّ لحظاتٍ من حياتهم تعادل آلاف الدولارات، يجب أن يُعرَف لأيّ سبب قدِموا إلى البلاد؟ هل لحلّ مشاكل البلاد، ولمسائل إنسانيّة؟ أولئك الذين تسبّبوا في قتل الآلاف من الناس الأبرياء وتشريدهم وسجنهم، هل هم إخوان وأصدقاء حميمون لنا؟ أمّ إنّ هناك أمرًا ما يقف له الشاه ليعربَ عن عمالته وانصياعه للغرب به؟ إنّ هذا هو العار، وهو الخذلان، وهو الذلّة!».

وتطرّق الإمام قدّس سرّه مرّات ومرّات إلى نفوذ إسرائيل، وبيَّنَ خطرَها، وطالب الأمّة بأن تعزب عن معاملة اليهود في البلاد، وتقطع كافّة الروابط معهم. وفي نهاية بيانه هذا، أكّد قائلًا:

«إنّني أعلن للجميع بأنّ أيَّ اتّفاق ومعاهدة تُوَقَّع مع الأمريكيّين، هي مخالفة للدستور وللإسلام وللدين. أعضاء البرلمان الإيرانيّ هم أعضاء مزيَّفون، وليسوا ممثِّلين عن الشعب الإيرانيّ حقًّا. كافّة آرائهم غير قانونيّة، ومخالفة للدستور ورأي الشعب... على كافّة علماء الدين والطلبة الجامعيّين المثقّفين أن يقفوا أمام هذه الاتّفاقيّات؛ لكي لا تخرج إلى حيّز التنفيذ».

أ. الإمام قدّس سرّه وموقفه إزاء الحرب العربيّة الإسرائيليّة الثالثة

في صيف 1967م، وقعَت الحرب الثالثة بين إسرائيل والدول العربيّة، والتي دامت ستّة أيّام فقط. هذه الحرب شنَّتها إسرائيل بصورة باغتة، وألحقَت بهم أضرارًا كبيرة، وأضرَّت بالعالَم العربيّ والإسلاميّ بشكل عامّ. وقد تأثّر مسلمو العالَم بأجمعهم بما حلَّ بإخوانهم المضطهدين، وأخصّ بالذكر الإيرانيّين، الذين راحوا يجمعون تبرّعاتهم وهداياهم عبر حسابات خاصّة؛ ليقدّموها معونةً لإخوانهم المسلمين المظلومين.

أمّا الشاه، فقد راح يوثّق علاقاته مع إسرائيل أكثر فأكثر، ووقّع معاهدات عديدة في مجالات النفط، وتبادل الخبرات الجاسوسيّة والعسكريّة. وبموقفه هذا، غرز في ظهر

الدول العربيّة خنجرًا مسمومًا. أمّا الإمام قدس سره، فأصدر بيانًا بهذه المناسبة [وأُذِيعَ عبر الإذاعة العراقيّة من بغداد]، وأعلن عن رأيه، منددًا بالهجوم الوحشيّ هذا، وحرَّم كافّة الروابط والعلائق مع إسرائيل، وعلى كافّة الأصعدة السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة. وإليكم نصّ البيان:

بسم الله الرحمن الرحيم

«لقد حذّرَت الدول الإسلاميّة مرارًا وتكرارًا، وبالأخصّ دولة إيران، من مؤامرات الاستعمار والصهاينة، وما يدبّرونه لنا من خطط وأفكار هدّامة يبثّونها بين صفوفنا؛ من أجل فرقتنا والسيطرة علينا وعلى بلادنا وثرواتنا. إسرائيل، هذه الجرثومة الفاسدة الفتّاكة، استعملها الاستعمارُ أداةً له؛ لتخريب صفوفنا وتهديمها. وكلّ يوم يمرّ علينا، نراها تتوغّل في بلادنا الإسلاميّة أكثر فأكثر. ويجب على الدول الإسلاميّة الكبرى وعلى المسلمين كافّة الاتّحاد والوفاق؛ من أجل التصدّي لهذا العدوان. إسرائيل قامت بقوّة الدول الاستعماريّة الكبرى، ويجب على المسلمين والدول الإسلاميّة قمعَها وإسقاطَها. مساعدة إسرائيل وبيعها السلاح والنفط وأيّ شيء حرام، وغير جائز، ومخالف لأوامر الإسلام ونواهيه. يجب على المسلمين كافّة قطع الروابط التجاريّة والاقتصاديّة معهم، وعليهم مقاطعة البضائع الإسرائيليّة أينما وُجِدَت. أسأل الله -تعالى- نصر الإسلام وأهله، آمين ربّ العالمين».

وبعد عامٍ واحد على هذا، أصدر الإمام قدس سره فتوى شرعيّة تجوّز صرف الزكاة والصدقات على المدافِعين المجاهِدين الفلسطينيّين، معلنًا بذلك دعمه واهتمامه بالقضيّة الفلسطينيّة والإسلاميّة.

وبعد مرور عامَين على هذا العدوان الشرّير، قامت إسرائيل بقصف المسجد الأقصى، وأضرمَت النيران لتعرب عن سوء نواياها تجاه المسلمين والعالَم الإسلاميّ. إنّ قصف المسجد الأقصى، القبلة الأولى للمسلمين، وإحراقه، ما هو إلّا عمليّة تحدٍّ وعدوان على مقدّسات الإسلام والدين الحنيف. تلك حادثة هزّت ضمير العالَم، وأرعبَت قلوب

المسلمين عامّة في كلّ مكان، وما كان من حكومة الشاه سوى تقديم بعض التأوّهات، وإظهار الأسف لِما حَلَّ بالمسجد المبارك، وحرصَت على إدانة النظام الإسرائيليّ، وأَعلَن عن افتتاحه صندوق مساعدة وتبرّعات لإعادة بناء المسجد وترميمه فقط، حيث قال: «**إنّ الشاه والأمّة الإيرانيّة هم السبّاقون الأوائل لإعادة بناء المسجد الأقصى، قبلة المسلمين الأولى، وترميمه، وإنّهم يعتزّون ويفتخرون بذلك**».

أمّا الإمام قدس سره، فقد أعلن عن رأيه تجاه هذه الحادثة عندما التقته صحيفة «الجمهوريّة» العراقيّة، فقال:

«**ما دامت فلسطين محتلّة، يجب على المسلمين ترك المسجد بصورته هذه؛ لتبقى صورة إسرائيل الجنائيّة والمدمِّرة ذكرى على مدى الزمن، ولكي يدرك العالَمُ من هي إسرائيل، وما هي خططها**».

وبعد أشهر، أعرب الإمامُ قدس سره عن رأيه تارةً أخرى، حينما تناول بحث «الحكومة الإسلاميّة»، فقال:

«**... لقد أحرقوا المسجد الأقصى وكلَّ شيء. فنادينا وصرخنا ودعونا إلى تركه على حاله تلك؛ كي يتعرّف العالم على آثار جرائم إسرائيل، إلّا أنّ الشاه فتح صندوقًا لإعادة بنائه وترميمه، وشجّع الشعب على التبرّعات والهِبات؛ ليملأ جيوبه من جهة، وليغسل عار إسرائيل من جهة أخرى**».

ب. الإمام قدس سره واهتمامه بالطلبة الجامعيّين الإيرانيّين خارج البلاد

طيلة فترة إقامة الإمام قدس سره في منفاه الثاني، وبالتحديد النجف، كانت له لقاءات ومكاتبات ومحاورات عدّة مع الطلبة الجامعيّين الإيرانيّين الذين يواصلون دراستهم خارج البلاد، مضافًا إلى عدّة لقاءات أخرى التحق بها كُتّاب وأدباء وسياسيّون كبار. والإمام قدس سره بدوره، كان يبذل لهم العطاء والاهتمام الكبيرَين، مضافًا إلى إرشاداته وتعاليمه وتوصياته الحكيمة. ونرى الإمام قدس سره في مشهد رائع، إذ يجيب على إحدى رسائل بعض الكُتّاب المسلمين، ويشرح له خطر الاستعمار على البلاد الإسلاميّة، ويبيّن

له سبب خمول الأمّة، ومدى خيانة الحكومات، ويؤكّد له أنّ الشبيبة المؤمنة والطليعة المسلمة هي أمل الأمّة الوحيد في التحرّر والخلاص، فيقول:

«إنّني كُلّي أملٌ في أن أرى شبابنا -وهم بقوّتهم وعزّهم ونشاطهم، وقبل فوات الأوان وبلوغهم الكبر والعجز- يقومون بمَهمّتهم، ويؤدّون رسالتهم، وهي إيقاظ الأمّة من نومها العميق، وذلك على الأصعدة كافّة؛ بالشعر والنثر والخطابة والكتابة والنشر و... التي هي أداة إيقاظ الأمّة من سباتها. وأدعوكم إلى ذلك حتّى في اجتماعاتكم الخاصّة والصغيرة؛ فلعلّ دعوتنا هذه تكون مدعاة لبروز رجال غيارى وشجعان، يحملون على عاتقهم عبء التصحيح، ويقضون على هذه الأوضاع المؤلمة.

على أبنائي الشباب الطلبة أن يعوا كيد الأعداء، وأن يجدّوا بالدراسة وتحصيل العلم، وأن يعزبوا عن كافّة المخدّرات والمحرّمات المثبطة لنشاطهم وتحصيلهم، وأن يُعرِضوا عن كافّة المغريات والشهوات وأنواع اللهو والطرب؛ فإنّها فخٌّ وضعَه الاستعمار لإماتتهم والقضاء عليهم. يجب على المفكّرين والواعين والمخلِصين أن يعدّوا خطط تنمية لإعداد أفرادٍ مثلهم، وعليهم أن يتواصلوا بالحقّ، ويتواصوا بالصبر، وألّا يخافوا في الله لومة لائم».

كذلك قام الإمام قدس سره بإرسال رسالة جوابيّة مفتوحة، ردًّا على رسالة وجّهها اتّحاد الطلبة المسلمين الإيرانيّين في أوروبّا عام 1969م، أكّد فيها على جرائم المستعمرين ومؤامراتهم في إيجاد التفرقة وشقّ صفوف الطلبة والشباب وعلماء الدين، وقال:

«... إنّ الأنظمة الخائنة والعميلة حاولَت جاهدةً مسخَ أفكار الشباب، وإبعادَهم عن أحكام الدين الإسلاميّ الحنيف، وبالأخصّ في الجانب الاجتماعيّ والاقتصاديّ والإداريّ، وسعَت بوسائلها وأساليبها كلّها لتجعل من الإسلام والدين أفيونًا ومخدّرًا لطاقاتهم، حيث أكّدَت على الجانب العباديّ والدينيّ فقط، لا غير؛ وفي الحال، نرى قواعد ديننا القويم مرتكزةً على الأصول السياسيّة والاجتماعيّة، أكثر ممّا هي على القواعد العباديّة».

وفي مجالٍ آخر، أوضحَ الإمام قدس سره سوءَ نوايا الغرب بإرساله بعثات المستشرقين والبحّاثة، واتّهمهم بالعمالة، حيث إنّ هدفهم النهائيّ هو تمزيق صورة الإسلام الجليّة والواضحة، وتشويهها. وأعرب عن ذلك، قائلًا:

«لقد سعى المستشرقون وعملاء الغرب، وباسم معرفة الإسلام والدين والشعوب الشرقيّة، للقضاء على الأفكار الإسلاميّة الواعية، وصرفوا جلّ جهودهم على ترويج الأفكار الهدّامة، فعرّفوا الإسلام بأبنيته وزخارفه ونقوشه وفنونه، وشوّهوا تاريخَه، فجعلوا سيادتَه بيد الأمويّين والعبّاسيّين والعثمانيّين الجائرين؛ وقد أدّى هذا بأجمعه إلى صفع المسلمين صفعةً غيّرَت كافّة مفاهيمهم وأفكارهم، حيث صَعُب علينا الآن إفهامهم ما هو الإسلام الحقيقيّ والحكومة الإسلاميّة».

ثمّ يؤكّد الإمام قدس سره على مسؤوليّة الشباب ورسالتهم، ويقول:

«يا معشر الشباب الواعي، تقع اليوم عليكم مَهمَّة الإصلاح وإيقاظ الشباب الغافل المتأثِّر بالغرب وبثقافته. عليكم بفضح جرائم الغرب وأعماله الشنيعة بحقّ البشريّة. وعليكم توضيح الصورة الحقيقيّة للإسلام وللحكومة الإسلاميّة التي كانت في الصدر الأوّل، والتي لم تَدُم سوى وقتٍ قصير. عليكم رَصُّ صفوفكم، وتوحيد طاقاتكم، وفضح مؤامرات الأعداء كافّة أمام الأنظار كافّة، وبالأخصّ المسلمين».

إذًا، بهذا كان الإمام قدس سره، على مدى فترة إقامته في منفاه، كثيرًا ما يؤكّد على الجانب السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ في الإسلام، وكثيرًا ما كان يدعو إلى إسلامٍ ثائرٍ على الدكتاتوريّة والاستبداد والاستعمار، حيث حمّلَ الطلبة والشباب المسلم مسؤوليّاته.

في تشرين الثاني عام 1969م، سنحَت فرصة ثمينة للإمام ليعلن عن آرائه ونظريّاته حول الحكومة الإسلاميّة ودستورها، والتي كان يتكلّم عنها في السابق وبين الحين والآخر، بشيءٍ من الإشارة والتلميح. وسرعان ما قام بإعداد حلقة بحث، طرح فيها محاضراته المتواصلة حول أهمّيّة الحكومة الإسلاميّة وقوامها، وسرعان ما كانت

محاضراته تُطبَع، وآراؤه تلك تُنشَر باللغتين العربيّة والفارسيّة، وتقع في متناول الأيدي. وقد لاقَت استقبالًا كبيرًا من الطلبة وعلماء الدين والشباب المؤمن. وقد انتقد الإمام قدس سره الحوزة العلميّة، واتّهمها بالتقصير بممارسة مَهمَّتهم الأساسيّة، وتطرّق إلى الركود والجمود المخيّم عليها بصورة عامّة في الجانب السياسيّ والإداريّ والاقتصاديّ، وكذلك إهمال الحوزة كلّ ما يتعلّق بأمور المسلمين وبلادهم من خطر الاستعمار، وابتعادهم عن المؤامرات الدنيئة التي تخطّط وتنسّق للإطاحة بهم.

أكّد الإمام قدس سره على أنّ مَهمَّة العلماء ومراجع العصر هي إقامة الحكومة الإسلاميّة، مستدلًّا بذلك الامتداد الرساليّ والقياديّ للأئمّة عليهم السلام والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. وأبان مستجليًا الفكرة الإسلاميّة وأبعادها السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، مؤكِّدًا ذلك بدلائل موثَّقة، وشواهد عقليّة ونقليّة.

إنّ بحث «الحكومة الإسلاميّة» طويل وعريض، ويحتاج إلى اهتمام كبير وبالغ، نترك مطالعته للقرّاء الأفاضل؛ نظرًا لسهولة تناوله في كتب مستقلّة، وفي متناول الأيدي، وأكتفي هنا بذكر الإشادة؛ الإشادة التي صدرت عن العلّامة آية الله «جوادي الآمليّ» حول هذا البحث، إذ يقول:

«عظمة الإمام وعظمة بحثه هذا تكمن في تغيير إطار بحث ولاية الفقيه وشكله، من المجال الفقهيّ، إلى المجال الكلاميّ، حيث الأصل والأساس؛ إذ استطاع، مستعينًا بالأدلّة العقليّة والكلاميّة، أن يفجّر المعنى الحقيقيّ لها، وجعل منها نورًا ساطعًا على جوانب الفقه كافّة».

وبعبارة أخرى: «إنّ الإمام أكّد على أنّ ولاية الفقيه هي امتدادٌ لخطّ الإمامة أوّلًا. وثانيًا، رسّخَ الإمامة والولاية في مكانتها التي تليق بها. وثالثًا، أوضح مفهوم الإمامة والولاية العصريّ والمتحضّر. ورابعًا، جعلها مطلّةً على أبعاد المجالات الفقهيّة».

ج. الإمام قدس سره والنظام العراقيّ

قام حزب البعث العراقيّ بانقلاب على «عبد الرحمن عارف» عام 1968م، وتربّع

على سدّة الحكم، مُعرِبًا عن سياسته الثوريّة ضدّ الصهيونيّة، مضافًا إلى اتّخاذه شعارات شيوعيّة. وكان الكثير من العامّة يتصوّرون بأنّ حزب البعث العراقيّ هو حزبٌ شيوعيّ. بَيْدَ أنّ الإمام قدس سره كان يلمّح منذ ذلك الحين، بأنّ النظام العراقيّ له قواعد بريطانيّة، ويحمل شعارات مزيّفة وماكرة. وبمرور الزمن، اتّضحَت الصورة الحقيقيّة للنظام العراقيّ، وتأكّد الجميع من صحّة رأي الإمام قدس سره، وذلك في حرب إسرائيل مع الدول العربيّة عام 1973م. وأعلنَت السلطات الإسرائيليّة بوقتها عن أملها في اتّخاذ سياسة مرنة وملائمة معه، مع أنّ النظام العراقيّ كان مستمرًّا بإطلاق الشعارات والهتافات الحماسيّة والشديدة ضدّها.

في عام 1969م، تكدّرَت العلاقات الإيرانيّة العراقيّة، وأخذ أحدُهما يكيد للآخر. وعمدَت إيران إلى تحريك الأكراد ضدّ الحكومة العراقيّة، معلنةً بذلك تدخّلها بشؤون العراق الداخليّة، فيما قامت السلطات العراقيّة بطرد الكثير من الإيرانيّين المقيمين في العراق، وحتّى المقيمين منذ سنوات عديدة، والذين حصلوا على الجنسيّة العراقيّة. لقد ألقى بهم العراقيّون خارج البلاد على الحدود؛ للضغط على الحكومة الإيرانيّة، وكذلك حاول النظام العراقيّ التقرّب من المعارضة الإيرانيّة؛ ليستغلّها لخدمة أهدافه الخاصّة.

بناءً على هذا، قام مدير الأمن العامّ وقائم مقام مدينة النجف بزيارة الإمام قدس سره لأوّل مرّة منذ إقامته قدس سره في النجف. وطلب هذا وقتًا خاصًّا من سماحة الإمام قدس سره للتحدّث معه بشكل سرّيّ، وعلى انفراد. بَيْدَ أنّ الإمام قدس سره أعرب عن عدم موافقته، وسمح لهم بزيارته في الوقت العامّ المخصَّص للزيارات العامّة، أسوةً ببقيّة الزائرين. ولم يرضخ الإمام قدس سره إلى ضغوطهم وإصرارهم على ذلك، خشيةً منه وتجنّبًا لاحتمال وقوعه في مصيدة النظام العراقيّ، والذي قد يتّخذ من لقائه الخاصّ هذا ورقة رابحة له، تعود على الإسلام والمسلمين والحوزة بالخذلان والذلّ، مضافًا إلى احتمال اتّهام الشاه بتعامله مع السلطات العراقيّة سرًّا.

نصّ الحوارات واللقاءات التي دارَت بين الإمام قدس سره ورجال السلطة في العراق،

نقلَها السيّد «روحانيّ» في كتابه «نهضة الإمام الخمينيّ». مجمل لقاءاتهم كانت منصبّة على كسب دعم الإمام قدس سره لهم، لكونه معارضًا لنظام الشاه، بينما الإمام قدس سره ردّ عليهم ردًّا عنيفًا وقاطعًا، فقال:

«أوّلًا، إنّ خلافنا مع النظام الشاهنشاهيّ هو اختلاف عقائديّ وأصوليّ متجذّر، وليس له حلٌّ مطلقًا، بينما خلافكم مع إيران خلافٌ موسميّ وفصليّ، وستعود العلاقات على ما كانَت عليه بمرور الزمن. ثمّ إنّ أحدَكم يتعرّض للآخر ويطعن به، وسوف تمرّ الأيّام والليالي، وتصبحون يدًا واحدة وأصدقاء حميمين، بينما نحن لنا مبادئ وأصول ثابتة، ولا نستطيع أن نركن للظالمين أبدًا».

ثمّ تطرّق إلى جرائم الحزب الحاكم، وقال:

«ثانيًا، ما الذي أعرضتُم عنه وفعلَته إيران؟ لقد قمعَت السلطات الإيرانيّة الجماهير بأبشع صورة، وقتلَتهم شرَّ قتلة، وأنتم اليوم بطرقكم الوحشيّة الشنيعة، تشرّدون الآلاف من الإيرانيّين، وتطردونهم ظلمًا وعدوانًا من العراق. ولم تكتفوا بذلك، بل أهنتم العلماء وأهل العلم الفضلاء الكبار. وحسب ما بلغني، فإنّكم سحبتم الإيرانيّين في مدينة الكاظميّة من الحمّامات، وألقيتم بهم بسيّارات خاصّة، وبصورة بشعة، ونقلتموهم إلى الحدود... إذا كان الشاه قد اقترف سيّئة، فلقد اقترفتم سيّئات وسيّئات!».

وبعد أشهر، قام محافظ مدينة كربلاء، نيابةً عن رئيس الجمهوريّة، بزيارة مراجع النجف، ومن ضمنهم الإمام قدس سره. ولمّا حضر عند الإمام قدس سره، بلّغه تحيّات رئيس الجمهوريّة وقائد مجلس قيادة الثورة في العراق وسلامه، ومع أنّه كرّر هذه العبارة مرّتَين، إلّا أنّه لم يلقَ من الإمام قدس سره تجاوبًا واهتمامًا، والتزم سماحتُه الصمت والسكوت. في اليوم التالي، أعلنَت صحيفة «الجمهوريّة» العراقيّة نبأَ زيارة المحافظ لمراجع النجف، وأعلنَت الآتي:

«... إنّ الزعامة الدينيّة والمراجع ورجال الحقّ والعدالة يؤيّدون ويبجّلون ثورة السابع عشر من تمّوز أشدّ التأييد والتبجيل. وإنّ رجال الدين أعربوا عن امتنانهم

لزيارة السيّد المحافظ، ودعوا له وللنظام بالنصر والتوفيق. وأثنى رجال الدين على مواقف الحكومة العراقيّة من الحكومة الإيرانيّة الجبّارة، وشكروا المسؤولين على مواقفهم بإرجاع المبعَدين الإيرانيّين إلى العراق. وأعربوا عن استيائهم من الحكومة الإيرانيّة؛ لمواقفها العدوانيّة لمشكلة أروند رود».

وبعد يومَين، استدعى الإمام قدس سره قائم مقام النجف الأشرف، وطالبه بتكذيب كلّ ما ورد في صحيفة الجمهوريّة رسميًّا، عبر رجال السلطة والمسؤولين، وهدّده قائلًا:

«إذا لم يتمّ هذا، فسوف أستدعي كافّة سفراء الدول الإسلاميّة، وأبلغهم بكلّ ما اتّهمتمونا به وافتريتموه علينا. فمن الآن وصاعدًا، سوف لن أستقبل أيّ مسؤول عراقيّ؛ كي لا يكون لكم مجال لافتراءات أخرى».

إنّ أزلام النظام الحاكم ليسوا مرنين، بل إنّهم متغطرسون وغير مبالين. بَيْدَ أنّهم كانوا يهابون مواقف الإمام قدس سره، فعمدوا إلى تكذيب الخبر ذلك بأسلوب فنّي، حيث أعلنَت الصحيفة عن وقوع اشتباه في المفهوم والأداء، وأنّ ما جاء في الصحيفة من الأخبار هذه عارٍ عن الصحّة.

بعد هذا، سُئِلَ الإمام قدس سره عن سبب عدم استقباله رجال السلطات الإيرانيّة، فيما هو يستقبل نظراءهم العراقيّين، فأجاب قائلًا:

«نحن في بلادنا لنا قواعدنا وشعبيّتنا؛ ومن هنا، استطعنا أن نجاهد النظام ونعلن محاربته. وبالطبع أثناء النضال والقتال، لا معنى للقاءات والزيارات. أمّا هنا، وفي العراق بالذات، نحن غرباء وحيدون، والشعب العراقيّ يجهلنا، ولا يعرف شيئًا عنّا، وليس من حقّنا معارضة النظام أو الثورة عليه، ومسألة قطع العلاقات معه سوف لن تفيدنا مطلقًا. ومع هذا، إنّني حريصٌ جدًّا على عدم تمكين النظام من انتهاز فرصة مناسبة يستغلّنا بها، وإنّني أنظّم أوقات اللقاءات والزيارات لرسله، وأجعله في الأوقات العموميّة؛ لكي يشهد اللقاء عددٌ من الناس والزائرين، وتكون المسألة علنيّةً بعيدةً عن كلّ شبهة، ولا تفسح لهم المجال لاستغلال أيّ موقف لتسخير لقاءاتنا لمآربهم».

الفصل السابع عشر

تحرّكات نظام الشاه بين أعوام 71 و1977م ومواقف الإمام قدّس سرّه تجاهها

احتفل النظام في عام 1971م احتفالًا عظيمًا وكبيرًا بمناسبة مرور العام 2500 على قيام الشاهنشاهيّة (الملكيّة) الإيرانيّة. وقد ظلّ النظام أشهرًا، بل سنوات طويلة يعدّ لهذا الاحتفال ويتهيّأ له، وقد دعمته الصهيونيّة دعمًا فاعلًا، ولا بدّ لنا من أن نقف عند الجانب السياسيّ له وقفة وجيزة.

كان احتفال إيران بمرور 25 قرن على النظام الملكيّ أملَ رضا خان وابنه محمّد رضا خان من بعده، إلّا أنّ الأوّل لم يتحقّق له أمله لعزله عن السلطة. وكان الهدف من وراء هذا يكمن في أحابيل سياسة رضا خان ونجله محمّد رضا، ومراوغات الشخصيّات المؤثّرة التي طالما رأيناها تلتفُّ حولهما منادين بالوطنيّة والقوميّة والماسونيّة، وهم يشجّعون على إعادة التراث الملكيّ والأثريّ السابق، وإحياء سنن الأوّلين لإماتة الروح الإيمانيّة والإسلاميّة وإعلاء النَفَس الوطنيّ والقوميّ لمسخ أفكار الشعب وتطعيمها بالوثنيّة والزرادشتيّة.

ولهذا استنفرت الدوائر الحكوميّة بأجمعها، وبذلت قصارى جهدها، وبالأخصّ عام 1970م؛ من أجل تهيئة الجوّ المناسب والأرضيّة المناسبة لهذا الاحتفال الذي يدور في ذهن الشاه وأبيه منذ سنوات عديدة، وقامت وسائل الإعلام بدعم هذه الخطوة ومساندتها، فمنذ شهور بعيدة أخذت تتطرّق إلى القوميّة والوطنيّة، وصعّدت

من موجتها الإعلاميّة والدعائيّة لهذا الاحتفال على الصعيدين الداخليّ والخارجيّ. وخصّصت الدولة مبلغًا عظيمًا من ميزانيّتها، وفتحت صناديق التبرّعات والهبات في الشوارع، وأجبرت الكثير من القطاعات على مدّ يد المساعدة والمساهمة لهذا المشروع، حيث لم يسلم طلّاب المدارس والثانويّات، فألزم كلّ طالب بدفع مبلغ 50 ريالًا بعنوان تهيئة مبلغ لبناء 2500 مدرسة في كافة أنحاء إيران!

وعمدت السلطة قبل أيّام من إقامة الحفل، إلى شنّ حملة اعتقالات واسعة في صفوف الطلبة الجامعيّين وبعض علماء الدين وكلّ من يُشَكّ في أمره، نظرًا لخشيتهم احتمال ردود الفعل الجماهيريّ بصورة أو بأخرى.

وبناءً على الدعوة التي قدّمها الشاه، شهدت البلاد حضورًا دبلوماسيًّا من قِبل العديد من رؤساء الجمهوريّات والوزراء والملوك و... يرافقهم المئات من المرافقين السياسيّين، وكذلك الصحفيّين والإعلاميّين.

ينقل المؤرِّخ الفرنسيّ بيير بلانشه في كتابه «إيران، ثورة باسم الله» حول أبّهة الاحتفال المزعوم، واصفًا إيّاه بالآتي:

«... هي استضافة تحت فسطاط كبير مطرَّز من نوع المخمل، يحتوي على 22 لوسترًا عملاقًا، يتضمّن فرقة موسيقيّة، أمّا مائدتهم... ذلك المطبخ الفرنسيّ الذي جمع أفضل طبّاخي العالم، أعدّ تلك المأكولات العريقة من الدرجة الأولى، كالطاووس المشويّ والكباب والسرطان المقليّ، إلى جانب ذلك الكافيار الإيرانيّ، كلّها أُعِدّت من باريس، ونُقلت الأزهار العظيمة والمنقطعة النظير من هولندا بطائرة خُصِّصت لهذا الغرض...».

كما ويؤكّد مؤلّفو كتاب «إيران ضدّ الشاه» بقولهم:

«إنّ إقامة مثل هذا الحفل بعظمته وأبّهته هذه، والذي أُعِدّ من أموال الشعب التي صرفوها لديكورات جونسون العالميّة ولأطعمة مطعم مكسيم الفرنسيّ، ومن إعداد وتنفيذ ايبل جونس و... لم تكن إلّا لهدف واحد، هو كسب دعم الغرب وتأييده لهم.

لقد وقف الشاه أمام قبر كورش[1] مخاطبًا إيّاه أمام تلك الحشود الحاضرة والملايين المشاهدة والمستمعة عبر الإذاعة والتلفزة، فخاطبه قائلًا:

«كورش، نحن واقفون أمامك لنزفّ إليك التهاني والبشرى، وأنت بقبرك هذا، ونقولُ: نم قرير العين، فنحن مستيقظون، فإنّه من دواعي سرورنا وافتخارنا أن نرى علم إيران اليوم يرفرف على أرضه بسلام وهدوء واطمئنان بعد أن مرّ بموجات اضطراب وقلق وخشية، طيلة عهود مديدة من الزمن. اليوم، إن تكن بلادنا بهذا الخير وبهذه السعادة، فإنّ ذلك هو ممّا قدّمْته لها من جهود ونضال فجعلتها عزيزة تعلو رايتها خفاقة، وهي اليوم رسالة ومؤشّر لندائك الإنسانيّ المتحرّر الباقي والأبديّ...».

هذه الكلمات التي تفوّه بها لم تكن إلّا عبارات هزل وتهكّم في الشارع الإيرانيّ، يتداولها الشعب باستهزاء وسخرية. وكان الهدف من ورائها هو تعهّد الشاه للأجانب والغرب على مضيّه على سيرة كورش ونهجه... ويضيف المؤلِّفون كذلك مؤكّدين:

«إنّ النظام عزب عن فتح الدعوة للشعب، وجعلها دعوة عامّة، واستدعى قوى عسكريّة ونظاميّة من مراكز ثلاثة، إضافة إلى مشاركة القوّة الجوّيّة، وطوّق منطقة «تخت جمشيد»[2] بدائرة قطرها 120 كلم تطويقًا أمنيًّا مشدّدًا. كما وأُلقي القبض على أفراد عديدين كانوا موضع شكّ وشبهة لدى رجال الأمن والحرس. والجدير ذكره أنّ بعض القرى البسيطة توسّطت هذه المساحة العظيمة، ومن أجل ائتمان شرّها عمدت السلطة إلى فرض حصار على شكل أسوار عالية للإحاطة بها طيلة فترة الاحتفال! كما أنّ مدينة شيراز [تبعد عن المنطقة قليلًا] أُعلنت بها الأحكام العرفيّة، وطوّقها البوليس. ممّا لا شكّ فيه أنّ هذا الاحتفال كان مدعاة للدهشة والإعجاب لدى الحضور، وبخاصّة الأجانب منهم، فعندما أدركوا مقدار تكاليفه التي وصلت إلى خمسمئة مليون دولار على حدّ زعم أحد المسؤولين، أدهشهم هذا الرقم، وأدّى إلى عدم سكوتهم من شدّة الذهول الذي أصابهم. نعم، هي أموال طائلة ألحقت الأضرار

(1) مؤسّس الأمبراطوريّة الفارسيّة الهخامنشيّة.

(2) منطقة أثريّة تقع في محافظة فارس.

بميزانيّة الدولة بشكل خاصّ، وامتصّت دماء الشعب وعرق جبينه بشكل عامّ...».

في شهر ذي الحجة عام 1970م، وحيث كان النظام يبذل الجهود المتواصلة لإقامة الاحتفال، وجّه الإمام الخمينيّ قدس سره خطابًا مهمًّا إلى حجّاج بيت الله الحرام، تخلّله بحث فلسفيّ يشرح فيه سبب وجوب فريضة الحجّ من قِبل الله -سبحانه وتعالى-، والتي هي بحدّ ذاتها تآلف المسلمين، وتبادل الآراء فيما بينهم، ومشاركتهم أفراحهم وأحزانهم، وتطرّق إلى ما يداهم المسلمين من خطر عظيم، وهاجم النظام الشاهنشاهيّ، وكشف النقاب عن بعض مؤامراته وجرائمه، حيث داهمه مداهمةً صارمةً مجابهًا الاحتفال الذي سيُقام، وتناول البعد السياسيّ لفريضة الحجّ المقدّسة قائلًا:

«إنّ هذا الاجتماع العظيم والمقّدس الذي يُعقد في كلّ عام مرّة واحدة في هذه البقعة المطهّرة، يجعلنا ملزَمين ومكلَّفين بمسؤوليّة كبيرة تجاه دعم الوحدة الإسلاميّة، ورصّ الصفوف، ودراسة أهداف الإسلام والشريعة السمحاء، وتبادل هموم المسلمين وما يداهمهم من أخطار، والعمل على حلّها والتصدّي لها. يجب على حجّاج بيت الله تداول أوضاع المسلمين ودراسة سبل الكفاح ومقاومة الاستعمار الذي يداهم بلادنا الإسلاميّة بأسرها. عليهم استقصاء وتناول أخبار المسلمين على وجه البسيطة عبر زائري البيت الحرام مباشرة ومن أفواههم. عليهم تداول وضع المسلمين الاقتصاديّ وما يعانونه من حرمان. عليهم دراسة القضيّة الفلسطينيّة وكيفيّة تحرير فلسطين من سيطرة ألّد أعداء الإسلام والمسلمين. اهتمّوا بتقديم العون والمساعدة لإخوانكم الفلسطينيّن الفدائيّين الذين وقفوا حياتهم كلّها من أجل بلدهم المغتصَب...».

لقد دعا الإمام قدس سره المفكّرين والعلماء والمجاهدين إلى توعية شعوبهم، وطالب رؤساء الدول الإسلاميّة بالوحدة الشاملة ونبذ الخلافات الداخليّة، والوقوف في وجه الاستعمار وما يبثّه من أساليب خطرة لتمزيق صفوف المسلمين وإيجاد الفرقة والخلاف بينهم. ومن ثمّ تطرّق بخطابه إلى ما يواجهه الشعب الإيرانيّ المسلم من ضغوط ومحن

وبلايا عبر الطغمة الشاهنشاهيّة الظالمة، ليعلم المسلمون ما يجري لإخوانهم في إيران.

ثمّ تطرّق الإمام قدس سره إلى روابط إيران وإسرائيل العدوّ الأوّل للإسلام والمسلمين، وإلى ما يشنّه النظام من حملات الظلم والاضطهاد لأبناء الإسلام وعلماء الدين والحوزات العلميّة والمدارس الدينيّة، ومن قم تطرّق إلى أهداف النظام من وراء إقامته تلك الحفلات الفاسدة والمنحرفة، وقال:

«إنّ النظام بثورته المدعوّة بالبيضاء، قضى على خمسة عشر ألف مسلم في يوم واحد، وسوّد تاريخ الأمّة والوطن بجريمته النكراء تلك. إنّ النظام هو المسبِّب الوحيد لتهدّم الوضع الاقتصاديّ والزراعيّ للبلاد. وإنّ أكثر القرى والأرياف اليوم تفتقر إلى أبسط الحقوق البشريّة، فلا علاج، ولا صحّة، ولا مدارس، ولا مصحّات، ولا مياه شرب، ولا... وحسب ما ادّعته إحدى الصحف: إنّ الأطفال الأبرياء خرجوا إلى الحقول والمراتع ليتناولوا الحشائش وما شابهها حفظًا لحياتهم؛ وذلك من شدّة القحط، بينما نرى النظام الجائر يبذل الملايين من أجل إقامة حفلات ماجنة فاجرة، حفلات باسم هذا وذاك، حفلات بمرور 25 سنة على سلطة الشاه، والأكبر عارًا احتفال الملكيّة بمرور العام 2500 على قيامها وتأسيسها، إنّ ذلك الحفل الذي عاد على الأمّة والشعب بالخذلان والحرمان. ولو أنّ ما صُرف على الاحتفالات كان يُصرف على الفقراء والمحرومين، لخفّف الكثير من آلامنا ومشاكلنا؛ بيد أنّهم لا يريدون سوى إذلال الشعب والمحافظة على بقائهم وتعزيز وجودهم. إنّ النظام الجائر باستيلائه على أموال المسلمين ونهبه ومصادرته لأموالهم يسعى لإعادة أمجاد الطغاة والملوك والأباطرة الذين سحقوا شعوبهم ودمّروها بأسرها من أجل عرشهم وبسط سلطتهم، إنّ الملوك الذين حاربوا المذاهب العادلة، والأباطرة الذين أعرضوا عن دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سابقًا هم ذاتهم طغاة اليوم، وهم نماذج لأولئك الفجرة الكفرة، الذين يسعَون لإعادة أمجاد هؤلاء بوسائلهم المشبوهة.

ليعلم العالم بأسره أنّ الشعب المسلم المضطهد في إيران ليست له أيّة علاقة

وصلة بهذه الحفلات الدعائيّة الفاجرة، وليعلم الجميع بأنّ كلّ من يشارك أو يساهم بمثل هذه، فهو خارج على الإسلام والمسلمين، ويُعَدُّ خائنًا للأمّة وللدين الحنيف».

هذا البيان طُبع ونشر باللغة الفارسيّة والعربيّة، ووُزّع على زائري البيت الحرام، وانتشر بين الحجّاج الإيرانيّين بشكل مذهل، على الرغم من مراقبة أجهزة الأمن والسافاك. وبهذا، وعبر زائري البيت الحرام، انتقلت هذه النشرات إلى إيران، واطّلع عليها الكثير من أبناء الأمّة، فيما راح بعضهم ينقل مضامينها شفويًّا لتعذّر نقل البيان إلى بلاده، وتمّ هذا قبل بضعة أشهر من إقامة الحفل الكبير الذي كان يستعدّ له النظام. وقبل ثلاثة أشهر من موعد إقامة الحفل، بذل النظام قصارى جهده، وأعدّ ترتيباته العامّة لاستقبال ضيوفه، وجّه الإمام قدس سره خطابًا مهمًّا من النجف الأشرف، جاء في مطلعه:

«إنّني أشعر بالمسؤوليّة الملقاة على عاتقي؛ لذا أحذّر بعض الرموز من الخطر المحدق بنا، وأذكّر بعضَ السادة (العلماء) بما يجري ويُخطَّط لدحر المسلمين والقضاء عليهم، علّه يكون سببًا لإعادة حساباتهم الخاصّة ليشعروا بالمسؤوليّة الملقاة على عاتقهم أيضًا...».

ثمّ يتطرّق أثناء خطابه إلى الوضع الاقتصاديّ والمعيشيّ للشعب، بالأخصّ عشائر الجنوب وخراسان وبلوجستان و...، قائلًا:

«.. البلاد يداهمها الحرمان ومختلف أنواع الشدائد والبلايا، فيما يقوم النظام باحتفال كبير للملكيّة والشاهنشاهيّة. لقد أعلنت إحدى وسائل الأنباء أنّ جزءًا من كلفة الاحتفال هذا قد فُرض على العاصمة طهران، وقُدِّرت بـ80 مليون تومان [10 مليون دولار]. نعم، هذا فقط للعاصمة بذاتها... لقد بلغني أنّ النظام هيّأ طاقمًا من الخبراء والفنيّين الإسرائيليّين لقيامهم بإعداد الحفل والإشراف عليه، وأنّ كلّ ما يُتَّخذ ويُصمَّم هو من قبلهم!

إسرائيل هي عدوّة الإسلام والمسلمين، إسرائيل التي شنّت حربها ضدّ الإسلام علنًا، إسرائيل...».

ثم يرجع الإمام قدس سره إلى تاريخ إيران في العهد الماضي، ويتطرّق إلى أحوال الملوك والقياصرة، ويتناول بعض جرائمهم وأفعالهم المشينة، فيقول:

«جاء في رواية عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم -نقلها الطبريّ- أنّه كان ينفجر ويتنفّر عندما يطرأ على ذهنه اسم «الملوكيّة» أو كلمة الملوك وما شابهها. و«الشاهنشاهيّة» هي المعنى الآخر لتلك الاصطلاحات المهجورة التي يطلقونها اليوم على بعض أفراد البشر...

إنّ الملكيّة في إيران، منذ اليوم الأوّل لولادتها وحتّى يومنا هذا، لم تقدّم للبشريّة شيئًا سوى الفقر والدمار. لقد سوّدت جرائمُ الطغاة تاريخَ إيران منذ يومها الأوّل، لقد مرّ زمن صُنِع فيه برج مرتفع من جماجم القتلى! كان الناس دائمًا عرضة للقتل والقمع، يسفكون دماء الناس ويهتكون أعراضهم، ليحقّقوا فكرة صنع برجٍ خَطَر على ذهن شاهٍ ما...

... بأعمالهم تلك وجرائمهم هذه يريدون إقامة احتفال لتخليدهم!

... لماذا يُقيم السلاطين اليوم الحفلات؟ أيّ عمل وخدمة قدّموها للشعب والأمّة؟... أنا بنفسي وبزمني رأيتُ بأمّ عيني ما فعله أولئك الأوغاد بالشعب وبالمسلمين، ألم تتذكّروا واقعة كوهر شاهد بمشهد، تلك الواقعة التي راح ضحيّتها الآلاف من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، ذلك المسجد الذي بقي مغلقًا فترة من الزمن من أجل أن لا يدنو أحد منه، ويرى آثار القتلى والشهداء على جدرانه وأرضه! أبعد هذا كلّه يريدون منّا مشاركتهم احتفالاتهم؟!

هل نشارك نظامًا ارتكب مجزرة الخامس من حزيران... في احتفالاته هذه؟ لقد قال [محمد رضا] في إحدى خطاباته: إنّ الحلفاء أتَوا إلى بلادنا لأنّهم رأَوا إصلاح البلاد بوجودي وإمارتي أنا، ولأنّني وريث الشاهنشاهيّة والملكيّة. فليخسؤوا! وليُلعنوا! أين هو الإصلاح؟! وما الذي بقي للشعب والأمّة كي يصلحوه؟!».

ومن ثمّ يحمِّل الإمام قدس سره الشعبَ الإيرانيَّ مسؤوليّته تجاه إقامة هذا الحفل المشؤوم، ويقول:

«اليوم تقع مسؤوليّة التحدّي لهذ الاحتفال على عاتق شعبنا وأُمّتنا في إيران، والتحدّي لهذا الاحتفال لا يكون ذا طابع عنف وخشونة، بل إنّه يكفي أن لا يخرج [الناس] من بيوتهم أثناء إقامة هذه الاحتفالات استنكارًا لها، ويجب أن نهمل النظام، فالمشاركة والمساهمة في هذا الاحتفال حرام وغير جائزة، ابذلوا كلّ ما في وسعكم من أجل الابتعاد عنهم».

وأخيرًا، قال:

«مسؤوليّتي تفرض عليّ أن أحذّر وأنذر ما دام صوتي يصل إلى مسامعكم، وأصارع وأقاوم وأناضل ما دامت يدي قادرة على مسك القلم ونشر ما تكتبه... هذه هي مشاكلنا ومصائبنا، فما الذي يمكن أن أقدّمه؟ أأجلس وأدرّس دروس الأخلاق؟ والشعوب المسلمة تُنهَب وتُسرَق، وتُهتَك أعراضها، ويُستولى على مقدّساتها وكرامتها؟ لو كان معي في إيران في قم في طهران في مشهد في تبريز... رجال يعاضدونني ويشدّون أزري لمحاربة النظام والاعتراض على ما يقوم به من برامج فساد ودمار للأمّه والبلاد لتراجع الظلمة أمام الشعب، ولقضينا عليهم نهائيًّا».

وبالفعل، فلقد تفاعل الشعب مع خطاب الإمام قدس سره وتوجيهاته، وشوهِدت إيران في جميع أيّام إقامة الاحتفال المشؤوم خالية من حركة الناس، فالمحلّات عُطِّلت، ولزم الناس مساكنهم. وخلت المدن الكبيرة من الحركة والتنقّل؛ ممّا دعا الكثير من الكتّاب والصحفيّين المدعوّين لنقل هذه الصورة بمقالاتهم وصحفهم ومجلاتهم.

أمّا الشاه الذي واجه هذه الحركة المقصودة، والتي تمّت بتحريضٍ من الإمام قدس سره، فقد عمد إلى استخدام طرق ماكرة لخداع الشعب، ولفت أنظاره نحو النظام، حيث أوعز إلى أسد الله علم -رئيس الوزراء آنذاك- بتعليمات هذا مفادها: (إنّ الأموال التي فاضت على الكلفة، والتي هُيِّئت من مساهمة أبناء وطننا يجب أن يُبنى بها مسجدٌ

كبير وضخم). وقد أعلن عن ذلك أسد الله من خلال مقابلة صحفيّة في نهاية الحفل.

نعم، فكما ذكرنا سابقًا، كان النظام قد اتّخذ أسلوبًا خاصًّا لمحاربة الدين والعقيدة؛ وذلك عبر قناتين: الأولى للإشادة بالملكيّة والشاهنشاهيّة ولإحياء التراث الوثنيّ الدفين. والثانية ترويج خطّة مدروسة متكاملة لتشويه الإسلام أمام أنظار الشعب عبر رجال الدين المزيّفين وعبر الدعايات الكاذبة والمزيفة، إضافة إلى قمع علماء الدين المناضلين والمجاهدين وسجنهم وتجميدهم، وكذلك سائر المفكّرين المسلمين الواعين. هذا كلّه من أجل بناء فكرة الشاهنشاهيّة والملكيّة وترسيخها في أذهان الناس وتزييف عقائدهم وتنفيرهم من الدين الإسلاميّ والعقيدة الإلهيّة.

تقول الصحفيّة الإيطاليّة «أوريانا فالاجي»: إنّ الشاه كان يعتقد بأنّ كيانه الذاتيّ أصبح محلًّا لاناخة روح داريوش الكبير، وأنّ الله أرسلها إليه ليحقّق أحلام كورش الملكيّة التي لم يستطع إنجازها وتحقيقها، وراح محمّد رضا يستعمل مصطلحات وألقاب كثيرة ومختلفة «كالشاه» و«الشاهنشاه» و«صاحب الجلالة» و«آريامهر» و... ليعلن بأنّه ماضٍ على نهج أولئك القياصرة والأباطرة، وأنّه الوريث الوحيد لهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان يتنكّر بجلباب الدين والمذهب، فيدّعي بأنّه يتمتّع بصفة الإلهام الإلهيّة، حتّى أنّه رأى الحجّة القائم عليه السلام مرّتين بالمنام، بل بعالم الغيب!...

عندما عمد الشاه إلى إعداد «جيش العقيدة» عام 1971، إنّما شرع بذلك بعد أن استطاع تضليل الرأي العام وخداعه؛ وذلك من أجل أن ينشر أفراد الجيش هذا بمختلف المدن والمحافظات للتبليغ والإرشاد والدعاية. والذي يهدف إليه من وراء ذلك تضليل الشعب ومسخ عقيدته ودينه. وإنّ الهدف الأكبر والأعظم من وراء هذا هو إضعاف الحوزة العلميّة والسيطرة عليها، وجرّها إلى ربقة النظام. وإنّ تلك الحوزة كانت مستقلّة وغنيّة على الصعيدين الاقتصاديّ والسياسيّ، وكانت تشكّل الخطر الرئيسيّ والأوّل على النظام. ومن هنا، عمد إلى تشكيل هذا اللواء من رجال الدين

المزيّفين وإعداده ليملؤوا المساجد والمراكز الدينيّة، وليشوّهوا صورة الإسلام الحقيقيّة، وليشوّهوا سمعة علماء الدين للقضاء عليهم بالكامل.

وبمجرّد قيام السلطة باستئناف الخطّة الجديدة هذه، وجّه الإمام قدس سره نداءً إلى الشعب الإيرانيّ، جاء فيه:

«اليوم يقوم النظام باستخدام طرق ماكرة وأساليب ملتوية جديدة من أجل الإطاحة بالإسلام والمسلمين، لقد عمد النظام إلى تشكيل ما يُسمّى «جيش العقيدة»، مهمّتها الدعوة والإرشاد، بينما هو اليوم يقتل ويقمع علماء الدين المخلصين، ويسجن العديد منهم بسجونه المظلمة، ويُبعِد ويعذّب آخرين وآخرين. إنّني أحذِّر من الخطر المداهم إذا استمرّ النظام في عمله هذا، ووُفِّق بخطواته هذه، ولسوف يقضي على كافّة الخطباء والعلماء وأهل العلم المخلصين من جهة، ويمحو كلّ آثار الدين والعقيدة والإسلام من جهة أخرى».

ويؤكّد قائلًا:

«إنّ جيش العقيدة المزعوم هذا يخدم مصالح الاستعمار بأسرها، بتزويره وتشويهه وجهة الدين الصحيحة، ويشكّل اليوم خطرًا كبيرًا على المسلمين، وبالأخصّ على علماء الدين المخلصين».

وبعد استعراضه لمواقف علماء الدين المسلمين وتبجليهم والإشادة بنضالهم، طالب الإمامُ قدس سره الشعبَ الوقوف في وجه هذه المؤامرة الجديدة، ودعاه إلى الجهاد والنضال بقوله:

«... إنّ النظام الجائر عمد اليوم إلى هذه الخطّة والمؤامرة؛ لأنّه على وعي كامل بما يتميّز به علماء الدين ومراجع الأمّة الإسلاميّة. إنّه يعلم أنّ هؤلاء بنشاطهم عبر المساجد والخطب والإرشاد جعلوا الأمّة متمسّكة بهم وبكتاب الله والشريعة المقدّسة. وما دام هؤلاء العلماء المجاهدون موجودين، فإنّ النظام سوف لن يستطيع أن يصل إلى مآربه وأهدافه؛ لأنّهم السدّ المنيع الأوّل في وجهه. وقد عمد النظام إلى

إعداد أشخاص مزيّفين مدسوسين بزيّ العلماء لتشويه الوجه الحقيقيّ والأصيل لنا، وليشوّهوا صورنا، هادفين بذلك إبعاد الأمّة عنّا وإسقاطنا، وإذا كان بعض رجال الدين المغفّلين أو الطامعين يقفون إلى جانب النظام الجائر، فليعلموا أنّ الأمّة الإسلاميّة لا تُقيم لهم أيّ اعتبار، ولا تعيرهم أيّ اهتمام، ولا تنظر إليهم إلّا بازدراء وغضب. إنّ النظام بواسطة هؤلاء يريد السيطرة علينا وبيعنا وبيع ثرواتنا وبلادنا الإسلاميّة للمستعمرين والمعتدين.

اليوم تقع مسؤوليّة الجهاد والنضال على الشعب الإسلاميّ بأسره، وبالأخصّ على شبابنا المثقّف الواعي؛ إذ عليهم تكثيف نشاطاتهم في المساجد والمراكز الدينيّة، وإقامة الندوات والمحاضرات الدينيّة في المناسبات، والعطل والفرص الأسبوعيّة، وعليهم الالتفاف حول علماء الدين الواعين لاستلهام تعاليم الدين الحنيف الحقّة، ليطاردوا كلّ مستعمر وكلّ جائر معتدٍ، ليعلنوا موقفهم المشرّف أمام النظام المستبدّ الجائر».

وفي عدّة بيانات ورسائل أخرى وجّهها الإمام قدس سره إلى الطلبة الجامعيّين خارج البلاد، وكذلك طلبة الحوزات العلميّة، مؤكّدًا خطورة الخطوة الجديدة التي عمد إليها النظام. إنّه أكّد على أنّ المعمّمين المزيّفين «**هم أعظم وأكبر خطرًا على الإسلام والمسلمين. وقد اتّبع أعداؤنا هذه السبل؛ لأنّهم رأوها الطريقة المثلى التي يستطيعون من خلالها تحقيق أهدافهم وأهداف الاستعمار، وتحقيق آمال أعداء الإسلام الدفينة والقديمة. إنّ واجبنا اليوم هو القضاء على هذه الطائفة من المعمّمين وقطع أياديهم وإبعادهم عن التجمّعات والمحافل الإسلاميّة، وإلّا فإنّهم سوف يسخّرون الإسلام والقرآن والتعاليم الإسلاميّة لصالح النظام الجائر، ومن ثمّ يقضون على هُويّة الدين الإلهيّ الحقّة**».

وقد نعتَ الإمام قدس سره خططهم هذه بالإسلام الشاهنشاهيّ، وذكّر بخطط الحكّام وترّهاتهم في العهدين الأمويّ والعباسيّ، ونلمس ذلك جيّدًا عبر رسائله وبياناته التي وجّهها للطلبة آنذاك.

إنّه كان يهدف بذلك كلّه إلى توعية الجيل الجديد وتوعية الشباب وإرشادهم،

ودفعهم إلى ساحة الفكر وحمل الرسالة، لقد كان يبيّن لهم من خلال بياناته الموجّهة إليهم الفرق الشاسع بين الإسلام الأصيل والإسلام المزيّف، بين الدين المحمّديّ وبين التشويه الشاهنشاهيّ، إنّه كان كثيرًا ما يدعوهم إلى التمسّك بتعاليم الإسلام التي طُبّقت في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعهد خلافة الإمام عليّ عليه السلام. إنّ الإمام قدّس سرّه يرى سبب انحراف الشباب وميلهم إلى الشيوعيّة والإلحاد والكفر، ما هو إلّا بسبب ابتعادهم عن صبغة الله وعن الدين المحمّديّ الأصيل، إذ لو كانوا على وعي تامّ ورشد كامل لما وجدت مثل هذه الأفكار الإلحاديّة طريقها إلى عقولهم، وأكّد قائلًا:

«يجب عليكم اليوم تبليغ الدين الإسلاميّ وتعرية الأنظمة الكافرة المزيّفة التي تطعن بالإسلام والدين الحنيف حتّى تتوفّر الأرضيّة اللازمة لإقامة حكومة إسلاميّة عادلة على وجه الأرض تدحض الكفر والإلحاد والظالمين. إذا اتّجه الشباب اليوم إلى دراسة حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليّ عليه السلام، واتّبعوا وصاياهم وإرشاداتهم وتعاليمهم، فسوف يقلبون الدنيا رأسًا على عقب، ولسوف تُمحى آثار الإلحاد والشيوعيّة كلّها. إنّ ما يقوم به هؤلاء الطغاة، وما يعدّونه من قصور شاهقة وامبراطوريّات عظيمة، وما يمارسونه من ظلم واستبداد، كلّها من أجل تضليل الشعوب المسلمة وتشويه عقائدهم وإسلامهم.

لو وُجدت حكومة إسلاميّة عادلة، لكان قصرُ قائدها المسجدَ وفراشُه الترابَ، يجالس رعيّته وأمّته، ويشاركها همومها ومشاكلها، ويقيم العدل، ويحارب الظلم، لذهبت كلّ سبل الانحرافات أدراج الرياح».

ويؤكّد لهم في بيان آخر:

«إنّ ما يُظهِره أعداء الدين اليوم من أفكار يساريّة ويمينيّة، هي ليست إلّا لتدمير الإسلام والمسلمين، ولإذلالهم والسيطرة عليهم، وإبعادهم عن معتقداتهم، وعن القرآن والدستور الإلهيّ المبين. لقد اتّحد الشرق والغرب، واتّفقوا على محاربة الإسلام وإذلال المسلمين، والتسلّط على بلادهم وثرواتهم لنهبها وسلبها».

ثمّ يدعوهم إلى السبيل القويم، ويناشدهم قائلًا:

«ابذلوا قصارى جهدكم لدراسة الفكر الإسلاميّ الأصيل، تعلّموا أحكام القرآن ودستوره، وروِّضوا أنفسكم على التمسّك بها أكثر فأكثر، اسعَوا إلى بثّ الفكر الإسلاميّ في كافّة الأوساط والمجتمعات التي تتواجدون فيها، ابذلوا قصارى جهودكم لبناء حكومة إسلاميّة عادلة».

ثمّ يدعوهم إلى مقارعة النظام وتعريته والكشف عن جرائمه، فيوصيهم:

«عليكم ألّا تغفلوا عن تعرية النظام، وفضح مؤامراته، كونوا أداة لنقل وبثّ صرخات واستغاثات إخوانكم في الداخل إلى شعوب العالم، وشاركوهم مآسيهم ومصائبهم. أعلنوا عن معارضتكم لما يقوم به النظام من وحشيّة وظلم وقمع وتعدٍّ وخرق للقوانين. نحن على أمل أن تكون هذه الجهود والتحرّكات خالصة لله، لتحظى بالنصر والتوفيق الإلهيّ؛ كي تحرز البلاد استقلالها، ونفكّ قيود الأمّة الإسلاميّة، ونُسقِط الأنظمة العميلة الجبّارة...».

وأخيرًا، يُعرِب عن نجاح أمله بائتلاف الطلبة الجامعيّين والشباب المفكّرين من إخوانهم الطلبة في الحوزات الدينيّة وعلماء الإسلام وأهل العلم خلال السنين الأخيرة، ويسأل الله السداد والتوفيق لهذه الحركة المباركة، فيقول:

«إنّ ما يفرحني أكثر، وأنا أقضي آواخر سنين عمري، هو بزوغ الصحوة الإسلاميّة لدى الشباب والطلبة والمفكّرين والمثقّفين، الصحوة الإسلاميّة التي سرعان ما رأيتها وأراها تتعاظم وتتوسّع بشكل كبير وعظيم، وأسأل الله -تعالى- أن يوفّقها لدحض الشرك والإلحاد، ولقطع أيادي المعتدين وتحقيق العدالة الإسلاميّة إن شاء الله».

إنّ اهتمام الإمام قدس سره هذا كلّه بالشباب والطلبة كان له جانب آخر. فكما أنّه كان يحثّهم على التمسّك والالتزام بالتعاليم الإسلاميّة والقرآنيّة، كان أيضًا يحذّرهم من الأفكار الشيوعيّة الماركسيّة وسائر الأفكار المنحرفة. ففي عام 1971 قام بزيارة الإمام قدس سره في مقرّه بالنجف عدد من أعضاء منظّمة المجاهدين «المنافقين»؛ وذلك لكسب موافقته

على عملهم المسلّح، ودعم تحرّكاتهم العسكريّة، فاستقبلهم الإمام قدس سره خير استقبال، وفسح لهم المجال في عدّة جلسات لطرح أفكارهم، واستعرض وجهات نظرهم، وبعد أن اطّلع الإمام قدس سره على أفكارهم ومعتقداتهم، وعلى منهجهم الفكريّ والعمليّ، أعلن معارضته لهم ولما يقومون به، على الرغم من أنّ بعض العلماء كانوا مؤيّدين لهم ويمدّونهم بالمال والعون والمساعدة؛ ذلك لأنّ الإمام قدس سره كان يرى أنّ هؤلاء لا يعتقدون بأصل المعاد، ويرَون السير التكامليّ والنهائيّ للإنسان مقرونًا بحياته الدنيا هذه. رأى الإمام قدس سره هذا فكشفه وأوضحه بعد أن طالع ودقّق كتيّباتهم الفلسفيّة والدينيّة، وبخاصة نظامهم الداخليّ، وفي النهاية قال لهم:

«إنّه ليس بمقدوري تقديم الدعم المعنويّ والمادّيّ لكم، ولا أستطيع أن أؤيّدكم. إنّكم مصمّمون على العمل العسكريّ، وبنظري أنّ الوقت غير مناسب، وسوف لن يحالفكم النصر».

وفي عام 1975م، ونتيجة لنشوب الاختلافات الفكريّة والعقائديّة داخل أركان المنظمة، أصدر المكتب السياسيّ لهم بيانًا يقضي بتجديد أفكارهم والعدول عن التعاليم الإسلاميّة إلى الفكر الشيوعيّ، ظانّين بأنّه الطريق الأفضل والأمثل لاستمرار النضال. وعلى هذا قطع علماء الدين المؤيّدون لهم علاقتهم بهم، بعد كشف اللثام عن وجههم المنافق. واستفسر بعضهم من سماحة الإمام قدس سره عن علاقة هؤلاء وصلتهم بسماحته، نظرًا لوجود الخطّ والفكر الإسلاميّ سابقًا، فأجاب الإمام قدس سره قائلًا:

«إنّه ليس من المستبعد وجود عناصر وحركات تتحرّك ضدّ الإسلام والدين بأسماء وعناوين عديدة. ثمّة تجمّعات وتكتّلات سياسيّة تساند الغرب لإضعاف الإسلام والشيعة والزعامة الدينيّة... اليوم وقد واجه الفكر الماركسيّ الانهيار والسقوط، واتّضحت مقوّماته الواهية كافّة. يقوم عملاء الغرب والاستعمار بدعمه والالتفاف حوله لطعن القرآن والقضاء على الإسلام والمسلمين».

ثمّ يعلن للأمّة الإسلاميّة موقفه إزاءهم، فيقول:

«إنّني أعلن بصراحة وشجاعة عن موقفي السلبيّ تجاه هذه الكتل والجماعات المنحرفة الماركسيّة والشيوعيّة، وكافّة التكتلات المبتعدة عن الفكر الإسلاميّ الشيعيّ الأصيل، فكر الأئمّة وأهل بيت الرسول ﷺ، إنّني أعلن عن اتّهامي لهم بالخيانة والمروق عن الدين، ومهما يكونوا فهم خونة للإسلام والدين والوطن».

الفصل الثامن عشر

مواقف الإمام قدس سره تجاه النظام العراقيّ وترحيل الإيرانيّين المقيمين في العراق

إنّ مسألة ترحيل الإيرانيّين المقيمين في العراق كانت هي الأخرى من القضايا الهامّة والكبيرة خلال فترة نفي الإمام قدس سره من البلاد، والتي دعته لاتّخاذه مواقف جديرة بالذكر تجاه النظام الحاكم. وقد أشرنا آنفًا إلى ركود العلاقات الإيرانيّة - العراقيّة، والتي انتهَت بالعداء والمواجهة بين الطرفَين، حيث قام النظام العراقيّ بعمليّة لا إنسانيّة بحقّ الإيرانيّين المقيمين في العراق، ومعظمُهم كان في كربلاء والنجف والكاظميّة، حيث قام بترحيلهم إلى إيران قسرًا.

فراحوا يخطفونهم من الأسواق والشوارع والمعابر والبيوت، وينقلونهم مباشرة إلى الحدود، في أيّام شديدة البرودة، دون أيّ ذنب اقترفوه؛ فكانوا ضحيّةً لظلم النظامَين واضطهادهما على حدٍّ سواء. لقد كان الكثير من هؤلاء قد وُلد في العراق، وتربّى هناك منذ نعومة أظافره، بَيْدَ أنّ النظام كان لا يهتمّ لمثل هذه الأصول، ما دام الفرد منهم ينتمي إلى أبوَين إيرانيَّين. إنّ النظام العراقيّ كان يعتقد بأنّ أيَّ شخص من أصل إيرانيّ يجب أن يُعامَل معاملة الجاسوس الذي تدعمة حكومة بلاده. لقد كان المرحَّلون يشكّلون أعدادًا غفيرة من الرجال والنساء، والأطفال والشيوخ، وقد مات الكثير من الأطفال ضحيّةً لهذه المعاملة اللاإنسانيّة، قبل وصولهم إلى الحدود الإيرانيّة. وقد كان نظام الشاه يسوق الكثير من المهجَّرين إلى المحاكمات بتهمة العمالة والدسّ والتخريب.

وعلى الرغم من أنّ الإمام قدس سره كان مُبعَدًا سياسيًّا من قِبَل النظام الإيراني، ومراقَبًا أشدّ المراقبة من قِبل النظام العراقيّ، فقد أرسل برقيّة إلى الرئيس العراقيّ[1]، يشرح فيها الأبعاد السلبيّة لمثل هذه التصرّفات الشنيعة بحقّ المقيمين الإيرانيّين، وذكّره بمواقف الزعامة الدينيّة ومراجع الدين الإيرانيّين، وجهادهم في سبيل تحرير العراق واستقلاله. ومن ثمّ أبدى آراءه الخاصّة حول هذه العمليّة الجائرة، وتعرَّض لما قام به رجال النظام تجاه الإيرانيّين الأبرياء، وقال:

«باعتقادي، إنّ حكومةً تقوم بأعمال لا إنسانيّة وجائرة مع ثلّة من النساء والأطفال، وتعرّضهم للدمار والهلاك بهذه الأجواء السيّئة والطقس البارد، ستعرّض نفسها للانهيار والدمار، وتجعل كرامتها ومكانتها السياسيّة موضع سخريّة». ومن ثمّ طالبه قائلًا: **«بناءً على هذا، وعلى ملاحظات أخرى، نأمل منكم إعادة النظر في هذا الموضوع، والعمل على مراعاة الأخوّة الإسلاميّة التي أكّد عليها القرآن الكريم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم».**

بَيْدَ أنّ النظام لم يُبْدِ أيّة أهمّيّة للإمام قدس سره، واستمرّ بتهجير الإيرانيّين كما في السابق. لكنّ الإمام قدس سره صمّم على الرحيل من العراق، مُعلِنًا بذلك اعتراضه وغضبه على النظام من جهة، ومشارِكًا أبناء وطنه همومَهم ومحنتَهم من جهة أخرى. صمّم أن يخرج من العراق، إلّا أنّه لم يتّجه إلى بلده الذي يحكمه الشاه الجائر. فأعلن الإمامُ عن عزمه وتصميمه على الرحيل، من خلال خطابٍ ألقاه بهذه المناسبة عام 1971م، حيث قال:

«من الآن وصاعدًا، لا أرى أهمّيّةً لوجودي وبقائي في العراق. لذا، سوف أقدّم الأوراق الرسميّة للسلطات غدًا، لأخذ تأشيرة الخروج... إنّه ليصعب عليّ البقاء، وأنا أرى بأمّ عيني إذلال أبناء وطني، وإخراجهم، وترحيل إخوتي من علماء الدين بهذه الطريقة المزرية...

(1) أحمد حسن البكر.

إخوتي علماء الدين، إنّ وضع الموظّفين والكسبة والتجّار هو أسوأ بكثير من وضعكم، وهم اليوم وعوائلهم وأطفالهم بهذا الطقس البارد، يقفون ساعات مديدة على الحدود، يُعامَلون معاملة بشعة جدًّا، والحال أنّي سمعتُ أنّهم حينما-السلطات العراقيّة- أرادوا تسفير اليهود المقيمين في العراق، أمهلوهم ستّة أشهر، وعقدوا لهم جلسة حتّى يتمّ بيع ممتلكاتهم تحت إشراف هيئة خاصّة، وبشكلٍ عادل، لكنّهم لم يعاملوكم أنتم أيّها الإخوة الشيعة الإيرانيّين بهذا الشكل... فمن هنا، أصبح بقائي في هذا البلد حرج وصعب... وسوف أقدّم جواز سفري إلى السلطات؛ من أجل الحصول على الموافقة لأخرج إلى لبنان، وأتّخذه مقرًّا لي...».

ولكنّ النظام العراقيّ كان يعي جدًّا ما سيلحقه من خسارة سياسيّة فيما إذا وافق على خروج الإمام قدس سره من العراق، ناهيك عن كونه كسبًا وانتصارًا سياسيًّا لنظام الشاه، الذي سيتّخذ من هذا الموقف ورقةً رابحةً أخرى في صراعه معه. فامتنع العراق عن منحه الموافقة والسماح له بالمغادرة، واستمرّ بحملة الترحيل والتهجير الظالمة.

وحينما رأى الإمام قدس سره معارضة النظام لسَفَره، أصرّ على المغادرة، وندّد بالحكومة العراقيّة وبحملة الترحيل والتهجير. وبعد مرور شهر واحد على هذه المحاولة وفشلها، ألقى الإمام قدس سره خطابًا مهمًّا، تنبّأ خلاله بالنصر والغلبة، وطمس رايات الظلم والعدوان، ورفع راية الحوزة وعلماء الدين عاليةً خفّاقة:

«الآن، ومهما راح العديد من المواطنين الأبرياء ضحيّةً لخلافٍ وقع بين الحكومتَين العراقيّة والإيرانيّة، فإنّ هذا قد يكون من ورائه خيرٌ إلهيٌّ يعود علينا بالنفع. وكما أنّ الله -سبحانه وتعالى- أرجع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكّة فاتحًا منتصرًا، فإنّه قد يُرجِعكم إلى أحضان الحوزة منتصِرين مؤيَّدين... على العموم، فإنّ الهزيمة والخسارة و... هي اصطلاحات ليس لها أيّ وجود في قاموس الحوزة... الحوزات العلميّة لا تعرف الهزيمة مطلقًا، بل هي مؤيَّدة ومنتصِرة من قِبل الله -تعالى-... الحوزات تحظى بدعمٍ شعبيّ وحصانة جماهيريّة، ولا يمكن للطغاة التغلّب عليها. إنّ الطغاة

والمتسلّطين زائلون، لا محالة... هذه حكومات ضعيفة ومتهاوية، ولا تستطيع أن تقف لحظةً واحدةً أمام إرادة الشعوب...».

ثمّ يشير تارةً أخرى إلى عزمه وإصراره على الخروج من العراق، ويقول: «**إنّ عدم وجودي هنا له فوائد، قد تكون مجهولةً لبعض الأشخاص، ولا يستطيع فهمها، بَيْدَ أنّي أترجّى إخوتي الآخرين الصمود، وملء الفراغ، والتمسّك بمواقفهم...».**

وفي نهاية خطابه أعرب عن أمله في الشعب الإيرانيّ المسلم، وخاطبه قائلًا:

«**إنّني على أملٍ كبيرٍ بأن أرى إخوتي وأبناء وطني في إيران، وهم يستضيفون إخوانهم المؤمنين المهجَّرين، الذين طُرِدوا من ديارهم، وأرجو منهم أداء الخدمة والواجب، وأن يهيّؤوا لهم كافّة ما يلزم من سكن ومأكل، وأن يخفّفوا عنهم، وأن يتبادلوا معهم أخبار الداخل وأوضاع البلاد بشكل خاصّ، حتّى يكون الجميع على علم بما يدور في أجوائهم ومحيطهم».**

وفي ربيع عام 1973م، وبمناسبة مرور عشرة أعوام على ما يُسَمّى بثورة الشاه البيضاء، ألقى الإمام قدس سره خطابًا تاريخيًّا، كشف النقاب فيه عن مؤامرات الأعداء والمستعمِرين، وتناول عوائدها التي لم تعد على الأمّة والوطن سوى بالحرمان والإذلال، وتسليمها للأجانب الطامعين لقمةً سائغة، وأكّد قائلًا:

«**خلال عشر سنوات... خلال عقدٍ مضى من الزمن على تلك الثورة المزعومة، مرَّت مِحَنٌ ومصائب عظيمة وجمّة على شعبنا ووطننا. لقد كانت منجزاتها القتل والتشريد والدمار والفقر والحرمان وزجّ الكثير من العلماء وأهل العلم والشباب في السجون، هذه هي منجزاتها، وهذه هي عوائدها على الأمّة الإسلاميّة والوطن الإسلاميّ. ثمرات هذه الثورة النكراء هي هتك حرمات المسلمين، وقتل علمائهم وفضلائهم، وممارسة مختلف أنواع التعذيب، وشنّ الهجوم على المدارس الدينيّة والفيضيّة، وإبادة الشعب في انتفاضة الخامس من حزيران، التي راح ضحيّتها خمسة عشر ألف قتيل (كما هو معروف).**

ومن نتائجها المفجعة، الحصانة الأمنيّة للعسكريّين الأمريكيّين وأقاربهم، وطمس هيبة البلاد وجلالها، وبيع استقلالها القضائيّ والحقوقيّ، وتسليم كافّة أنظمتها السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والتجاريّة والزراعيّة للأمريكيّين والصهاينة... هذه هي افتخارات النظام الجائر الذي يقوم بإشادة مختلف الحفلات والأفراح وإقامتها لها، ويمتصّ تكاليفها كافّةً من دماء الشعب!».

الفصل التاسع عشر

الإمام قدس سره والحرب الإسرائيليّة العربيّة الرابعة

في حلول خريف عام 1973م، شنّت القوّات السوريّة والمصريّة هجومًا مباغتًا على إسرائيل، في كلٍّ من مرتفعات الجولان وصحراء سيناء. وخلافًا لنتائج الحروب الثلاثة السابقة، التي فوجِئَت بها الدول العربيّة، وتحمّلَت من جرّائها أضرارًا فادحة، فإنّ هذه الحرب حظيَت بالنصر المؤزَّر والكبير على القوّات الإسرائيليّة. وسرعان ما لاقت سوريا ومصر تأييدًا ودعمًا عربيًّا شاملًا، فبعض الدول العربيّة أرسلَت قوّاتها وجيوشها للمشاركة، وبعضٌ آخر، وبالتحديد الدول المصدِّرة للنفط، عمدَت إلى عدم بيع نفطها إلى الدول المساندة لإسرائيل، كأمريكا والدول الصناعيّة الأوروبّيّة.

حظيَت هذه الحرب بالنصر المؤزّر، وبعثَت البهجة والسرور والفرح في قلوب المسلمين في أنحاء العالَم كافّة. وبعد يومَين من بدء المعركة، أصدر الإمام الخمينيّ قدس سره بيانًا مهمًّا بهذه المناسبة، وَجَّهَه إلى العالَم الإسلاميّ، وإلى الدول الإسلاميّة، جاء فيه:

«... على الدول الإسلاميّة كافّة، وبالأخصّ العربيّة منها، الاعتماد على الله -سبحانه وتعالى- والتوكّل عليه، فهو الذي يؤيّد عباده بنصره. عليها جمع الطاقات والقوى كافّة، وتعبئة الشباب الفدائيّ، والتوجُّه إلى ساحات القتال؛ لدعم المقاتلين في الصفوف والخطوط الأولى للجبهات ومساندتهم، الذين ينتظرون مطلق العون والمساعدة منكم، من أجل تحرير فلسطين، ومن أجل إعادة شرفنا وكرامتنا ومجدنا وعظمة إسلامنا. علينا جميعًا توحيدُ صفوفنا، ورصُّها، وبناؤها أقوى وأقوى. وعلينا نبذ

الخلافات والنفاق الذي لا يعود علينا إلّا بالذلّ والهوان والهزيمة. علينا أن لا نصغي لتهديدات الدول الكبرى المؤيِّدة لإسرائيل... علينا أن نقاوم ونصمد، وأن لا نركن للخمول والإهمال، فإنّنا بهذا قد نواجِه الهيمنة والخسارة...

على الدولة الإسلاميّة المصدِّرة للنفط أن تجعل طاقاتها وإمكاناتها كلّها في خدمة الحرب التحريريّة هذه؛ من أجل قطع أيادي إسرائيل والمستعمِرين كافّة، وعليهم مقاطعة الدول المسانِدة للصهيونيّة، وعدم بيعهم النفط».

ثمّ ينتقل الإمام قدس سره ببيانه هذا إلى المَهمَّة على عاتق المسلمين كافّة، وبالأخصّ الشعب الإيرانيّ المسلم، تجاه هذه المعركة والحرب المؤيّدة، ودعا إلى مساندة الدول الإسلاميّة كافّة، وعلى الأصعدة السياسيّة والعسكريّة كافّة، لمعركة التحرير، فقال:

«على المسلمين كافّة، نظرًا للمسؤوليّة الملقاة على عاتقهم، ونظرًا للأخوّة الدينيّة والإيمانيّة، عليهم تقديم المساعدات كافّة لإخوانهم المقاتِلين؛ من أجل قمع هذه الطغمة الفاسدة، واجتثاثها من وجه هذه الأرض. عليهم تقديم الخدمات المادّيّة والمعنويّة كافّة، وإرسال السلاح وأكياس الدم والعلاج والمؤونة وما إلى ذلك... على إخواني المسلمين في إيران مساندة إخوانهم المسلمين العرب، وعليهم مشاركتهم في هذه الفضيلة، في فضيلة الجهاد لقمع الصهيونيّة ودحرها؛ عسى أن يكون تحرّككم المبارك هذا أداةً لتحطيم حاجز الصمت والسكوت من الحكومة الإيرانيّة، وأن تكفّ عن موقفها السلبيّ هذا، وتقف مع الدول الإسلاميّة جنبًا إلى جنب، وتشاركها أفراحها وانتصارها. علينا جميعًا، وعلى كافّة المسلمين والأحرار في العالَم، أن يهبّوا بوجه الاعتداءات الإسرائيليّة اللاإنسانيّة».

إنّ الإمام قدس سره الذي كان يعي جيّدًا موقف السلطة في إيران تجاه أمريكا وإسرائيل، إنّما كان يطلب العون والمساعدة من الشعب والمسلمين كافّة، ليحرج النظام الإيرانيّ، ويضعه في موقفٍ حرج ومأزق كبير، حيث جعل الشاه أمام خيارَين اثنَين: إمّا أن يساند الدول الإسلاميّة ويقف إلى جانبها في حربها ضدّ إسرائيل، وهذا

من المستحيل، وإمّا أن يلتزم الصمت، ما يكون مدعاةً لغضب الدول الإسلاميّة التي خاطبها الإمام قدس سره قائلًا:

«... على الدول الإسلاميّة أن تقف بوجه كلّ حكومة لا تساندها ولا تدعمها ضدّ إسرائيل».

هذا وقد أنهى الإمام قدس سره بيانه التاريخيّ، بإرشاد الدول الإسلاميّة المقاتِلة، وأوصاهم بمتابعة النضال والمقاومة ورصّ الصفوف، إلى أن يتحقّق النصر المؤزّر. وعليهم ألّا يهتمّوا بما تقوم به الدول الكبرى من وساطة لوقف إطلاق النار، وأن لا يلتزموا بما تصدره الأمم المتّحدة من قرارات السلام. إنّ هذه الحرب المقدّسة يجب أن تنتهي لصالح الإسلام والأمّة الإسلاميّة، وما علينا إلّا التحلّي بالصبر، والمقاومة، واتّباع خُطى الإسلام وتعاليمه؛ وبذلك سوف يكون النصر النهائيّ حليفنا، لا محالة.

لقد قام نظام الشاه بتصعيد صادراته النفطيّة إلى أمريكا وأوروبّا، التي شهدَت نقصًا بهذا الجانب جرّاء مواقف الدول العربيّة بعدم تصديرهم النفط لها، واستطاع الشاه أن يسدّ بعض الشيء، نوعًا ما من حاجاتهم النفطيّة، واستمرّ بتصديره إلى إسرائيل كما في السابق، ولم يبالِ بأيّ شيء، حتّى وإنّه طيلة فترة الحرب تلك، لم يُصدِر أيَّ بيان، ولم يتفوَّه بأيّة كلمة سلبيّة تجاه إسرائيل.

وبعد مرور أيّام، أصدر الإمام قدس سره بيانًا آخر، خاطب به الأمّة الإسلاميّة في إيران، واتّهم النظام بالعمالة لإسرائيل، والموافقة على عدائها للدول الإسلاميّة جمعاء. وكان هذا البيان انتقادًا شديدًا ومفعمًا بالتقريع والطعن لنظام الشاه، ووصفه بالمعتدي الغاشم الذي ساهم بإعادة أنفاس إسرائيل؛ من أجل تدمير الدول الإسلاميّة الظافرة. وطالب الإمامُ قدس سره الشعبَ بفَضْحِ جرائم الشاه وكَشْفِ مؤامراته الدنيئة، وقال:

«... في مثل واقعةٍ مُهمّةٍ كهذه، تمسّ كرامة المسلمين وعزّتهم، يعزب النظام الشاهنشاهيّ عن المساعدة وتقديم العون للدول الإسلاميّة ضدّ إسرائيل، إن لم يكن قد ساهم في تقوية إسرائيل ودعمها. إنّ الدول الإسلاميّة جمعاء قامت بمساندة

العرب المسلمين ومعاضدتهم، وقدّمَت لهم المساعدات كافّة، بينما تظاهَر النظامُ الإيرانيّ بالصمت، وقدّم المساعدة لإسرائيل سرًّا!».

ثمّ تطرّق الإمام قدس سره للتقارب الإسرائيليّ إبّان هذه الحرب، فأنذر وحذّر من مغبّة عدوانٍ إسرائيليٍّ جديد يستهدف الدول الإسلاميّة بأجمعها:

«ذلك الشاه هو الذي صعَّدَ من صادراته النفطيّة إلى أعداء المسلمين والبشريّة جمعاء؛ ليستغلّوها في حربهم ضدّ المسلمين والعرب الغيارى. إنّ النظام باتّفاقه المفضوح الأخير، الذي ينصّ على مضاعفة نسبة الصادرات النفطيّة، ناهضَ الدول النفطيّة التي تريدُه سلاحًا في مواجهة أمريكا... إنّني لأخشى أن يبعث بسلاحه إلى إسرائيل، سلاحه هذا الذي قدّمَته له أمريكا مقابل المليارات من الدولارات التي عادت على بلادنا بالفقر والحرمان والشلل الاقتصاديّ! إنّني لقلقٌ من احتمال إرسال الشاه قوّاته العسكريّة -التي هيّأها وأعدّها من ثروات الشعب المحروم، ومن دمائه- إلى إسرائيل؛ ليقاتلوا ضدّ إخوانهم الغيارى!».

وفي خاتمة البيان حذّر الإمام قدس سره من خطر هذا النظام العميل لأمريكا، وخاطب الأمّة والشعب الإيرانيّ، مذكّرًا إيّاه بالمسؤوليّة الملقاة على عاتقه وعاتق الجيش والعلماء والخطباء، قائلًا:

«على الشعب الإيرانيّ مقارعة النظام وفضح جرائمه كافّة. يجب على جيش إيران، وعلى أصحاب الذوات المخلصين، تعزيز إرادتهم وأنفسهم، والسعي لغسل الذلّ والعار الذي لحقهم من النظام. يجب على الجميع إيجاد حلّ مُوحَّد لنجاة البلاد، ومنحها استقلالها المغتصب. مَهمَّة الشعب الإيرانيّ الآن هي الوقوف بوجه كافّة مصالح أمريكا وإسرائيل في البلاد، بل والتصدّي لها، وتدميرها مهما كلّف الثمن، ولو بالتضحيات الفدائيّة. مَهمَّةُ علماءِ الدينِ وأهلِ العلمِ والخطباءِ إعلامُ الناس وإبلاغهم بخطر إسرائيل علينا.

مَهَمَّة الشعب الإيرانيّ وعلماء الدين اليوم هي أكبر ممّا مضى. عليهم أن لا يصمتوا في هذه الفترة الحسّاسة، بل عليهم، وبأيّة وسيلة ممكنة، مضايقة الحكومة والشاه، والضغط عليه؛ من أجل أن يقف إلى جانب المسلمين ضدّ إسرائيل، وإلّا فعليهم تعريتُه وكشفُ فضائحه ومؤامراته؛ كي يعرف العالَم حقيقتَه الباطنة، وسريرتَه الدنيئة.

على الشعب الإيرانيّ وعلماء الدين معارضةُ نشاطات اليهود في إيران، الذين يقدّمون العون والمساعدة لإسرائيل بحمايةٍ من الشاه الخائن، وعليهم فتح صندوق تبرُّعات وجمع إعانات ومُؤَن لمساعدة إخوانهم المقاتِلين المضحّين بأنفسهم وأرواحهم».

إنّ هذه الحرب التاريخيّة خطَت بأيّامها الأولى خطواتٍ عظيمة من النصر والتقدّم، واستطاعَت سوريا ومصر تدمير آلة إسرائيل العسكريّة تدميرًا تامًّا؛ ما جعل القوى العالَميّة تنهال عليها بمساعداتها، وتدعو العرب إلى الحوار والمساومة، إلّا أنّ «السادات» الخائن ركن إلى الحوار مع القوى العظمى على أنّها ستستجيب إلى كافّة طلباته فورًا، وكانت القوّات الإسرائيليّة مستمرّةً بالانسحاب من الأراضي المحتلّة. بناءً على هذا، أوقف «الساداتُ» تقدّمَ قوّته، وترك فوّهة قناة السويس الغربيّة مفتوحةً أمام القوّات الإسرائيليّة، واستمرّ بالمفاوضات والحوارات مع القوى العظمى. نتيجةً لهذا التساهل والانصياع لمؤامرات الغرب، ونظرًا لاستمرار مساعدات أمريكا لإسرائيل، وسحب الاتّحاد السوفياتيّ دعمه لمصر، مضافًا إلى خيانة بعض الدول، كإيران الشاه و... تقدّمَت القوّات الإسرائيليّة على صحراء سيناء، وحاصرَت القوّات المصريّة، وألحقَت بها أضرارًا فادحة.

الفصل العشرون

ارتفاع عوائد إيران واتّساع رقعة الفقر والحرمان بين أعوام 73 - 1978م

بعد أن قطع العرب النفط عن أمريكا، تصاعد سعر البرميل الواحد إلى نحو ثلاثة، وأحيانًا إلى أربعة أضعاف سعره الماضي. وعلى هذا، شهدَت ميزانيّة البلاد دخلًا قويًّا خلال فترة وجيزة. بَيْدَ أنّ هذه الأرباح دخلَت جيوبَ أفراد العائلة الحاكمة وكبار المسؤولين، مضافًا إلى استثمارات الشركات الأجنبيّة التي عقد الشاه معها اتّفاقيّات جديدة إبّان تلك الفترة، ونرى من الضروريّ أن نتطرّق إلى هذا الباب بشيءٍ من الإيجاز.

القسم الأوّل: ثروة الشاه

إنّ ثروة الشاه ابتدأت ببيع عقارات أبيه رضا خان بعد عام 1948م، والتي استولى عليها واغتصبها إبّان حُكمه. وتصاعدَت ثروتُه تصاعدًا مذهلًا بعد عام 1953م إذ شكّل معظمَها من أرباح النفط. وابتدأ الشاه باستثمار أمواله هذه بمشاريع عديدة ومختلفة، وفي مجالات متنوّعة، كالبنوك والصناعات وشركات النقل السياحيّة والمقاهي الكبيرة...، وبلغت عقاراته وأملاكه وثروته الشخصيّة حتّى عام 1961م، ما يأتي: ملكيّة بنك العمران، مؤسّسة توزيع الأدوية المعروفة بـ«داروبخش»، ومعمل الإسمنت في محافظة فارس، وشركة الإسمنت في منطقة درود، ومعمل السكّر في فريمان، ومعمل

السكّر في قهستان، ومعمل السكّر في أهواز، ومعمل السكّر الكبير بارس، وشركة الأسهم والتأمين في شركة الخليج لنقل النفط، ومعمل الأترنيك، ومعمل إطارات بي أف، غودريج.

ومن أجل تضليل الشعب وإبعاد أنظاره عنه، انتقل من قصره المعروف بـ«قصر مرمر»، الذي لم يكن يحظى بموقعٍ أمنيّ محافظ، إلى قصر نياوران وسعد آباد في شمال طهران، وأعلن للشعب بأنّه جعل قصره السابق وقفًا، وقام رئيس الوزراء آنذاك بعرض مسرحيّة ساذجة أمام الشعب، إذ وقف أمام الشاه وخاطبه بهذه المناسبة قائلًا: «من الطبيعيّ أنّه ليس بمقدوري الوقوف أمام صاحب الجلالة، وأوجّه سؤالًا ما؛ فإنّني أقلّ من ذلك بكثير! ولكن أقول: هل فكّر جلالتُه بنفسه ومنزله ومسكنه قليلًا ما، بعد أن وهب كلَّ ما يملك؟».

تقول إحدى الوثائق التي حُصِل عليها في وكر الجاسوسيّة الأمريكيّة في طهران، إذ يرجع تاريخها إلى حزيران 1972م: «ثروات العائلة الحاكمة عبارة عن جسر طويل، يبتدئ من شركات الإسمنت، إلى مؤسّسات الصنائع الكيميائيّة للأدوية وغيرها، ومرورًا بمجالاتٍ عدّة. وما ذكرناه من موارد اقتصاديّة ليست بأسمائهم أو خالصةً لهم، ربّما كانوا من المشارِكين بالأسهُم مع شركاء آخرين، أو مشارِكين بأسماء مستعارة».

وتشير هذه الوثيقة إلى «مؤسّسة بهلويّ» قائلة: «إنّ هذه المؤسّسة لها ثرواتٌ طائلة وأسهمٌ متعدّدة، وتملك الكثير من الفنادق العملاقة، والمطاعم الفاخرة، والشركات الكبيرة. وأكثر أسهمها ترجع إلى مجالات الكيماويّات والأدوية، ومعامل القطن والإسمنت. إنّ هذه المؤسّسة تدير 50% من محاصيل إسمنت البلاد، ولها فوائد عديدة وجمّة، تدّعي أنّها تصرفها في موارد خيريّة، وهذا هو سرّ تأسيسها، بينما في الواقع نرى أنّ 20 إلى 40% من الفوائد هذه، تدخل في جيوب أفراد العائلة الحاكمة... وتحظى بأولويّات عظمى لدى النظام؛ لأنّها ترجع إلى العائلة البهلويّة».

وجاء في وثيقة أخرى: «لقد كان الاستيراد في الماضي، وقبل عقدَين مثلًا، أمرًا يتمّ **عبر**

دفع الضرائب الجمركيّة، وأحيانًا دفع الرشوات لأصحاب المناصب والمعنيّين، أمّا الآن، فلا يُسمَح بذلك لأحدٍ، إلّا بعد مشاركة أحد أعضاء العائلة الحاكمة، لابتزاز الأرباح، وتخصيص نسبة عشرة إلى أربعين بالمئة منها له، أو... إلخ». وأكّدَت هذه الوثيقة على سبب التدهور الاقتصاديّ والفساد التجاريّ، واتّهمَت السلطة ورجالاتها باقتراف هذه الجريمة الكبرى، والتي دعمها أيضًا الكبار من السياسيّين والمتنفّذين بين أوساط السلطة التنفيذيّة والعائلة الحاكمة.

لقد بلغَت ثروة الشاه بعد عام 1973م وما بعدها، حدًّا كبيرًا، بحيث أصبحَت في مجال المقايسة والموازنة مع ثروة العاهل السعوديّ والمليونير الأمريكيّ راكفلر و... إثر ازدياد سعر النفط وارتفاعه، وجني عوائده وأرباحه، وابتلاعها. لقد طُبِع ونُشِر كتابٌ سُمِّي «الأخطبوط»، ووُزِّع بشكل سرّيّ في أواخر حياة نظام الشاه، فضح كافّة مجالات اقتناء الأموال، وجَنيِ الثروات من قِبل العائلة الحاكمة، وعدّد مجالات كثيرة عملوا بها وشاركوا فيها، كالبنوك والأراضي الزراعيّة والمجلات الصناعيّة وما إلى ذلك... هذا وإنّ مواردهم الماليّة وثرواتهم الطائلة خارج البلاد بلغت المليارات من الدولارات، لكنّ الكتاب هذا لم يتعرَّض لشيء منها بالتحديد والتفصيل. ومؤلِّفو الكتاب هذا، هم مجموعة من الموظّفين الثوريّين الذين كانوا يعملون في المؤسّسات آنذاك، والذين لهم اليد الطولى في تخريب النظام وهدمه إثر الموجات الثوريّة التي عمَّت البلاد.

لقد أَدرجَت صحيفة «اطّلاعات» اليوميّة مقالًا نقلَته عن صحيفة «نيويورك تايمز» بعد هروب الشاه من البلاد عام 1978م، جاء فيه: «بناءً على ما ادّعَته صحيفة «نيويورك تايمز» في عددها الأخير، واستنادًا لإنذار البنوك ودوائر العقارات والمعنيّين بالأمور الماليّة والنقديّة، مضافًا إلى مصادر المعارضة الأخرى، ولبعض الوثائق المنتشرة، تبيّن أنّ الشاه يملك ما يعادل مليار دولار مسجّلة باسمه؛ وبهذا، فهو من الأفراد القلائل في العالَم الذين يملكون أموالًا طائلة كهذه!».

وتقول «نيويورك تايمز» أيضًا: «نحن لا نمتلك إحصائيّات دقيقة عن ثروات

العائلة البهلويّة، إلّا أنّنا نستطيع أن نقارنها بثروات عائلة آل سعود وآل الصباح». وتضيف الصحيفة قائلة: «إنّ بنوك أمريكا تدّعي بأنّها استلمَت من إيران مبالغ من 2 إلى 4 آلاف مليون دولار طيلة العامَين الأخيرَين، ترجع بأجمعها إلى عائلة بهلويّ»، كانت ترجع بأكملها إلى شخص الشاه بذاته، واستندَت هذه الصحيفة الأمريكية إلى إحصائيّات واستدلالات جمعَتها من المعارِضين لنظام الشاه، حيث لم تحظى بتأييد ودعم من قِبل الصحفيّين والمتخصّصين الأمريكيّين. لقد جاء في هذه الإحصائيّات، أنّ عائلة بهلويّ تملك 17 مصرفًا وشركة تأمين، و25 مصنعًا لإنتاج الصناعات الفلزيّة، و8 شركات تعود إلى الصناعات المعدنيّة، و10 معامل لإنشاء الموادّ الإنشائيّة والبنائيّة، و45 شركة خدمات عموميّة، و43 معملًا لتهيئة الموادّ الغذائيّة، وأخيرًا 26 فقرة استثمار في مجالات رأسماليّة مختلفة.

ثمّ تستند «نيويورك تايمز» إلى مصدرٍ آخر، وتختم مقالها قائلة: «بالإضافة إلى ما مرّ كلّه، فإنّ عائلة بهلويّ تعود لها أملاك وأرباح 70% من الفنادق الضخمة في إيران». ومع وجود هذه الثروات الطائلة والكبيرة، لم يكتفِ الشاه وعائلته بهذا كلّه، بل راحوا يؤمّنون كافّة مخارجهم ومصاريفهم من ميزانيّة الدولة! فعلى سبيل المثال، يقوم وزير البلاط بتقديم رسالة عاجلة وسرّيّة إلى مجلس الوزراء، يطلب فيها إرسال شيك بمبلغ 43.354 جنيه إسترلينيّ لدفع 50 % من كلفة طقم مائدة يحتوي على صحون وملاعق، هُيِّئ لوليّ العهد! وفي رسالة أخرى مؤرّخة في 1976/10/10م، يطلب الوزير هذا المبلغ 1.859.833 فرنك فرنسيّ لتجهيز أثاث قصر حضرة وليّ العهد في جزيرة كيش!

والمضحك هنا، هو ما نطقَت به زوجة الشاه إثر لقاءٍ صحفيّ عُقِد معها، عندما وَجّه أحدُ الصحفيّين الأجانب سؤالَه عن سبب اختيار الشاه قصرًا منفردًا ليقطن فيه لوحده، أجابَت قائلة: «عندما رُزِقنا بالمولود الرابع، أحسَسْنا بضيقِ المنزل هنا. مضافًا إلى أنّه -أيّ الشاه- أصبح كبيرًا، ويودّ أن يكون منفردًا ووحيدًا!».

وعلى العموم، فإنّ الحديث بهذا المجال طويل وعريض، ولا يتّسع له صدر هذا الكتاب. لذا، نكتفي بهذا القدر من الإحصائيّات والأرقام.

القسم الثاني: الاتّفاقيّات الأجنبيّة والقروض الماليّة

لقد تصاعدَت صفقات الأسلحة وأسعارها، إثر ارتفاع أسعار النفط، إلى نحو أربعة أضعاف سعره الماضي. وانهالت الوفود الغفيرة من مختلف البلدان، وبالأخصّ أمريكا وأوروبّا الغربيّة، على إيران؛ من أجل عقد معاهدات واتّفاقيّات جديدة. وبدَلًا من أن يستغلّ النظام دخلَه العظيم هذا في مجال إعمار البلاد، وتقوية البنية الاقتصاديّة للبلاد، وإعداد الطرق والمواصلات، وبناء المطارات وخطوط الحديد، وتشييد المعامل والمصانع والموانئ الملاحيّة، وإلى غير ذلك من الموارد التي تعود على البلاد بالخير والعطاء، قام باستيراد المنتجات المصرفيّة والاستهلاكيّة والكماليّات بشكلٍ رهيب، وقضى على الدخل العظيم الذي وفّرَه من عوائد النفط. لقد بلغ حجمُ استيراد المنتجات الاستهلاكيّة والكماليّات عام 1975م حدًّا، بحيث يقول «إريك رولد» الصحفيّ الفرنسيّ: إنّ مينائَي خرّمشهر وشاهبور رَسَت فيه أربعمئة سفينة شحن تنتظر تفريغ حمولتها. لقد كانت السفن تنتظر دورها إلى خمسة أشهر كحدٍّ أدنى؛ ما اضطرّ حكومة إيران لدفع أكثر من مليار دولار غرامات في عامَي 75 و76، بسبب تأخير السفن التجاريّة، ناهيك عن الخسائر التي تحمّلَتها جرّاء فساد الكثير من الموادّ والمعلّبات وتسمّمها، والتي لم تحتمل الحرّ والرطوبة وأشعّة الشمس.

كان القسم الأعظم من المشتريات الأجنبيّة في المجال العسكريّ، فقد ابتاع النظام عام 1973م صفقةَ سلاحٍ كبيرة، تجاوزَت الملياري دولار من أمريكا، وهي عبارة عن أربعة أضعاف ما اشتراه عام 1972م. وبعد حرب تشرين، ارتفع معدّل شراء السلاح من أمريكا 35%. وفي السنة تلك نفسها، ارتفعَت ميزانيّة وزارة الدفاع من مليارَي دولار، إلى عشرة مليارات دولار! واستمرّ نموّ الميزانيّة أيضًا خلال أعوام 76 - 77 - 78.

لقد وقّع الشاهُ أكبرَ معاهدة تجاريّة مع أمريكا عام 1974م، بلغَت تكلفتها 15 مليار دولار للتجهيزات العسكريّة والموادّ الغذائيّة والمصرفيّة. كذلك عُقِدَت معاهدات من هذا القبيل، وبكلفة أقلّ، مع دول غربيّة أخرى.

واستطاعَت كثيرٌ من الدول، وبالأخصّ الأوروبّيّة الغربيّة، الحصولَ على قروض عظيمة من النظام، والتي هيّأها هذا الأخير من باقي عوائد النفط. فعلى سبيل المثال، استلمَت بريطانيا قرضًا قوامه 1.200 مليون دولار، واستلمَت فرنسا أيضًا 1.000 مليون دولار، وحازَت قبرص ومصر وتونس والسنغال على عشرات الملايين من الدولارات باسم الهبات والمساعدات. واستطاعت بعض الشركات الأمريكيّة، كشركة «بان أميركان» و«كروب»، من سدّ العجز الذي واجههم، بمساعدة الشاه الماليّة، مقابل تخصيص بعض أسهمهم الوضيعة له، والتي بلغت بحدود 2.5 بالمئة!

لقد صرّحَت صحيفة كيهان، بعد عشرة أشهر من تاريخ ارتفاع أسعار النفط، قائلة: «إنّ القروض التي منحَتها إيران للدول الأجنبيّة، بلغت 10 مليارات دولار حتّى الآن. عمدَت السلطة إلى إخراج العائدات النفطيّة الفائضة إلى الدول الأجنبيّة، بدلًا من أن توظّفها داخل البلاد، ولخدمة الشعب الإيرانيّ». وصرّحَت قائلة: «إنّ الفائض من عوائد النفط إثر ارتفاع سعره ومبيع حجم كبير منه، سوف يُؤَمَّن في البنوك الأجنبيّة خارج البلاد، وسوف نبتاع منه بضائع رئيسيّة وأساسيّة وغيرها».

لقد بذل الشاه هذه الأموال والثروات من أجل أن يصبح حديث الساعة لدى الصحف الأجنبيّة، التي راحت تعدّ ذلك لونًا من ألوان المجد والعراقة والكرم الذي ورثه من «كورش» و«داريوش الكبير»[1]، بينما يعيش أبناء وطنه في القرى والأرياف حياةً بائسةً ضعيفةً، يفتقرون لأبسط حقوق الإنسان فيها، وهو الماء الذي لا يصلح للشرب! لقد مرَّت على أبناء القرى والأرياف حالةٌ لم يرها من ذي قبل، ولم يشهد لها مثيل في العالَم، حيث تقول صحيفة «بيك خجسته» [إحدى الصحف المحلّيّة]: مرَّت أيّام على قرى محافظة فارس، كان يتمنّى الجياع بها أن يروا حشائش الأرض ليسدّوا ألم أمعائهم به!

---

(1) ملوك إيران في العهد الهخامنشّي قبل 3000 عام.

وصرّحَت صحيفة «كيهان» عام 1972م، بقولها: «تمرّ أيّامٌ على أبناء وطننا في المناطق الفقيرة والبائسة، يرى فيها الآباءُ أبناءهم وأطفالهم يتضوّرون جوعًا وعطشًا، ويشهدون موتَهم التدريجيّ، وهم بحالة فزع وهلع وبكاء، وليس بوسعهم تقديم أيّ شيء لهم. وبلغَت الحالة حدًّا لا يطاق، حيث أخذ بعضهم أبناءه الذين أشرفوا على الموت، إلى الطرق العامّة والأزّقة البعيدة، ليتركهم هناك؛ لعدم استطاعته رؤيتهم وهم يقضون نحبهم! وسنوافي قرّاءنا بملفٍّ مصوَّرٍ ومحقَّقٍ في الأعداد التالية للصحيفة بهذا الشأن، إن شاء الله».

أمّا الشاه، فعاد إلى أسلوبٍ ماكرٍ ومخادِعٍ آخر، حيث أراد أن يُعرِب عن حسن ظنّه تجاه الشعب وأبناء الوطن، فعمد إلى حذف رسوم الدراسة في كِلَا مرحلتَي التعليم العالي والتربويّ، وأمر بتوزيع معلَّبات الحليب وقطع البسكويت وغيرها على الطلّاب كافّة، في المراحل الدراسيّة كافّة؛ وذلك من أجل دوام الصحّة والتغذية الكاملة. بَيْدَ أنّ مسألة توزيع الحليب المعلَّب واجهَت نقصًا وصعوبة في التوزيع، وأُجهِضَت وهي بمهدها منذ الأيّام الأولى، ولم يلتفت إليها أحدٌ فيما بعد.

إنّ كثرة المشتريات والاستيراد من الموادّ الغذائيّة المعلّبة من الخارج، دمّرَت المنتجات الغذائيّة الداخليّة كافّة، وتحمَّل أصحابُ الأراضي الزراعيّة والمنتجات الغذائيّة خسائر فادحة وعظيمة؛ ما أدّى إلى ترك مشاغلهم، والانتقال إلى المدن الكبيرة، والتأقلم مع الحياة المصرفيّة والروتينيّة غير المنتِجة. هذا بالإضافة إلى بروز نوع من الطبقة الماليّة في المجتمع، فأصبح هؤلاء من الفقراء والضعفاء، فيما عادت فوائد جمّة -جرّاء الاستيراد والاستثمار- على أشخاص عديدين من أصحاب المشاغل الخدماتيّة وغيرها، وهذا بمجمله عرَّضَ الوضع الاجتماعيّ إلى ارتكابِ مخالفاتٍ وجرائم وتعدّيات على حقوق الآخرين بشكلٍ ملحوظ.

وثمّة اختلاسات كثيرة ومتنوّعة واجهَتها ميزانيّة الدول، قام بها عددٌ من المسؤولين والكبار في السلطة، وعمدوا إلى تهريبها خارج البلاد؛ ما دعا السلطة لأن تعترف بالنقص

الذي ضرب الميزانيّة ودمّرها عام 1976م، والذي قُدِّر بمليارَين وسبعمئة مليون دولار. بناءً على هذا، قامت السلطة بطلب قرض من الدول الغربيّة؛ لسدّ النقص الذي طرأ على ميزانيّـها، وبلغَت قروض عام 1977م من البنوك الأجنبيّة المتعدّدة الجنسيّات مبلغًا، قدره 4.5 مليار دولار، إزاء دفع فائدة 12% على المبلغ المذكور. واستمرّ نقص الميزانيّة هذا يتزايد سنةً بعد أخرى، إلى حين سقوط النظام وانتصار الثورة الإسلاميّة.

ولم يرَ الشاه بُدًّا من سدّ عجزه هذا، فلجأ إلى استنزاف ذخائره النفطيّة بأكثر ممّا مضى. وتقول إحدى التقارير الإحصائيّة: إنّ النظام وقَّع على معاهدةٍ لبيع ستّة ملايين برميلًا يوميًّا حتّى عام 1978م، ومنه حتّى عام 1993م، يتنازل إلى نحو 7.5 ألف برميل يوميًّا! وكان بهذا، وحسب الإحصائيّات الاحتماليّة، قد استنفذ النفط من جميع الحقول النفطيّة في إيران لذلك الحين. نعم، هذه هي تدابير الشاه، وهذه هي سياسته الحكيمة! إنّه في خضمّ هذه الأوضاع الاقتصاديّة المتدهورة، كان يحلم بالعمران الحضاريّ والتطوّر العصريّ، وكثيرًا ما كان يدّعي أنّه سوف يجعل إيران عام 2000م إحدى الدول الخمس في العالَم من حيث التقدّم الصناعيّ والعسكريّ [أي عندما تكون إيران خالية من النفط].

القسم الثالث: مواقف الإمام قدس سره

إنّ الإمام قدس سره، من خلال بيانه الذي أصدره عام 1973م، وخاطب به علماء الدين وأهل العلم والخطباء في إيران، والذي تطرّق فيه إلى الوضع الاقتصاديّ المتدهور للبلاد، هاجم النظام مهاجمةً صارخةً تجاه معاهداته حول الصفقة العسكريّة، التي بلغَت مليارَي دولار، فكتب قائلًا:

«... لقد بات الشاهُ يدبّر لأمّتنا وشعبنا مؤامرةً جديدة! إنّه يدّعي نقصَ الميزانيّة، ويقترض مليارَي دولار من أجلها، ويبتاع بها صفقات سلاح مدمِّر من أمريكا؛ ليقضي بها على ما تبقّى من اقتصادنا المتدهور، وليقضي على الأمّة بأسرها؛ ويعلن بكلّ

صلف وغرور، وبوقاحة متناهية، أنّه سوف يُصَعِّد من الضرائب الداخليّة، مضافًا إلى هذا القرض؛ لسدّ حاجة البلاد. إنّني لا أعلم هل إنّ الشاه يشتري صفقات السلاح المتعدّدة هذه من أجل طرد المتجاوِزين والمستعمِرين، وهو الخائن والعميل الأوّل لهم، وهو الذي سلّمهم كافّة المجالات الصناعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والعسكريّة؟ أم إنّه في الواقع يريد أن ينفّذ خطط الأمريكيّين القائمة على أساس استغلال البلاد واستهلاك كافّة ثرواتها ومنابعها العظيمة، وجَعْلِها قاعدةً لها؛ لتتمكّن من ضرب كافّة الدول والأمم التي تساند الشعب الفلسطينيّ، وتشكّل خطرًا على إسرائيل المعتدية الآثمة؟ إنّ أمّتَنا الآن، وهي تمرّ بأصعب حالة من الفقر والحرمان والضعف المعيشيّ، أمّةٌ تعترف صحفُ حكومتها بأنّ في طهران فقط ما يقرب من مليون شخص يفتقرون إلى الماء والكهرباء وأبسط مستلزمات الحياة! إنّ هذه الأمّة تعزب عن مراجعة الأطبّاء للتداوي؛ من جرّاء الفقر والضعف الاقتصاديّ، وتصبر على الآلام والمحن، حتّى تقضي نحبها صابرة. إنّها أمّةٌ لا تستطيع إرسالَ أبنائها إلى المدارس؛ لضيق ذات اليد. إنّها أمّةٌ ترمي بأطفالها في الطرق والشوارع، ليلاقوا حتفهم بعيدًا عن أنظار أهلهم وذويهم! إنّها أمّةٌ تترك أبناءها وأطفالها يزحفون على الأرض، ليلتقطوا حشائش الأرض؛ ليسدّوا بها رمقهم! أمّةٌ تقول صحفُ حكومتها: إنّ لكلّ 35 ألف شخصٍ، يوجد لهم طبيبٌ واحد! أمّة غادر أبناؤها في السنة الماضية منازلهم؛ بسبب الجفاف والجوع، وتشرّدوا هنا وهناك للحصول على لقمة العيش! هل من المنطقيّ أن ينفق مثل هذا المبلغ الضخم من ميزانيّة البلد لمثل هذه التفاهات؟! ولم يكتفِ النظام بهذا، بل راح يعقد المعاهدات مع آخرين، كبريطانيا المستعمِرة عدوّة الإسلام، لشراء أنواع أخرى من السلاح والعتاد العسكريّ!».

وجاء في بيان آخر أصدره عام 1974م، وجَّهَه إلى أبناء الشعب الإيرانيّ، تعرَّض فيه مرّةً أخرى للنظام، وهاجمه إثر عقده صفقات سلاح جديد تبلغ قيمتها 15 مليار دولار، مضافًا إلى منح الدول الأجنبيّة قروضًا ضخمة، جاء في هذا البيان:

«... إنّ الشاهَ يبيع النفط، ويُفرِغ خزانة الدولة في آنٍ واحد. وبدلًا من أن يؤمّن ميزانيّة الدولة، ويملأ بطون الشعب ويعين الفقراء والحفاة العراة، يعمد إلى إقراضها لدولة أجنبيّة، أو يشتري بها سلاحًا مدمِّرًا، صيانة وحفظًا لكيانه المهزوز، وحفظًا لمطامع الاستكبار العالميّ، والاستعمار المعتدي. إنّه بالأمس يطلب قروضًا لا تطيقها البلاد، وجرّ الاقتصاد إلى الدمار والإفلاس؛ واليوم بشرائه مختلف الأسلحة، وإعطائه القروض، يجرّ البلاد والشعب إلى الإفلاس والحرمان والانهيار. إنّ صفقة الخمسة عشر مليار دولار ما هي إلّا عمليّة أخرى نَفَّذها وحطّم فيها العصب الاقتصاديّ لإيران، وقضى بها على ثروات أمّتنا المستضعفة وذخائرها».

ثمّ يعرب الإمام قدس سره عن سوء نتيجة الاقتصاد الإيرانيّ مستقبلًا، ويؤكّد على أنّه أصبح تابعًا للمؤامرات الإمبرياليّة العالَميّة بكافّة مجالاته الزراعيّة والصناعيّة وغيرها، وأنّ ما يدّعيه الشاه من وعود وآمال للعام الألفين، ما هي إلّا خطوات دنيئة تهدف إلى استنزاف ثرواتنا وذخائرنا النفطيّة، وقال:

«... اليوم يَعِدُ الشاهُ الأمّةَ بوعودٍ واهية ومزيّفة لربعِ قرنٍ قادمٍ من التقدُّم والازدهار... أين هو عن الزراعة ووضعها المزري في البلاد؟! اليوم تعطّلَت الأيدي العاملة، وجلس الفلّاحون والعمّال عن العمل، ولم يبقَ من الاستقلال الصناعيّ سوى الاسم والرسم، وسيبقى هذا الوضع متدهورًا أكثر، ما لم يغيّرْ الله -سبحانه- هذا النظام، ويبدّل الشرّ بالخير.

بنفاد احتياطيّ النفط في هذا البلد، بِيَد هذا النظام، سيبوء الناسُ بفقرٍ مدقع، لا يجدون معه حلًّا إلّا الاستسلام للذلّ، ولا بدّ لشعب إيران الشريف، الذي لا زراعة له ولا صناعة، أن يعاني الفقر والحرمان، أو يرضى بالعمل للرأسماليّين!».

الفصل الحادي والعشرون

فتوى حرمة الانتماء إلى حزب الرستاخيز

خلال الأشهر الأولى لعام 1975م، كان الشاه في قمّة غطرسته في الحكم والهيمنة، وفجأةً، أعلن عن تأسيس حزبٍ جديدٍ دعاه بحزب «رستاخيز». لقد كان الشاهُ كثيرًا ما يؤيّد ويدعم التعدّديّة الحزبيّة، ويرى بأنّها مظهرٌ من مظاهر الديمقراطيّة والحرّيّة -واستنادًا لدعمه هذا، وُجِدَت أحزابٌ متعدّدةٌ داخل النظام، كحزب الشعب، وحزب إيران الجديدة، وحزب الوطنيّين...- إلّا أنّه فجأة أعلن بأنّ التعدّديّةَ ضارّةٌ بالنظام والبلاد والشعب، ودعا الشعب والأحزاب كافّة إلى الانخراط في صفوف الحزب الجديد الموحَّد «الرستاخيز» والانضمام إليه، وهدّد كلَّ مَن لا يستجيب لدعوته بإخراجه خارج البلاد؛ لأنّه يُعتَبَر مُبغِضًا لوطنه، وعدوًّا له، وخارجًا على الجماعة.

وبعد دعوة الشاه هذه، مباشرةً، أعلنَت الأحزاب الصوريّة والشكليّة -كحزب «إيران الجديدة» وحزب «الأمّة»- عن حَلِّ نفسها، وانضمَّت إلى الحزب الجديد. وبأمرٍ من الشاه، مُنِح «أمير عبّاس هويدا»، رئيسُ الوزراء والأمين العامّ لحزب «إيران الجديدة»، لقبَ الأمين العامّ للحزب المذكور. وسرعان ما داخل هذا الحزب عالم الصحافة، وأصبح حديث الساحة واليوم، ولاقى اهتمامًا كبيرًا من وسائل الإعلام والصحافة والنشر.

وفتح الحزب أيضًا أجواءً جديدةً للذين يتربّصون به الدوائر، ودعاهم لاغتنام الفرص واستغلالها لتثبيت أقدامهم وبسط نفوذهم وقدراتهم. وخُصِّصَت ميزانيّة منفردة لهذا الحزب، وسرعان ما أصدر صحيفةً ومجلّةً باسمه، وأعلن بأنّ الحزب قائمٌ على أركانٍ ثلاثة، هي: «النظام الشاهنشاهيّ»، و«الدستور»، و«ثورة الشاه والشعب».

وبعد أيّام قلائل من إعلان الشاه عن حزبه هذا، استفتى بعضُ الرجال المؤمنين سماحةَ الإمام قدس سره بأمر الانتماء إلى هذا الحزب، وطلبوا وجهة نظره الشرعيّة حيال الانتماء الإجباريّ إليه، فأجاب الإمام قدس سره:

«نظرًا لمخالفةِ الحزبِ العقيدة الإسلاميّة، وعدم وجود أيّ ارتباط بينه وبين الإسلام والوطن والأمّة، فإنّ الانتماء له محرّمٌ، ويُعتَبَر مساندةً للظلم، واستئصالًا لشأفة المسلمين، وإنّ الوقوف في وجهه هو من أبرز خطوات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأركانه...».

ثمّ يتطرّق الإمام قدس سره إلى أسباب تكوين الحزب وعِلَلِه، فيقول:

«... إنّ الشاه أراد بخطوته هذه، أن يعترف بفشل مشروعه المدعوّ بـ «ثورة السادس من بهمن»، وعدم مساندة الشعب له ودعمه. إنّه سعى طيلة عشرة أعوام من أجل استقطاب أذهان الأمّة والشعب نحوه، باسم «الثورة»، وباسم «ثورة الشاه والشعب»، لكنّه فشل فشلًا ذريعًا، وعَمَدَ اليوم إلى خطواته هذه؛ من أجل فرض الدعم الجماهيريّ، وكسب تأييدها له بالقوّة وبحدّ السيف. وإذا كانت الثورة المدعوّة بـ«ثورة الشاه والشعب» هي ثورةٌ لصالح الشعب والأمّة، فما الحاجة إذًا إلى تأسيس مثل هذا الحزب الجديد؟».

ومن جانب آخر، أشار إلى تخطّي الحزب القوانينَ والأعرافَ، وحرقِها، فقال:

«فيما يرتبط بفرض الانتماء لهذا الحزب، علينا أن نقول بأنّ هذا خرقٌ للقوانين والأنظمة العالميّة، وللدستور، وللموازين الدوليّة؛ إذ لا يوجد له نظيرٌ في أيّة بقعة من العالَم. إنّ إيران هي البلد الوحيد في العالَم، الذي يؤسَّس فيه حزبٌ بصيغة ملكيّة، وتُجبَر الجماهير على الانتماء إليه، وإلّا فالعاقبة: إمّا السجن والتعذيب، وإمّا النفي والإبعاد، وإمّا تجريد الفرد من حقوقه الاجتماعيّة والمدنيّة كافّة!

إنّ أمّتنا اليوم، أُجبِرَت على الانتماء إلى حزبٍ شاهنشاهيٍّ معادٍ للدين والإسلام، بل يحكم على الإسلام بالفناء والزوال، حزبِ نظامٍ قضى على أمّته، وسلب شعبه حرّيّاته واختياراته كافّة، نظامٍ أودى بشباب وطنه المفكّرين والواعين، ورمى بهم في قعر السجون، أو قذف بهم خارج الوطن...».

وطالب الإمامُ قدس سره، ببيانه هذا، كافّةَ علماء المسلمين والمراجع العظام، بالإفتاء بحرمة الانتماء لهذا الحزب، مستندًا إلى نقض الحزب القانون ودستور البلاد وسائر الأعراف والقيم، فقال:

«ليعلم علماؤنا وقطاعات الشعب كافّة، أنّ الحزبَ هذا هو مقدّمةٌ لمصائب وشدائد كبيرة، ستعود علينا وعلى وطننا بالذلّ والهوان بالتدريج، على مرِّ الزمن. فعلى علماء المسلمين ومراجعهم تحريم الانتماء لهذا الحزب؛ كي لا يَدَعوا مجالًا لسحق حقوق الأمّة وفنائها. على قطاعات المجتمع كافّة، بالأخصّ خطبائنا المحترَمين، وطلبتِنا المؤيَّدين بنصر الله، وشبابنا الجامعيّ الواعي، وسائر الطبقات من العلماء والفلّاحين والتجّار وغيرهم، عليهم مقاومة هذا الحزب، ومحاربته، والوقوف في وجهه. وليطمئنّ الجميع بأنّ النظام في حالة انهيار وسقوط، وإنّ النصر لقريب بإذن الله -تعالى-...».

ثمّ يتمنّى الإمام قدس سره في ختام بيانه أن يكون إلى جانب المناضلين، وفي صفوفهم: **«إنّني أتمنّى... وأتشوّق إلى أن أكون بجانبكم، وأنتم تجاهدون وتناضلون من أجل الدين والحفاظ على استقلال الوطن»**.

هذا وقد أعلنَت السلطات، بعد عامٍ من تأسيس الحزب المشؤوم، أنّ عدد المنتمين إليه قد بلغ 23 مليون نسمة (وكان عدد سكّان البلاد حينها يبلغ 33 مليون نسمة)! وفي عام 1977م، عزم الشاه على شقّ الحزب إلى جناحَين: الجناح «التقدّميّ»، والجناح «البنّاء»؛ وذلك لمآرب سياسيّة محنّكة، مدّعِيًا بأنّها خطوة لمخادعة الأعداء والعناصر المناوئة، ومن أجل تطوير العمل، والتصعيد في النشاط الحزبيّ داخل الحزب نفسه. بَيْدَ أنّ المعارِضين والمخالِفين انتبهوا للّعبة؛ لأنّهم على علمٍ كافٍ بأنّ الشاه والنظام والحزب المزعوم هم أبعد ما يكون عن الديمقراطيّة والتعدّديّة الحرّة، ويرون أنّ المؤيِّدين لهم ولتكتّلاتهم ما هم إلّا من طبقة المتسوِّلين والمستهترِين ولاثِمي بقايا قصعاتهم. لقد بدا واضحًا فشل النظام الحزبيّ، وبالأخصّ في الجانب السياسيّ، حتّى على الصعيد الدوليّ وخارج البلاد، ودُفِن في مهده.

وقد جاء في وثيقتَين هامَّتَين من وثائق وكر الجاسوسيّة الأمريكيّة في طهران -وهما من الوثائق السرّيّة للغاية- حول العلل المؤدِّية لتأسيس الحزب وتشييده، جاء فيهما: «باعتقادنا ونظرنا أنّ الشاه عَمَدَ إلى تأسيس هذا الحزب؛ من أجل فرض سيطرته الكاملة على الأمّة، وللحدّ من نسبة الانتقادات والاعتراضات الداخليّة». وتضيف الوثيقتان أيضًا، بأنّ «عدم الحرّيّة داخل الحزب ملموسٌ وبارزٌ، حيث إنّه لا يحق لأيّ فردٍ أن يتعرَّضَ للنفط، أو يستفسر عنه، أو عن السياسة الخارجيّة». مضافًا إلى أنّ سبب انتماء الأفراد للحزب هو «من أجل سدّ المجال المُحتَمَل أمام المتنفِّذين الكبار، لعدم وصولهم إلى أهدافهم، وتحقيق الآمال البعيدة في الوصول إلى السلطة».

إنّ حزبًا بهذا التركيب، وبهذه الصورة، وبما هو عليه من عدم التنسيق والتنظيم -وبعد مرور أربعة أشهر على تأسيسه- أعطى انعكاسًا سلبيًّا له، ممّا دعا السفارة الأمريكيّة إلى التنبّؤ لمستقبله، وما سيؤول إليه في القريب أو البعيد. فتقول وثائقها: «ليس ببعيدٍ أنّ الحزب بأسلوبه هذا، سيصبح منظمّةً تضمّ كافّة التيّارات السياسيّة المؤيِّدة والمعارِضة وغيرها، وقد يدخل ضمن كلّ مجالٍ من مجالات الحياة العامّة للشعب، إذ حينها لن يكون له أيّ مفهوم في القاموس السياسيّ». وهذا هو ما وقع حقًّا؛ إذ أعلن النظام، بعد مرور عامٍ على تأسيسه، بأنّ «حزب «رستاخيز» فَقَدَ محتواه، وعاد لا يمثّل أيّ شكلٍ من أشكال التنظيم».

من هنا، عاد الإمام قدس سره مؤكِّدًا على بيانه السابق بشأن هذا الحزب، وأوضح قائلًا: **«لقد أخذ الشاه يتشبّث ويتمسّك بأيّة وسيلة للتملّص من الهزيمة، وصَرْفِ الأنظار عنها، بَيْدَ أنّ محاولاته باءت بالفشل؛ لأنّها منذ اليوم الأوّل، خالفَت فكرتَه وحزبَه الجبريّ، الذي لم يشهد العالَم مثيلًا له مطلقًا».**

وفي صيف 1978م، ونتيجةً لتصاعد نشاط الجماهير والأمّة الإسلاميّة، واتّساع رقعتها، أعلن الشاه عن انحلال الحزب المذكور؛ ليخفّف من شدّة التوتّر والاضطراب الذي أخذ يعمّ البلاد بأسرها. وبهذا، طُوِيَت سجلّات الحزب كافّة، ذلك الحزب الذي أقاموا له الدنيا وأقعدوها بالتبجيل والدعاية له، دون أن تكون هناك معارضة لأيّ فرد أو عضو من كبار أعضائه وزعمائه!

الفصل الثاني والعشرون

فتوى تحريم التاريخ الشاهنشاهيّ

بمناسبة مرور 12 عامًا على واقعة الخامس من حزيران [15 خرداد] 1963م، أقام طلبة الحوزة العلميّة بقمّ حفلًا مهيبًا في المدرسة الفيضيّة، لذكرى الانتفاضة البطلة، وتكريمًا لشهدائها البررة، وعاهدوهم على السير على خطاهم في ظلّ قيادة الإمام قدس سره وإرشاداته الروحيّة، على الرغم من فرض أجواء الرعب والخوف من قِبَل رجال الشرطة والسافاك (المخابرات). وما هي إلّا دقائق بعد التجمّع، حتّى فُوجِئ الحفلُ بهجومٍ واسعٍ من قِبَل عناصر المخابرات الشرطة، حيث فتحوا عليهم النيران الغادرة، وأردوا العديد منهم، وسقط الكثيرون مضرَّجين بدمائهم الطاهرة، وتناثر الجرحى والمصابون هنا وهناك. تفاعلًا مع هذه الحادثة الأليمة، أصدر الإمام قدس سره بيانًا، هاجم فيه السلطات والشاه، وتعرَّضَ لتفاصيل هذه الواقعة المرّة، ولِما ارتُكِب بها من جرائم واعتداءات، ومن ثمّ عزّى الأمّة الإسلاميّة بهذه الحادثة المؤلمة، ووصف الحفل والحركة هذه بأنّها حركة تدلّ على وعي الأمّة وتحرُّرِها، وبارك لها خطواتها المباركة هذه، ووصفها بأنّها خطوة من خطوات التقدُّم والنهضة والصحوة الإسلاميّة، وبشّرهم بأنّ النصر قريب!

لقد كان الشاه على وعيٍ وإدراكٍ كامل بما بلغته الأمّة والشعب من تطوُّرٍ ووعيٍ على الصعيد السياسيّ والدينيّ، ما دعاه لأنْ يتّبع أسلوبًا قذرًا وغير لائق، وأن يوسّع من نطاق هجومه على المقدّسات الإسلاميّة للنيل منها. ومن هنا، صعّد نشاطه الثقافيّ

الشاهنشاهيّ، الذي لطالما كان يدعو إليه بمختلف المناسبات والحفلات، وأخذ يحارب الإسلام والعقيدة بشكل علنيّ، ويتهجّم على أفكاره ومعتقداته التي وصفها بالرجعيّة، وبأنّها ضدّ التحضّر والتمدّن.

وتطرّق الشاه أثناء خطابه، عند افتتاحه البرلمان عام 1975م إلى الفكر الشاهنشاهيّ والتراث والأصالة الوطنيّة، ووصفها بأنّها هويّة الشعب وثقافته الأصيلة، ولمّح -بأسلوب الكناية- عن خطر الدين الإسلاميّ، وتوغّله في العادات والمراسم والتقاليد القوميّة الأصيلة، وعنونَه بـ«الهجوم والاجتياح الأجنبيّ» على الثقافة الوطنيّة. وأكّد على أنّ «الاجتياح قد دمّر أصالتنا وماهيّتنا الحقيقيّة؛ لأنّه لا يتناسب مع هويّة الثقافة الإيرانيّة».

وأعلن الشاه، باسم الأمّة والشعب، أنّه «سوف يسعى لدحض كافّة سُبُل التخلُّف التي تعرَّضَت لها البلاد، وسيبذل ما بوسعه كلّه لرفع كافّة عوامل الفساد والضعف وتلويث الفكر الأصيل؛ من أجل «إعزاز مفاخرنا الوطنيّة كافّة واستعادتها»، واستئصال كافّة جذور «التلوّث» منها. هذه التلميحات والعبارات تُعتَبَر مؤشّرًا كبيرًا لِما يرومه الشاه، ولِما يكنّه في صدره من عداءٍ ومِن برامج مدمِّرة وهدّامة واسعة؛ إذ بعد هذه التصريحات ببضعة أشهر، وبمناسبة مرور عيد ميلاد رضا خان[1]، صوَّتَ البرلمان على تغيير التاريخ الهجريّ إلى التاريخ الشاهنشاهيّ، وعُدِّل مبدأ التاريخ من يوم هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم تأسيس سلطنة «كورش» مؤسِّس الشاهنشاهيّة والإمبراطوريّة الإيرانيّة.

إنّ مسألة تغيير التاريخ مسألةٌ كبرى وفي غاية الأهمّيّة؛ ومن مخلّفاتها الخطيرة، القضاءُ على السنن والتقاليد الإسلاميّة، وإماتة الشعائر والمناسبات الدينيّة، نظرًا للالتباس والاختلاف الذي سيحصل للمناسبات والتواريخ المضبوطة لمواليد الهداة المعصومين عليهم السلام ووفيّاتهم، وسائر المناسبات المباركة التي اهتمّ الإسلام بها اهتمامًا واسعًا.

---

(1) 15 آذار، وقد تمّ تغيير التاريخ الهجريّ عام 1975م.

لقد عرفنا في الماضي شيئًا ما عن رضا خان، وجسارته، وعدم اكتراثه بالقيم، وبعض جرائمه وخطواته، لكنّنا لم نعهده يومًا تجرّأ فيه على الدين وخطا خطوةً كبيرة كهذه! إنّ هذه الخطوة، مهما تكن مصطنعة وملفّقة، فلقد كانت موضع هزل وسخريّة. لقد أقاموا احتفالًا مهيبًا وكبيرًا عام 1971م بمناسبة مرور 2500 عامٍ على الإمبراطوريّة الشاهنشاهيّة، والآن وحسب التاريخ الجديد الملفَّق، جعلوا ذكرى مرور 2500 عامٍ تصادف سنةَ عيد جلوس الشاه؛ إذ بهذا يكون مبدأ العمل بالتاريخ الشاهنشاهيّ من جهة، ومبدأ تاريخ تولّي الشاه الملكيّة، بالنظر للعددَين الأوّليَّين للرقم 2500. إذًا، هذه العمليّة هي عمليّة تلفيقيّة؛ من أجل تناول التاريخ الشاهنشاهيّ، وفي الوقت نفسه تاريخ لسلطنة الشاه؛ ليعلم العالَم بأنّه سائرٌ على نهج كورش الكبير، ووارثٌ له ولمنجزاته!

ولم يهتمّ الشعب لهذا التاريخ مطلقًا، إذ سبّب الكثير من المتاعب للموظّفين في الدوائر الرسميّة، وضيّع عليهم حساباتهم وتاريخ المناسبات والوقائع التاريخيّة. وبهذه المناسبة، وعلى ضوء هذه الخطوة الجديدة، أصدر الإمام قدس سره بيانًا معارِضًا شديد اللهجة، حرَّم فيه على الجميع استعماله وتناوله، جاء فيه:

«اليوم يريد الأعداء نهب ثرواتنا واستنزاف ذخائرنا، دون أيّ رادع أو مانع؛ فأخذوا يضربون ويعزفون على وتيرة جديدة باسم تبديل التاريخ وتعديله. إنّها لكارثة وجريمة عظمى تُقترَف على أيدي هؤلاء الطغاة الخونة! لهذا، يجب على أفراد الأمّة الإسلاميّة كافّة، الوقوفُ في وجه هذه الخطوة الهدّامة؛ لأنّها خطوة خطرة تعمل على تهديم الإسلام ومحوه. لذا، فإنّ العمل به محرّمٌ شرعًا، وغير جائز، إذ يُعَدّ ذلك تأييدًا ودعمًا للظلم والظَّلَمة».

منذ عام 1975 وما بعدها، تبدّلَت الأجواء السياسيّة، وأصبح المعارِضون في إيران والعراق غيرَ قادرين على التحرك بحرّيّة، إلّا ضمن إطارٍ محدود؛ وذلك نظرًا لرفع عقبات الخلاف بين النظام الإيرانيّ والنظام العراقيّ، بعد أن اجتماع الشاه مع نائب

رئيس الجمهوريّة العراقيّة صدّام حسين في الجزائر، ووقّعا اتّفاقية الصلح بينهما.

بناءً على هذا، تمّ تبادل افتتاح السفارات في كِلَا البلدَين، بعد أن كانت مغلقةً لسنوات. وفي شتاء 1977م، زار وزير الخارجيّة العراقيّ طهران، والتقى خلالها بالشاه، وأكّد بلقائه الصحفيّ، الذي عُقِد فيما بعد، على أنّ العلاقات متينةٌ وجيّدةٌ وتسير وفق مسارها الطبيعيّ. وقامَت السفارة الإيرانيّة بمحاربة رموز المعارَضة بشكلٍ سرّيّ متكتّم، وشدّدَت المراقبة على تحرّكات الإمام قدس سره ومؤيّديه. وطبقًا لِما جاء في إحدى الوثائق التي نشرَتها صحيفة «كيهان» في الأيّام الأولى لانتصار الثورة الإسلاميّة، فإنّ سفير إيران لدى العراق كاتَب وزارة الخارجيّة الإيرانيّة عام 1977م، قائلًا: «إنّ آية الله الخمينيّ مستمرٌّ في حركته ونشاطه ضدّنا، بأشدّ ممّا مضى، ونحن بانتظار الأوامر وما يترتّب علينا من واجبات تجاه هذا الموضوع». ثمّ يؤكّد السفير الإيرانيّ بقوله: «إنّ نشاط آية الله الخمينيّ المكثّف والمستمرّ والقائم ليل نهار، جعل الأوضاع داخل العراق مَثار اضطرابٍ وفزعٍ». وبناءً على هذا، يطلب وزيرُ الخارجيّة من رئيس الوزراء «شريف إمامي» «مطالعةَ الموضوع وإبداءَ الرأي» حوله. وبعد أن رُفِعَت الرسالةُ إلى الشاه، عادَت تحمل عبارةً في ذيلها، كتبَها الشاهُ قائلًا: «لقد كرّرتُ مرارًا: اقضوا على النَفَس هذا!».

ورغم مراقبة رجال السفارة للإمام قدس سره، وملاحقته، والتضييق عليه من كلّ جانب، إلّا أنّه استمرّ في جهاده، واستطاع خلال عامَي 1977 و1978م، أن يوجِّهَ خطاباتٍ وبياناتٍ عدّةً إلى الطلبة الجامعيّين والأمّة الإسلاميّة، يفضح فيها مؤامرات الشاه وخططه المدمِّرة والخائنة. هذا وقد أدلى بإرشاداتٍ ووصايا قيِّمة من خلال بياناته تلك، أثّرَت تأثيرًا كبيرًا وفاعلًا في نشاط الطلبة والشباب الواعي.

الفصل الثالث والعشرون

تغيير سياسة أمريكا الخارجيّة وانفتاح الأجواء السياسيّة في إيران

القسم الأوّل: مطالعة الأجواء السياسيّة العامّة

خلال العقد السادس وأوائل السبعينات، وقعَت حادثتان مهمّتان في أمريكا، دعتاها إلى تغيير منهجها السياسيّ بصورة عامّة: الأولى هي فشل حربها في فيتنام، والثانية قضيّة «واترغيت» في الداخل.

لقد خسرت أمريكا حربَها في فيتنام وكمبوديا ولاووس، بعد عدوانٍ استمرّ عقدًا من الزمن تكبّدَت خلاله الآلاف من القتلى والجرحى والمعوّقين والأسرى، مضافًا لخسارتها عشرات المليارات من الدولارات، استغلّتها في استعمال أحدث أنواع السلاح المتطوّر وأفضلها، إلى أن اضطرَّت إلى الخروج من المنطقة عام 1975م، خاسرةً مهزومةً.

لقد كانت أمريكا جادّةً لِلَفتِ أنظار شعبها إلى حربٍ كبيرة مُهمّة خارج البلاد؛ من أجل التغطية على ما تقوم به قوّاتُها من جرائم وأعمال وحشيّة لا إنسانيّة، ومن أجل صرف أنظارهم عن عواقب الحرب وآثارها السلبيّة على المجتمع، والتي بدَت واضحةً بالتدريج، بعد انتهاء الحرب وانسحاب القوّات الأمريكيّة من هناك، ومن أجل تخفيف آلام الشعب من جرّاء الحرب الخاسرة تلك، اضطرَّت الحكومة إلى اتّخاذ سياسة جديدة، نزولًا عند رغبة جماهيرها، التي أخذَت تطالبها بتشكيل حكومة ترعى «حقوق الإنسان»، وتجنَح «للصلح والسلام».

من جهة أخرى، وبعد تقهقر الأمريكيّين، انهارَت حكوماتُ الدول الآنفة الذكر، وفجأة، علمًا بأنّها كانت مدجّجةً بمختلف أنواع الأسلحة والذخائر الحربيّة. من هنا، تشعّبَت وتفرّعَت مجالاتُ دراسة خسارة الأمريكان وتحليلها من جهة، وانهيار الحكومات العميلة الثلاث من جهة أخرى. ونظرًا لضيق الوقت، ومراعاةً للاختصار، فلن نتطرّق إلّا إلى بُعدٍ أو مجالٍ واحدٍ من تلك المجالات.

إنّ سياسة أمريكا في الدول المستعمرة، أو العميلة لها، كانت تقوم على الجانب التسليحيّ والعسكريّ؛ وبعبارة أخرى، كانت ترى بقاءها واستمرارها وحفظ مصالحها لا يتمّ إلّا بالقوّة وفرض السيطرة؛ لأنّها تواجِهُ ثوراتٍ وحركاتٍ وطنيّة تحرّريّة داخل البلاد، علمًا بأنّها كانت تزعم أنّ ذلك كلّه ليكون حاجزًا ومانعًا للحيلولة دون انتشار الشيوعيّة والأفكار الماركسيّة أو توغّلهما. بناءً على هذا، قامَت أمريكا بفرض ديكتاتوريّات مسلّحة في هذه البلدان الثلاثة، كما فرضتها في الفليبّين وإيران وتشيلي ونيكاراغوا و... من ذي قبل. بَيْدَ أنّ سقوط الحكومات الديكتاتوريّة العميلة في فيتنام وكمبوديا ولاووس، أعطى مؤشّرًا هامًّا لأمريكا حيال سياستها القمعيّة والإرهابيّة هذه، وأصبحَت ترى أنّ القوّة وفرض الديكتاتوريّة وتوفير الحماية والدعم لها، لا يمكن أن تصمد بوجهِ الشعوب الثائرة مطلقًا. من هنا، صمّمَت أمريكا على أن تجري بعض التعديلات في ظلّ الحكومات الديكتاتوريّة؛ وذلك بفتح المجال أمام المعارِضين، وتوفير الأجواء السياسيّة لهم، خوفًا من انفجار الوضع المتأزّم والمتراكم، وأن توعز للقوى المعارِضة من الجناح المحافظ والجناح المعتدل، للتحرُّك باسم «الدفاع عن الحرّيّة وحقوق الإنسان»، وتعمل على دَفعِها وتسييرها ضمن إطار النظام الديكتاتوريّ الحاكم، مضافًا إلى افتعال بعض الخطوات الإصلاحيّة على الصعيد الاقتصاديّ والاجتماعيّ بشكل محدود وبسيط؛ لِتَأْمَنَ أيَّ ردٍّ فعلٍ معاكس، ولتحفظ وتصون مصالحها ومنافعها بأمنٍ وسلامٍ وهدوءٍ.

لكنّ هذه الفكرة، وهذه السياسة، لم تكن متجانسةً بأيّ وجهٍ مع أفكار الحزب

الجمهوريّ (جناح الصقور)، الذي عُرِفَ بتصلُّبِه وعُنفِه. لذا، فاز بها الحزب الديمقراطيّ، الذي لطالما كان ينادي بالحرّيّة والديمقراطيّة وبحقوق الإنسان. وكأنّ الزمنَ أخذ يرجع إلى الوراء، حيث أخذَت أيّامُ «كنيدي» تعود؛ إذ لا ننسى كيف دعا للإصلاحات في الدول المستعمَرة والعميلة، كإيران، حينذاك. ومن جهة أخرى، كانت أصداء الحزب الجمهوريّ في أمريكا والخارج مشوَّهةً وموبوءةً؛ بسبب قضيّة «واترغيت» التي حدثت في صيف عام 1974م؛ ممّا جعلَ أمريكا تترقّب وتنتظر الانتخابات القادمة لتضمّد جراحاتها. وإثر هذه المسألة، وبفوز الحزب الديمقراطيّ، استطاعَت أمريكا تلك تغطيةَ الحادثتَين، وابتدأَت سياستَها الجديدة، وأخذت تتطلّع إلى آفاقٍ عالَميّة جديدة.

وفي عام 1976م، إثر حملة موجة الانتخابات الرئاسيّة في أمريكا، هاجم مرشّحُ الحزب الديمقراطيّ «جيمي كارتر» دولَ العالم الثالث؛ لعدم تمسُّكِها بحقوق الإنسان ومراعاتها لها؛ وهذا ما جعل الشاه يقلق كثيرًا على مستقبله وعلى عرشه، فيما إذا توفّرَت فُرَصُ النجاح للحزب المذكور في تلك الانتخابات. منذ ذلك الحين، أخذ الشاه يُظهِر قلقَه وخشيتَه من فوز الديمقراطيّين بصورةٍ علنيّة، ودون أيِّ تكتُّمٍ، ولم تكن لديه أيّ ميول تجاه رؤساء الحزب الديمقراطيّ، أو كبار رجالاته... وكان يتطلّع بشغفٍ إلى مواقف «نيكسون» و«كيسنجر»، المبنيّة على أساس أمريكا الاستراتيجيّة إبّان عهد «جيرالد فورد».

وفي الواقع، كانت دعوة «جيمي كارتر» إلى الالتزامِ بحقوق الإنسان والأخذِ بالحرّيّة وما شاكلها، هي مسألة هامشيّة وثانويّة؛ إذ إنّ هدفَه الأهمّ هو تأكيدُه على عدم بيع السلاح أو مَنحِهِ إلى الحكومات الديكتاتوريّة من أجل مساندتها... وهاجم مواقفَ بلادِه المؤيِّدة والمسانِدة للحكومات التي لا تعرف معنى لحقوق البشر والإنسانيّة، كحكومة إيران وتشيلي، وطالَبَ بالكفّ عن دعمها ومساندتها. ومن البديهيّ أنّ هذه المواقف والتصريحات لم تكن لتلائم مزاج الشاه وهواه مطلقًا. لذا، أوعز إلى سفيره في واشنطن «أرد شير زاهدي» لتقديم الدعم الماليّ لميزانيّة «جيرالد فورد» الانتخابيّة.

وعندما علم بذلك الديمقراطيّون، وبالأخصّ «بريجنسكي» رئيس مجلس الأمن القوميّ في حكومة «جيمي كارتر» القادمة، وصفَ موقفَ «زاهدي» هذا بأنّه وصمةُ «عارٍ وذلٍّ» في جبين حكومة بلاده؛ إذ إنّه اعتاد على أن يقدّم الهدايا الفخمة، وبَسطَ الموائد الطويلة، لأعضاء المؤتمرات ورجال الصحافة الأمريكيّة.

ومرّ الزمن، وفاز «كارتر» بالانتخابات، واعترَت نظام الشاه حالةٌ عظيمةٌ من الفزع والذهول؛ لأنّه لم يكن يتوقّع ذلك بأيّ شكلٍ من الأشكال، إذ كان يعتقد بأنّه سوف يكرّر التجربة نفسها التي أجراها عام 1962م معهم، وأن يتساوم مع «كارتر» بشكلٍ أو بآخر. لذا، تزامنًا مع انتخابات «كارتر»، وعد الشعب تارةً أخرى بتوفير «جوّ سياسيّ منفتح»، تجرى فيه «انتخابات حرّة»، دون أيِّ قيدٍ أو شرطٍ. هذا في الوقت الذي كانت تختلف فيه أجواء إيران وأوضاعها الداخليّة اختلافًا كبيرًا مع تلك الأجواء في هذه الفترة، مِن أَوْجُهٍ وجوانب عدّة؛ إنّها تمرّ بفترة عصيبة، حيث انكشفَت للدول الأجنبيّة كافّةُ مزاعم الشاه وأكاذيبه ووعوده، وبلغ الشعبُ درجةً من الوعي والإدراك، لم يكن ليدركها في ذلك الحين، حيث إنّ بُغضَه للنظام ومعارَضتَهَ له قد أصبح واضحًا وجليًّا. السجون ملأى بالآلاف من كبار السياسيّين، وطبعًا، فإنّ عوائلهم وذويهم ومؤيّديهم يشكّلون عددًا لا يُستهان به في موازين المعارضة. والأهمّ والأخطر من ذلك، هو اتّساع رقعة الفكر الدينيّ والصحوة الإسلاميّة؛ إذ كثرَت المحاضرات والندوات، وصعّد الخطباءُ الوعّاظُ نشاطَهم الثقافيّ والإعلاميّ بالخطابات والمقالات و... واتّسعت رقعة المعارضة لتشمل السوق والمدرسة والجامعة والمسجد...

في شتاء 1977م، أصدرَت منظّمة العفو الدوليّة في «لاهاي» حُكمًا بحقّ النظام الشاهنشاهيّ؛ بسبب فَرضِه أجواءً عصيبةً على الشعب، والتعدّي على حقوق الإنسان. وبعدها بعامٍ واحد، انعقد المؤتمرُ السنويّ [لمجلس وزراء السنتو] في طهران، والتقى خلاله وزيرَا خارجيّة أمريكا وبريطانيا بالشاه بشكلٍ خاصٍّ، وأنّباه لعدم التزامه بحقوق الإنسان، والتعدّي على القوانين الدوليّة وخرقها، مطالِبين إيّاه بالتمسّك بها،

بدل الاهتمام بشراء الأسلحة وتكديسها. وأراد الشاه أن يبرّر لهما مواقفه وسياسته بشكل أو بآخر، بَيْدَ أنّ تسلّطَهما وتهديدَهما بلغا حدًّا كبيراً، بحيث وعدهما بتحقيق مطالبهما، والأخذ بإرشاداتهما وتوجيهاتهما! ولم تمرّ سوى ثلاثة أشهر على هذا اللقاء، حتّى عَزل الشاهُ «أمير عبّاس هويدا»، بعد تسلُّمِه منصب رئاسة الوزراء لثلاثة عشر سنة متواصلة، وحلَّ محلّه «جمشيد آموزكار» عميل أمريكا القديم، الذي استمرّ طيلة عشرين عامًا محتفِظًا بمركزه ومنصبه في الحكومات كافّة التي تغيّرت وتبدّلت! والشاه بخطواته هذه، أراد أن يسلّمَه مَهامًّا كالمَهامّ التي سلّمها للدكتور «أميني» عند تجربته الأولى عام 1962م، حيث الاهتمام بالجانب الاقتصاديّ، وتوفير الأجواء السياسيّة، وتخفيف الخناق والهيمنة، بل إنهاؤها.

إنّ أهمّ خطوة باشر بها «جيمي كارتر» بعد دخوله البيت الأبيض، هي إصداره قرارًا في أيّار 1977م، يقضي بالحدّ من تصدير الأسلحة للدول الأجنبيّة. وبطبيعة الحال، فإنّ قرارًا مثل هذا كان يشمل إيران أيضًا، والتي اختلّ برنامجها التسليحيّ تمامًا؛ لأنّها كانت المستهلِك الأوّل لصفقات السلاح الأمريكيّ.

لكنّ المعادلات السياسيّة بين أمريكا وإيران لعبَت دورًا هامًّا؛ ما أدّى إلى رجحان كفّة التعادل لصالحها، ذلك لأنّ إيران لها مناصرون ومؤيِّدون لا يُستَهان بعددهم في البيت الأبيض؛ إذ استطاعوا أن يُخرِجوا إيران من ربقة القرار الآنف الذكر، لأسباب تعود إلى أمريكا والمنطقة بأسرها بالنفع والفائدة. فقد حرّضهم الشاهُ على ذلك، مبيِّنًا لهم أهمّيّة إيران وموقعها الاستراتيجيّ في المنطقة، وما تحتاج إليه من دعمٍ ومساندةٍ وتأييدٍ عسكريّ وسياسيّ. وبعد بلورة المحادثات والحوارات، رأى الأمريكيّون أنّ دعمَ الشاهِ وتصرّفاته مطلبٌ ضروريّ، وجعلوا مسألة حقوق الإنسان أمرًا يمكن لفلفته أو إدغامه ضمن منهجيّة الشاه وسياسته، خلال إقامة المناسبات والحفلات المُهمّة.

لقد كان مستشارو «كارتر» متردِّدين بالموافقة على تجهيز إيران بالأسلحة المتطوّرة، وقام وزير الدفاع بكشف الستار عن عقود الصفقات التي قدّمَتها شركاتُ السلاح

الأمريكيّة لإيران، عبر وساطات ورشوات باهظة، وأعلن نوّاب مجلس الشيوخ عدم موافقتِهم على تجهيز إيران عسكريًّا بأكثر ممّا مضى، لكن بعد أشهرٍ معدودة، نشبَت الخلافاتُ بين مجلس الشيوخ وحكومة «كارتر» والشاه بشكلٍ فنّيّ ودقيقٍ مطلوب.

وفي تشرين الأوّل من عام 1978م، زار الشاهُ أمريكا، والتقى «كارتر»، واتّفق بهذا اللقاء على تثبيت سعر النفط من الجانب الإيرانيّ، وعلى عدم ممانعة تصدير السلاح لإيران بالقدر الممكن من الجانب الأمريكيّ. وبهذا، استمرّ بيعُ السلاح والمعدّات الحربيّة لإيران، وتنازل «كارتر» عن موقفه، ليُعلن عن ضعفِ إرادته في هذا الصدد. أمّا «بريجنسكي»، الذي وصف «زاهدي» سابقًا بـ«الذليل»، أصبح اليوم يوطّد علاقاتِه وصِلَتَه به. إذًا، على العموم، لم يحدث أيُّ تغيير لإيران، وبقيَت الأمور على ما هي عليه. وعندما زار «كارتر» إيران، وأحيا مع الشاه حفلةَ رأس السنة الميلاديّة بصحبة عائلته، صرّح أثناء خطابه قائلًا: «إنّ إيران مدينةٌ لمواقف الشاه ولقيادته الحكيمة؛ لأنّه استطاع أن يُسيطر ويُهيمن على جزيرةٍ كادَت تغمرها أمواج البحر، المُحاطُ بها بحوادث وعواصف مدمّرة عنيفة. إنّ مواقفَنا العسكريّة والأمنيّة مع إيران، بلغَت حدًّا من الوفاق والتعاضد، ما لم تبلغه أيّ دولة أخرى، وإنّني لأرى نفسي تميل إلى الشاه، وترتبط معه بروابط وصلاتٍ لم أرَ لها مثيلًا مع أيّ رئيسٍ من رؤساء العالَم!».

هذا، وبأخذ مسألةَ تثبيت سعر النفط بعين الاعتبار، نرى أنّ حجم التبادلات التجاريّة قد ارتفع بين البلدَين، واتّخذَت أمريكا من إيران قاعدةً عظمى لحفظ مصالحها الحيويّة في منطقة الشرق الأوسط؛ وهذا ممّا زاد ووطّد من علاقة الشاه بحكومة «كارتر» أكثر فأكثر. أمّا «كارتر»، فكما كان في السابق، يصرُّ ويحثُّ على الاهتمام بحقوق البشر، والشاه أيضًا كان قد وعد بتوفير الأجواء السياسيّة وإجراء انتخابات حرّة، والهدف النهائيّ من وراء هذه اللعبة السياسيّة -وكما ذكرنا سابقًا- هو السيطرة على أوضاع الداخل؛ لتخفيف حِدّة غضب الشعب تجاه الحكومة، وتنشيط

الحركات والأحزاب السياسيّة الداخليّة المحافِظة والمؤيِّدة للغرب، وسَوْقِها إلى ساحة الانتخابات، والتوغُّل في السلطة من أجل بسط الهدوء والأمن السياسيّ للبلاد، والحدّ من تحوُّل المعتدِلين والمحافِظين إلى الحركات المتشدِّدة الثوريّة. وبهذه الصيغة من الإصلاحات الجزئيّة، يكون الشاهُ والمصالح الغربيّة في أمانٍ من انتفاضةٍ ثوريّةٍ عارمة كانَت تهدّدها؛ إذ بإمكانها القضاء على النظام. وبذلك، يكون قد طوى بساط القواعد الأمريكيّة والغربيّة كافّة، والقواعد العسكريّة والسياسيّة الاقتصاديّة وغيرها التي في البلد.

وكان «كارتر» يرى مظاهرات الطلبة الجامعيّين والكتل الجماهيريّة وغيرها ظاهرةً طبيعيّة تفرزها طبيعة الحكم الديمقراطيّ الذي يسود البلاد، وأنّها لا تشكّل أيَّ خطرٍ على النظام والشاه. وكان «كارتر» كثيرًا ما يحسن الظنّ تجاه هذه الحركات والخطوات الجماهيريّة، ولم يكن يُعير لها أيَّ اهتمامٍ، تحسُّبًا لعواقبها ومخلّفاتها، إلى أن بلغ المقامُ حدًّا من التهديد، إثر حوادث تشرين الأوّل 1977م، التي جعلَت «كارتر» ينتبه إلى عمق الروح الثوريّة الإسلاميّة وأصالتها في قلوب الجماهير، تحت لواء الإمام الخمينيّ قدس سره وزعامته. ومنذ ذلك الحين وما بعد، حصل انشقاقٌ كبيرٌ في حكومة «كارتر»، بين موالٍ لمجلس الأمن القوميّ بقيادة «بريجينسكي»، ومؤيِّدٍ لوزارة خارجيّته بقيادة «سايروس فانس»؛ ما دعا كارتر لأنْ يتّخذ إجراءات سياسيّة متناقضة ومتشاكسة، عادَت بالفائدة شيئًا ما لتهيئة أجواء انتصار الثورة الإسلاميّة.

القسم الثاني: نشاط الحركات السياسيّة ونموّ المعارضة

إنّ الشاه سبق أن صرّح أثناء لقاء صحفيّ في تشرين الأوّل عام 1977م (وقُبَيل بضعة أيّام من موعد الانتخابات الأمريكيّة)، معلنًا بأنّ إيران لا طاقة لها بالرضوخ لأيّ خطوة تحميليّة؛ إذ حينها ستكون معرَّضةً للانهيار والفناء. وبعد خمسة أيّام، أجرَت صحيفة «كيهان» لقاءً خاصًّا معه، استجلَت نظراته وآراءه حول مفهوم «الديمقراطيّة»

ومسألة «حقوق الإنسان»، وأشار من خلال جوابه إلى موقفٍ تجاه مخالِفيه الأجانب -بما فيهم «كارتر»- حيال ديكتاتوريّته ونظامه، قائلًا:

«ممّا يثير السخريّة، أن يجعلونا مثالًا لتوضيح الديمقراطيّة والتعريف بحقوق الإنسان! فهل تعني الديمقراطيّةُ السبَّ والشتمَ والقتلَ والتخريبَ...؟! إنّ ما نقوم به الآن به هو الديمقراطيّة عينها. ولا أعلم هل إذا وقفنا في وجه الإرهابيّين والخونة للوطن؛ من أجل الحفاظ على أرواح الأبرياء، فهذا معناه أنّنا لم نلتزم بحقوق الإنسان، ولم نراعِها؟!».

في الثالث عشر من تشرين الثاني عام 1976م، فاز «جيمي كارتر» في الانتخابات الرئاسيّة للولايات المتّحدة الأمريكيّة؛ ما أدّى إلى حدوث سلسلة من الإصلاحات الإداريّة والسياسيّة، والتي حملَت اسم «الوضع السياسيّ الحرّ». وكان الشاه -نظرًا لتجربته القديمة- قد بدأ بسلسلةٍ من هذه الإصلاحات؛ كي يبرهن للحكومة الأمريكيّة الجديدة بأنّ إصلاحاتها المأمولة على وشك التنفيذ. ولهذا، قام في 29 كانون الأوّل من السنة ذاتها، بتقديم اللائحة الثوريّة للإصلاحات الأساسيّة -في مجال القضاء- إلى البرلمان. وفي الثالث من شباط 1977م، أصدر قرارًا بالعفو عن ستّة وستّين سجينًا سياسيًّا، كانوا على وشك إنهاء فترة حكمهم! وفي 29 شباط، صرّح الشاهُ خلال لقاء صحفيّ، بأنّ كافّة المراكز والمناصب السياسيّة والإداريّة في إيران هي ملكٌ لأفراد الشعب الإيرانيّ كافّة.

وباستمرار سياسة حقوق الإنسان لكارتر، أدانَت «منظّمة العفو الدوليّة» في شهر شباط، خلال إحدى المؤتمرات، أدانَت الشاهَ لِما يقوم به نظامُه من تعذيبٍ ووحشيّةٍ وأعمالٍ لا إنسانيّة بحقّ السجناء السياسيّين، وانتهاكه لحقوق الإنسان، وطلبت السماح لها للقيام بجولة تفقّديّة لأوضاع السجون والسجناء في إيران.

وقد أسفرَت الضغوط السياسيّة الخارجيّة عن نشوء تأسيس أوّل حركة سياسيّة معارِضة، وهي «الجمعيّة الإيرانيّة للدفاع عن حرّيّة الإنسان وحقوقه»، والتي نالت تأييد «باتلر»، أحد المسؤولين في اللجنة الأمريكيّة لحقوق الإنسان. واعتُبِرَت هذه

الجمعيّةُ موافِقةً لأهداف اللجنة التي تبغي الحفاظ على النظام الملكيّ، وذلك في آذار عام 1977م. وكان هدف الجمعيّة، والتي كانت تضمّ شخصيّات إسلاميّة وسياسيّة ووطنيّة، هو «استغلال التنافس الحاصل بين القوى العظمى»؛ لحماية السجناء والمبعَدِين السياسيّين، ونيل الحرّيّات السياسيّة.

وفي الثالث من أيّار عام 1977م، عبّر الشاه خلال لقائه برجال الدين المزيَّفين المدعوّين بـ«وعّاظ السلاطين» في مدينة مشهد، عبّر عن رأيه بالسجناء المسلمين السياسيّين، ووصمَهم بـ«الإرهابيّين» و«الشيوعيّين الإسلاميّين»، الذين يقومون بقتل الأبرياء والعُزَّل في الأزقّة والشوارع! وفي الحادي عشر من الشهر ذاته، وفَدَ على طهران وفدٌ من منظّمة الصليب الأحمر الدوليّ، وقام بجولة تفقّديّة لسجن «قصر». وفي اليوم التالي، قَدِمَ إلى طهران كلٌّ من «سايروس فانس» وزير خارجيّة أمريكا، و«ديفيد أوفن» وزير خارجيّة بريطانيا، والتقيا بالشاه، وطالباه بالالتزام برعاية حقوق الإنسان، بدلًا من تكديس الأسلحة في المخازن. وبالمقابل، أعطى الشاه المواثيق على الالتزام بوصاياهما.

وهكذا، فقد طلب الشاه بِدَوْره من حزب «رستاخيز»، بإيجاد جوٍّ سياسيٍّ منفتحٍ وحرٍّ؛ لكي تصبح النشاطات كافّة تحت سيطرة الحزب المباشرة. ومن الجانب الآخر، خطب الأمين العامّ للحزب - في 77/5/16 - وقال: «يجب أن توجد انتقادات بنّاءة ومفيدة منبثِقة من وسط الحزب ذاته. فالانتقاد البنّاء، ذلك الذي يصدر وينبثق من وسط الحزب فقط»! وفي 27 أيّار، قام السفير الإيرانيّ لدى الولايات المتّحدة الأمريكيّة بنشر تصريحٍ له، شرح فيه الأواصر والروابط التجاريّة العظيمة بين البلدَين وأكّد قائلًا: «إنّ إيران هي أكبر سوق تجاريّة للبضائع الأمريكيّة وأوسعها في المنطقة»، ولوّح للمسؤولين الأمريكيّين بأنّهم «إن لم يأخذوا مطالب إيران بعين الاعتبار، فإنّهم سيفقدون هذه السوق النادرة والعظيمة». وبعد ذلك، أشار إلى الطلبة الإيرانيّين المعارِضين المقيمين في أمريكا، واعتبرهم عملاء ومرتزقة، واتّهمهم بأنّهم غير إيرانيّين!

وفي 31 نيسان، ابتدأ المؤتمر الدوليّ العاشر للدفاع عن حقوق الإنسان أعمالَه في العاصمة طهران، وافتُتِح المؤتمرُ ببيان الشاه، الذي كان قد استهزأ بالمدافِعين عن حقوق الإنسان في الخطاب الذي ألقاه في تشرين الثاني عام 1976م! وفي الوقت ذاته، وُجِّهَت إلى الشاه رسالةٌ من قِبَل ثلاثة من قادة الجبهة الوطنيّة، يطالبونه بتطبيق الدستور والديمقراطيّة. وانتقد بعضُهم أسلوبَ هذه الرسالة المتحفِّظ. وراح الكثير من أزلام النظام يوجّهون كافّة خطوات الشاه ضمن إطار الدفاع عن حقوق الإنسان، حتّى ادّعى أحدُ أعضاء البرلمان: «لقد تمَّت ثورة الشاه والشعب (الثورة البيضاء) في إطار حقوق الإنسان والحرّيّة المطلقة»!

وفي الخامس من حزيران، قام الطلبة الجامعيّون القاطنون في المدينة الجامعيّة في طهران، بمسيراتٍ حاشدة، بمناسبة الذكرى السنويّة للانتفاضة الخامس من حزيران عام 1963م، وقاموا بترديد هتافات حماسيّة ومؤيِّدة للإمام قدّس سرّه، مثل «يعيش الخمينيّ» وغيرها. واصطدم المتظاهرون بقوّات حرس الجامعة والشرطة، فوقع بينهم اشتباكٌ حادّ وكبير. وفي اليوم التالي، قام طلبةُ كلّيّة الاقتصاد بجامعة طهران بمسيرات ضخمة وعظيمة، أطلقوا فيها هتافات تأييديّة للإمام قدّس سرّه، ومندِّدة بالنظام. إنّ هاتَين المسيرتَين الحاشدتَين -وبعد مضيّ أربعة عشر عامًا على انتفاضة الخامس من حزيران، وإعادة اسم الإمام الخمينيّ قدّس سرّه وصداه إلى الساحة- كانتا بمثابة إشارة إنذار للنظام، تعلن له عن الخطر الجسيم المقبل. فبعد أسبوعَين من الحادث، التقَت وكالة فرانس برس للأنباء بالشاه يوم 19 حزيران، واعترف بالضعف والذلّ والهوان، وقال: «إنّ الدفاع عن حقوق الإنسان، إذا كان يؤدّي بنا إلى الهزيمة والتبعيّة، فإنّ ذلك لا يُدْعَى حقوق الإنسان!»، ومن ثمّ قام بتهديد الحكومة الأمريكيّة، فصرّح قائلًا: «إنّ إيران تستطيع أن تعقد صفقات مع أيّ دولة تريدها، لكن مَن يكون بديلًا عن إيران كدولة صديقة لأمريكا؟».

وفي اليوم نفسه، وقعَت حادثة أخرى، كان لها الأثر المهمّ في تسريع الحركات

السياسيّة للطلبة الجامعيّين وتنشيطها، ضمن إطار معارضة النظام. فقد تمّ الإعلان في هذا اليوم عن وفاة الكاتب الإسلاميّ الدكتور «عليّ شريعتي» في لندن، واعتبرَت الأوساط الداخليّة والخارجيّة أنّ القضيّة مدبّرة سابقًا مِن قِبل أزلام «**السافاك**»؛ نظرًا لترتيب الأمور لإخراجه من البلاد، ومنعه من اصطحاب زوجته وأطفاله معه. وممّا يعزّز الفكرة أكثر فأكثر، مضافًا إلى ذلك، إذاعة الخبر بعد شهرٍ على وقوع الحادث! وعلى العموم، فإنّ رحيل الدكتور «شريعتي» كان له الأثر البالغ والكبير في تحريك مشاعر الطلبة الجامعيّين وعواطفهم؛ ممّا أدّى إلى تصعيد النفور والبُغض على النظام الجائر.

وأوّل ردّ فعل لهذه المأساة، كان بعد يومَين من وقوعها. ففي 21 حزيران، قام الطلبة الجامعيّون الرساليّون في جامعة طهران، بعد إتمام الصلاة، بتظاهرات عارمة امتدّت إلى خارج الجامعة. وقامَت صحيفة «كيهان» في اليوم نفسه، بنشر صورة كبيرة للدكتور «شريعتي» في الصفحة الأولى، وتطرّقَت إلى شرح جوانب حياته ومنزلته العلميّة وآثاره ومؤلّفاته، ولم تُشِر إلى تاريخه النضاليّ والسياسيّ وفترة سجنه التي استمرّت ثمانية عشر شهرًا. واعتبرَت أوساطُ المعارَضةِ أنّ هذا خطوة تضليليّة؛ من أجل تلويث سمعة الدكتور «شريعتي» وفكره، وأكّدَت فكرةَ تورّط النظام في سبب وفاته.

أسفرَت وفاة الدكتور «عليّ شريعتي» عن سلسلة من التظاهرات والمعارضات الواسعة، فقد حدثَت بهذه المناسبة تظاهرات واحتجاجات في جامعة تبريز (23 حزيران)، وطهران وخراسان (24 حزيران). وفي 26 حزيران، عادَت الكرّة وشملت منطقة البازار والكلّيّة التكنولوجيّة؛ ممّا أدّى إلى اشتباك عنيف مع قوّات الحرس، أدّى إلى تشتيت المتظاهرين وتفريقهم.

وصدرَت في هذه الأيّام، بياناتٌ عدّة من قِبَل بعض الشخصيّات السياسيّة والمراكز الثقافيّة، من ضمنها بيان «اتّحاد الكتّاب الإيرانيّين»، الذي تمّ فيه إجلال الدور السياسيّ البارز الذي كان يلعبه الدكتور «شريعتيّ»، وتقديره، وحمّل «السافاك» مسؤوليّةَ قَتلِ المفكّرين والكتّاب المناضِلين، ومن ضمنهم الدكتور «شريعتي».

القسم الثالث: الإمام قدس سره يستصرخ الأمّة للثورة على الشاه

بعد وفاة الدكتور «عليّ شريعتي»، استلم الإمام قدس سره نعواتٍ عدّة من الاتّحادات الإسلاميّة للطلبة الإيرانيّين في كلٍّ من أوروبّا وأمريكا، مضافًا إلى بعض الشخصيّات المُهمّة خارج البلاد. وقد جاء ضمن جواب الإمام قدس سره على إحدى البرقيّات لأحد الطلبة الإيرانيّين في أمريكا، قولُه:

«إنّني الآن أُمضي الأيّام الأخيرة من حياتي، وأملي الكبير والوحيد هو بالشباب، وبالطليعة المؤمنة، بشقَّيها الجامعيّ والدينيّ، داخل البلاد وخارجها».

وناشد الإمامُ قدس سره كافّةَ العلماء والمفكِّرين الواعين التصعيدَ من نشاطهم الدينيّ والثقافيّ؛ لإعلاء راية الدين الإسلاميّ الحنيف، وتبيين أحكامه ومعارفه لأبناء الشعب كافّة؛ إذ هو الدين الوحيد الذي يحمل عقيدة متكاملة وشاملة تحرص على سعادة الإنسان وإخراجه من ظلمات الوهن والجهل، وهو خير وسيلة لهداية الإنسان إلى الصراط القويم، وهو الكفيل بضمان استقلال الشعوب، واسترجاع حرّيّاتهم وكرامتهم.

ودعا الإمامُ قدس سره هؤلاء إلى الوحدة تحت لواء الإسلام، الذي أصبح لواءً للتوحيد. وبشّرَهم بالنصر القريب، قائلًا:

«إنّي أبشّر أبنائي الشباب الأعزّاء بالنصر والنجاة من براثن أعداء البشريّة وعملائهم المرتزقة!».

وعندما شعر الإمام قدس سره بأنّ الشاهَ أُجبِر على التنازل تحت الضغوط السياسيّة الداخليّة والخارجيّة، والتي خلَّفَت نوعًا من الحرّيّة السياسيّة النسبيّة في البلاد، وظهرَت بعضُ الحركات السياسيّة والدينيّة على الساحة، وبالأخصّ في الجامعات، طالب الإمامُ قدس سره طلبةَ الجامعات في كندا وأمريكا بعدم تفويت الفرصة لفضح جرائم الشاه وإعلانها أمام الرأي العامّ، بأكثر ممّا مضى. وهدّد أمريكا من مغبّة الاستمرار في دعمها للشاه، قائلًا:

«الآن، حيث أُتيحَت بعضُ الحرّيّات تحت الضغوط والأوضاع الداخليّة والخارجيّة،

وبسبب ردود الفعل التي نتجَت عن فضح جرائم الشاه، يجب على كافّة المجامع العلميّة والثقافيّة، والرجال الوطنيّين والطلبة، داخل البلاد وخارجها، استغلالُ الفرصة، وعليهم النهوض وإعلان رفضهم لحكومة الشاه العميلة، التي ارتكبَت أبشع الجرائم ضدّ أبناء شعبنا خلال الخمسين عامًا المنصرمة. هذا وعليهم إيصال أصواتهم إلى الأوساط الدوليّة كافّة؛ ليفهم رئيسُ الولايات المتّحدة بأنّ الشعوب الإسلاميّة تعتبره المحرّكَ الأوّل، والمبرمِج الأوّل، لكلّ ما يقوم به نظامُ الشاه من جرائم وانتهاكات، وبخاصّة ما قام به خلال السنوات الأخيرة.

إنّ دعم أمريكا للشاه والخونة مِن أمثاله، جعل المسلمين ينظرون إليها بأنّها المتصدِّر الأوّل لقائمة الظلمة المجرمين. فالحكومة الأمريكيّة دفعت هذه الشرذمة ليتسلّطوا على رقاب الشعوب... بل من أجل أن تسيطر هي بالذات على ثروات البلاد، وعلى الملايين من المسلمين، وإذا لم يُعِد الرئيسُ الأمريكيّ النظرَ في ذلك، فإنّنا سنعتبره المحرِّك لكلّ ما يحدث، والمسؤول عن تلك الجرائم.

إنّ الاستخفاف بحقوق الملايين من المسلمين، وتسليط هؤلاء المجرمين على مقدّراتهم ورقابهم، وإفساح المجال للنظام اللاشرعيّ في إيران، بل وفي إسرائيل، لاغتصاب حقوقهم وسلب حرّيّاتهم، هي من الجرائم التي لن يتحمّل مسؤوليّتها إلّا المسؤولون الأمريكيّون. وننصح رئاسة الإدارة الأمريكيّة الحاليّة باجتناب طريق الأسلاف، وندعوهم إلى العودة إلى الرشد والصواب، وإعادة الحسابات من جديد».

ثمّ أضاف سماحة الإمام قدس سره في الختام قولَه:

«**نحن ننتظر لنرى الحكومة الأمريكيّة، هل ترجّح شرفَها وشرفَ شعبها وكرامته؟ أم ترجّح مصالحها المادّيّة، فتقوم بنهب ثروات الشعوب الضعيفة والشريفة؟ أم إنّها ستحاول استعادة سمعتَها، وتسحب دعمها، وتكفّ عن تأييدها لهؤلاء المجرمين؟**».

ومع وجود هذه الاعتراضات والتنديدات كلّها، كان المسؤولون في النظام الشاهنشاهيّ مستمرّين في محاولاتهم في اختلاق الانتقادات، وتوجيهها بعضهم إلى

بعض، بل وحتّى إلى أنفسهم أيضًا؛ ليُعربوا عن حرّيّة الرأي في إيران! وذلك من أجل تحريض المعارِضين على بثّ آرائهم وأفكارهم ونشرها عن طريق قناة حزب «رستاخيز» العامّ.

وفي الخامس من تمّوز، صرّح رئيس الوزراء «أمير عبّاس هويدا»، قائلًا: «يجب أن تكون أجواء الحزب -أي «رستاخيز»- أجواءً منفتحة، وتتحلّى بصدرٍ رحب، وتتقبّل الانتقادات والاقتراحات كافّة. إنّ الدولة غير مسؤولة عن توجيه الأفكار والأقلام إلى جهة معيّنة، أو غرس مفاهيم ضيّقة ومحصورة في أذهانهم». وقال الأمين العامّ للحزب: «إنّ الهدفَ الرئيسَ للحزب هو رفعُ الخلافات الطبقيّة». وصرّح أحدُ قادة الحزب قائلًا: «يجب على الكتّاب وأصحاب الرأي والنظر والفكر أن يعبّروا عن أفكارهم وآرائهم بحرّيّة تامّة؛ كي تتلاقح الأفكار، ويُعَبَّد الطريقُ للوصول إلى أهداف الثورة البيضاء بأفضل شكل...».

هذا وأكّد الشاه في خطابه الذي ألقاه يوم الخامس من آب -بمناسبة الذكرى السنويّة لاستقرار الحكومة الدستوريّة- أكّد على الديمقراطيّة وفرضها في البلاد. وحرصًا منه على استمرار خطوات ثورته البيضاء، أصدر مادّتَين إضافيّتَين على موادّ اللائحة السابقة -وبهذا، أصبحت محتويةً على تسعة عشر بندًا، وذلك في 17 آب من العام ذاته- ونصّت المادّة الأخيرة -أي التاسعة عشرة- بأنّه «على كافّة المسؤولين الحكوميّين تقديم قوائم مفصَّلة تستعرض كافّة ممتلكاتهم وعقاراتهم التي في حوزتهم العائليّة -النساء والذوات- وقد شابه هذا القرار القانون الذي صدر عام 1962م عند بداية رئاسة «كنيدي» للولايات المتّحدة، والذي أثار الجدل والنقاش، وخلق الفوضى في الأوساط السياسيّة، حيث اعتُقِل العديدُ من رجال السياسة وأصحاب المَهامّ الدبلوماسيّة على إثره، إذ كان ذلك تدليلًا على جدّيّة إصلاحات سياسة النظام «الأمريكيّة».

وقد شهدَت هذه الفترةُ من الزمن اهتمامًا مِن قِبَل الشاه، حيث ألقى كافّة التبعيّات والمشاكل المخيِّمة على البلاد على عاتق المسؤولين الحكوميّين، وبذلك سيكون

آمِنًا من الانتقاد والاتّهام. وعلى إثر ذلك، قامَت الجمعيّات والشخصيّات السياسيّة بإصدار بيانات ورسائل مفتوحة موجَّهة إلى المسؤولين، وإلى رئيس الوزراء، انتقدَت فيها الكبت الشديد، وانعدام الحرّيّات السياسيّة، والمحاكم العسكريّة، وعدم إفساح المجال للدفاع عن المتّهمين فيها.

ونشرَت رابطة المحامين في يوم 11 تمّوز، بيانًا اعترضَت فيه على انعدام الحرّيّة في الجهاز القضائيّ للبلاد، وقالت: «إنّ جهاز الأمن في زمن حكومة «عبّاس هويدا» ارتكب العديد من الجرائم التي يندى لها الجبين!». هذا، وقد اعترض اثنان من قادة «حركة تحرير إيران» على محاكمة آية الله «الطالقانيّ» في محكمة عسكريّة، ووصف أحد الكتّاب اليساريّين في رسالةٍ له نشرها عن «هويدا» رئيس الوزراء ووزرائه بأنّهم مجرمون.

هذه الانتقادات بأجمعها لم تكن تُعتَبر جرمًا ما لدى أجهزة «السافاك»، ما لم تتجاوز رئيس الوزراء وحكومته، بل إنّه يراقب كافّة هذه التحرّكات من بعيد، دون أن يتسبّب في خلق أيّ مشكلة للكُتّاب والناشرين، حتّى طال هذا الأمر تأييد بعض الشخصيّات والرموز السياسيّة الداخليّة والخارجيّة، والمقرّبة من الشاه.

ولو رجعنا إلى مذكّرات «السير أنطوني بارسفنز»، سفير بريطانيا إبّان تلك الفترة، والذي كان يتميّز بقربه الشديد من كبار المسؤولين، وبعض المعارِضين للنظام في الوقت نفسه، لرأيناه يؤكّد بقوله: «لقد طرأ تحوّلٌ جديدٌ وواسعٌ في هذه الفترة، كانتشار رسائل نقابة المحامين والطلبة الجامعيّين والمؤلِّفين وأعضاء الأحزاب السياسيّة غير المسموح بها، والجماعات المرتبطة بالجبهة الوطنيّة، فكان هؤلاء يوزّعون وينشرون رسائلهم وبياناتهم بشكل واسع ومذهل، حيث كانت تشتمل على انتقادات حادّة وشديدة اللهجة لسياسة الدولة، وكانت في بعض الحالات تقترح حلولًا لكلّ المعضلات والمشاكل المهيمنة، في حين أنّ هذه الأمور لم يكن مسموحًا بها في الماضي...». ويكتب «فريدون هويدا»[1] شقيقُ عبّاس هويدا رئيس الوزراء، في مذكّراته، تحليلاً مشابهًا

(1) مندوب نظام الشاه لدى الأمم المتّحدة حتّى انتصار الثورة الإسلاميّة.

لِما جاء في مذكّرات السفير البريطانيّ، فيقول: «مع أنّ جهاز الأمن كان يراقِب هذه النشاطات كلّها بدقّة، لكنّه كان يرجِّح عدمَ التدخّل بتحرّكات هؤلاء».

وفي الثاني من تشرين الثاني، قام عشراتُ الكُتّاب والمفكّرون والسياسيّون بنشر بيانٍ لهم، يطالبون فيه النظامَ بتطبيق الدستور، وإطلاق سراح السجناء، وإعادة المُبعَدين السياسيّين، وإطلاق حرّيّة الرأي والإعلام، ومحاسبة كافّة مختلِسي أموال الشعب وحقوقه المشروعة. هذا وقد احترز البيان من التعرّض لشخص الشاه بالذات، والذي يُعَدّ بحقٍّ المسبّب الأوّل والأخير لتلك الجرائم والويلات كافّة!

أمّا الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ، فقد كان بدوره يراقب كافّة أبعاد الأوضاع السياسيّة في إيران، وكشف بأنّ الهدف من وراء ذلك كلّه هو عرض صورة تبرّئ الشاه وزبانيته مِن أيِّ تهمة، ويجعل مسار التهم وإلقاء التبعات والمسؤوليّة موجّهًا للحكومة وسائر أعضائها. من هنا، أصدر الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ بيانًا هامًّا، حذّر فيه الشعب من هذه المؤامرة الجديدة، وقال:

«إنّني أرى من واجبي أن أنقذ الشعب من الخطر الكبير الذي يُهدّد وجوده. فإنّ ما تُبديه الدولة والحكومة حاليًّا مِن تسامحٍ مع الكُتّاب والخطباء وغيرهم، ما هو إلّا حيلة لتطهير سمعة الشاه، وإبعاده عن الملمّات كافّة. مضافًا إلى الادّعاء بوجود الحرّيّة، ولنُحمِّل رجال الحكومة مسؤوليّة تلك الجرائم كلّها، في حين أنّ الدولة ما هي إلّا أُلعوبة بيد الشاه. والكُتّاب حاليًّا ليس بمقدورهم توجيه التهم إلى النواة المركزيّة -وأعني شخص الشاه بالتحديد- في هذا الوضع الراهن، ولا يُستَبعَد أن يكون من بين هؤلاء الكُتّاب عناصر مدسوسة، فتتظاهر بمهاجمة الدولة، وتفضح بعض الجرائم؛ لكي تُبعِد الشعب عن هدفه الرئيسيّ وغايته الأساسيّة، ولكي تضلّل السذّج والبسطاء، في حين أنّ كلّ ما عاناه هذا الشعب خلال الخمسين عامًا المنصرمة، هو من صنع يد ذلك السلف، وهذا الخلف.

والآن، يسعون لتطهير هذا الشخص؛ كي يستمرّ في طغيانه وجرائمه. إنّ هؤلاء يريدون بأسلوبهم هذا، استقطابَ أذهان الشعب، في حين أنّ الشعب، بمختلف

طبقاته، في استيقاظٍ، ووَعَى كلَّ شيء، ومن المستحيل أن يرضخ لهذه السلطة الجائرة لغاشمة ولا ليوم واحد».

لقد استفاد الإمام قدس سره من تجربة انقلاب 19 آب[1] «الأمريكيّ»، ومن الانفتاح السياسيّ النسبيّ بين أعوام 1960 - 1963م، والذي أدّى إلى رجوع الاستبداد بشكل أوسع، فحذّر الشعب من مغبّة الهجوم الجديد للشاه، ونبَّهَ إلى التمسّك بالواجبات الثوريّة، وحرّض المناضلين على دراسة الماضي واستيعاب تجاربه، والسعي إلى تنظيم السياسيّين المسلمين، وتعبئتهم، وجمعهم تحت لواء الإسلام وأهدافه المجيدة والسامية، فقال:

«على جميع المسلمين، وبخاصّة العلماء المفكّرين وطلبة العلم، أن ينهضوا للدفاع عن الإسلام، والذود عن حياضه، والحفاظ على دستوره -القرآن- السامي الوضّاء، الذي هو ضمان استقلالنا وحرّيّتنا. وعليهم إنقاذ وطنهم، الذي كان مهدَ الحرّيّة والأحرار، وأن يُوصِلوا أصواتهم إلى الأوساط الدوليّة والإنسانيّة كافّة. وعلى قطاعات الجيش وقادته وزعمائه كافّة أن يحرّروا أنفسَهم من عبوديّة الطاغوت والأجانب، وأن يسعوا جادّين لإنقاذ وطنهم من الدمار والانهيار.

وأذكّركم أخيراً بنقطة مهمّة، وهي حفظ الأسرار، والتقيُّد بالكتمان وعدم ذكر الأسماء والرموز المُهمّة، وعليكم استيعاب تجارب الماضي، وأوصيكم بالالتزام الجادّ ضمن إطار تعاليم الدين القويم، واحترِزوا من توظيف بعض الذين لا تتوافق أعمالهم وخطواتهم مع هذا الانهيار مئة بالمئة».

كما وتنبّأ الإمام قدس سره سابقًا، فقد قام الشاه بعزل «أمير عبّاس هويدا» عن منصبه يوم 15 آب 1973م، بعد أن قدَّم لقراره هذا عدّة رسائل وبيانات شديدة اللهجة تهجو تصرّفاته وخطواته؛ ليعرب للجماهير عن سوء إدارته، ونصَّبَ محلَّه «منوجهر

(1) الانقلاب الذي دبّرته وكالةُ الاستخبارات الأمريكيّة عام 1953م، وأدّى إلى رجوع الشاه إلى السلطة، بعد هروبه من إيران.

آموزكار»، الذي ادّعى الليبراليّة؛ ليشارك المعارضة آراءهم وأفكارهم من قناة الحزب، ومن أجل تطبيق خطّة التقشُّف الاقتصاديّ الجديدة.

أمّا في شيراز، ففي يوم 18 آب، افتُتِح المهرجانُ الفنّيّ السنويّ بحضور زوجة الشاه «راعية الفنون» ومشاركتها. وكان هذا المهرجان، بالمقارنة مع المهرجانات السابقة، قمّةَ الفساد والانحلال الخلقيّ، حيث عُرِضَت الممارسة الجنسيّة بين ممثّلٍ وممثّلةٍ أمام الحاضرين[1] أثناء فقرات برامج الاحتفال؛ ممّا أدّى إلى غضب الكثير من الحضور وحيرتهم ودهشتهم! وسرعان ما انتشر هذا الخبر بسرعة فائقة في المدينة، وواجَهَ ردًّا عنيفًا مِن قِبَل علماء شيراز ومراجعها، من خلال بياناتٍ عبّروا بها عن مواقفهم إزاء هذا التجاوز والتعدّي على الإسلام والمقدّسات والأخلاق والأعراف العامّة. ومن ثمّ انتقل الخبر إلى أرجاء البلاد كافّة؛ ما أدّى إلى بروز احتجاجات أخرى ضدّ النظام، بَيدَ أنّه لم يحصل أيُّ اعتراضٍ عامٍّ لدى معظم المراجع وعلماء الدين. ومن أجل أن يخفّف النظام من وطأة الخبر، قام بانتقاد الحادث في بعض الصحف المحلّيّة. وقد كتب السفير البريطانيّ «بارسفنز» حينها قائلًا: «لقد تكلّمت في هذا الموضوع مع الشاه، وقلت له: لو كان هذا المشهد عُرِض على سبيل المثال في مدينة «مانشستر» ببريطانيا، فإنّني لا أستبعد خروج الممثّلين من ذلك الحفل أمواتًا! بَيدَ أنّ الشاهَ أخذ يضحك لفترةٍ ما، ثمّ سكت وأحجم».

خلال هذه الأجواء، خطب الإمام قدس سره في النجف الأشرف، وأكّد على أنّ ما جرى كان بعلم الشاه ورضاه، وانتقد سكوت المراجع، وقال:

«إنّكم لا تعلمون إلى أيّ مدى وصلَت حالة الاستهتار والفساد والفحشاء في إيران! فقد عُرِض ذلك المشهد المخزي في شيراز، ويُقال: إنّه سوف يتكرّر في طهران أيضًا! هذا كلّه وأنتم صامتون؟! وأنا أتساءل: لماذا؟ وهل يمكن أن يصل الفساد إلى درجةٍ أعلى ممّا هو عليه الآن؟! إنّ كلّ ما يجري الآن من محاولات لإفساد الشعب والشباب يتمّ

---

(1) هذا وادّعَت الصحف في تلك الفترة أنّ هذا العمل يجسِّم الحالة الطبيعيّة ميدانيًّا وممارسة.

برضى الشاه والدولة وجهاز الأمن، وهل يمكن أن يتمّ أمر كهذا بدون رضاهم؟!... ومن ثمّ يُجبَر الصحفيّون على انتقاد هذا العمل، ويصفونه بأنّه عملٌ قبيح؛ من أجل امتصاص نقمة الشعب!».

وفي أيلول الذي وافق شهر رمضان المبارك، قام عددٌ من علماء الدين والخطباء وأهل العلم بإلقاء الخطب الدينيّة والسياسيّة في مسجد قبا بطهران، وكان للشعب حضورٌ واسعٌ في مختلف طبقاتهم وفئاتهم؛ ما أدّى إلى تصاعد نشاط المساجد الأخرى بشكل عامّ، واتّخاذها المنهج نفسه. وخلال هذه الاجتماعات، تمّ توزيع العديد من المنشورات وبيانات الإمام قدس سره. وفي العيد الأغرّ، أُقيمَت صلاةُ عيد الفطر بإمامة أحد العلماء المجاهدين الكبار [الشهيد الدكتور محمّد مفتح] في منطقة قيطريّة الواقعة في منطقة شميران شمال العاصمة، شارك فيها الآلاف من أهالي مدينة طهران.

وانتقد الشاهُ الوضعَ الراهن في البلاد -الذي أصبح كما يبدو أحد المنتقدين!- أثناء مراسم عيد الفطر، وقال مخاطبًا المسؤولين في الدولة: «يجب على المسؤولين كافّة كشفُ كلّ الحقائق للجماهير، ولأبناء الوطن، وجعلهم أمام الأمر الواقع»!

وفي 24 أيلول، أضرب بعضُ علماء الدين الموجودين في باريس عن الطعام، وطالبوا بإنهاء فترة إبعاد الإمام قدس سره، وإطلاق سراح آية الله السيّد «محمود طالقانيّ» وعلماء آخرين. وكان لهذا الموقف الذي قام به علماء الدين لأوّل مرّة، صدىً إعلاميًّا واسعًا، فنشرت صحف الداخل صورهم، دون أن تذكر مطالبَهم.

ومع نموّ الحركات السياسيّة، والتي كان للثوريّين والقوى الإسلاميّة دورٌ هامٌّ فيها، راح النظام يتظاهر بالإسلام والتديُّن؛ من أجل الحدّ من نموّ الحركة الإسلاميّة المتزايد، وجذب أنظار القوى الإسلاميّة المعتدلة إليه. وقام الأمين العامّ لحزب «رستاخيز» بمقابلة عددٍ من وعّاظ السلاطين، واقترح تشكيل «لجنة رجال دين حزب «رستاخيز». وصرّح الشاهُ أثناء التقائه برجال الدولة في الأوّل من كانون الأوّل، قائلًا: «لقد ثَبَتَ في أحكام الإسلام عدمُ جواز استثمار أُسُس الملكيّة وأصولها».

وفي 13 تشرين الأوّل، قال في خطابه، الذي ألقاه بمناسبة الذكرى السنويّة لتأسيس دور العدل والإنصاف: «إنّ البند التاسع من الثورة (البيضاء) استنبط من تعاليم الإسلام والعادات والتقاليد والسنن الإيرانيّة الأصيلة». وفي الوقت نفسه، هدّد الثوريّين بقوله: «ليس بوسعنا أن نسكت على أعدائنا الذين يستغلّون الانفتاح السياسيّ وحرّيّة الرأي لمصالحهم الخاصّة!» (1977/2/5م).

إلى جانب ذلك، أُقِيمَ في منتصف شهر رمضان في طهران، المؤتمرُ العالميّ للزرادشتيّين، وذلك بدعوةٍ من زوجة الشاه. وبعد اختتام المؤتمر، أُقِيمَت حفلةٌ كبيرةٌ للعشاء مع الشمبانيا في القصر الملكيّ، وقاطع الحفلَ عددٌ من سفراء الدول العربيّة لهذا السبب.

ولكي يحدّ النظام من الحركة الدينيّة، قام بفسح المجال لنشاط الحركة الليبراليّة المنفتحة. وعلى إثر ذلك، أُقِيمَ في نادي جمعيّة إيران وألمانيا حفلاتٌ منوّعة لمدّة عشرة أيّام، قام فيها الشعراء والمؤلِّفون بإلقاء خطبهم وقصائدهم [وشُكِّل الحاضرون والمشارِكون بأجمعهم من اليساريّين واللاإسلاميّين، باستثناء مشارِكٍ واحد!] وتلاحقَت الكلمات والقصائد والمقالات والخطب[1] في إجلال الحرّيّة وشهدائها، ونُفِيَت عنها الرقابة الإعلاميّة. وتشير الإحصائيّات التي أُعلِن عنها، إلى أنّ عدد الحاضرين للحفل المذكور بلغ 62 ألف شخص خلال فترة إقامته التي استمرّت عشرة أيّام.

إنّ هذه المراسم، وإن كانت مجرّد احتفالات ثقافيّة وسياسيّة، لكنّها كانت تُعتَبَر تهديدًا للإسلاميّين. فالظروف التي أُقِيمَت فيها الاحتفالات، كانت على الصعيد الثقافيّ والاجتماعيّ مؤشِّرًا مهمًّا للمفكّرين والخطباء الإسلاميّين، حيث تمّ الاجتماع في نادٍ تابعٍ لسفارةٍ أجنبيّة، وكان جلّ الحاضرين أفرادًا من الجامعات والدوائر، وعددًا من الفنّانين المتأثّرين بأفكار الشرق أو الغرب، في حين كانت اجتماعات المجاميع الإسلاميّة تُعقَد في أيّامٍ ومناسباتٍ دينيّة، وفي المساجد، وكان يحضرها طبقات الشعب كافّة، الذين يجمعهم دينٌ واحدٌ وعقيدةٌ واحدةٌ.

(1) طلب رئيسُ جمعيّةِ الصداقةَ الإيرانيّة الألمانيّة من الأدباء عدم استخدام كلمة الرقابة في خطبهم، والنقطة الأهمّ أنّ الشعب كان يعيش حالة من الغليان ومقارعة الطاغوت، وهؤلاء يُلقون أشعارَهم وخطبَهم!

وخلافًا لمرامي الشاه، فقد أصبحت الحركة الإسلاميّة أكثر ثوريّة وشعبيّة، إذ اندلعت في السابع من تشرين الأوّل تظاهراتٌ واسعة، عبّر فيها المتظاهرون عن دعمهم وتأييدهم للإمام قدس سره، وتمّ ذلك في باحةِ صحنِ مرقدِ السيّد عبد العظيم، في جنوب العاصمة. وبعدها بثلاثة أيّام، تظاهر طلبة المدينة الجامعيّة في طهران، وهتفوا هتافات مؤيّدة للإمام قدس سره؛ ممّا أدّى إلى هجوم الشرطة عليهم، وإلى نشوب اشتباك عنيف، وإلى إضرام النار في إحدى الباصات. هذه الحركة أقلقَت النظامَ وأرعبته، حيث قامت «منظّمة نساء إيران»[1]، بالمقابل، بإصدار بيانٍ اعترضَت فيه على أعمال هؤلاء الطلبة، وندّدَت بهم.

وفي 15 تشرين الأوّل، أشار الشاهُ في كلمةٍ له حول أحداث الجامعة، فقال: «إنّ هؤلاء يريدون إرجاع البلاد إلى الوراء، وإلى الرجعيّة السوداء التي تريد إعادة الشعب إلى ما قبل 2000 عامًا!».

لقد أفرزَت الصحوةُ الإسلاميّةُ حاجةً ماسّةً إلى الفكر الإسلاميّ والعقائد والمسائل الإسلاميّة، عند مختلف طبقات الشعب وقطاعاته، وبالأخصّ الشباب المتحمّس. وفي هذه الظروف، تمّ طبع العديد من الكتب الإسلاميّة ونشرها، وبخاصّة مؤلّفات الدكتور «عليّ شريعتي». وتزامنًا مع هذا، كان بعض الأشخاص يوجّهون انتقادات حادّة لآرائه في الكثير من المسائل الدينيّة والعقائديّة. وممّا لا شكّ فيه، أنّ هذا الاختلاف لم يكن خافيًا عن أنظار «السافاك»، وكان النظام يقوم بمحاولاتٍ لاستغلال هذا التعارض الفكريّ، ويعمل على إيجاد الفرقة والشحناء والبغضاء بين الفرق والحركات الإسلاميّة؛ ليفوز بإبعادِهم عن أهدافهم الرئيسة؛ وأعني النضال والثورة.

لم يكن الإمام قدس سره بعيدًا عن هذه الأجواء كلّها، بل كان يراقبها عن كثب. وعندما تطوّر الموقف، رأى الإمامُ قدس سره بأنّه من الضروريّ حسم الموقف، وسدّ الثغرة التي وُجِدَت؛ فقام بنشر بياناته وخطاباته المكثّفة خلال شهرَي تشرين الأوّل والثاني، والتي وجَّهَها إلى الحركات والقوى الثوريّة، مطالِبًا إيّاهم بتعبئة الطاقات كلّها من أجل

(1) منظّمة تابعة للنظام.

استمرار النضال والكفاح، والحفاظ على صبغة الإسلام السياسيّة والاجتماعيّة. هذا وقام أيضًا بتحليل المسائل التي وقع الاختلاف فيها.

ففي خطابه الذي ألقاه في تشرين الأوّل، تطرّق في مقدّمته إلى مقام الإنسان وسموّ درجته في القرآن المجيد، وإلى تفسير القرآن قديمًا وحتّى يومنا هذا، حيث هو ثلاث شُعب، «**فجمعٌ من الفلاسفة والعارفين أرجعوا أكثر الآيات إلى تلك الجهات والمصادر المعنويّة والعرفانيّة والفلسفيّة، وغفلوا كلّيًّا عن الحياة الدنيا، التي هم بحاجة إليها؛ من أجل صقل الأنفس**»، واتّهموا الآخرين بالاهتمام بالظواهر و«القشور». أمّا الآخرون، وهم مجموعة من الفقهاء الذين انشغلوا بالأمور التعبّديّة والفقهيّة، وحصروا القرآن والإسلام بالأمور الفرعيّة، واعتبروا الآخرين ملحدين وكفرة. وأشار الإمام قدس سره إلى المجموعة الثالثة، حيث يقول: إنّها ظهرت في الآونة الأخيرة، وهم من الكتّاب الجيّدين، لكنّهم قاموا بإرجاع المعنويّات إلى المادّيّات، محتجّين بأنّ المادّيّات قد سيطرَت على العالَم. هؤلاء يقولون: «**إنّ الهدف من أحكام الإسلام كلّها هو إيجاد العدالة الاجتماعيّة ومحو الطبقيّة الاجتماعيّة، وكلّ ما في الإسلام هو هذا، لا غير...**». وأشار الإمام قدس سره إلى موضوع هامّ، وهو «**حالة الإفراط والغور في المجال العلميّ الذي اختاره للبحث**»، إذ يؤكّد:

«**ليس من حقّ أحد أن يجعل العلم حكرًا له ولأفكاره ورغباته، ويعمد إلى تفنيد نظريّات الآخرين وآرائهم وإبطالها؛ لأنّ ما يقولونه وما يدّعونه كلّه، جُلّه موجودٌ في قوانين الإسلام ونظامه وأحكامه، والإسلام ليس حكرًا على جماعة، أو شيئًا منحصرًا لفرقة من الفرق، فالإسلام يصنع من الفرد إنسانًا عادلًا وخلوقًا... على أيّة حال، فإنّ الإسلام يحوي هذه المعاني والقيم كلّها، فهو يضمّ الجوانب المادّيّة والمعنويّة والغيبيّة والظاهريّة؛ لأنّ الإنسان ذاته ينطوي على جميع المراتب**».

واختتم الإمام قدس سره خطابه قائلًا:

«**إنّ سرّ الفلاح والنجاح هو اتّحاد أفكار هذه الشعب الثلاثة وبلورتها**»، وأضاف:

«على هؤلاء أن يتعاضدوا ويتكاتفوا، وليتّحد الفقيه مع المهندس والطبيب، والطالب الجامعيّ بالطالب الدينيّ، و... كي يستطيعوا جميعًا تحمّل عبء المسؤوليّة وثقلها».

وعبّر الإمام قدس سره، في الوقت ذاته، عن ارتياحه للتعاون الفكريّ والمادّيّ بين القوى الدينيّة.

وفي فترة تشرين الثاني وما بعدها، أخذ الإمام قدس سره يُصعِّد من إرشاداته ونصائحه للجماهير، فتطرّق إلى شرح أوضاع البلاد وتحليلها، وفتح لهم أبواب دروب الجهاد والثورة، ونبَّهَ الجميع إلى واجباتهم ومسؤوليّاتهم. وقبل أن ندخل في شرح خطب الإمام قدس سره وإرشاداته، نقوم بشرح الأحداث الهامّة التي وقعَت في هذا الشهر، وتفصيلها، والتي كان لها الدور الكبير في تسريع موعد الثورة ونجاحها.

استشهاد نجل الإمام قدس سره
وانفجار بركان الثورة الإسلاميّة

في 23 أيلول 1977م، وافى الأجَلُ نجلَ الإمام قدس سره السيّد مصطفى بشكلٍ مفاجئ ومباغِت. وكانَت الوفاة غير طبيعيّة. فتنبَّهَ تلامذةُ الإمام قدس سره وأصحابه لهذا الخطر المفاجئ، وشكّكوا بتخطيطٍ مدبَّر كان وراء هذه الوفاة، وغلب الظنّ على أنّ العمليّةَ عمليّةُ اغتيالٍ؛ لِما كان يبذله السيّد مصطفى من نشاط سياسيّ مكثّف، جنبًا إلى جنبٍ، مع والده الإمام قدس سره في النجف. ولم يكن السيّد مصطفى يشكو من ألم أو يعاني من الأمراض التي قد تكون مسبِّبةً لموتٍ مباغِت. وكان جلّ اعتماد الإمام قدس سره عليه، حيث كان عضده الأيمن منذ بداية النهضة عام 1962م. وكان للسيّد مصطفى ارتباطٌ وثيقٌ مع علماء الدين والمفكّرين والجامعيّين، في الداخل والخارج. ولهذا، عمل «السافاك» على قتله؛ لإزالة حاجز كبير وعائق خطير أمامَهم؛ كي يبقى الإمام قدس سره وحيدًا، ولتكون وفاته صدمة كبيرة للسيّد الإمام قدس سره، علّه يعتزل الجهاد والثورة، ولكنّهم ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾[1]. وانعكس المأمول والمرتجى تمامًا، فإذا بالإمام قدس سره لم يُبدِ تراجعًا أو تقهقرًا، بل استمرّ رجلًا نضاليًّا وجهاديًّا، وكان ذلك كلّه حافزًا لدفع مسيرة الثورة. واستقبَلَ الحادثُ بروحٍ إيمانيّةٍ، واعتبرَه حدَثًا طبيعيًّا، وبمنتهى البساطة والسهولة، إذ قال:

(1) سورة الأنفال، الآية 30.

«عندما نكون مصابين بكوارث ومصائب أعظم وأكبر، علينا أن ننسى ونترك مصائبنا الخاصّة والطفيفة!».

ومع أنّ الإمام كان يرى ولده السيّد مصطفى «**أملَ الإسلام في المستقبل**»، إلّا أنّه اعتبر شهادته عاملًا مهمًّا لتسريع الثورة وتعميقها، وإضفاء الطابع الدينيّ عليها بشكلٍ تامٍّ وكاملٍ. وقد عبّر عن ذلك قائلًا: «**إنّه لطفٌ من ألطاف الله الخفيّة!**».

ومع انتشار خبر استشهاد السيّد مصطفى، انهال على مكتب الإمام قدس سره سيلٌ من البرقيّات والرسائل، من شخصيّاتٍ دينيّة وسياسيّة عدّة، مضافًا إلى التجمّعات السياسيّة والدينيّة، واللجان والاتّحادات الإسلاميّة، التي وفدَت لتعزيته بالمصاب الجلل. ومن جانبه، قام بإلقاء بعض الخطب، وإصدار البيانات؛ ليردّ على مشاعر الذين شاركوه آلامه وأحزانه، وأحاسيسهم.

هذا، وقد شهدت طهران مجالس تأبينيّة عديدة، إكرامًا وإجلالًا لروح الشهيد السعيدة المكرّمة. وعُقِدَ في 29 أيلول، مجلسٌ تأبينيٌّ فخمٌ وجليلٌ، بمناسبة مرور سبعة أيّام على حادثة استشهاد المرحوم السيّد مصطفى، في مسجد جامع «أرك». وكان الجامع غاصًّا بالجماهير الحاشدة، التي شاركَت بالحفل التأبينيّ هذا، بينما كانت قوّات الشرطة تراقب الوضع بدقّة. وكان عددٌ من علماء الدين قد نشروا بياناتٍ قبل ذلك، دعوا فيها الجماهيرَ إلى الحضور والمشاركة، ليعبّروا عن رفضهم القاطع للنظام، وتصميمهم على الوحدة، والسير على خطى الإمام قدس سره، وتحت قيادته الحكيمة. وأُقِيمَت أيضًا مجالس أخرى في عدّة مدن أخرى، كأهواز وقمّ، حيث خطب فيها الخطباء، وذكروا فيها اسمَ الإمام قدس سره بشكلٍ علنيٍّ، بعد مرور 13 عامًا من الضغط والحصار، فأكبَروا وأجلّوا شخصيّتَه العلميّة والدينيّة والسياسيّة.

إنّ إقامة المجالس التأبينيّة في اليوم السابع ويوم الأربعين من شهادة السيّد مصطفى، كانَت عامِلًا مساعِدًا لتعريف الجماهير بشخصيّة الإمام قدس سره وأفكاره، أكثر فأكثر. ومن خلال هذا، أخذ الشارعُ العامّ شيئًا من المعرفة بتاريخِ الإمام قدس سره

الجهاديّ، وأسبابِ نَفيِه وإبعادِه عن الوطن، مضافًا إلى أفكاره ونظريّاتِه الثوريّة. وفي هذه المناسبة، وُزِّعَت آلافُ البيانات التي اتَّهمَت الشاهَ بالتسبُّب بكافّة الجرائم والمآسي والفساد والحرمان في البلاد. وبهذا، أَرسَلَ الإمامُ قدس سره بيانًا، شكر فيه أفرادَ الشعب الإيرانيّ كافّة، وأكّد قائلًا:

«إنّ هذه التظاهرة العظيمة والمهيبة في هذا الظرف، لَهِيَ أكبرُ رَدٍّ على تصريحات الشاه المغلوطة. ذلك الإنسان الذي باع شرف بلدنا وعزّته، واستقلال وطننا، واقتصاد شعبنا، وسَحَقَ كافّة حقوق هذا الشعب تحت قدمَيه، وجعلها ضحيّةً لأهواء عائلته الغاصبة ومشتهياتِها. هذه التظاهرات لم تكن لفردٍ معيَّن، بل كانت إعلانَ نُفورٍ عامٍّ من النظام الجائر الظالم، ومن حكومته الخائنة».

وحذّر الإمام قدس سره في بيانه هذا، الكُتّابَ والخطباءَ كافّة، واعتبر الشاهَ «**النواةَ الأساسيّة لكلّ ما ارتُكِب من جرائم**»، وفضح مؤامرات النظام التي تدعو إلى تنزيه شخص الشاه عمّا يجري من انتهاكاتٍ وفضائح.

وجاء في رسالةٍ جوابيّة أخرى، أرسلها الإمامُ قدس سره إلى خارج البلاد، ردًّا على رسائل عددٍ من الطلبة الجامعيّين، جاء فيها عباراتٌ تزفُّ البشرى والوعود بالنصر القريب، منبِّهًا إلى ضرورة استمرار الجهاد، والجدّيّة في طلب الحقّ وسلوك طريقه.

وعبّرَ الإمامُ قدس سره عن أملِه في الصحوة الجديدة المنبثِقة في إيران، وأكّد على أهمّيّة استمرارها إلى أن يسقط نظام الشاه، فقال:

«إنّ لي وطيدَ الأمل بهذه الصحوة التي عمَّت البلدان الإسلاميّة، وبخاصّة إيران، وبهذا النفور العامّ من أنظمة الجور والقمع والإرهاب والاستعمار. فإنّ هذه الصحوة ليست فورةً مؤقَّتَة، بل إنّها ستستمرّ للقضاء على أنظمة الجور والطغيان. فإنّ ظُلمَ الأنظمة وحرمان الشعوب الفقيرة، لهي بمثابة قنبلة ستنفجر وتقتلع الأنظمة العميلة كافّة، وحينها، سينتقم اللهُ من القوم الظالمين!».

ثمّ أشار الإمامُ قدس سره، في ختام رسالته، إلى وجوب استغلال الفُرَص، وحذَّرَ من كافّة

الأفراد الطفَيليِّين والاستغلاليِّين، بقوله:

«والآن، حيث أُتيحَت لنا فرصة مؤقّتة، علينا أن نتصرّف بذكاء وفطنة وحكمة، وعلى الجماعات الإسلاميّة أن تتّحد، وألّا تُفسِح المجال لهؤلاء الاستغلاليّين، الذين لم يقدّموا أيَّ شيءٍ للشعب الإيرانيّ الشريف، إذ إنّهم الآن استعَدُّوا لاستغلالهم، ليدسّوا أنفسَهم بين صفوف الجماهير التي جاهدَت وكابدَت وضحَّت؛ من أجل أن يصلوا إلى منصبٍ من المناصب... فإذا وصل هؤلاء إلى الحكم -لا قدّر الله- فإنّ تلك المصائب والويلات والخيانات كلّها سوف تعود وتتكرّر. إنّ هؤلاء يريدون أن يتغلغلوا بين صفوف الجماهير، عبر عدّة مقالات واهية، لا شيء فيها من الإسلام والعقيدة، ولا ذكر فيها عن مسبِّب الفساد الأوّل! وإنّ هذه المقالات التي كتبها هؤلاء، إنْ لم تكن موجَّهةً من قِبَل جهاز الأمن لإنقاذ السلطة وحفظها، فممّا لا شك فيه أنّها خالية من أيّ نفع ودعم لأُسُس الدين الإسلاميّ القويم، الذي هو ضمان الاستقلال والحرّيّة والعدالة الاجتماعيّة».

وأشار الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ، في هذه الرسالة المهمّة، إلى جُبن هؤلاء الاستغلاليّين والطامعين، وسكوتهم عن المآسي التي عاناها الشعب من جرّاء حكم الشاه، وطالَبَ الشعبَ بعدم إفساح المجال لهم، وقال:

«في تلك الظروف التي كان شعبنا المسلم، وبمختلف طبقاته، يرزح فيها تحت ظلم عملاء الاستعمار، وفي اليوم الذي حدثَت فيه مجزرة الخامس من حزيران، وفي الوقت الذي كانت السجون غاصّةً بالمدافعين، الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن الإسلام، وفي اليوم الذي أعادوا فيه التاريخ الإسلاميّ إلى تاريخٍ رجعيٍّ ملكيٍّ مجوسيٍّ، وفي الوقت الذي كان فيه حزب «رستاخيز» يشنّ هجماته على الشعب، وينهب ثرواته، وفي حين فتح النظامُ أكبرَ سوقٍ لأسياده في البلاد، تحت اسم الثورة البيضاء، وبدَّدَ بذلك مصالح البلاد والزراعة والصناعة، وفي ذلك الوقت الذي ارتُكِبَت فيه أبشع الجرائم ضدّ الشعب، لم يتفوّه هؤلاء بكلمة معارضة واحدة، ولم تصدر عنهم أيّة حركة!

إذ حينها كان شبابُنا، من الطلبة الجامعيّين وطلب العلوم الدينيّة، يدافعون عن عقديتهم ومبادئهم؛ لنيل شرف الحرّيّة. والآن، أتى هؤلاء يطمعون بالنفع والوصول إلى أهدافهم، إمّا من قِبَل الشاه، أو مِن قِبَل الشعب؛ لأنّهم صرفوا الأنظار، وأبعدوا التهم عن الأوّل، وشاركوا -ظاهريًّا- مع الثاني، بُغية التسلُّق إلى مدارج الحكم؛ لاستلام زمام الأمور، وتحقيق مآربهم. فعلى شعب إيران، إذًا، اتّخاذ جانب الحيطة والحذر، وأن يسعى جدًّا لإفشال خططهم كافّة وإحباطها».

لقد حاول الإمام قدس سره، في هذا الخطاب، أن يذكّر الشعب بتاريخ الثورة والنهضة السياسيّة والدينيّة وأحداثها، وتزامن هذا الخطاب مع سفر الشاه لأمريكا؛ للالتقاء بكارتر، وتجديد البيعة له، وإعطاء أمريكا امتيازات جديدة أخرى؛ وذلك من أجل كسبِ دعمها السياسيّ. لهذا، أكّد الإمام قدس سره في ختام خطابه، على أنّ تلك المحاولات كلّها سوف لا تؤثّر على مسيرة ثورة الشعب الإيرانيّ، فقال:

«على الشاه وزمرته أن يَعلَموا أنّ محاولاتهم في تجديد الانصياع والعبوديّة لرئاسة الولايات المتّحدة، سواء أنجحت أم لم تنجح، فإنّ شعب إيران يرفضه، وهو مستمرٌّ في ثورته، حتّى يأخذ بثأر الشباب الذين قضوا أو ضُرّجوا بدمائهم، ويُنقِذ الإسلامَ والدينَ مِن يد هؤلاء المجرمين».

وقام الشاه، قبل سفره بأيّام عدّة، بإطلاق سراح 131 سجينًا سياسيًّا؛ كي يبرهن لأسياده الأمريكيّين عن استمراره في احترام حقوق الإنسان. وفي الحادي عشر من تشرين الأوّل، أَعلنَت شقيقةُ الشاه، في الأمم المتّحدة، عن استمراريّة النظام بسياسته هذه، وندَّدَت بأعمال العنف والإرهاب ضدّ البشريّة. وتزامُنًا مع سفر الشاه إلى أمريكا، قَدِم إلى واشنطن آلافُ الطلبة الجامعيّين الإيرانيّين، من أوروبّا وسائر نقاط أمريكا؛ ليُعلنوا اعتراضَهم على نهجه وسياسته الفاشيّة والقمعيّة. ولَمّا بلغ ذلك الشاهَ، قُبيل سفره، عبر جهاز الأمن والاستخبارات، قال في لقاءٍ صحفيٍّ أَجْرَته معه صحيفةُ نيوزويك الأمريكيّة في الثامن من تشرين الأوّل: إنّ بعضَ المتظاهرين الإيرانيّين في أمريكا هم

من «المتطرِّفين الفلسطينيّين»! وكانت السفارة الأمريكيّة قد علمَت بأمر التظاهرات أيضًا. وكتب «سوليفان» -آخر سفير أمريكيّ في إيران- في مذكّراته:

«... علمتُ في أوّل اللقاءات التي تمَّت مع مسؤولي وزارة الخارجيّة، بأنّه عمَّت أمريكا تظاهراتٌ واسعةٌ مِن قِبَل المعارِضين، بمناسبة قرب قدوم الشاه لأمريكا، وكانت التقارير الصادرة من البوليس الفدراليّ الأمريكيّ، باسم وزارة الخارجيّة الأمريكيّة، قبل ثلاثة أيّام من قدوم الشاه إلى أمريكا، تشير إلى إنّ هؤلاء المتظاهرين هم مجرّد غوغائيّين. ووصل الشاه، برفقة زوجته، إلى أمريكا، في الثالث عشر من تشرين الأوّل، وكان قد تجمَّع أمام البيت الأبيض آلافُ الطلبة المعارِضين للنظام، حامِلين صورًا للإمام الخمينيّ. وعند استقبال «كارتر» للشاه، حدثَت اشتباكاتٌ بين الطلبة والمجموعة الصغيرة المؤيِّدة للشاه، والتي كانت السفارة الإيرانيّة قد جلبَتهم إلى هناك؛ ممّا أسفر عن تدخُّل البوليس، واضطرارهم إلى استخدام الغازات المسيّلة للدموع. ونقلَت الرياح هذه الغازات إلى المنصّة التي أقلَّت الشاه و«كارتر» وزوجتَيهما، وقت عزف النشيد الوطنيّ للبلدَين؛ ما اضطرَّهم إلى استخدام مناديلهم لمسح دموعهم. وبثَّ التلفزيون الإيرانيّ هذه اللقطة المخزية، التي أدَّت إلى استهزاء المتفرِّجين، وارتياح المعارِضين. يقول «بارسفنز»: «إنّ عرضَ هذا الفيلم كان أيضًا من نتائج السياسة المنفتِحة التي اتّخذَها الشاه، في حين لم يكن من الممكن عرضُ هذه المشاهد في الماضي».

هذا، وقد حدثَت تظاهرات واحتجاجات مشابِهة أخرى في نيويورك وباريس وبون، وقامَت صحفُ النظام، ولأوّل مرّة، بإدراج خبر هذه المظاهرات على صفحاتها.

وافَق الشاهُ في لقاءاته الأولى مع «كارتر»، على تثبيت سعر النفط، بعدما كان هو من الداعين والمشجِّعين لرفع الأسعار. وأعلن «كارتر» في المقابل، عن دعمه السياسيّ والعسكريّ التامّ للشاه. وبعد انتهاء الدور الأوّل من المباحثات، صرّح «كارتر» قائلًا: «نحن نريد أن تصبح إيران قويّةً، وتحت قيادة الشاه»! وهكذا، أصبح من الواضح مدى دعم حكومة «كارتر» لنظام الشاه؛ ممّا أدّى إلى انتعاش الشاه. فوصف الشاهُ

الاحتجاجات التي قام بها المعارضون أمام البيت الأبيض، بأنّها عديمة الأثر في مسيرة المباحثات.

وبعد رجوع الشاه إلى إيران، أكّد في مراسيم احتفالات بيعة الغدير، على ضرورة وجود الدين، والتمسّك بتعاليمه في أوساط المجتمع، وعَدَّ معارِضيه وأتباع الإمام قدس سره أنّهم «شيوعيّو الدين الإسلاميّ»!

في الأوّل من تشرين الثاني، صادفَت مناسبة أربعينيّة استشهاد نجل الإمام السيّد مصطفى. وبهذه المناسبة، عُقِدَت عدّةُ مجالس تأبينيّة في العديد من المدن. وأصدر الإمام قدس سره، في هذه المناسبة، بيانًا حيًّا فيه الجماهير وحضورهم الفاعل، وعَدَّ استشهادَ السيّد مصطفى لطفًا من الألطاف الإلهيّة الخفيّة. وقد أكّد الإمام ثانيةً، على ضرورة انتهاز الفرص السياسيّة، وحذَّرَ من احتمال رجوع الأوضاع إلى ما كانت عليه في الماضي، وذلك بعدما تمّ حلّ الخلافات القائمة بين الشاه و«كارتر»، فقال:

«لقد أصبح الوضع في إيران منفرجًا قليلًا... فأرجو من كافّة الإخوة وأبناء الشعب، اغتنامَ الفرصة، وإعلان رفضهم -للواقع المزري- بالوسائل الممكنة كافّة، وإيصال أصواتهم إلى أرجاء العالم كافّة؛ ليعلنوا عن جرائم هذا النظام بحقّ شعبه... إنّني أخشى من إضاعة هذه الفرصة الثمينة -لا قدّر الله- فإذا ما تثبّتت أقدام هذا الرجل قليلًا، فإنّه سيقود الشعب إلى سوء العذاب، ويحلّه دار البوار، وسيبدأ بالعلماء ورجال الدين أوّلًا! فإنّ مرتزقة الشاه الآن منهمكون في التخطيط لذلك كلّه. هؤلاء يسعون من أجل ترسيخ الانقياد والانصياع لأمريكا، ويسعون جادّين لإلحاق أقسى الضربات بالإسلام ومعتقداته...».

وأكّد الإمام قدس سره في خطابه التاريخيّ هذا، على اتّحاد الطلبة وعلماء الدين، وبَيَّنَ لهم الأخطاء ونقاط الضعف، فقال:

«إنّ كلّ هؤلاء الذين يخدمون الإسلام، من علماء دين، ومن سياسيّين ومفكّرين

وغيرهم، هم أحبّائي وأشقّائي وخلصائي، بيدَ أنّني أوجِّهُ إليهم العتاب؛ لأنّي أرى أنّ هناك نوعًا من التقصير في كتاباتهم في مواضيع الفقه الإسلاميّ. وإنّي أعلم أنّ هدفهم الأوّل والأخير هو خدمة لدين والإسلام، وليست لهم أيّة نوايا سيّئة في ذلك، لكنّهم ما زالوا قليلي الاطّلاع والمعرفة...».

وقام الإمام قدس سره بتصحيح المفهوم الخاطئ للدور السياسيّ والتاريخيّ لعلماء الدين ورجاله الأفذاذ. ومع أنّ خطاب الإمام قدس سره كان موجَّهًا إلى تيّارٍ فكريٍّ جديد في إيران، إلّا أنّه كان يشمل الدكتور «عليّ شريعتي» بشكلٍ خاصّ؛ لانتقاده الصريح للدور السياسيّ والتاريخيّ لعلماء الدين وبعض علماء الشيعة الكبار، وكان هذا هو أحد أسباب تعرُّضِه للانتقاد والمعارَضة من قِبَل علماء الشيعة. وفي بداية كلامه، أشار الإمام قدس سره إلى الدور الهامّ والرئيسيّ الذي مارسه علماء الشيعة في الماضي؛ للحفاظ على الثقافة والمعارف الإسلاميّة والشيعيّة، وعَدَّ الكتبَ والمؤلّفاتِ الفقهيّةَ والكلاميّةَ، التي وصلتنا منهم، ثمرةَ جهودهم المريرة والمتواصلة. ثمّ تطرّق إلى السؤال الذي طرحه الدكتور «عليّ شريعتي»، والذي يستفسر فيه عن سبب تقرُّب العلماء الكبار، أمثال «خواجة نصير الدين الطوسيّ» والعلّامة «المجلسيّ» وأمثالهم، مِن سلاطين زمانهم وملوكه، فأجاب:

«... إنّ هؤلاء قد ضحّوا بأنفسهم واتّصلوا بالسلاطين، رغم مخالفة الناس، لكنّهم اتّصلوا بالملوك؛ من أجل ترويج دين الله الحقّ... والحفاظ عليه. ولم يكن هؤلاء وعّاظًا للسلاطين، بل كانت لهم أهدافٌ دينيّة وسياسيّة جليلة.

ولا يمكننا أن نحكم على هؤلاء، من أمثال العلّامة «المجلسيّ» والمحقّق الثاني والشيخ «البهائيّ» (رضوا الله عليهم)، بأنّهم اتّصلوا بالملوك لغرضِ الجاه والمال، في حين أنّ اتّصالهم كان من أجل ترويج المذهب...».

ثمّ عرج الإمام قدس سره إلى الدور السياسيّ الهامّ للعلماء في الأحداث السياسيّة في القرن الماضي، وجُهدهم ضدّ الاستعمار والأنظمة المستبدّة، حتّى ثورة الخامس من

حزيران، وأشار إلى الدور السلبيّ للأحزاب السياسيّة في تلك الأحداث، والتي سكتَت ولم تقم بأيّ دور يُذكَر.

وهكذا، ردّ الفكرة القائلة بغنى الإسلام عن علماء الدين، وعَدَّ وجودَ العلماء الشرطَ الوحيد للنصر السياسيّ للطائفة، إذ قال:

«... لا تتخيّلوا بأنّنا نريد إسلامًا دون علماء دين. وهل يمكن أن يكون الإسلام بدون علماء مفكّرين؟ وهل تستطيعون أن تقوموا بأيّ شيء دون الرجوع إلى العلماء؟ إنّ هؤلاء هم الذين يتقدّمون الصفوف الأماميّة، ويُعرِّضون أنفسهم للسجون والدمار والقتل والإبادة. أرجو من الإخوة المفكِّرين ألّا يعزلوا أنفسهم عن الشعب، بقولهم: إنّنا نريد الإسلام دون علماء دين؛ فهذا خلاف العقل والسياسة!

يجب عليكم الاتّحاد معهم. وحاوِلوا تصحيح الأخطاء على الأصعدة كافّة، وبالأخصّ السياسيّة، التي ترونها ببصيرةٍ نافذةٍ وفاعلةٍ؛ فإنّكم لا تستطيعون أن تستغنوا عن هؤلاء، فعلماء الدين لهم مكانتهم ودورهم ونفوذهم في قلوب الجماهير والأوساط الاجتماعيّة.

ووصيّتي الأخرى هي إلى إخوتي من علماء الدين. فعليهم الحذر والحيطة، وألّا يتأثّروا بالإعلام الذي تديره أجهزة الأمن والمخابرات، وألّا ينساقوا خلف هذا الإعلام الذي يجعل من ذرّة الرمل جبلًا، ومن الجبل ذرّة رمل. وأوصيهم ألّا يغفلوا عن السبب الرئيس لمعاناتنا ومآسينا؛ ألَا وهو الشاه الخائن. وأوصيهم بعدم الانجراف مع محاولات النظام التي تسعى لبثّ الفرقة، وقمع الشخصيّات العلميّة، وإلقاء الشُبَه عليهم، وبثّ الدعايات حولهم، وأن يهتمّوا بقضايا الإسلام السياسيّة والاجتماعيّة، وترك لغو الحديث».

ثم توجَّه إلى المفكِّرين الواعين، ودعاهم إلى تصحيح نهجهم في الانتقاد، فأوضح قائلًا:

«... إنّ هؤلاء المفكِّرين الواعِين، الذين يعملون بدأب، ويُجهِدون أنفسَهم من أجل

الإسلام، ويؤلّفون ويكتبون، عليهم تصحيح أخطائهم؛ فنحن اليوم بحاجة إليهم، وإلى ذوي الكفاءات والقدرات كافّة. وعلى أصحاب القلم، ترويج أفكار المذهب الجعفريّ، واجتناب الأخطاء؛ إذ لا يصحّ أن يقوم بعضهم بطرد هؤلاء الجامعيّين والمفكِّرين بحجّة بعض الأخطاء التي يمكن تداركها وتصحيحها! وإنّني أدعوكم لتقديم النصائح إلى هؤلاء، وعدم اللجوء إلى طردهم؛ لأنّهم تحمّلوا الكثير من أجل حرّيّة وطنهم، وتحقيق كرامته.

سادتي الأعزّاء... إنّي أدعوكم إلى ترك تبادل التهم والألفاظ المنحطّة، وأدعوكم إلى التضامن والتلاحم والوحدة».

إنّ خطاب الإمام قدس سره هذا، والذي انتشر بسرعة فائقة عبر البيانات والأشرطة، كان له الأثر العميق في النفوس، فأفسد كلَّ خطط النظام ومؤامراته التي تسعى لبثّ الفرقة وزرع الخلاف بين صفوف الثائرين.

هذا، وبعد المباحثات التي أجراها الشاه مع «كارتر»، بدأَت الحرّيّات السياسيّة تتقلّص شيئًا فشيئًا، فيما كانت مسيرة الرفض والثورة تتصاعد. وقام النظام بمحاولة إرعاب المعارِضين؛ كي يُرغِمَهم على الانصراف عن الثورة، أو على الأقلّ، الحدّ من نشاطاتهم وتحرّكاتهم؛ فقام في الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني، باعتقال مئات السياسيّين والجامعيّين والمفكِّرين في «كاروا نسرا سنكَي». وفي خطابه الذي ألقاه بمناسبة الذكرى السنويّة لصدور إعلان حقوق الإنسان، صرّح الشاه قائلًا: «إنّ إيران قد أدَّت واجبَها تجاه تطبيق بنود إعلان حقوق الإنسان»! وقال السفير الإيرانيّ لدى الولايات المتّحدة الأمريكيّة، في 16 كانون الأوّل، خلال لقاء صحفيّ: «إنّ إيران هي الدولة السبّاقة، من بين دول العالَم كافّة، في احترام حقوق الإنسان»! أمّا الأمين العامّ لحزب «رستاخيز»، فقال في المناسبة نفسها: «إنّ بعضهم اتّخذ اسم حقوق الإنسان وسيلةً للاعتداء على الشعب، والتجاوز على إيران». وصرَّح أحدُ قادة الحزب بقوله: «إنّ هدفَ المعارَضة هو الإطاحة بكيان النظام الشاهنشاهيّ».

ومن البديهيّ أنّ هذه التهديدات كلّها كانت تتمّ بموافقة واشنطن، وكان المسؤولون الأمريكيّون كثيرًا ما يؤكّدون على قوّة أواصر العلاقة والصداقة بينهم وبين الحكومة الإيرانيّة، وبأكثر ممّا سبق. وقال السفير الأمريكيّ في خطاب له: «إنّ الصداقة القائمة بين إيران وأمريكا حاليًّا، هي في أعلى المستويات، ولن ينفصل أحدهما عن الآخر مطلقًا».

وكان «كارتر» قد اعتبر إيران دولةً مستقرّةً وهادئةً، قبل سفره، حيث أكّد قائلًا: «سوف أُثبِتُ لكم في طهران، إلى أيّ مدى أُولِي اهتمامي بالعلاقة الإيرانيّة الأمريكيّة».

وللتأكيد على دعم أمريكا لنظام الشاه، توجّه «كارتر» إلى إيران في الأوّل من كانون الثاني عام 1978م، ولمدّة يوم واحد فقط، خلال جولته بين بولونيا وإفريقيا. وكانت ترافقه هيئةٌ دبلوماسيّة رفيعة المستوى، إذ كان من ضمنها كلٌّ من «بريجينسكي» و«فانس». وأُقِيمَت على إثر ذلك، حفلةٌ هائلةٌ بمناسبة رأس السنة الميلاديّة، وتمّ ذلك بحضور الشاه وزوجته.

يكتب السفير في مذكّراته: «إنّ اقتراح السفر أدّى إلى ارتياح الشاه؛ لأنّ هذه الجولة كانت ستؤدّي بالتأكيد إلى متانة العلاقة الأمريكيّة. مضافًا إلى ذلك، فإنّه يُثبِت لمخالِفيه ومعارِضيه أنّ النظام الأمريكيّ، وعلى رأسه «كارتر» -مدّعي حقوق الإنسان- يعدُّ نظامَ الشاهِ منزّهًا عن كلّ التهم الموجّهة إليه، ومن ثمّ فهو جدير بالدعم والتأييد».

وفي المأدبة التي أُقِيمَت بمناسبة قدوم «كارتر»، عبَّر الشاهُ عن متانة الأواصر والروابط والعلاقات الأخويّة بين البلدَين. وغضّ «كارتر» النظر عمّا هيّأَهُ له السفير الأمريكيّ، فارتجل الكلام، وأغرق الشاهَ بتعابير المديح، ووصفَه بـ«القائد الشعبيّ المحبوب»! وعَدَّ إيران معقلَ الثبات والاستقرار في المنطقة. هذا الدعم الجديد أدّى إلى حصول الشاه على قوّةٍ مضاعَفةٍ لقمع المعارِضين. وبعد ذلك بأربعة أيّام، عقد حزب «رستاخيز» جلسة استثنائيّة، هدّد فيها الأمين العامّ للمعارِضين كافّة، بقوله: «إنّ الاستعمار يرى مصالحه في إيران مهدّدة، وإنّ إيران لم تبرح تلك الدولة التي يمكن

إثارة الاضطرابات فيها لحججٍ تافهة». هذا، وعَدَّ أحدُ المتكلِّمين حركةَ الطلبةِ الجامعيّين حركةً عميلة متآمرة!

وفي السابع من كانون الثاني 1978م، ومناسبة الذكرى السنويّة لنزع الحجاب في إيران وتمزيقه، اندلعَت تظاهراتٌ نسائيّةٌ في مدينة مشهد، وهتفَت المتظاهراتُ ضدّ النظام. وكانت هذه الحركةُ اعتراضًا وردًّا على سياسة رضا خان الاستعماريّة، التي فرضَت السفور، ومنعَت الحجاب قبل 42 عامًا.

الفصل الخامس والعشرون

مجزرة 9 كانون الثاني (19 دي) في قمّ

إنّ انتشار البيانات الثوريّة وأشرطة الإمام قدس سره، واتّساع دائرة الثورة، أدّيا إلى قلق الشاه وغضبه في آنٍ واحد؛ ما دعا إلى توجيه الإهانة إلى الإمام قدس سره، وذلك عبر مقالٍ صحفيّ، نُشِرَ في صحيفة «اطّلاعات»، حيث قام أحد الصحفيّين[1] بإعداد المقال ونشره في السابع من كانون الثاني، بمناسبة الذكرى السنويّة لنزع الحجاب وتمزيقه عام 1935م [على يد رضا خان]، وذكرى الإصلاحات الزراعيّة. وتهجّم على الإمام قدس سره، ساعيًا بذلك إلى تشويه سمعته بين الجماهير والأوساط الاجتماعيّة. وقد عَدَّ بعضُهم نشرَ ذلك المقال، وفي تلك الظروف الحسّاسة، أمرًا اعتباطيًّا، والظاهر أنّه تمّ بأمرٍ من رئيس الصحيفة، بينما يعتقد بعضٌ آخر أنّ «السافاك» كان وراء ذلك. أمّا الحقيقة، فهي ما نقله اثنان من المقرَّبين إلى الشاه، وهما السفير البريطانيّ لدى إيران، والسفير الإيرانيّ لدى بريطانيا؛ وهي أنّ الشاه هو الذي أمر بذلك، وبشكلٍ مباشر.

هذا المقال عَدَّ انتفاضةَ الخامس من حزيران 1963م مؤامرةً استعماريّة، وأنّ المستعمِرين اختاروا الإمامَ قدس سره ليكون ورقةً رابحةً بيدهم؛ كي يقفوا في وجه ثورة

(1) بويزنيك خواه: كتبَ المقالَ بإيعازٍ من الشاه. وهو أحد قادة حزب «تودة» الشيوعيّ. هرب بعد انقلاب 1952م إلى أوروبّا ، وبعد وقوع الصِدام ما بين الاتّحاد السوفيّاتيّ والصين آنذاك، قام مع عددٍ من أعضاء حزب «تودة»، بالانحياز إلى سياسة «ماو تسي تونغ»، وشكّلوا منظّمةً تُعرَف بـ«المنظّمة الثوريّة لحزب تودة إيران». وفي عام 1964م، عاد إلى إيران، وأُلقِيَ القبضُ عليه بتهمة محاولة اغتيال الشاه. وبعد فترة، ظَهَرَ على شاشة التلفزيون الإيرانيّ، مُعلِنًا ندمَه وتوبتَه، وأعرَبَ عن الطاعة والولاء للشاه، وأصبح فيما بعد أحدَ المنظِّرين للنظام، ومسؤولًا في البلاط.

الشاه البيضاء. وكانَت هذه التهمة أكبر إهانةٍ للإمام، إذ لم نشهد لها مثيلًا مسبقًا! وفي اليوم نفسه، عَدَّت صحيفةُ «رستاخيز» تظاهراتِ النساء في مدينة مشهد، اتّحادًا مشؤومًا ضدّ الثورة البيضاء والإصلاحات. إنّ التعابير المتشابهة بين المقالَين، إنْ كانت تدلّ على شيء، فإنّها تشير إلى خطّةٍ مدروسةٍ لإخماد نار الثورة.

وقد أدّى مقالُ صحيفة «اطّلاعات» إلى اضطرابِ الجماهير في مدينة قمّ. ففي هذا اليوم، توجّهَت جموعٌ غفيرةٌ من الطلبة وعلماء الدين وأهل العلم والكسبة والتجّار، إلى بيوت المراجع، وطلبوا منهم الردَّ على تلك الإهانة. ومع أنّ التظاهرات كانت هادئةً جدًّا، إلّا أنّ فِرَقَ المكافحة والشرطة قامت بإطلاق النار على المتظاهِرين، وجرحَت وقتلَت الكثير منهم؛ ما أدّى إلى غضب الجماهير، والهجوم على تلك الفِرَق بالحجارة والعصيّ[1]، وكسروا زجاج مقرّ حزب «رستاخيز»، مضافًا إلى مهاجمة عدّة بنوك أخرى [البنوك هي مجموعة الصادرات التابعة للمليونير الماسونيّ «يزداني»].

وعجزَت المشافي والمصحّات عن استقبال العدد الهائل من القتلى والجرحى. وبلغ الأمرُ بمرتزقة الشاه، أنْ طلبوا من عوائل الشهداء دفعَ مبلغ 500 تومان، ثمنًا لكلّ رصاصةٍ، لقاء استلام جثث أبنائهم!

هذه الحادثة المؤلمة وقعَت بعد يومٍ من سفر الشاه إلى مصر، وسفر زوجته إلى أمريكا، وتزامَنَ وقوعُها مع وصول الأمين العامّ للأمم المتّحدة إلى طهران. وكان هدف الشاه من ذلك، تبرئةَ نفسه من مسؤوليّة الحادث، ولكي يجعل من المتظاهرين أناسًا رَجعِيّين وغوغائيّين، أمام أنظار الأمين العامّ للأمم المتّحدة. وبعد أحداث قمّ، قام مراجع قمّ وطهران وعلماؤهما بإصدار بيانات عدّة، ندّدوا فيها بالمجزرة التي ارتُكِبَت بحقّ الشعب في قمّ، وأدانوا الصحف التي أساءت إلى شخصيّة الإمام قدّس سرّه. واعترض الطلبة الجامعيّون على هذا العمل اللاإنسانيّ، وتظاهر طلبة الكلّيّة التكنولوجيّة في طهران، بعد يومين من مجزرة قمّ الدامية، فاصطدموا بقوّات الحرس، وأدّى ذلك

(1) على إثر هذه الجريمة، واستنكارًا لهذا، أضربَ بازار قمّ الكبير عن العمل لمدّة 11 شهر، ولم يفتح حتّى يومًا واحدًا خلال هذه الفترة؛ ممّا حدى بالسافاك إلى إرعاب التجّار وتهديدهم بالقتل.

إلى إغلاق كافّة مدارج الجامعة، وتعليق الدراسة. هذا وأعلنت الحوزة العلميّة في قمّ عن التوقّف عن الدروس والبحوث، وقام تجّار البازار في طهران، يوم 19 كانون الثاني، بإغلاق متاجرهم ومحلّاتهم، واعترضَت بعضُ الأحزاب السياسيّة شبه السرّيّة على المجزرة المذكورة.

إنّ تنديد الجماهير بمجزرة قمّ، واستنكارهم لها، أظهرَ للنظام ولأمريكا مدى قوّة شعبيّة الإمام قدس سره، وتأييدها له، وتعلّقها بشخصه. ولخوف النظام من مغبّة وقوع قيادة الجماهير الغاضبة بيد الإمام قدس سره، قام بفسح المجال أمام القوى الوطنيّة والليبراليّة؛ كي تتسلّم قيادة الثورة، وتوجّهها إلى مسار آخر. يقول السفير الأمريكيّ لدى طهران، في تقرير له إلى وزارة الخارجيّة الأمريكيّة: «هناك سعيٌ حثيثٌ من أجل السيطرة على فكر الجماهير، واستئصال جذور نفوذ [الإمام] الخمينيّ، وزرع بذور الجبهة الوطنيّة مكانها. فإنّ الشاه يرى نفسَه قادرًا على التفاهم مع الجبهة الوطنيّة، حول إيجاد صيغة دستوريّة للنظام الملكيّ، ضمن إطار الدستور، بينما لا يجد معنى لهذا النوع من التفاهم مع [الإمام] الخمينيّ»[1].

وفي 12 كانون الثاني عام 1977م -أي بعد مرور ثلاثة أيّام على الواقعة الأليمة- دعَت لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان في طهران، العديدَ من وكالات الأنباء العالميّة (رويتر، يونايتد برس، فرانس برس، و...) وأعلنت بحضورهم عن تأسيسها، وبدء نشاطها. وأجاب نائبُ رئيس اللجنة التنفيذيّة -والذي كان من قادة الجبهة الوطنيّة- على أسئلة الصحفيّين، بَيْدَ أنّه لم يوجِّه أيّة إدانة، خلال لقائه، إلى نظام الشاه، لِما يرتكبه من قمع وإرهاب، وخاصّة مجزرة قمّ، التي لا تزال دماء ضحاياها تصبغ أرصفة الشوارع، بل اكتفى بإظهار التأسُّف والاعتراض على ما جرى.

ولمّا وُجِّهَ إليه السؤال الآتي: «هل هناك توافقٌ بين آرائكم وآراء الشعب؟»، أجاب: «إنّ الاجتماعات التي نظّمَها أهالي طهران في جامع «قبا» ونادي إيران وألمانيا الثقافيّ،

(1) من وثائق وكر الجاسوسيّة الأمريكيّة في طهران، رقم 13، ص3.

وكذلك حضور الجماهير في جامع «أرك» بمناسبة وفاة نجل [الإمام] آية الله الخمينيّ، مضافًا إلى تظاهرات الطلبة الجامعيّين واحتجاجاتهم، لَهِيَ أكبر دليل على مساندتهم ودعمهم لنا ولأفكارنا وآرائنا»!

وقد جاء في البيان التأسيسيّ، الذي قرأه نائب اللجنة التنفيذيّة للجنة الدفاع عن حقوق الإنسان: «إنّ أسلوبنا في العمل يعتمد على النشاطات القانونيّة المعتدلة، في إطار دستور البيان العالميّ لمنظّمة حقوق الإنسان...».

وممّا يثير الدهشة، أنّ السفير الأمريكيّ لدى إيران كان يُملي المتطلّبات القانونيّة نفسها على الجمعيّة الإيرانيّة للدفاع عن حرّيّة الإنسان وحقوقه. يقول «سوليفان» [السفير الأمريكيّ لدى طهران، وكان في هذا المنصب حتّى انتصار الثورة الإسلاميّة، وهو أحد رموز وكالة الاستخبارات الأمريكيّة] في تقريرٍ أرسله إلى وزارة الخارجيّة الأمريكيّة، بتاريخ كانون الثاني 1977م [أي قبل يوم من خطاب نائب رئيس اللجنة التنفيذيّة، وبعد يومَين من مجزرة قمّ]: «... أعتقد بأنّنا تقدَّمْنا في الأشهر الماضية في مجال حقوق الإنسان... ومن الطرق المؤثِّرة التي استطعتُ الحصول عليها، هي إحدى المنظّمات غير الحكوميّة، فإنّ أحد ممثِّليها يتفاعل مع توجيهاتي بشكل جيّد، ومن ثمّ يقدّمها على شكل أطروحة في مجال حقوق الإنسان، إلى المسؤولين الإيرانيّين. ومع أنّه كان يستشيرني ويسترشدني أحيانًا، فإنّه يتحمّل كافّة المسؤوليّات والعواقب على عاتقه»! وبعد مضيّ سبعة أيّام على المجزرة الأليمة، أرسَل نظامُ الشاه مجموعةً كبيرةً من مدرِّسي دوائر العاصمة وموظّفيها إلى قمّ. فتظاهرَ هؤلاء في شوارع قمّ، وأصدروا في الختام مذكّرةً، جاء فيها: «نحن أعضاء حزب «رستاخيز»، نعلن في مدينة قمّ، أنّنا لن نهمل أعداء ثورة الشعب، ولن ندعَهم يتمادون في تعدّيهم وطغيانهم». وشُكِّلَت تظاهراتٌ مماثلةٌ في مدينة تبريز، وخطب فيها أحد جلاوزة الشاه، الذي ظهر بزيّ رجال الدين، وعَبَّر عن نفسه بأنّه ممثّل علماء تبريز، وقال: «إنّ الاستعمار يسعى من أجل إيجاد الفرقة والاختلاف بين أوساط الشعب الإيرانيّ، وذلك من خلال استغلال

الزيّ الدينيّ المقدّس!». قالت ممثّلة اتّحاد النساء: «إنّ نساء إيران سوف تُخمِدْنَ أصوات هؤلاء الرجعيّين كلّهم». وهكذا، فقد وُجِّهَت المزيد من التهم والإهانات إلى الإمام قدس سره وعلماء الدين، عبر طرقهم المتعدّدة هذه.

في يوم 23 كانون الثاني، أُعلِن رسميًّا أنّ ثلاثةَ ملايين نفر سيشاركون في المراسم التي ستُقام لأجل يوم 26 كانون الثاني. وهكذا، فقد أعلنت الأجهزة الإعلاميّة للنظام، في يوم 26، أنّه شارك ما يقارب ثلاثة ملايين عضوٍ من حزب «رستاخيز»، في أعظم مسيرة شهدها تاريخ إيران. وقال رئيس الوزراء: «إنّ هذه المسيرة هي جوابٌ قاطعٌ، وبرهانٌ قويٌّ، لِمَن يشكّ في تلاحم شعبنا واتّحاده».

إنّ كثافة نشاط النظام الإعلاميّ، بعد أيّام عدّة من مجزرة قمّ والحوادث التي تَلَته، كان دليلًا على اضطرابه وخوفه الكبير. ولهذا السبب، اعتذر الأمينُ العامّ للأمم المتّحدة عن استقبال وفد الجمعيّة الإيرانيّة للدفاع عن حرّيّة وحقوق الإنسان. وعلى الرغم من أنّ ممثّلي الكونغرس الأمريكيّ كانوا قد قدموا إلى طهران، والتقوا بالشاه واعتبروا الروابط الإيرانيّة-الأمريكيّة وثيقة وغير قابلة للانفصام، إلّا أنّ السفارة أعربَت للخارجيّة الأمريكيّة عن مدى اضطرابها، وذلك في تقريرٍ أرسلَته بمناسبة مجزرة قمّ، وقد جاء فيه: «إنّ الحكومة قد فقدَت السيطرة على زمام الأمور، وخاصّة على تحرُّك الإسلاميّين».

وعلى الرغم من استخدام الشاه سلاح العنف، ودعم أمريكا والأمم المتّحدة له، بقيَ الإمامُ قدس سره صامدًا متصلّبًا برأيه باستمرار الجهاد والنضال. فبَعدَ أيّامٍ من مجزرة قمّ، أصدر بيانًا أدان فيه الدعم والتأييد الذي يبديه «كارتر» للشاه، ووصف الشاه بالخائن والمتمرِّد، وأنّ سلطته غير شرعيّة وقانونيّة، ووَعَدَ الشعبَ بالنصر المحتّم، وطلب من أفراد الشعب كافّة الحفاظَ على الوحدة، وتجنيدَ أنفسهم لإسقاط النظام.

وأعرب الإمام قدس سره في مطلع خطابه، عن تألّمه الشديد، وأسفه البالغ، لِما وَقَعَ في قمّ، فقال:

«إنّني حائرٌ لِمَن أنعي هذه الفاجعة؟ هل أعزّي الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، والأئمّة

المعصومين عليهم السلام، والإمام المنتظر (عجّل الله قدومه)؟ أو أعزّي الأمّة الإسلاميّة، وكافّة المسلمين والمستضعَفين في العالَم؟ أو أعزّي شعبَ إيران المظلوم، الذي أُفجِعَ بهذا الحادث؟ أو الحوزات والعلماء؟ أو أبناء قمّ الغيارى؟

علينا أن نشكر شعب إيران؛ لأنّه شعبٌ واعٍ وصامدٌ أمام الظلم، مع كلّ ما يواجهه من قتلٍ وتعذيبٍ واضطهادٍ. وممّا لا شكّ فيه، أنّ جهاد هذا الشعب وصموده سيتوّجان بالنصر والنجاح، إن شاء الله».

ثمّ أَتبَعَ ذلك بسردٍ تاريخيّ لجرائم رضا خان ومحمّد رضا، خلال الخمسين عامًا المنصرمة، بمحاربتهم الدين والمقدّسات الإسلاميّة، وأشاد بالدور الجهاديّ للعلماء الذين وقفوا في وَجْهِ المؤامرات كلّها، وعَدَّ الشاهَ هو المدير والمدبّر لحادثة قمّ، إذ قال:

«إنّ كلّ ما يحدث في هذا البلد، هو بعلم الشاه، وبتدبيرٍ منه، وهو الذي أصدر الأوامر».

ثمّ عرّج على منح بعض الحرّيّات من قِبل الشاه، وانخداع بعض السياسيّين بهذه السياسة الماكرة، فقال:

«سبق أنْ قلتُ ونبّهتُ بأنّ الهدف من وراء ذلك كلّه هو توطيد العلاقة مع «كارتر»، وما إن تستوثق الروابط، لن يتورّع هذا الرجل عن ارتكاب أيّ جرمٍ يرومه بحقّ الشعب!».

وفي الختام، دعا كافّة الأحزاب السياسيّة وأفراد الشعب إلى التعاون والوحدة. وجاءَ في خطابٍ آخر وجّهه إلى شعب إيران الغيور:

«إنّ الثورة هذه هي من بركات انتفاضة الخامس من حزيران المجيدة وآثارها».

وتناول أهداف الشاه مِن ارتكاب مجزرة قمّ، قائلًا:

«الشاه يريد أن يبرهن للشعب عن الدعم الأمريكيّ، أو بالأحرى، أن يُثبِتَ للشعب مدى عبوديّته وانصياعه لأمريكا. لكنّ الشعب، وبتصعيد ثورته، أصرَّ على رفضه للنظام الجائر».

وجاء أيضًا في خطابه هذا:

«على «كارتر» وكافّة ناهِبي ثروات الشعوب، أن يعلموا أنّ محمّد رضا هو خائن وذو سلطة شكليّة، حتّى لو افترضنا حكمَه شرعيًّا وقانونيًّا؛ فكيف لا، وهو عميلٌ للاستعمار؟».

وعَدَّ الإمامُ قدس سره قيامَ الشاه بهذه الجريمة النكراء، إنّما ينتج عن عجزه؛ وعلى هذا، وَعَدَ الشعبَ الإيرانيّ بالنصر القريب:

«أُبشّر الشعبَ الإيرانيّ بأنّ النظام الآن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأنّ هذه المجازر ما هي إلّا دليلٌ على عجزه وخوفه وهلعه من أمّتنا المجيدة، الأمّة التي خرجَت نساؤها لتعلن معارضتها للنظام الجائر، الأمّة التي تفتخر نساؤها بتقديم أبنائهنّ شهداء في طريق الثورة، الأمّة التي أرهبَت الشاهَ و«كارتر» والبيت الأبيض، وأخافتهم بصمود أبنائها الأبطال! تلك أمّةٌ عمادُها القرآن، ودستورُها القرآن، وثورتُها من أجل إحقاق الحقّ، ونشر العدالة الإلهيّة، ورفع عصر الظلم والجور وإنهائه...».

ودعا الإمام قدس سره في ختام خطابه للشعب، إلى الوحدة ورصّ الصفوف، وخاطب الأحزابَ والتكتّلات السياسيّة التي ما زالت تعمل ضمن إطار الدستور، قائلًا:

«إنّ العمل في إطار القانون والدستور هو اعترافٌ ضمنيٌّ بنظام الشاه الفاسد. وإنّني أدعو هؤلاء إلى العمل لإسقاط النظام، الذي انعدمَت في ظلّه السعادةُ والحرّيّةُ والاستقلالُ!».

إنّ حادثةَ التاسع من كانون الثاني، تُعتبَر مُهمَّة لأسباب عدّة، فهي:

أوّلًا: أثبتَت كذب ادّعاءات «كارتر» والشاه حول الحرّيّة السياسيّة وحقوق الإنسان.

ثانيًا: أثبتَت مدى خوف النظام من النشاط السياسيّ الدينيّ بقيادة الإمام.

ثالثًا: كشفَت للجميع حقيقةَ النظام المعاديةَ للشعب؛ ما أدّى إلى أن يصبح نداءُ «الموت للشاه» الهتافَ الرئيسيّ الأوّل للثوريّين، ولأبناء الشعب كلّهم.

رابعًا: بلورَت مفهومَ الثورة لدى أبناء الشعب والجماهير كافّة؛ ما أدّى إلى تصاعد الحركة الثوريّة بشكلٍ أكبر، وبنطاقٍ أوسع.

خامسًا: إنّ الأحزاب السياسيّة التي كانت معتمِدَةً على سياسة «كارتر»، ضمن احترام حقوق الإنسان في إطار الدستور، عندما رأَت نفسَها مختلفةً عن الثورة وحركة الإمام قدّس سرّه، ولكي تستغلّ الوضع لمصالحها الخاصّة، صعَّدَت من اعتمادها على أمريكا، وحاولَت جاهدةً التكيّفَ مع حركة الإمام قدّس سرّه ضدّ الشاه، وهذا قد ساعد، شيئًا ما، في تصعيد الحركة الإسلاميّة وتنشيطها، خلافًا لمرامهم.

ومع ذلك كلّه، فإنّ الأحزاب والتنظيمات السياسيّة استمرَّت في استراتيجيّتها حتّى آخر أيّام حكم الشاه، وهذا ما أثبتَتهُ الوثائق التي استُخرِجَت، فيما بعد، من السفارة الأمريكيّة في طهران. وهكذا، أصبحَت الهتافات الرئيسيّة للجماهير: «الموت للشاه»، و«الموت للشاهنشاهيّة»، و«يعيش الخمينيّ»! وأمَرَ النظامُ جهازَه الأمنيَّ باعتقال كافّة العامِلين تحت قيادة الإمام قدّس سرّه، وذلك بتهمة الإخلال في النظام والأمن الداخليّ.

إنّ إقبال الشباب على الثورة، واتّحاد طلبة العلوم الدينيّة وطلبة الجامعات، جعل النظام يحسّ بالخطر، أكثر فأكثر، من ذي قبل؛ ولهذا، سعى إلى بثّ الفرقة في صفوفهم. وعلى إثر ذلك، قال رئيس الوزراء في 24 كانون الثاني: «إنّ هنالك تيّارات وأيديولوجيّات ماكرة بين صفوف الشباب». وبعد أيّام عدّة من ذلك، قال الأمين العامّ المساعِد لحزب «رستاخيز»: «علينا أن نثقّف الشباب؛ لكي لا تُغويهم أكاذيب الآخرين». ودعا الجناحُ التقدّميّ لحزب «رستاخيز» كافّةَ المثقّفين والسياسيّين إلى دعمه، والتعاون معه في هذا المجال. ثمّ اقترح تأسيس وزارة للشباب، في جلسة لجنة التخطيط والميزانيّة في العاشر من شباط.

وكشف الإمام قدّس سرّه هذه المؤامرة الجديدة، فوَجَّهَ خطابًا هامًّا إلى الاتّحادات الإسلاميّة للطلبة الإيرانيّين في أوروبّا وأمريكا، ودعاهم إلى إفشال مؤامرات الشاه، وذلك عبر الاتّحاد والتعاون، وقال:

«على جميع طلبتنا الجامعيّين والدينيّين أن يتّحدوا ويتبادلوا الاحترام والثقة... فالروحانيّة رصيدٌ كبيرٌ لا يدوم الإسلام من دونه؛ ولهذا، يسعى الاستعمار والخونة

إلى تحطيم هذا السور المنيع. وقد أدّى إعلامُه المغرِض هذا إلى فصلِ بعض المفكِّرين عن علماء الدين، وإساءة الظنّ بهم، في حين أنّهم هم الذين يدعون الشعب إلى الوقوف والصمود في وَجْهِ الاستعمار وتحدّيه؛ ولهذا، فعلينا احترامهم وتقديرهم. كما يجب على علماء الدين احترام الطبقة الشابّة والمثقَّفة والمفكِّرة، التي تخدم الإسلام والمسلمين. وأرجو من الجميع أن لا يتأثّروا بالإعلام المغرِض المعادي والمضادّ، والاحتراز من التفرقة، وعليهم طرد المغرِضين كافّة، الساعين إلى إيجاد الفرقة. وليعلموا أنّ النصر يكمن في اتّحاد الطلبة بأجمعهم، بشقَّيهم الدينيّ والجامعيّ. واجعلوا هدفَكم الأوّلَ هو الإسلام وشريعته العادلة الحقّة. وعليكم أن تسعوا لإقرار الحكومة الإسلاميّة، تحت قيادةِ حاكمٍ إسلاميٍّ عادل، وإلى جانب ذلك تسعَون إلى إسقاط نظام بهلويّ المنحطّ؛ فالتولّي والتبرّي هما من فروع الإسلام الأساسيّة، وهذا هو طريق النصر والاستقلال والحرّيّة».

ودعا كافّة الأحزاب السياسيّة والكُتّاب والخطباء والوعّاظ إلى الابتعاد عن طرح الأفكار المنحرفة والهدّامة، التي تؤدّي إلى تعزيز موقف الشاه ودعمه، وقال:

«عليكم اجتناب كافّة الآراء والأفكار التي تؤدّي إلى تعزيز موقف الشاه وتأييده، كالعمل في إطار الدستور. وعلى الصحف أن تتكلّم بصراحة، وتجتنب الكناية والاستعارة والتورية، وعليها فضح الشاه؛ فهو السبب الرئيس للظلم والاستبداد، وأن لا نحمّل مسؤوليّة هذه المآسي كلّها لرجال الدولة مسلوبي الإرادة».

وكان الإمام قدس سره على عِلمٍ كامل بالفرقة الموجودة بين الطلبة، من الجناح الدينيّ والجناح الجامعيّ. ولهذا، دعا علماء الدين إلى شرح وبسط أُسُس الإسلام الفلسفيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، ونظريّاته في إدارة البلاد والعباد للطلبة، ودعا الجامعيّين إلى الالتزام بأحكام الشريعة، والتمسّك بتعاليمها.

وطالب الإمامُ قدس سره الطلبةَ الجامعيّين ببثّ الدعوة للإسلام، والالتزام بأحكامه، وأن يحترزوا من التعاون مع كلّ من لا يلتزم بها. وكان هذا هو مدار الخلاف الأساسيّ

بين الإمام قدس سره وباقي القادة السياسيّين، الذين يسعون، منذ البداية، إلى قمع الأفراد وتفريق صفوفهم، وعلى اختلاف عقائدهم. يقول الإمام قدس سره:

«لا تظنّوا بأنّ العدد عاملٌ مهمٌّ للنصر، ومن ثمّ يبقى لكم العامل الزمنيّ لتصفيةِ غير المرغوب فيهم. يجب أن تعلموا أنّ الجامعات اللاإسلاميّة، أو غير الملتزمة بأحكام الشريعة، سوف يتعرّضون لتغيير الأهواء، وسيغدرون بكم في أوّل فرصة، وسيتسبّبون في إسقاطكم والإطاحة بكم قبل الوصول إلى الهدف. إذًا، أدعوكم إلى الاعتبار من تجارب الماضي، فإنّ الإعلام المضلّل، الذي تقوم به الشيوعيّة الدوليّة، لا يهدف إلى شيءٍ، سوى تضليل المستضعفين واستغلالهم».

وفي 18 شباط، ألقى الإمام قدس سره خطابًا، بمناسبة أربعينيّة شهداء مجزرة قمّ. والمتعمِّق في معاني هذا الخطاب، يدرك بوضوح أنّ الإمام قدس سره كان يراقب أحداث المدن كلّها في إيران بدقّة فائقة، فيشير في خطابه إلى المجلس المنعقد في الجامع الأعظم في مدينة قمّ في اليوم نفسه، ويتنبأ بأحداث مماثلة لحادثة قمّ في مدن تبريز ومشهد، مضافًا إلى قمّ ذاتها. وأعرب الإمام قدس سره عن فرحته بتحطُّم حاجز الخوف عند الشعب، إنّه كشف للعالَم بأنّ الشاه هو المجرم، وهو المدبّر للمآسي كافّة. ثمّ تناول الإمام قدس سره الأوضاع السياسيّة الداخليّة، وأخذ يحلّلها ويعلّق عليها، وعَدَّ مسألةَ «حقوق الإنسان» لعبةً استعماريّةً جديدة، واستنكر دعم «كارتر» للشاه، الذي فسح المجال لأمريكا لإقامة قواعد عسكريّة أمريكيّة على الأراضي الإيرانيّة. وفضح الإمام قدس سره عمالة الشاه لأمريكا، وعلاقاته المشبوهة والعريقة مع إسرائيل الغاصبة. وتكلّم عن الفقر والبؤس والشقاء الذي عمّ البلاد، وحتّى العاصمة. ولهذا، عَدَّ الإمامُ الثورةَ على نظام الشاه مقدّسَةً. وشبَّهَ الثورةَ بوجه النظام والشاه بمواجهة إبراهيم وموسى عليهما السلام والرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليّ والإمامَين الحسن والحسين عليهما السلام، لكلٍّ من نمرود، وفرعون، والمشرِكين، ومعاوية، ويزيد...

الفصل السادس والعشرون

حادثة 18 شباط في تبريز (29 بهمن)

أُعلِنَ الحداد العامّ لشهداء مجزرة قمّ، في مدنٍ عدّة مختلفة، وبالأخصّ في مدينتَي قمّ وتبريز. ففي مدينة تبريز، أُغلِقَت الأسواق والجامعات والمدارس، واتَّجَه أبناءُ الشعب إلى مسجد الحاجّ ميرزا يوسف، لإحياء مراسم الأربعين لشهداء مجزرة قمّ الدامية، بَيْدَ أنّهم وجدوا أبواب المسجد مغلقة، وقوّات الشرطة متمركِزة في كلِّ مكان من أطراف المسجد. من هنا، انفجر الغضب الجماهيريّ، واشتبكوا مع الشرطة، وأدّى الاشتباك إلى مصرع العديد من الأبرياء والعزّل. وعندما رأى البوليس نفسَه عاجزًا عن مقاومة السيول الجارفة من الجماهير الثوريّة، تراجعَ فورًا إلى الوراء، وانسحب كلّيًّا.

وانطلقَت من هنا الانتفاضة العارمة، فلقد حَمَل الشعبُ جثثَ الشهداء والقتلى، وطافوا في شوارع المدينة، وهم يصرخون: «الموت للشاه!»، وهاجموا «بنك صادرات» ومعمل البيبسي كولا (واللذَين كانا يعودان لشركات استثماريّة للبهائيّين)، وداهموا مقرّ حزب «رستاخيز»، وحطّموا تمثال الشاه في أحد الميادين، وأحرقوا عدَّةَ بارات، ودُور سينما، وبعض سيّارات المسؤولين. ولم تمضِ إلّا سوَيعات، حتّى سقطَت المدينةُ بأكملها بيد المنتفِضين! ولكن، بعد ساعات، تدخّل الجيش بمعدّاته كافّة، وسيطر على المدينة، بعد أن ارتكب أعظم مجزرة وأكبرها بحقّ الشعب المظلوم! وسقط المئات من الأبرياء شهداء وجرحى، وأصبحت المدينة يومَها ترتدي حلّةً دامية. لقد كانت انتفاضة تبريز مؤشِّرًا خطرًا وكبيرًا للنظام؛ ممّا دعاه إلى التفوُّه واستخدام عبارات ساذجة أحيانًا، ومهدّدة تارةً أخرى.

ومرّة أخرى، ادَّعَت صحفُ النظام أنّ المتظاهرين هم «شيوعيّون إسلاميّون»، هتفوا بشعارات وهتافات «ماركسيّة وشيوعيّة»! وقال ممثّل تبريز في البرلمان: «إنّه لمن المؤسف أن نرى بعض الجماعات المتأثّرة بالاستعمار والإمبرياليّة، تحاول خداع شعبنا الموالي للنظام والشاهنشاهيّة، وتُسيِّره نحو أهدافها، بإقامة تظاهرات وحشيّة بشعة!». وأضاف وزير الدولة لشؤون البرلمان: «حتّى الآن، ليسَت لدينا أيّة معلومات تدلّنا كيف ومتى عَبَرَ هؤلاء المخرّبون الحدود، ودخلوا البلاد». وفي اليوم التالي، قال: «إنّ الاشتراكيّين الذين انكشفوا، كانوا هم السبب في غوغاء تبريز». وأمّا المنظِّر لحزب «رستاخيز»، فقد ادّعى بأنّ كلّ ما حدث مدبَّرٌ مِن قِبَل أيدٍ خفيّة، ليس لها أيّة علاقة بالشعب الإيرانيّ.

ورأى أحدُ أعضاء البرلمان، من رجال الدين المزيّفين، أنّ الغوغاء في تبريز هي لباسٌ وزيٌّ ألبسَه الاستعمارُ شبابَ المدينة. بينما يرى آخر أنّ هذه الأعمال محرَّمةٌ في الدين الإسلاميّ؛ لأنّ الشريعة تحارب الغوغاء والشغب.

على إثر حادثة تبريز، قام الشاه بعزل كلٍّ مِن محافظ تبريز وقائد الشرطة؛ لعدم كفاءتهما في إدارة أمور المدينة، وأرسل وفدًا خاصًّا إلى تبريز؛ من أجل بلورة الأوضاع، مدَّعِيًا عدم علمه بما يجري هناك. وهاجم الشاهُ كبار قادة الشرطة وقوّات الدرك، أثناء لقائه السرّيّ بهم وبمجموعة من كبار رجال المخابرات، وانتقدَهم لعدم رشق المتظاهرين بالرصاص. وبعد أسبوع من الواقعة، عبَّر الشاهُ أثناء لقاءٍ صحفيٍّ له، عن واقعةِ قمّ وتبريز، بأنّها أعمال شغب نشبَت بتأثير الأفكار الرجعيّة، واتّحاد الجبهة الحمراء مع السوداء. لقد بلغَت هذه الاتّهامات والأقاويل من السخافة، إلى درجة أنّ المسؤولين الأجانب باتوا يهزؤون منها. ويكتب «بارسفنيز» قائلًا: «إنّ ما يدّعيه الشاه، وما يتّهم أعداءه به من تهم رجعيّة سوداء وحمراء، هي واهية، وليست لها أيّة جذور».

بعد أسبوع من مجزرة تبريز، زار وزيرُ الخارجيّة الإيرانيّ بغداد، لإجراء محادثات

عدّة تهمّ البلدَين. ومن الطبيعيّ، لن تخلو المحادثات هذه من التطرّق إلى نشاطات الإمام قدس سره السياسيّة داخل العراق.

وبعد مضيّ ثمانية أيّام على المجزرة الدامية، وجّهَ الإمامُ قدس سره بيانًا إلى أبناء مدينة تبريز، حيّا فيه مشاعرهم وعواطفهم الجيّاشة، حيث قال فيه:

«السلام على أهالي آذربيجان الغالية، الشجعان المتديِّنين، التحيّة للرجال المتحمِّسين والشبّان الغيارى في تبريز، التحيّة لرجالٍ ثاروا على السلالة البهلويّة الخطيرة، وهتفوا بشعارات «الموت للشاه»، وأثبتوا زيف ادّعاءاته الباطلة! فلتعش جحافلنا المجاهدة والمستبسلة من أبناء تبريز؛ لوقوفهم أمام الطغيان، ودحض افتراءات المفترين!».

ثمّ يتطرّق ببيانه هذا، إلى ما تعانيه الأمّهات من لوعة وحرقة، بفقد أبنائهنّ الأبطال، ويقدّم لهنّ التعازي، ويبادلهنّ روح المواساة، ويخفّف عليهنّ مصيبتهنّ، فيزفّ لهنّ البشرى بالنصر القريب، ثمّ يقول:

«إنّني أبشّر شعب آذربيجان بالنصر النهائيّ! فأنتم يا جماهير آذربيجان، الذين قاومتم الظلم والطغيان منذ عهد الحركة الدستوريّة، وأنتم الذين ضحّيتم وقدّمتم المزيد من العطاء».

ثمّ تطرّق ببيانه هذا، إلى ما يدّعيه بعض أعضاء البرلمان، ويردّ عليهم بعنف، ويذكّر تارةً أخرى بأسباب الفساد والجرائم ومسبّبيه، فيقول:

«تاريخ إيران، ومنذ الحركة الدستوريّة، لم يشهَد أعضاء برلمانٍ كهذا؛ إذ ينسبون الهمجيّة والوحشيّة لأبناء آذربيجان المؤمنين المحترَمين! نعم، إنّ برلمانًا يُعَدُّ مِن قِبَل الشاه، يجب ألّا يُتَوَقَّع من أعضائه غير هذا... اليوم أصبحَت هتافات الجماهير في الأزقّة والطرق كافّة: «الموت للشاه»، ولن يستطيع أيّ أحد أن يُثني عزيمة الشعب للإطاحة بالشاه، الذي هو -بحقٍّ- سبب كافّة الجرائم والانتهاكات اللامشروعة. وإنّ لَمِن العجب أن يُرسِل لجنةً خاصّة إلى تبريز؛ كي تبرّر مواقفه، مدّعيةً عدم اطّلاع الشاه على ما جرى ويجري من الأمور، تُرى مَن الذي سيصدّق هذا، غير المنظّمات وأعضاء

البرلمان ومجلس الشيوخ، الذين هم بذاتهم يتّصفون بالمراوغة والتضليل؟».

بعد يومٍ من صدور هذا البيان، أصدر السيّد «كاظم شريعتمداري» بيانًا، جاء فيه:

«يجب على الحكومة الاهتمام بالأرضيّة الدينيّة في البلاد، والنظر إليها بعين الاعتبار. وعليها احترام عقائد السواد الأعظم من الشعب الإيرانيّ وأفكاره، فالحكومة مُلزَمة بتطبيق الدستور، وعدم التخلُّف عنه».

وجاء أيضًا في الرسالة التأبينيّة لمنظّمة الدفاع عن حرّيّة حقوق الإنسان، التي وُجِّهَت إلى علماء قمّ ومراجعها: «إنّ ما حدَثَ أخيرًا من حوادث مؤسفة، في قمّ وتبريز وبعض المحافظات الأخرى، هو من فعل الحكومة بذاتها، فهي السبب في كلّ ما يحدث في أرجاء البلاد».

وكما نرى، فإنّ الرسالة احترزَت من الإدانة للحكومة، واكتفَت باتّهامها بالقصور. إنّ التأكيد على الالتزام بالدستور -في عقيدة الإمام ورأيه- كان يُعَدّ تأييدًا للنظام، ومنحه الشرعيّة اللازمة له؛ ولهذا، نرى أنّ الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ كان كثيرًا ما يؤكّد، من خلال خطاباته وبياناته للأحزاب والتكتّلات السياسيّة، عدم الاهتمام بهذا الجانب؛ إذ هو تأييدٌ لنظام بهلويّ الجائر، فمثلًا، جاء في إحدى بيانات بعض الأحزاب تأكيدًا على أنّ الهدف هو «العمل ضمن إطار الدستور». لقد كانت انتفاضة تبريز إنذارًا بالخطر والمواجهة للنظام وأزلامه. وبغضّ النظر عن انتفاضة تبريز، فقد كانت هناك بوادر تعلن عن تحرّك كبير وعارم للشعب، وبأسلوبٍ منظَّم، مؤقّتٍ توقيتًا دقيقًا، حامِلًا عنوان: الأربعينيّات المتتالية لشهداء كلِّ مدينة منتفِضة، وهذا ما كان يرعب الشاه والنظام من جهة، وممّا يبعث على الصبر والثبات، ويثير الحماس في نفوس أبناء الشعب؛ نتيجة نفوره من الشاه وغضبه على النظام. ولا بدّ من الإشارة هنا، إلى التعميم الإعلاميّ لوكالات الأنباء العالَميّة الشرقيّة والغربيّة، لطمس الحقائق، والتكتّم على الحوادث، وإخفاء ما يجري في البلاد مِن قتلٍ وتدميرٍ.

فإثر حادثة تبريز، قام ثُلّةٌ من الطلبة الجامعيّين الإيرانيّين المقيمين في أمريكا،

بمحاولاتٍ لفضح جرائم الشاه، ونَقلِ صورٍ عن الداخل، بَيْدَ أنّهم فُوجِئوا بجوٍّ مهيمنٍ على الأجواء والأفكار في أمريكا، يدعو إلى تعزيز مواقف الشاه والنظام الحاكم، ولم يستطع هؤلاء نشر أفكارهم وبثّ مضمون تقاريرهم، إلّا عبر بعض الصحف المحلّيّة والقليلة الانتشار، بينما بقيَت الصحف العالميّة وذات الصيت الإعلاميّ الكبير، تخفي الحقائق، وتبالغ بالإطراء على الشاه ونظامه، أكثر ممّا مضى.

إحدى وثائق وكر الجاسوسيّة الأمريكيّة تصف انتفاضةَ تبريز بأنّها أقوى فاعليّة وتأثيرًا من حركة قمّ، سياسيًّا، وتحتمل نشوب ثورات وانتفاضات مماثلة أخرى في مدن أخرى. ورغم هذا الالتفاف إلى تزلزل النظام وضعفه، مِن قِبَل السفارة الأمريكيّة، إلّا أنّ الحكومة الأمريكيّة استمرَّت بمساعدة النظام، ومدّ العون والدعم له أكثر ممّا مضى. فبعدَ مضيّ أحد عشر يومًا على مجزرة تبريز، صرّح «سوليفان» سفير أمريكا لدى إيران، في خطابٍ له بمدينة سان فرنسيسكو، وأمام جمعٍ غفيرٍ من الإيرانيّين، قائلًا: «إنّ إصلاحات الأراضي، ومشاركة النساء في الأمور الاجتماعيّة في إيران، أدَّت إلى معارضة الإقطاعيّين والرجعيّين الأصوليّين، وكذلك منح الحرّيّة لشعب إيران، ذلك كلُّه أدّى إلى بروز حوادث عديدة، كحادثة تبريز الأخيرة. ومع أنّ قوى الأمن امتنعَت عن التدخّل، فللأسف الشديد، أدّى ذلك إلى تعرُّض المدينة إلى خسائر كبيرة وباهظة!».

أمّا سفير بريطانيا لدى إيران، والذي كانت تربطه علاقات ودّيّة وصميمة مع الشاه، فقد كان ملتزمًا الصمت والسكوت أمام ما يجري في البلاد، إلى أن انفجرَت تبريز بثورتها هذه، وأدَّت إلى إطلاق صفّارة الإنذار بالخطر المهدِّد؛ ممّا جعل السفير يحطّم حاجزَ الصمت، وينطلق إلى منادمة الشاه، ليُعْلِمَه وليخبرَه بما استجدّ مؤخّرًا. يكتب هذا السفير في مذكّراته قائلًا:

«إنّ الشاه لم يَعُدْ يومًا يخشى أو يتهيَّبَ من الوجود الشيوعيّ بين صفوف الطلبة، وحتّى المتشدِّدين، أو حتّى الجبهة الوطنيّة وباقي الأحزاب السياسيّة. إنّما كان يتطلّب الأمرُ التخوّفَ من رجال الدين فقط، لا غير، حيث يراهم ألدَّ أعدائه؛ فهم يتمتّعون

بنفوذ شعبيّ قويّ، وباستطاعتهم توجيه الشعب إلى أيّة جهة يبغونها، إنّ رجال الدين متمسِّكون بمبادئهم، إلى درجة لا يستطيع النظام السيطرةَ عليهم، وهم غير مستعدّين للتنازل أو التفاوض لحسم النزاع. إنّهما عدوّان وخصمان وَقَفا وجهًا لوجه، ولن ينتهي الأمر إلّا بفوز أحدهما، وخسارة الآخر. هذا هو ما أطلعني عليه الشاه بنفسه. وعندما كان يقول ذلك، كانت تظهر عليه بوادر القدرة والثبات؛ إذ يرى نفسَه بطلَ المعركة!».

إنّ الشاه الذي كان يرى نفسه الرابح والفاتح بعد مذبحة تبريز، ظهر على الساحة مرّة أخرى، بعد شهر واحد من الحادثة، وقام في مدينة «عبادان» خطيبًا، وأعلن عن سياسته الجديدة، والتي تتضمّن «منح الحرّيّة السياسيّة». فهاجم علماء الدين، ونعتهم بصفاتٍ بذيئة، وقال: «لقد صمَّمْنا على إعطاء حرّيّات سياسيّة فرديّة أكبر للشعب. ومن الممكن أن يستغلّ هذا الوضعَ بعضُ الرجعيّين العفنين أو المتطفِّلين الموالين للسياسة الحمراء، لكنّني أعلن بأنّ أيّة حركة تصدر عن هؤلاء، سوف يقف الشعب أمامها بجدارة تامّة». وبناءً على ادّعاءاته هذه، قام بمناسبة عيد ميلاد والده، بالإفراج عن 348 سجينًا سياسيًّا.

وعملَت أجهزة النظام الإعلاميّة، وبمناسبات مختلفة، على صرف أذهان الشعب إلى اتّجاهات مادّيّة وغيرها؛ لإبعادهم عمّا يدور في فلك سياسة الشاه وأوضاع البلاد. فتارةً، تعلن عن تأسيس مصنع في مدينة تبريز؛ لصنع السيّارات السويديّة من طراز فولفو وتجميعها، وتارةً، تعلن عن حملة شعواء على المحتكِرين والمطفِّفين، ومعاقبة الوسطاء والغشّاشين، ثمّ بعد ذلك، أثارَت مسألة عرقلة المعاملات في الدوائر الرسميّة، وتعرَّضَت لحالة البيروقراطيّة فيها...

وخلال شهر آذار، صادف حلول رأس السنة الشمسيّة وأعياد النوروز، فأعلن علماءُ الحوزة العلميّة في قمّ وعلماءُ الدين في طهران، وبالتعاون مع بعض الشخصيّات والرموز الوطنيّة والإسلاميّة الأخرى، أعلنوا الحداد العامّ بهذه المناسبة، تضامنًا مع عوائل شهداء المجزرتَين الداميتَين، اللتَين وقعتا في قمّ وتبريز، ومواساةً لهم.

الفصل السابع والعشرون

أربعينيّات متتالية، والثورة مستمرّة

في حلول أربعينيّة شهداء تبريز، وجّهَ الإمامُ قدس سره بيانًا إلى الشعب الإيرانيّ، يوم 24 آذار 1978م، جاء في مطلعه:

«مع حلول أربعينيّة قتلى تبريز المظلومين، تتجدّد أحزانُ الشعب الغيور. [كُتِبَ] على الشعب الإيرانيّ أن يرفع بيارق الحداد بين كلّ حينٍ وآخر، وأن يُقِيمَ مجالس العزاء للشباب الأعزّاء وأحباب الإسلام، الذين ضُرِّجوا بدمائهم بأيدي عملاء أميركا، وبأمرٍ من الشاه.

وما زالت العيون باكية، والقلوب متشقِّقة؛ إثر مجرزةٍ ارتكبتها أمريكا وبقيّة الأجانب بيد الشاه، وعزاء الشعب يُجَدَّد مرّة أخرى. وأنا لا أعلم هل سيتبع هذا الأربعين مجزرة أخرى، أو هل سيُجدِّد (ضحّاك العصر) سفكَه للدماء، أم إنّه سيُكَلَّف بارتكاب جريمةٍ بأسلوب آخر؟».

ثمّ تطرّق إلى دور انتفاضة تبريز وأهمّيّتها، قائلًا:

«... إنّ مجزرة تبريز خلّفَت حماسًا وثورةً عند أبناء الشعب، تكاد تُشرِف على الانفجار! ذلك الانفجار العظيم الذي سيقطع أيدي الأجانب بإذن الله -تعالى- إلى الأبد، انفجار سيأخذ بثأر المظلومين من الشاه، ويُزيل سلالة البهلويّ المفضوحة من تاريخ إيران إلى الأبد، وسيزيل وصمة العار هذه».

عَدَّ الإمامُ قدس سره مجزرةَ تبريز من تدبير أمريكا والشاه، فأوصى أبناء الشعب بالحذر

من استغلال الانتهازيّين، كما أوصاهم بالتضامن والتلاحم، ونبّه إلى أنّ الشاه استخدم عباراتٍ واصطلاحاتٍ، مثل «الإسلاميّين الشيوعيّين»، ويريد بذلك إخماد جذوة الثورة، وشقّ الصفوف بين الشباب المسلم الثائر، فقال:

«يجب على كافّة الأحزاب والكتل السياسيّة، وسائر المثقّفين والمفكّرين، إعلامَ أبناء شعبنا بصراحة تامّة، وتنبيهَ شبابنا إلى أنّ ثورتنا إسلاميّةٌ محضة، وهدفها تحقيق العدالة التي رسمها لنا القرآن المجيد. وعليهم رصّ الصفوف، والاتّحاد مع العمّال وعلماء الدين والكتل الجماهيريّة؛ كي تذهب كافّة محاولات الشاه أدراج الرياح».

وفي اليوم الذي تلا صدور بيان الإمام قدّس سرّه، وأيضًا بمناسبة حلول أربعينيّة شهداء تبريز، أصدر «شريعتمَداري» بيانًا، ناشد فيه الجماهيرَ الالتزامَ بالهدوء وضبطَ النفس، أثناء مشاركتهم بمراسم الأربعين، وأوصى بالاحتراز من وقوع الحوادث التي قد تعود على المسلمين بالأذى والضرر. وكأنّ الجماهير هي التي كانت السبب في ما جرى في قمّ وتبريز من فجائع ومصائب، لا الزمرة الحاكِمة وقوى الشاه!

وقام العلماءُ وأهلُ العلم في قمّ وطهران ومشهد، بإصدار بياناتٍ تدعو إلى إحياء مراسم أربعين شهداء انتفاضة تبريز، ودعَت إلى إعلان الحداد العامّ في ذلك اليوم. وعلى إثر هذا، نشبَت مظاهراتٌ عديدةٌ في مدن مختلفة، كطهران، وآبادان، وآباده، وقزوين، وكاشان، وبابل، وتبريز، وجهرم، ويزد. في 30 آذار، حدثَت مجزرةٌ أخرى في يزد، وذلك بعد أن تمَّت مراسم إحياء الأربعين في «مسجد محمّديّة»، حيث خرج الناس من المسجد، متّجِهين إلى بيوتهم، وإذا بهم يواجهون الشرطة والجيش، وقد أُغلِقَت الطرق الرئيسيّة والفرعيّة في وجوههم، حيث جُوبِهُوا بنيران أسلحة قوّات الجيش والشرطة؛ ما أدّى إلى سقوط الكثير منهم مضرَّجين بدمائهم. واندلعت من هنا مظاهرةٌ عارمة، طافَت في شوارع المدينة، وداهمَت بنك «صادرات» ومقرّ حزب «رستاخيز»، وحطّموا تمثال الشاه في وسط المدينة. وأعقبَت هذه المسيرة مظاهراتٌ كبيرة، شهدَتها مدنٌ عدّة مختلفة، منها: كرمنشاه، أهواز، بابل، بانة، رضائيّة، نهاوند، همدان، شوشتر،

قمّ، سيرجان، شهريار، كرج، نجف آباد، وورامين، واستمرَّت لأيّام عدّة. هذا وقام السجناء السياسيّون المودَعون في سجنَي «قصر» و«قزل قلعة»، بالإضراب عن الطعام، يومَي 7 و9 نيسان 1978م.

إثر هذه العمليّات والانتفاضات المستمرّة، صمَّمَ النظامُ على اتّخاذ موقفٍ صارم لإخماد لهيب نار الثورة. فعمد إلى تهديد العديد من الشخصيّات السياسيّة، ودعا حزبُ «رستاخيز» الجماهيرَ «للتحرّك ضدّ أيّة عمليّة إخلال تمسّ الوطن»، وطالب بمحاكمة الغوغائيّين ومُفتَعِلي الشغب!

وقال أحدُ قادة الحزب، أثناء أحد الاجتماعات: «إنّ أوامرَ جلالة الشاه مستمدّةٌ من دستور الإسلام»! ثمّ أضاف بأنّ الثورة على «الغوغائيّين والمشاغبين» حاجةٌ ماسّةٌ وضروريّةٌ. وقام الحزب بإعداد مظاهرة مفتعلة مِن قِبَل أفراده ومُنتَمِيه في مدينة تبريز، وتكلّم بعدها رئيسُ الوزراء والأمين العامّ للحزب، وأكّد بأنّ الحزب سوف يواجِه أيَّ «ضوضاء وشغب وتسيُّب يساريّ أو يمينيّ». ثمّ أشارا خلال لقاء صحفيّ لهما، إلى أنّ «300 ألف مواطن آذربايجانيّ في تبريز بايعوا جلالة الشاه». وهكذا، استمرّ الحزبُ بإقامة مظاهرات مفتَعَلة أخرى في مُدُنٍ عدّة، أكّد من خلالها رفضَه الصارم للشغب والإخلال بالأمن، واتَّهم المنتفِضين بالخيانة والعمالة.

في 29 نيسان، وبمناسبة حلول أربعينيّة شهداء مجزرة يزد والمدن الأخرى، أرسل الإمام قدس سره بيانًا إلى الشعب الإيرانيّ، حيّا فيه أهالي يزد الأبطال، وسائر المدن التي أحيَت مراسم أربعينيّة شهداء انتفاضة تبريز بدمائها. وممّا جاء فيه:

«يا أهالي يزد، يا من انتفضتم وصرختم في وجه النظام، ورفعتم شعار «الموت للشاه»! إنّ الشاه وزمرته يدّعون أنّكم شرذمةٌ عبَرَت الحدود من خارج البلاد، ودخلَت إيران بصورة غير شرعيّة!... نحن أمام نظامٍ هذا هو منطقه... بإذنه -تعالى- لن نتراجع، ولن نتقهقر، وسنقف صامدين مناضلين، حتّى نُسقِط النظام الشاهنشاهيّ، ونعلن عن قيام حكومة العدل الإلهيّ. لا يمكننا الكفّ عن المقاومة، حتّى استئصال

جذور الحكم الملكيّ الرجعيّ، وإقامة الحكم الإسلاميّ العادل، حتّى تحلّ الحكومة الديمقراطيّة الحقيقيّة محلَّ الديكتاتوريّات وسفك الدماء... إنّ النظام الآن يعيش حالةً قصوى من الذعر والقلق؛ ولهذا عمد اليوم إلى إجراءات قمعيّة واسعة في أكثر المدن، وأخذ يهاجم الأحرار ويطاردهم، أينما كانوا، في السهول والوديان والجبال، مضافًا إلى فرضه الضرائب، التي لا تُطاق، على التجّار والكسَبة الذين شاركوا في الإضراب العامّ. لقد سُلِبَت اليوم حرّيّةُ الشعب الإيرانيّ، فلم يعد قادرًا حتّى على التنفّس!».

وهاجم الشاهَ مرّة أخرى، وعَدَّهُ النواةَ الأساسيّةَ لِما يَحدث من جرائم وانتهاكات، ودعا الشعب والكتل الجماهيريّة كافّة إلى فضح جرائمه وخياناته، وأكّد لهم بأنّ الحرّيّة لن تخيّم على البلاد، إلّا بزوال هذا الطاغية الخائن:

«ولنيل هذه الغاية الإنسانيّة والإسلاميّة، يجب على كافّة الطبقات أن تهبَّ في صفوفٍ موحَّدة، آخذةً بعين الاعتبار الظروف الزمانيّة والمكانيّة، وأن ترفع شعاراتها، وأن تتجنّب وضع الشعارات التي تؤدّي في النهاية إلى تثبيت دعائم الحكم الشاهنشاهيّ، وتَجاهُلِ الدماء التي سُفِكَت من غير حقٍّ، لأبناء هذا الوطن، وأن تصوِّب نحو هدفٍ واحد، هو الشاه، وأن تُسمع العالَم أصواتها، مستنكِرةً هذا الحكم الرجعيّ. وعلى الزعماء أن يوجِّهوا الشعب، ويدعموه في طريقه -فإنّه عرف العدوّ، وقام بثورته- وألّا يَحرِفوا الشعبَ عن طريقه الصحيح، الذي اختاره في هذه المرحلة الحسّاسة، بأعمالهم الخاطئة... على الأشخاص الذين يعلمون حالة هذا الشعب المظلوم منذ خمسين عامًا... أن يعلموا أن نَيلَ الحريّة يكمن في الإطاحة بالشاه وسلالته، فهو العدوّ الرئيس لهذا الشعب، وهو أساس المصائب، وافتراض نَيل الراحة لهذا الشعب، الذي خسر كلَّ شيءٍ على يديه، دون الإطاحة به والانتقام منه، وهمٌ باطلٌ».

لقد أصبحَت النهضةُ الإسلاميّة حديثَ الساحة العالَميّة والدوليّة، بعد أن تصاعد نشاطُها، وتوسَّعَت رقعتها؛ إثر أشهرٍ متعاقبة، تخلّلَتها مناسبات وأربعينيّات متعدّدة.

لقد وعى العالَم بأسره ما يجول في إيران، وأدرك بأنّ نهضة الشعب الإيرانيّ، يقودُها رجلٌ فذٌّ، وهو بعيدٌ عن أرضه وشعبه بآلاف الكيلومترات، يمدُّهم بالخطابات والبيانات المتتالية، فتفجّر نفوسهم، وتشعل الغضب بين أوساطِ الشعب، على الشاه ونظامه. من هنا، تسابقَت وكالاتُ الأنباء والصحفُ العالَميّة للمثول أمام هذه الشخصيّة الفريدة. بَيْدَ أنّها واجهَت إعراضًا وردًّا عنيفًا منه، ولم يستجب لطلباتها؛ لأنّه يراها وكالاتٍ تخدم الصهيونيّة العالَميّة والاستكبار العالميّ، واقتصر على إرسال خطاباته وبياناته وبثّها إلى شعبه، عبر طلّابه ومريديه وأفراده الموثوقين، الذين يتشكّل معظمُهم من علماء الدين، والطلبة الدينيّين، وزائري العتبات المقدّسة.

في أيّار 1978م، طلبَت صحيفة اللوموند الفرنسيّة إجراء مقابلة وحوار مع سماحة الإمام قدس سره. وبعد أن تأكّد ممّن يثق بهم، بأنّ الصحيفة المذكورة مستقلّة، وليست لها أيّة اتّجاهات عدوانيّة، أعطى إشارة الرضى، وتمّ اللقاء. وقد بلغ هذا اللقاء درجةً كبيرةً من الاهتمام، لدى الساحة الدوليّة والعالَميّة؛ فهو الأوّل من نوعِه، ولا بدّ من أنّه تطرّق إلى أبعاد مختلفة، لمعرفة الثورة وقائدها، وما ينعكس عن ذلك على العالَم الغربيّ، الذي شهد في صحفه صورًا عن المعارَضة، وعلى لسان زعيمها.

وكما عهدنا نمط أسئلة الصحف الغربيّة الصريحة والواضحة، وجدْنا الأجوبةَ الدقيقة والصريحة أيضًا، وارتأينا أن ننقل صورًا من هذا اللقاء الموسّع، نظرًا لأهمّيّته.

سأل الصحفيّ: لماذا تلتزمون الصمتَ أمام الصحفِ العالَميّة والدوليّة؟ أجاب قدس سره:

«إنّ الصحفَ العالَميّة، غالبًا ما تلتزم بالمظاهر، وتعتمد الرياء والمدح والإطراء والمبالغات، وإلى غير ذلك من الأمور الواهية، كمسألة «تخت جمشيد»، وتتويج الشاه، والاهتمام بالنفط ومصالح الاستكبار، ولم نَشهَدها يومًا تتعرّض لمحنة الشعب، ومصائبه، والضغوط المفروضة عليه. حسب مصادرنا، فإنّ الشاه يدفع، سنويًّا، مليون دولار للإعلام العالَميّ. ومن هنا، كنتُ، ولا أزال، متمسّكًا بتوجيه خطاباتي وبياناتي إلى الشعب الإيرانيّ مباشرةً، وعبر قنواتنا الخاصّة. قيل لي: بأنّ صحيفتكم مستقلّة،

وتعكس ما يواجهُه شعبُنا مِن حرمانٍ واضطهادٍ وقتلٍ وتعذيبٍ، وكلّي أملٌ بأن يعكس لقاؤنا هذا مبادئَ أمّتِنا المجيدة».

وعندما سُئِل عن سبب التفاف الشعب حوله، أكثر فأكثر، بعد استشهاد نجله السيّد مصطفى، أجاب موضحًا:

«من المؤكَّد أنّ الشعب يحبّ خادِميه، ويعتبرنا، أنا وكذلك ولدي، من خادِميه.... بَيْدَ أنّ الموضوع الأصليّ والرئيس لا يتمثّل في مقتل ولدي، القضية الرئيسة هي قيام أبناء الشعب، بأسره، وتمرّده على الظلمة، الذين يمارسون الظلم بحقِّه».

ثمّ أضاف:

«نحن نعارض الشاه كما عارضنا أباه من قبل، ونعارض هذه الأسرة بأجمعها؛ لأنّ الشعب يبغضها... الحكومة التي سنقيمها، لن تعرف معنى للسلطنة والهيمنة أبدًا، وهذا موضوعٌ خارجٌ عن قضّيتنا قطعًا... نهاية هدفنا هي إقامة الحكومة الإسلاميّة. وأهمّ ما لدينا الآن، هو إسقاط هذا النظام المغرور الخائن... حكومتنا ترجع إلى أساس وأيديولوجيّة واحدة، ومبادئ واحدة لا غير، تلك هي تعاليم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليّ عليه السلام إبّان حكومتهما... لقد كنتُ أحذّر الشعب دائمًا، وباستمرار، من كيد الظلمة، وأنبّهُه إلى أخذِ الحيطة والحذر من الرموز المشكوك بهم، كالشيوعيّين، وأدعوهم إلى رصّ الصفوف، والوقوف على مبدأ وهيئة واحدة، وأسلوب واحد... لن نقف أبدًا مع الماركسيّين، حتّى من أجل إسقاط الشاه. لقد حذّرت أتباعي من هذا الأمر مرارًا وتكرارًا؛ فإنّنا نفترق عن أولئك كثيرًا، في الأفكار والمفاهيم والعقائد والأهداف. نحن نعلم جيّدًا بأنّهم سيطعنوننا من الخلف، وإذا وصلوا إلى الحكم يومًا ما، فإنّهم سوف يعيدون الديكتاتوريّة مرّة أخرى، ويعارضون الإسلام وحقوقه من جديد. أمّا ما نرومه نحن، مِن حُكم واستقرار واستقلال، فهو خلاف ما يراه الشيوعيّون والماركسيّون. إنّهم أحرارٌ طلقاء في أقوالهم وإظهار مبادئهم وعقائدهم، ولكنّنا واثقون من أنّ الإسلام هو دينٌ يلبّي متطلّبات المجتمع كافّة، بمختلف صنوفه وألوانه، وأنّ إيماننا وعقائدنا متينةٌ وقويّةٌ، وتستطيع أن تفنّد أيّة أيديولوجيّة تقف أمامه».

ثمّ تطرّق إلى أسباب معارضته الشاه:

«إنّني أعارض الشاهَ وأحاربه؛ لأنّ سياسته سياسة عمالة عميلة للأجانب والقوى الأجنبيّة؛ وهذا ممّا يعرقل، بل يحطّم، تَقَدُّمَ شعبِنا. وحينما يزعم الشاه أنّه يأخذ إيران إلى مدارج (الحضارة الكبرى)، فإنّه يكذب. وتلك ألاعيب وحيل لا يريد منها سوى إذلال بلادِنا، وحرمانها من استقلالها... فإذا نجحنا في إسقاط نظامه، سنحاكمه على الأعمال المناهِضة للتقدُّم والازدهار الاقتصاديّ والثقافيّ للشعب، التي ارتكبها، وحينها سيطّلع العالَم، بأسره، على جرائمه».

ثمّ تطرّق إلى سياسة الشاه الاستعماريّة، والتي كثيرًا ما كان يتباهى بها:

«إن مشروع إصلاح الأراضي الذي كان يدعو له الشاه يستهدف على وجه التحديد إيجاد سوق للدول الأجنبية ولاسيما أميركا. أمّا إصلاح الأراضي الذي ندعوا إليه، فهو الذي يمكّن المزارع من الاستفادة من محصوله، ومعاقبة الاقطاعيين الذين عملوا خلافًا للقوانين الاسلامية... فهؤلاء أصبحوا أثرياء من جرّاء مخالفة أحكام الدين الإسلاميّ.

على العموم، إذا وصلنا إلى سدّة الحكم، سوف ننتزع الأراضي كافّة من هؤلاء الإقطاعيّين، وسنقسمها على مزارعيها والكادحين فيها. إنّنا نرفض كلّ خطوة اتّكاليّة تعتمد على الدول الأجنبيّة، ليس لها نتيجة سوى تجميع الآلات. نحن ندعو إلى ثورة صناعيّة مستقلّة، تعتمد على بلادها وشعبها، ومرتكزة على اقتصاد البلاد، ومُسخَّرة لخدمة الشعب، جنبًا إلى جنب، مع الزراعة والإنتاج. إنّ الشاه جعل من صناعتنا وزراعتنا، سوقًا تجاريّة مصرفيّة، للدول الاستعماريّة.

أمّا قضيّة المرأة والمجتمع؛ فالإسلام لم، ولن يخالف أيّة حرّيّة للمرأة. وعلى العكس تمامًا، فالإسلام يعارض معاملة المرأة كسلعة يتناولها أيٌّ شاء، كما يشاء. لقد منح الإسلامُ المرأةَ عزّةً وشرفًا، واعتبرها مساويةً للرجل في الحرّيّة والمعاملة... المرأة، كالرجل، حرّةٌ في اختيار مستقبلها ومهنتها وما يجول بذهنها. إنّه الشاه الذي سلب حرّيّةَ المرأة،

وأغرقها في بحور الضلال ووديان التيه. لقد سعى جاهدًا لسلب المرأة حرّيّتها، وهذا ما يعارضه الدين والإسلام. نحن نريد تحريرَ المرأة من خطر الفساد الذي يهدّدها».

كذلك لمّح الإمام قدس سره، خلال لقائه الصحفيّ هذا، إلى أهداف السياسة الأمريكيّة والإسرائيليّة، تجاه لبنان والوجود الشيعيّ فيه.

إنّ ما تطرّق إليه الإمام قدس سره من مبادئ وخطوط عريضة، للإطاحة بنظام الشاه، وتأسيس الحكومة الإسلاميّة -ناهيك عن ماهيّته- كان بالتحديد هو مطلب الشعب، بثورته وانتفاضته الإسلاميّة، مضافًا إلى أنّه كان يحظى بثوريّة جليّة وواضحة، فاقت ثورة كافّة الأحزاب السياسيّة وأهدافها آنذاك.

وعلى الرغم من أنّ الإمام قدس سره، في خطاباته وبياناته السابقة كلّها، كان يواصل إرشاداته وتوصياته بشأن الاحتراز من الرموز غير المؤهّلة، وكان يدعو المثقَّفين والطلبة الجامعيّين كافّة، إلى التقرُّب والاتّحاد مع إخوانهم طلبة العلوم الدينيّة وعلماء الدين، الذين كان لهم الباع الكبير في إضرام فتيل نار الثورة آنذاك، إلّا أنّ بعض الشخصيّات والكتل الإسلاميّة، ذات الجهاد المديد المتواصل، غفلَت عن نصائح الإمام قدس سره وعلماء الدين والأمّة الثائرة، ولم تُولِ اهتمامًا بدراسة الظروف السياسيّة والاجتماعيّة، فأعرَضوا عن تجارب الماضي، وراحوا يفكّرون بتأسيس «جبهة وطنيّة إسلاميّة»، مستغنيةً عن علماء الدين والحوزة.

وكما كان متوقَّعًا، أعرب الإمامُ قدس سره عن مخالفته ومعارضته لهذه الخطوة، وهاجم الفكرة من أصلها، في بيانه الذي وُجِّهَ يوم الثالث عشر من أيّار 1978م، والذي جاء فيه:

«من الخطأ أن تقف بعض التيّارات... يحاولون عزلَ موقفهم عن العلماء. هؤلاء لا يدرون، لا يعلمون أنّهم من دون العلماء، لا يساوون درهمًا واحدًا. وإذا لم تكن، وراء هذا الأمر، يدٌ تدفعُ هؤلاء لتسقيط العلماء في كتاباتهم، وإذا لم يكن المقصود بثّ الفرقة بين التيّارات المختلفة، وإشاعة الشرذمة، وإذا كان ناجمًا عن عدم الفهم،

وعدم الإدراك، وناجمًا عن هوى النفس، فليرتدع هؤلاء، وليُصلِحوا، ولتتّحد جميع التيّارات، وليكونوا منظَّمةً واحدة، حزبًا إلهيًّا واحدًا، قُبالة حزب «رستاخيز»، ليكوِّنوا معًا حزب الله».

ومع تفاعل نشاط الثورة، وتصاعدها وبلوغها مراحل سامية وعُليا، أخذ الإمامُ قدس سره يطرح أفكارَه التنظيميّة وتعليماته القياديّة، من أجل رصّ الصفوف والوحدة، ويؤكّد هذا بقوله:

«... الآن تعيش إيران غليان الثورة... يجب علينا العمل والتنظيم. يجب تعزيز الاتّصالات بين حوزات قمّ وطهران والمحافظات كافّة... هذه الثورة يجب أن تسير وفق نظامٍ وخطّةٍ موحَّدة؛ فإذا أُعلِنَ عن موقفٍ في قمّ، يجب أن تكون المحافظات كافّة على علمٍ به، لتنحو منحاه».

ويشير الإمامُ قدس سره إلى مخلّفات التشتُّتِ وعدمِ التنظيم، ويذكّر الجماهير بأحداث عام 62 -1963م، ويحلّلها من وجهة نظره وخبرته الطويلة:

«لقد سعيتُ إلى فرضِ منهجٍ موحّدٍ وعملٍ تنظيميٍّ، سابقًا في قمّ، لكنّ بعضهم حال دون ذلك -وأسأل الله هدايتهم-... طرحتُ فكرةَ الوحدة والانسجام، فإيران تشهد اعتصامًا في يومٍ واحدٍ، وآنٍ واحدٍ، وتشهد اجتماعًا واحدًا، وتكتّلًا واحدًا، في يومٍ واحدٍ، وآنٍ واحدٍ... كاجتماع رجال الدين والعلماء... إنّه تنظيمٌ وتنسيقٌ... لكنّهم عارضوا وخالفوا؛ لأنّهم لا يعقلون».

وتطرّق إلى وضع البلاد، سياسيًّا، وموقع الشاه في المرحلة الراهنة، مُشيرًا بقوله:

«أساس هذه الثورات، أساس هذه الانفجارات هو هذا السيّد [الشاه] نفسه... إذًا، فالتقصير منك أنت، ولا يمكنك أن تصلحه، وتوبتك غير مقبولة لدى الشعب... وتوبتُك لا تتحقّق إلّا بالموت».

«اضمحلال عائلة بهلويّ وسقوطها في الهوّة ليس شيئًا صعبًا... إنّ الشعب كان يراها ساقطةً ومنحطّةً منذ خمسين عامًا، إلّا أنّ حركةً حدثَت لدى الشعب الإيرانيّ

الآن، فالناس قد خرجوا في أكثر من ثلاثين مدينة في إيران، رفضًا لهذا الرجل، ونادوا: الموت للشاه!».

«لا تتصوّروا بأنّه إذا هوى وتحطّم فسوف يذوب كلُّ شيء؛ فعلى العكس، كلُّ شيءٍ سوف يكون بمكانه وبهدفه، ما لم تُطَهَّر إيران من مخلّفاته وآثاره كلّها...».

بعد أن اتّسعَت المعارضة والانتفاضة الشعبيّة ضدّ الشاه، عمدَت الدولُ الغربيّة إلى الدفاع عن الشاه، وتقديم الدعم له. ففي أواخر نيسان 1978م، زار رئيسُ ألمانيا الاتّحاديّة إيرانَ، وعزّز روابطه وعلاقاته مع إيران، على الصعيد الاقتصاديّ والسياسيّ. وأعقب ذلك، بعد يومَين، زيارة وزير الخارجيّة البريطانيّ، والتقى بالشاه، وأكّد على دور إيران في استقرار المنطقة وأمنها وثباتها. وبعدها بأيّام، زارَت «مارغريت تاتشر» زعيمة حزب المحافظين إيران. وفي الثامن من أيّار، التقى وزيرُ الدفاع الأمريكيّ بصحبة السفير الأمريكيّ لدى إيران، الشاه. وفي 17 أيّار، أعلن رئيسُ الوزراء البريطانيّ دعمَه له، مقابل تقديم صفقات السلاح إلى إيران. وفي اليوم ذاته، قدّمَت وزارةُ الدفاع الأمريكيّة لائحةَ صفقة سلاحٍ، تُقَدَّر بـ2.5 مليار دولار، إلى كلٍّ من إيران واليابان.

إنّ هذه الزيارات المتعدّدة لإيران، والتأكيد عليها بأنّها عامل الأمن والاستقرار في المنطقة، وتقديم المساعدات العسكريّة، لم تهدف إلّا لشيء واحد، هو دعم وجود الشاه سياسيًّا، وتوطيد أركانه. ففي لقاءات الشاه الصحفيّة، أكّد على أنّ حفظ العقيدة والدين، واستقلال البلاد، لا يتمّ إلّا بنظامه وسلطانه، وأكّد على تقيُّدِهِ والتزامه بالدين وبتعاليمه. وفي لقائه بالصحفيّين المحلّيّين، يوم 13 أيّار، أكّد على أنّ ما حدث أخيراً، من حوادث واضطرابات، أساسُها أناس وأفراد ليس للنظام أيّة صلة بهم، وأنّ هذا معارضٌ ومخالِفٌ لمظاهر التحضّر كافّة. ثمّ صوَّر أفكار الجماهير الثوريّة وأهدافها بالأفكار «المتطفِّلة والهمجيّة، وغير القابلة للتصوُّر». ثمّ هاجم المناضِلين السياسيّين، ووصفهم بـ«الانقساميّين» و«السياسيّين المُخفِقين»، وأنّهم من الكتل المنحطّة؛ وعلى العكس، وَصَفَ نفسَه بأنّه رجلٌ متديِّنٌ وملتزمٌ، وأنّ خطواته كافّة مستمَدّة من

«تجاربه الدينيّة»! وأكّد على دور الإسلام في بناء البلاد وإشادتها. ثمّ أشار إلى أنّ هدف الإمام وعلماء الدين هو الإطاحة بالدين، وأنّ أهدافهم «مخالِفة للشريعة والدين والوحدانيّة». ثمّ تطرّق إلى مفهومَي «السلطنة» و«الوطنيّة»، وميّز وفرّق بينهما. وأكّد على أنّ حُبَّ الوطن يحتاج إلى نضال ذي اتّجاهَين، وإلّا «فسيكون مصيرنا الهلاك، ولن يعود لإيران ذِكرٌ بعد».

ومن المضحك والمدهش أنّ الشاه، وخلال افتراءاته واتّهاماته للإمام وعلماء الدين والجماهير الثوريّة بالانقياد للشيوعيّين، وتأكيده على عدم الاهتمام والاكتراث بما جرى من مظاهرات ومسيرات، قام «مكتب المخابرات الخاصّ» بإرسال تقرير خاصّ إليه، يُعلِمُه فيه بأنّ طهران وعددًا من المحافظات، تشهد توتُّرًا خطيرًا وشديدًا مِن قِبل الشعب، وأنّ قوى الشرطة والدرك والجيش على شفا الانهيار؛ بسبب المواجهة المستمرّة. وأشار التقريرُ إلى أنّ عددًا من الضبّاط والمسلَّحين التحقوا بالمتظاهِرين.

إنّ تصريحات الشاه وعباراته، وإن كانت السفارة الأمريكيّة تفسّرها بالضعف والوهن والتزلزل، فإنّها لا تعبّر إلّا عن ميله للحوار مع الجناح الدينيّ المعتدل، وهذا ما رآه أيضًا كثيرٌ من السياسيّين المحترِفين. من هنا، استمرَّت الاتّصالات بين الشاه و«شريعتمداري» من جهة، ومع حركة تحرير إيران (السياسيّة الدينيّة ذات النضال المديد) من جهة أخرى؛ وذلك للتنسيق مع السفارة الأمريكيّة؛ من أجل الهيمنة على الثورة الإسلاميّة. [كان هذا استنادًا على ما ورد في إحدى وثائق السفارة الأمريكيّة؛ فلقد كان يتمّ على الأقلّ، لقاءان في الأسبوع، بين مبعوثَي الشاه و«شريعتمداري»][1]. وفي أحد هذه اللقاءات، والذي تمّ في أيّار 1978م، أكّد «شريعتمداري» للشاه، بأنّه أرسل برقيّةً إلى الإمام قدس سره، يُعلِمه بعدم التعاون والتحاور معه؛ لأنّه وقف ضدّ الشاه، وجهًا لوجه. وبهذا، صرّح «شريعتمداري» عن مدى وفائه وإخلاصه للشاه. وعلى العموم، فقد أعلن هذا أمام الشاه؛ ليحصل على ترخيص ترشيح رجال الدين

(1) كتاب «صفحات من تاريخ الثورة الإسلاميّة»، إصدار العلاقات العامّة لوزارة الأمن، طهران، عام 1989م.

لعضويّة البرلمان في دورته القادمة، ولئلّا يقتصر الترشيح على منتمي حزب «رستاخيز» فقط. ثمّ هدّد الشاهَ بالمعارضة والوقوف ضدّه، فيما إذا لم يسمح بالترشيح إلّا لأعضاء الحزب. وبعد أن درس الشاهُ مطالب «شريعتمداري»، وافق عليها، بَيْدَ أنّه أرجأ ذلك إلى زمن آخر مناسب.

ومع اتّساع رقعة الانتفاضة الشعبيّة العارمة، بقيادة سماحة الإمام الخمينيّ قدس سره، ارتأت حركة تحرير إيران استغلالَ الوضع لصالحها، لتركب موجة الانتفاضة، وتستخلفها أخيرًا لأهدافها، وذلك عبر اندماجها بالانتفاضة، ودعم نداءات الإمام قدس سره وعلماء الدين، وإرشاداتهم وتعاليمهم، وتأييدها. إنّ حركة تحرير إيران ترى لنظام الشاه قاعدتَين: الأولى، الجور والاستبداد والاضطهاد، وهذا ما كان متلاشيًا ومتزلزلًا إثر انتفاضة الشعب العظيمة. والثانية، الدعم والإمداد الخارجيّ، وبالتحديد من أمريكا.

إذًا، كان لا بدّ -من وجهة نظر الحركة هذه- من توطيد علاقاتها مع الأمريكيّين، عبر قناة سفارتهم في طهران، وذلك للأسباب الآتية:

أوّلًا: إقناع أمريكا بأنّ نظام الشاه زائل، لا محالة، ويجب عدم مساندته من بعد.

ثانيًا: إقناع أمريكا بأنّ النهضةَ إسلاميّةٌ، ولها جذور وقواعد اجتماعيّة واسعة.

ثالثًا: جعل الأمريكيّين أمام الأمر الواقع، تجاه الوطنيّين، إذ إنّ الوطنيّين ليسَت لهم أيّة علاقات بالانتفاضة الشعبيّة، وأنّ للجبهة الوطنيّة أهدافًا وطنيّة بحتة، وعلى أمريكا ألّا تعير أيّ اهتمام لها، وأن لا تأخذها بعين الاعتبار، حيال الحكم القادم في إيران.

رابعًا: إنّ التجمُّع السياسيّ الدينيّ الوحيد في إيران، هو حركة تحرير إيران، تلك الحركة التي تحظى بتأييدٍ ودعمٍ اجتماعيّ وشعبيّ كبير؛ نتيجة ميولها وعلاقاتها برجال الدين، والاتّجاه الدينيّ.

خامسًا: إنّ الحركة لا تهدف إلى ثورة جذريّة ومباغِتة، وتؤكّد إخلاصَها للدستور والسلطنة، فهي خير قوّة بديلة للشاه، وخير قوّة خليفة لأمريكا، تحلّ محلّ الشاه. وفي ذلك الحين، ستكون النهضة الإسلاميّة ذات علائق جيّدة مع أمريكا.

وأكّد قادةُ حركة تحرير إيران هذا المعنى جيّدًا، بوضوح، للسياسيّين المعنيّين في السفارة الأمريكيّة، خلال لقائهم في 25 و30 أيّار 1978م، حيث أكّدوا ذلك بقولهم: «لو أبدى الشاه استعدادًا، ووافق على العمل بموادّ الدستور كافّة، دون استثناء، عندها سنوافق على سلطنته». هذا وأبلغوا مدير الشؤون السياسيّة للسفارة، بأنّهم «قادرون على الإمساك بزمام الأمور، والمحافظة عليها، فيما إذا حصل ائتلافٌ بينهم وبين الزعماء الدينيّين». بَيْدَ أنّ هذا المدير شكّك في صحّة ما يدّعون.

على أيّة حال، نرجع مرّةً أخرى إلى الشاه، متتبِّعين سياسته، التي تنطوي على المراوغة، تجنُّبًا لغضب الشعب. قام الشاهُ، برفقة زوجته، بزيارة مرقد الإمام الرضا عليه السلام بمشهد، يوم 28 أيّار، فألقى خطابًا، جاء فيه: «إنّ ديننا ومقدّساتنا مرهونان بحفظ استقلال بلدنا وأَمنِه. وإنّني أخشى أن يمسّ استقلالنا بعض الضرر؛ لأنّ ذلك سوف ينعكس على ديننا وإسلامنا... وإذا أصاب الثورة البيضاء ضررٌ ما، فإنّ إيران ستشهد حوادث أيلول 1941م مرةً أخرى».

وفي لقاء صحفيّ له، أشار إلى حوادث الأشهر الأخيرة، وأكّد مهدِّدًا: «إنّ ما حدث من أعمال شغب وغيرها، إذا استمرَّت أعمال الشغب هذه، وتوسّعَت، فإنّ بلادنا قد تقع بيد الكتل العميلة [كالشيوعيّين]، لا بِيد رجال الدين». وراح كبار المسؤولين وأعضاء حزب «رستاخيز» يعزفون على هذا الوتر، فراح بعضهم يعدّد فوائد الإسلام لإيران، وكيف أدّى إلى رقيّ الأمم وتطوّرها وتقدّمها، وتطرّق آخرون إلى تخلُّف الأمم التي لم تتمسّك بالعقيدة السمحاء، أو لا تدين بدينٍ ما، ووصفوا المتظاهرين والثائرين بـ«المشاغبين» و«الإرهابيّين» و«اللادينيّين».

وعلى ضوء هذه السياسة الرهيبة، سلك النظامُ أساليب شتّى لقمع المعارضة، فمثلًا، قام بتفجير منازل عدّة من بيوت السياسيّين، فيما هاجم عددًا من المناوئين له مباشرةً؛ وذلك لتعزيز مكانتهم في الوسط الاجتماعيّ العامّ. وقام النظام أيضًا بالقضاء على عشرات الطلبة الجامعيّين المعارِضين، حين كانوا في رحلة ترفيهيّة، يتسلّقون الجبال

ويؤدّون بعض النشاطات الرياضيّة، وداهموا بيوتات المراجع والعلماء في قمّ. وعلى الرغم من هذه المحاولات المرعبة والمتعدّدة، شهدَت العاصمة وبعض المحافظات، مسيراتٍ وتظاهراتٍ عارمة؛ وعلى إثرها، تعرّض العديدُ من بنوك «صادرات»، ومقرّات حزب «رستاخيز»، ودُور السينما، والبارات، لهجوم المتظاهرين، حيث كانت بؤرًا للفساد.

قُبَيل حلول يوم الخامس من حزيران، واستنادًا لما اتُّفِق عليه بين «شريعتمداري» واللجنة التنفيذيّة لحقوق الإنسان، أُعلِن عن جعل هذا اليوم عطلةً رسميّةً عامّة، لسحب بساط القيادة من تحت أقدام الإمام قدس سره، وكسب الشعب والجماهير إلى جانبهم. وفي 31 أيّار، ألقى الإمام قدس سره خطابًا بمناسبة قرب هذه الذكرى المجيدة، وسرعان ما انتشر هذا الخطاب في أرجاء البلاد، حيث تطرّق الإمام قدس سره في خطابه هذا إلى أعمال الشاه المرائية، وخططه الخادعة والماكرة، باسم الدين والتديّن. وأكّد على عدم اهتمام الشاه بالدستور، وأكّد استهانته بالثقافة والجيش و...، وعدّد مساوئ ثورته البيضاء، وانتقد، بعنفٍ، ما يدّعيه من «منح حرّيّات»، وقال:

«ما هذا الذي يجري في إيران؟ ما هذه الحرّيّة التي يُطَبَّل لها؟ هل الحرّيّة شيءٌ ما كي يُمنَح ويُعطى؟ إنّ هذا التعبير بذاته جرمٌ وذنبٌ... الله هو الذي منح الحرّيّة للإنسان، الإسلام هو الذي منح الحرّيّة للإنسان. هل الدستور هو الذي يمنح الحرّيّة، وأنت وضعتَ بنودَه؟ وما شأنك أنت بهذا الموضوع؟... أهذه هي الحرّيّة... هذا كلّه من أجل تضليل الجماهير».

وقد أكّد الإمام قدس سره، بخطابه هذا، على رصّ الصفوف، وتنظيم الأجنحة السياسيّة كافّة، ويقول:

«على زعماء الأجنحة هذه، تنظيم نشاطاتهم، وتبادل معلوماتهم بسرّيّة كاملة... كي يتمّ التنسيق والتلاحم؛ فالكلّ يشرع بتنفيذ عمل ما، والكلّ ينسحب في آنٍ واحد... وفي وقتٍ واحد».

«يجب توسيع الاتّصالات وتمتينها، بين الأحزاب والجيش وعلماء الدين و... يجب التنسيق والعمل المنظَّم؛ من أجل الإطاحة بهذا الرجل».

بعد ذلك، أبدى الإمام قدس سره امتنانَه، وقدَّمَ شكرَه، وأثنى على الكُتّاب والخطباء كافّة، الذين جاهدوا وناضلوا وفضحوا جرائم الشاه وانتهاكاته. وممّا جاء في خطابه أيضًا:

«الآن وبهذا الوقت العصيب، وبوجود الخطر، لدينا الكثير من الفضلاء والمدرِّسين في الحوزة العلميّة في قمّ، يحرّرون وينشرون الانتهاكات والجرائم كافّة... وكذلك... لدينا فرق حزبيّة وسياسيّة... تكتب وتنشر وتعلن، بجرأة وشهامة، في حين أنّهم يتعرّضون لشتّى أنواع الإهانات والأخطار».

ثمّ تطرّق إلى وجود رموز منحرفة وضالّة واستغلاليّة، بين هذه الصفوف، فحذّر قائلًا:

«يوجد بين أفراد هذه الأجنحة السياسيّة، أحيانًا، بعض الرموز العميلة، تهدف من خلال بياناتها وكتاباتها إلى تبرئة الشاه من كلّ ما حدث ويحدث، وتنسبه إلى آخرين أدنى مستوى، كالحكومة مثلًا، ويتمنّى النظامُ أن يكتب هؤلاء مثل هذه الكتابات، ويتّهموا الحكومة وكبار المسؤولين، دون المساس بالشاه، يتمنّون عدم توجيه اتّهاماتهم لصاحب الجلالة، المجرم الأوّل، والمسبّب الأوّل...».

ويردّ الإمامُ قدس سره على ما يُدْعَى بالمفاوضة، بأنواعها وأنماطها كلّها، ويطالب الجماهير بطرد الشاه إلى خارج البلاد، ويقول:

«إنّ أمّة الإسلام، وأمّة إيران، لم ولن تتفاوض مع هذا الرجل مطلقًا. كلُّ مَن ينادي بالمفاوضة هو خائنٌ وعميلٌ. وإنّ ما نادَت به بعضُ الأحزاب، فيما يتعلّق بتطبيق الدستور، ما هو في الحقيقة، إلّا دعوة لتثبيت أقدام الشاه، وهذه هي الخيانة بذاتها. يجب على دُعاة تطبيق الدستور[1]، أن يعيدوا النظر بقوانينه، التي فُرِضَت بحدّ

(1) يقصد «شريعتمداري»، والأحزاب السياسيّة؛ الجبهة الوطنيّة، حركة تحرير إيران، لجنة الدفاع عن الحقوق الإنسان.

السلاح والقوّة... وكما قال أحد كبار السياسيّين، إنّ الإيرانيّين[1] أمام طريقَين اثنين: إمّا الحرّيّة، وإمّا هذا [الشاه]... ولأنّ الشعب سوف يختار الحرّيّة، سيطرد هذا، بعون الله -تعالى-».

ثمّ أشار إلى واجبه الدينيّ، وواجب الأمّة بأكملها، تجاه نظام الشاه، قائلًا:

«**واجبنا الدينيّ، اليوم، هو الثورة على الشاه: ثورة شاملة، ثورة بالقلم، ثورة بالسلاح. عند حصولنا على أوّل بندقيّة، أتقدّم أنا، بنفسي، أوّلًا، حاملًا بندقيّتي. وإن عجزتُ، فأثور بخطاباتي وبكلامي...».**

وأخيرًا، حيّا ذكرى الخامس من حزيران، ودعا الشعبَ للثورة والانتفاضة بوجه النظام، بمناسبة مرور ذكرى الانتفاضة العارمة... وقال:

«**على أمّتنا عدم إهمال ذكرى الخامس من حزيران... هذه الذكرى يجب أن تبقى حيّة دائمًا، تلك جريمة يجب أن تبقى آثارها... على شعب إيران أن لا ينسى جرائم الشاه، منذ الخامس من حزيران، إلى الآن، كما يجب ألّا ينسى جرائم أبيه من قبل. يجب أن تبقى هذه الجرائم حيّةً؛ كي تكون رمزًا لنهجنا وفكرنا الجهاديّ ضدّهم. يجب على المعنيّين والكبار وعيُ هذه الحقيقة. على الشعب، اليوم، إحياء هذه الذكرى المجيدة وحفظها، إمّا بالمظاهرات، أو المسيرات، أو الهتافات. وعند عدم الاستطاعة، عليهم بمقاومة النظام سلبيًّا، والتزام بيوتهم ومساكنهم، وترك أعمالهم ومشاغلهم».**

على الرغم من أنّ الإمام قدس سره حرّض الجماهير على التظاهرات واستمرار الثورة، إلّا أنّه اقترح التزام البيوت أيضًا؛ لأنّه كان ينظر نظرةً بعيدةً، حيث دعا «شريعتمداري» وبعضُ الأحزاب والتكتّلات، قبله، إلى الهدوء، وإعلان العطلة في يوم الخامس من حزيران. فبعد أن انتشر خطاب الإمام قدس سره هذا، لاقى دعمًا من الأوساط السياسيّة المعارِضة كافّة، بإعلانها عن تأييدها لاقتراح الإمام قدس سره، مضافًا إلى دعم التكتّلات

(1) المهندس «مهدي بازركان».

والشخصيّات الأخرى، إلّا أنّ النظام صمّم على مجابهة هذا الأمر. ففي الثالث من حزيران، دعا رئيسُ الوزراء الشعبَ إلى ممارسة أعمالهم ومشاغلهم، وعدم التعطيل عن العمل، دون أيّ خوف أو اضطراب.

وبالفعل، شهدَت الكثيرُ من مدن إيران عدم التجوّل، وتعطيل الأسواق والمتاجر، بينما شهدَت مختلف جامعات البلاد تظاهراتٍ واسعةً. ومع هذا كلّه، صرّح أحدُ المسؤولين في اليوم التالي، قائلًا: «إنّ شعب إيران أهمل كافّة الشائعات يوم أمس»! وإن دلّ هذا التصريح على شيء، فإنّما يدلّ على مدى خشية النظام واضطرابه من الأوضاع المتأزّمة.

وكالعادة، أراد الشاهُ أن يعلن، للرأي العامّ، عن عدم علمه بما جرى ويجري من الكوارث والملمّات التي عصفَت بالشعب، فقام يوم السادس من حزيران، بعزل رئيس المخابرات والأمن العامّ[1] (السافاك)، مدّعيًا بأنّه اقترف جرم عدم رفع التقارير والإفادات الهامّة له، ولم يُطلِعه على كلّ ما جرى ويجري.

وفي اليوم التالي، دعا الشاهُ مؤيّديه وجلاوزتَه إلى الوقوف بوجه أيّة «حركة غوغائيّة»، وأكّد أيضًا على «منح الحرّيّة»، وممارستها ضمن إطار القانون. أمّا الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ، ففي العاشر من حزيران، أصدر بيانًا بمناسبة أربعينيّة شهداء قمّ والمدن الأخرى، تعرّض خلاله إلى وضعيّة الشاه السياسيّة، قائلًا:

«إنّ الشاه الآن واقفٌ على جُرُفٍ هارٍ. فمن جهة، يرى الشعبَ ثائرًا عليه بقواه كلّها، ومصمِّمًا على استعادة حرّيّته وكرامته، التي لا تتأتّى إلّا بانهياره وسقوطه، ومن جهة أخرى، فالعالَم اليوم يشهد جرائمه وانتهاكاته كافّة، عبر وسائل الإعلام العالميّة، ويعيش حالةً من الذعر والخوف على مصيره الذي ينتظره، سواء كان من قِبل الشعب، أو مِن قِبَل أسياده الذين سيُعرِضون عنه. ومن جهة أخرى أيضًا، يشهد

(1) الفريق «نعمة الله نصيري»، تمّ إلقاء القبض عليه بعد انتصار الثورة الإسلاميّة، وقد حكمَت عليه محكمةُ الثورة بالإعدام.

نظامُه زعزعةً وانهيارًا، بانهيار ثورته البيضاء الأمريكيّة، مضافًا إلى افتضاح أمر حزبه الشكليّ والصوريّ، وأخيرًا، معارضة كبار عمداء الجيش والعسكريّين لارتكاب المجازر والخيانات والعمالة».

وأخيرًا، أشار إلى خداع النظام وألاعيبه واتّهاماته الأخيرة، وكشف النقاب عنها بقوله:

«... نرى أنّ الشاه يحاول تبرئة نفسه ممّا ارتكب من مجازر وجرائم طيلة سلطنته وهيمنته، ويُحمِّل مسؤوليّةَ ذلك كلّه للمسؤولين وكبار رجال الدولة... ودليل ذلك محاولتُه تغيير بعض عناصره وأعوانه. إنّه يخادع ويراوغ، بتغيير وسائل الإجرام وآلاته، متغافِلًا عن مصدر الإجرام وأساسه. فالأمّة الواعية لن تُخدَع بأساليبه هذه، ولن تنسى المجرم الأوّل... فتارةً يصف معارِضيه بأنّهم أشخاصٌ يريدون تقسيم البلاد، أو تسليط الاستعمار عليها... وتارةً يهدّد الشعبَ بخطر الشيوعيّة؛ إذ بذهابه واعتزاله الحكم، سوف تهيمن هذه الفئة. ولعلّ بعض السذّج خُدِعوا بأحابيله، وتناسوا أنّ الاشتراكيّة والشيوعيّة ما وُجِدَت في إيران إلّا عن طريق الأمريكيّين أنفسهم، كما أوجدَت بريطانيا حزب «توده» الشيوعيّ. وقد زعم الخبراءُ والمتخصِّصون، أنّ جلّ المتحمّسين للفكر الشيوعيّ في المنطقة، هم من عملاء أمريكا، أولئك يسعون لمحاربة النهضات الوطنيّة والدينيّة، عبر الاشتراكيّة تلك، التي شهدنا تجربتها بأعيننا في السنين الأخيرة، والشيوعيّة في العراق خير شاهد على ذلك».

إنّ الإمام قدس سره سبق أن علم ببعض المفاوضات والتنازلات للشاه، مِن قِبَل بعض الأطراف الدينيّة. وخلال بيانه هذا، أكّد مرّةً أخرى على عدم خوض أيّ مفاوضات مع الشاه، مصرًّا على النضال والجهاد ضدّه، ودعا الجماهير إلى مراقبة الأوضاع؛ لاحتمال حدوث بعض المفاوضات من قِبل بعض الأشخاص، وقال مؤكّدًا:

«... لن يتفاوض أيُّ عالِم دينٍ مع النظام الجائر والعدوّ اللدود للدين والإسلام، فذلك إدبارٌ عن القرآن، ومخالفةٌ للإسلام والعقيدة، كما هو إعراضٌ عن أمّتنا المجيدة والواعية... أمّتُنا اليوم، تمدّ بصرَها، لترى الأطراف التي قد تُخدَع بمكر النظام الذي

سلبها كلّ شيء، ولترى كلَّ مَن يمدّ يده للمفاوضة والمصالحة؛ بغية الوصول إلى مآربه، أو تحقيق بعض المكاسب والمصالح الشخصيّة...».

ولقد صادف الأسبوع الأوّل من تمّوز، ذكرى وفاة الدكتور «عليّ شريعتي»، فأُقِيمَت عدّة مجالس تأبينيّة له، في كلٍّ من طهران ومشهد وناحية كرج. وقد ألقى الخطباء والمتكلّمون خطاباتهم وكلماتهم، التي أشادَت بنشاطات الدكتور «شريعتي» العلميّة والثقافيّة والاجتماعيّة، وتطرّقوا، من خلالها، إلى فضح جرائم النظام، ومهاجمته.

واستمرّ النظامُ بإعطاء الوعود بمنح الحرّيّة، وفتح باب النشاط السياسيّ، عبر قناة حزب «رستاخيز»، في الوقت الذي كانت البلاد تشهد فيه مجازر وقمعًا وإرهابًا شديدًا من قِبَله.

وقد صرّح وزيرُ الإعلام قائلًا: إنّ كافّة النشاطات السياسيّة في البلاد، تمرّ عبر قناة الحزب، فقط، لا غير. وقال أحدُ مسؤولي الحزب: «إنّ الديمقراطيّة، في إيران، يجب أن تكون تحت ظلال حزب «رستاخيز»». ومع تقليص المظاهرات، وفرض الهدوء النسبيّ والمؤقَّت، أعلن رئيسُ الوزراء، أثناء لقاء صحفيّ، قائلًا: «إنّ ما حدث من غوغاء وشغب في إيران، انتهى، ولن يعود أبدًا». كذلك، صرّح الشاهُ بغرور شديد، يوم 26 حزيران، أثناء لقائه بمراسل صحيفة «أخبار أمريكا والعالم»، قائلًا: «ليس هناك مَن يستطيع إسقاطنا والإطاحة بنا؛ لأنّنا نحظى بتأييدٍ عارمٍ، مِن قِبَل العمّال وأكثريّة الشعب، مضافًا إلى امتلاكنا 700 ألف عسكريّ متأهّب».

وعندما واجه حزب «رستاخيز» ردًّا عنيفًا من قِبل سماحة الإمام قدس سره، ومعارضته من قِبَل الأحزاب والاتّجاهات السياسيّة الأخرى، صمّم الشاهُ على منح حرّيّاتٍ أوسع، وفَتحِ مجالٍ سياسيٍّ أكبر، ولمَّحَ بالموافقة على تأسيس الأحزاب، والانتخابات الحرّة، إذ قال: «يجب على الحزب والبرلمان تطبيق الديمقراطيّة، بكامل ما تتضمّنه من معنى». وأعقبه وزير الإعلام، الذي كان متشدّدًا تجاه أيّة حركة، ليؤكّد على فسح مجالٍ للنشاطات السياسيّة، ولكن عبر قناة الحزب، فأخذ يفسّر ويحلّل تصريح الشاه،

ويقول: «إنّ الحكومة مستعدّةٌ لاستقطاب وحمل كافّة القوى المعارضة الخارجة عن نطاق الحزب». وباقتراب شهر شعبان المبارك، شهر الأفراح والأعياد الإسلاميّة، التي تشهد سنويًّا احتفالات واسعة وكبيرة، استغلّ الإمامُ قدّس سرّه هذه الفرصة، ودعا الشعبَ إلى عدم إقامة الحفلات والأعياد ليلَتَي الثالث والنصف من شعبان؛ فإنّ ذلك ما سيدعونا إلى نسيان آلامنا ومصائبنا جرّاء جرائم الشاه بحقّنا، وألقى خطابًا جاء فيه:

«**لقد طلبوا منّي بيان رأيي وإيضاحه، حول إقامة حفلات الفرح في مناسبات شهر شعبان، تكرارًا ومرارًا. ومع شديد الأسف، لم يُبقِ لنا هذا النظامُ الجائر أعيادًا وأفراحًا... على أمّة إيران أن تعلم وتعي سياسة النظام، فلقد مَدَّ يده لنا في أواسط هذه المناسبات، وأخذ يحثُّ ويشجّع عليها؛ من أجل حرف اتّجاه المسيرة المباركة إلى اتّجاهٍ آخر؛ إذ بذلك، سوف تكون ثورتنا ونهضتنا خاسرةً ومشلولةً -لا سمح الله- وستذهب دماء شهدائنا هدرًا عندها**».

ثمّ تطرّق إلى انخداع بعض الاتّجاهات الدينيّة بسياسة الشاه:

«**أمّتُنا المجيدة الواعية عرفَت طريقَها ومسارَها، ولن تميل إلى أيّ اتّجاهٍ شيطانيّ، مهما حمل اسم القرآن أو المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه الشريف. عيدُنا سيكون في تدمير كيان الظلم والظلمة، ودحر النظام البهلويّ، وإجلائه عن إيران، وإنّه لقريبٌ، بإذنه -تعالى-، وهو عيدٌ إسلاميٌّ، وعيدٌ لوليّ الأمر عجّل الله فرجه الشريف**».

وفي ختام بيانه هذا، طالب الإمامُ قدّس سرّه الشعبَ بالمشاركة والاجتماع في المساجد والمحافل الدينيّة، «**دون التعرُّض لذكر أيّة بهجة وفرح وسرور**»، ودعاهم إلى إعلان مصائبهم وابتلاءاتهم وأحزانهم، وإيصالها إلى عامّة الشعب، وأوصاهم بفضح النظام أكثر فأكثر، وعدم الخشية من إبليس وجنوده.

وحسب ما كشف عنه مندوبُ الشاه لدى «شريعتمداري»، لمسؤول العلاقات السياسيّة في السفارة الأمريكيّة، جاء: إنّ الشاه غضب كثيرًا عندما واجَهَ سكوت «شريعتمداري» تجاه دعوة الإمام الشعب بالامتناع عن إقامة الحفلات والأفراح.

ويجب التنويه هنا، وكما أكّد على ذلك مندوب الشاه، أنّ «شريعتمداري» بسكوته هذا، لم يكن يهدف إلى معارضة الشاه، ولم يكن مؤيِّدًا لخطوات الإمام، وإنّما سكت عن ذلك، حفاظًا على مركزيّته ومكانته الاجتماعيّة. وبنظر هذا المندوب حول سكوت «شريعمتداري»: «إنّه لا يستطيع أن يخطو خطوةً معارضةً علنيّةً، في مجالٍ يواجهُ [الإمام] الخمينيّ».

وبعد أن أحسّ الشاهُ بإخفاق «شريعتمداري» أمامَ الإمام الخمينيّ قدس سره، شكّل في يوم الخامس عشر من شعبان نفسه، واليوم التالي له، جلساتٍ سرّيّة مع كلٍّ من رئيس المكتب الخاصّ للمخابرات، ورئيس المخابرات العامّة. وبعد أن عبّر لهم عن قلقه إزاء اتّساع رقعة المظاهرات، إثر دعوة الإمام الشعب، أمرَهم بمجابهة المتظاهِرين، وفتح النيران عليهم، دون أيّ رادع ومانع.

لقد سعى نظامُ الشاه إلى إقامة الاحتفالات؛ من أجل دحض خطى الإمام قدس سره، والتقليل من أهمّيّتها، والاستهانة بها. ولهذا، قامت صُحف النظام، يوم العاشر من تمّوز، بعرض إعلانات، وطرح عبارات، تدّعي فيها: «أنّ ذكرى الثالث من شعبان، يوم مولد الإمام الثالث من أئمّة الشيعة، شهدَت البلادُ لها احتفالات كبيرة ومهيبة وعظمى»، «البلاط الملكيّ شهد احتفالًا عظيمًا، بمناسبة مولد الإمام الحسين عليه السلام، حيث لم يُشهَد له مثيلًا في الماضي!».

وعَودًا على سياسة النظام الانفتاحيّة، والانتخابات الحرّة، التي أُعلِن عنها قُبَيل أيّامٍ من هذه المناسبة، نرى أنّ رئيس الوزراء، بعد أن ادّعى انتهاء التظاهرات إلى الأبد، صرّح قائلًا: «يجب أن نفسح لمجال للنشاط السياسيّ الحرّ، ونوفّر المناخ الحرّ للتظاهرات». وبناءً على هذا، قام بعضُ نوّاب البرلمان بمعارضة النظام، وتوجيه الانتقادات للمسؤولين، في حين أنّهم كانوا، لسنين مديدة، صامتين على انتهاكات الشاه، وجرائمه كلّها، وإذا بهم اليوم أصبحوا معارِضين ومندِّدين بالحكومة، لا بالشاه؛ وهذا من أجل تضليل الرأي العامّ، وصَرفِ أنظاره عن الشاه وتصرّفاته، وإبعاده عن هدفه

الأوّل والأخير، وهو إسقاط الشاه ونظامه المجرم. فحاولوا إشغال الشعب، وإلهاءه بأمور عديدة، من ضمنها تلك المناقشات الصوريّة، والطروحات الشكليّة.

واستمرارًا لسياسة النظام القمعيّة هذه، أُعلِنَ عن محاكمة أحد كبار المستثمرين البهائيّين، بتهمة عدم الانصياع لآراء المحكمة والمثول أمامها. وقد انتهزَت الجمعيّة الإيرانيّة للدفاع عن حرّيّة الإنسان وحقوقه، فرصةَ حرّيّة الأجواء السياسيّة، فأجرَت لقاءً صحفيًّا مع عددٍ من الصحفيّين الإيرانيّين والأجانب، بتاريخ 1978/7/11م. فأشار ممثّلُ الجمعيّة إلى بعض الجرائم والأعمال اللاإنسانيّة التي قام بها النظام، وأضاف: «إنّ تصريحات المسؤولين وغير المسؤولين، وخطواتهم، تشير إلى أنّ النظام الجائر وقواه الحاكمة ليس مستعدًّا لتلبية أيّة طلبات شعبيّة ودستوريّة».

وتزامنًا مع سياسة النظام القمعيّة، وعبر الحكومة والبرلمان، تصاعدَت مدّة القمع والجور والاضطهاد. ففي 23 تمّوز، هاجمَت القوّاتُ المسلّحة مدرسةَ «**نوّاب**» الدينيّة في مشهد، واعتدَت على طلبة العلوم الدينيّة، وانهال عليهم أفرادُها بالضرب والشتم المقذع والبذيء. فنشبَت في مشهد مظاهراتٌ عارمة، اشتبك المتظاهرون بها مع القوّات المسلّحة.

وبعد أن أعلنَت الحكومة، رسميًّا، عن إجراء انتخابات حرّة، وانفتاح الأجواء السياسيّة، صمّمَت حركة تحرير إيران على المشاركة بها، إلّا أنّها ارتأت بذلك كسب تأييد الإمام قدس سره وموافقته، خوفًا من ضياع مكانتها السياسيّة وفقدانها، فأرسلَت رسالةً شفويّة إلى الإمام قدس سره، تسترشده حول الوضع السياسيّ الجديد، وتطلب منه إبداء رأيه بهذه المحاولة. وممّا جاء في هذه الرسالة:

«إنّ الدستور ومتمّمه، دون أيّة تعليقات أخرى، هو خير دليل، وأفضل وثيقة، لإدانة الشاه في المحاكم الداخليّة كافّة، وعلى الساحة الدوليّة، وهو الوسيلة الوحيدة، الآن، للدفاع عن التعاليم الإسلاميّة، والعمل على تطبيقها. وإذا لم نعترف به، فإنّنا، منطقيًّا وقانونيًّا، سنفقد وثائق إدانة الشاه كلّها. وهذا ليس ضمانًا لسلطة الشاه؛

لأنّ الشاه عزل نفسَه عن القانون والدستور نهائيًّا، وخالفَه مخالفةً صريحة. والأفضل هو أن نوجِّهَ ضرباتنا للجور والاضطهاد، لا إلى الاستعمار؛ فالقتال على جبهتَين نتيجتُه الهزيمة، والمصلحة تقتضي، الآن، عدمَ مهاجمة أوروبّا وأمريكا؛ فإنّهما سيعزّزان بنية الشاه الدفاعيّة، أكثر فأكثر.

إنّ كافّة النهضات الوطنيّة والدينيّة الأخيرة وصلَت إلى أهدافها، ورفعَت مستوى الوعي عند شعوبها، عبر قناة الانتخابات الحرّة مِن قِبَل الحكومات، ومشاركة قياديّيها. فالانتخابات الحرّة هي التي سمحَت لهم بالإعلان عن أهدافهم وآرائهم...

إنّ اقتراحات حركة تحرير إيران، في ذلك الظرف السياسيّ الحادّ، وعدم اندماجها وتطابقها مع متطلّبات الأوضاع الراهنة، إزاء الأجواء السياسيّة والثوريّة لدى المجتمع، كانت بحاجة إلى دراسة ونقد وتحليل موسّع، لا تكفيه مثل هذه الأسطر والكلمات. إلّا أنّنا نضعُ بصماتنا على نقطة مهمّة للغاية، ونترك ما دونها للقارئ الكريم، ليحلّل ويدرس الموضوع دراسةً معمّقة. إنّ اقتراح حركة تحرير إيران هذا، يحكي عن بساطة وسذاجة في الأفكار، وعدم العمق والشموليّة؛ فهم انتزعوا الشاه من المخمصة، وغفلوا عن أنّ الدستور هو الذي يضمن السلطة للشاه، ويعترف بكيانه وبشرعيّته ونظامه الشاهنشاهيّ».

في 27 تمّوز، أصدر الإمام قدس سره بيانًا، وجَّهَهُ إلى الجماهير الثائرة، فحيّاهم وشكر مواقفهم البطوليّة في عدم إقامة الاحتفالات في المناسبات الدينيّة التي مضَت، وأبدى أسفه وألمه على ما حدث في كلٍّ مِن مشهد ورفنسجان وجهرم، مِن هجومٍ وحشيٍّ على الجماهير، وعلى القتل والقمع والاضطهاد. وردَّ على ادّعاءات رئيس الوزراء حول انتهاء التظاهرات، بقوله:

«إنّ هذه المظاهرات الأخيرة هي خيرُ صفعةٍ على وَجهِ المدَّعين بانتهائها وقمعها...».

وأكّد الإمام قدس سره قائلًا:

«إنّ الصمت والسكوت وعدم الاحتجاج، معارضٌ لأهداف الإسلام العليا ومصالحه،

ومخالِفٌ لمبادئ أيديولوجيّة المذهب الجعفريّ الحقّة. والدعوة إلى الاستنكار والتحرّك والثورة، هو ما يطابق تعاليم السيرة النبويّة، وبالأخصّ سيرة خاتم الأنبياء محمّد ﷺ».

وباقتراب حلول شهر رمضان المبارك، خاطب الإمامُ قدس سره علماءَ الدين والكتل السياسيّة، وزوّدهم بالتعاليم اللازمة والإرشادات الهامّة، وذكّرهم بواجبهم الدينيّ والشرعيّ إزاء فضح جرائم الشاه ونظامه، دون التقيّد بأيّ حذر وحيطة. وأوّل ما شرّع به في هذا المجال، تأكيده على إسلاميّة الحركة والثورة، مهدِّدًا بذلك الأحزاب السياسيّة الانتهازيّة، فقال:

«إنّ الحركة المقدّسة الأخيرة في إيران، التي بدأت منذ الخامس من حزيران عام 1963م، إسلاميّةُ النزعة مئة في المئة، وقد انطلقَت بأيدي رجال الدين القديرة، ومؤازرة الشعب الإيرانيّ المسلم والعظيم فقط، وقادها رجالُ الدين، دون الاعتماد على جهة أو شخص أو جمعيّة معيّنة. ولِكَون حركتنا إسلاميّة، ستستمرّ بمنأى عن تدخُّل الآخرين في أمر القيادة، التي هي في يد العلماء، دون غيرهم. ولا أشكّ في النوايا الشريرة لمن بدؤوا بالتحرّك في المدّة الأخيرة، بنوازع خاصَّة، ليلوّثوا هذه الحركة، بوصفها بالمعتمِدة على بعض التيّارات، أو بالتابعة لها، وقد تواطأ قسمٌ منهم مع النظام الظالم، محاوِلين وقف الحركة، وحفظ الشاه. وعلى الشعب الإيرانيّ، أن يراقبهم بكلّ وعي، وبعين الحذر والشكّ، ويبتعد عنهم، إذا اتّضح انحرافهم، لا قدّر الله. وإنّي أُعلن، بكلّ صراحة، أنّ رجال الدين سيتّخذون موقفًا صارمًا من هذه المجموعة الصغيرة، إذا كرّرَت المناداة بأفكارها، التي تؤدّي الى إبعاد المجرم الأصليّ».

هذا وأشار إلى مسألة الانتخابات الحرّة، وميول بعض الأحزاب والشخصيّات باتّجاهها، فأوضح قائلًا:

«اتّخذَت الحكومة سياسةً جديدة، وراحت تضرب على وتر الحرّيّة والانتخابات، في الفترة الأخيرة. لماذا هذا التهيّؤ والاستعداد قبل عامٍ من موعدها؟ ولماذا التأكيد

عليها بهذا الشكل، قبل شهر رمضان المبارك؟ إنّ النظام قلقٌ ومضطربٌ من موسم رمضان، ويخشى من فضح جرائمه وخياناته خلال هذا الشهر المبارك، عبر المساجد والمحافل الدينيّة ومراكز التجمّع الدينيّ.

على أمّتنا المجيدة، أن تعلم بأنّ حركة النظام هذه لا تهدف إلّا إلى حفظ الشاه مِن تَعَرُّضِ خطبائنا وشبابنا الغيارى له؛ ولهذا، يجب على خطبائنا وعلماء ديننا في إيران، عدمُ الاهتمام لهذه الحيل والأساليب المضلّلة. وليعلم الجميع أنّ مسألة الانتخابات الحرّة، في ظلّ الحكومة الشيطانيّة، شيءٌ وهميٌّ، ولا تهدف إلّا لخداع العالَم وتضليله. وما دام الشاه وزمرته متربِّعين على العرش، فليس لأحد أن ينتخب أو يختار نائبًا واحدًا! وحين موعد الانتخابات، سأقول كلمتي النهائيّة والأخيرة».

وكان بعض الأحزاب والاتّجاهات السياسيّة قد انخدع بحيلة معارضة بعض أعضاء البرلمان، وراح يبرّر وجودهم وأقوالهم؛ فطالب الإمامُ قدس سره الشعب باعتزالهم والابتعاد عنهم، فقال:

«الآن، وحين يرى الشاه أنْ لا مكانة له بين الشعب والجماهير، حيث مُنِيَ بالهزيمة والهوان، يستعدّ اليوم لخلق أجواء مفتعلة؛ فهو يدفع برجاله وعملائه، الذين لطالما شاهدناهم يحاربون الدين إلى جانبه، يدفع بهم إلى تبنّي القيادة الجماهيريّة والشعبيّة، والدفاع عنها؛ كي يخترقوا صفوف علماء الدين، في الوقت المناسب والحسّاس. على رجال الدين، أن يقدِّموا هؤلاء إلى المجتمع. يجب أن نعرف التغيير الذي طرأ على نظام الشاه، فحوَّل هؤلاء، الذين كانوا يُقبِّلون يد الشاه، وكانوا خدّامًا له، إلى معارِضين له. على الشعب الشريف أن يبقى يقظًا، حتّى لا تندسّ هذه العناصر الخطيرة في صفوفهم».

كذلك، طلب الإمامُ قدس سره من الشعب، زيارة عوائل الشهداء، والاهتمام بهم، وتقديم العون والمساعدة لهم. وطلب من الكُتّاب وأصحاب القلم والبيان، تسجيل كافّة الحوادث والوقائع بحقائقها، وتحريرها؛ كي لا تُستَغلّ مستقبلًا مِن قِبَل الأعداء

والمغرِضين، فيشوِّهوا نهضتَنا الإسلاميّة، وينسبوا لها ما لا يناسبها ويواكب مسيرتها. وختامًا، طالب الخطباء وأئمّة الجمعة والجماعات بالتكلّم عن جرائم الشاه، وفضح خياناته وانتهاكاته، خلال تواجدهم في المساجد والمناسبات العامّة، والاحتراز من كلّ حركة «تجعل الجماهير تتراجع، أو تنأى عن الوعي والإدراك لحوادث اليوم والساعة».

استمرَّت مظاهرات الشعب، بمناسبة أربعينيّة الشهداء، في المدن كلّها. ففي أصفهان، وقبل شهر رمضان بأيّام قلائل، وبالتحديد يوم الخامس من آب، اندلعَت مظاهرات عارمة وواسعة في أصفهان، تصدَّت لها القوّاتُ المسلّحة، وتسبّبَت بقتل الكثير منهم. وفي اليوم ذاته، وبمناسبة مرور الذكرى السنويّة للحركة الدستوريّة، أصدر الشاهُ بيانًا، تطرّق خلاله إلى الانتخابات الحرّة المزعومة، قائلًا: «الانتخابات سوف تكون في أجواء حرّة نزيهة مئة بالمئة. وسوف تُعلَن نتائجها بنزاهة تامّة».

كذلك، أضاف رئيسُ مجلس الشيوخ «شريف إمامي»: «إنّ الأجواء السياسيّة المتفتّحة» هي خير فرصة لبيان العقائد وإبرازها.

بعد هذا، وفي اليوم الأوّل من شهر رمضان المبارك، أصدر الإمام قدس سره بيانًا، عزّى فيه الشعب بحادثة أصفهان الأخيرة، وكتب:

«لقد أصبح شعار «الموت للشاه» شعارًا وطنيًّا، وسيستمرّ حتّى الإطاحة بالنظام الظالم، وزوال السلالة البهلويّة المجرمة. ويجب اغتنام الفرص، وتنظيم الاجتماعات، بأكبر عدد ممكن من المشاركين، وفضح جرائم الشاه وخياناته».

كان الإمام قدس سره يعي جيّدًا، ويعلم بأنّ «الانتخابات الحرّة» أصبحَت هدفًا ورمزًا لأحزابٍ سياسيّة ودينيّة معتدلة، وكان يخشى من تحرّكاتهم، التي قد تؤثّر على مسير النهضة الإسلاميّة، وتحرفها عن مسارها الرئيسيّ. لذا، خاطب الجماهير، محذِّرًا إيّاهم بقوله:

«مرّة أخرى، أُحذّر شعب إيران! فبعد جهود الحكومة، ومواصلتها الدعاية والإعلام، أخذ الشاه ينادي بالانتخابات أيضًا. إنّ كلّ مَن يدرس أقاويله، سيعلم

جيّدًا بأنّ الشاه يهدف، من وراء الانتخابات، إلى الإطاحة بالثورة الإسلاميّة، وإبعادها عن مسارها الأساسيّ والرئيسيّ، وهو إسقاط كيانه، والإطاحة به. ولكن فات الأوان، وأصبحَت فكرة الحكومة الإسلاميّة ساريةً في عروق الشعب الإيرانيّ، والنصر قريبٌ، إن شاء الله».

وأخيرًا، طالب الجماهير المؤمنة بأن تدعو الخطباء والمتكلّمين إلى الكفِّ عن تأييد الانتخابات، بأدبٍ واحترام؛ لأنّ ذلك سيؤدّي إلى سكون ثورة الشعب وركودها، وطالبهم الاستمرار بفضح جرائم الشاه وفجائعه.

الفصل الثامن والعشرون

إعلان الأحكام العرفيّة في أصفهان

أُقِيمَت العديدُ من المجالس والمحافل الدينيّة، بمناسبة شهر رمضان المبارك، في أنحاء البلاد كافّة؛ ما أدّى إلى تسريع عجلة الثورة والنهضة الإسلاميّة. وتمّ توزيع الأشرطة والمناشير والخطب والبيانات الحماسيّة والثوريّة، ونشرها بشكل واسع. هذا وانطلقَت مظاهرات ليليّة في مدن عدّة. أمّا أصفهان، فانطلقَت فيها أكبر تظاهرة وأهمّها، متحدّيةً المجازر كافّة، التي اقترفها النظام بحقّ الشعب، وبالأخصّ أهالي مدينة أصفهان، قبل أيّامٍ عدّة. ففي الحادي عشر من شهر آب، وفي الأسبوع الأوّل من شهر رمضان المبارك، تظاهر أهالي أصفهان، وهاجموا عدّة دور للسينما، وبنوك «صادرات»، وفندق شاه عبّاس[1]. وأسرعت القوّات المسلّحة إلى ساحة التظاهرات، وفتحَت النيران على المتظاهرين، ورشقتهم بالرصاص دون رحمة؛ ممّا أدّى إلى استشهاد المئات منهم وجرحهم. وعلى إثر ذلك، أُعلِنَ حظر التجوّل في أصفهان ونجف آباد وهمايون شهر وشهر رضا.

وقد وقعَت حوادث مماثلة ومشابهة أخرى في مدن شيراز وقزوين. ففي شيراز، أُعلِنَ الحِداد العامّ والعطلة العامّة. ووجَّهَت الحكومةُ تهديدًا مباشرًا بالتصدّي لأعمال الشغب، على أنّها سوف تعلن حظر التجوّل في أيّة مدينة يحاول مواطنوها القيام بغوغاء وضوضاء. هذا وقد نسبَت الصحفُ التظاهراتِ التي انطلقت في أصفهان، إلى المتطرِّفين الشيوعيّين.

(1) أحد الفنادق التي كان يقيم بها الأمريكيّون، ومركز للفساد.

وبعد يومين من واقعة أصفهان الدامية، وإعلان منع التجوّل في هذه المدينة المنتفِضة، وَجَّهَ الإمامُ قدس سره خطابًا، عزّى الشعب فيه، وأعرب عن ألمه العميق لاستشهاد المئات من القتلى من أبناء أصفهان وشيراز، ثمّ وجَّهَ عتابه ونصيحته إلى الجيش وأفراد القوّات المسلّحة، لارتكابهم هذه الأعمال والجرائم الشنيعة، إذ قال:

«**على جيش إيران وكافّة المسؤولين المحترمين، أن يعلموا بأنّ تنفيذهم الأعمى لجميع أوامر الشاه الجائرة، لن يترك لهم سوى العار والرذيلة واللعن للأبد. فإلى متى سيستمر الضبّاط والعسكريّون والقادة بقتل إخوتهم وأبناء شعبهم؟ وإلى متى ينقادون قسرًا لأطماع الشاه، الذي هتك أعراضهم، واستباح نساءهم وحُرَمَهم، وسلب حرّيّاتهم، وهاجم عقائدهم؟ وإلى متى يدافعون عنه؟ بأيّ عذر، وبأيّ مبرّر يطلقون الرصاص على إخوتهم في الدين والعقيدة؟ إنّكم مسؤولون عن ذلك كلّه يوم الحساب!**

يجب عليكم إطاعة أوامر الله، وعصيان الظالمين وخذلانهم. لا تشتروا، بقتلكم إخوانكم، عذاب الدنيا والآخرة! ألا تسمعون آهات الأمّهات الثكالى؟ إنّ هؤلاء الأمّهات أمّهاتكم. ثمّ ألا تفكّرون بأنّكم سوف تكونون السبب في أحزان الآخرين وآلامهم، من الأمّهات والآباء والأطفال والنساء والإخوة والأخوات؟

توبوا إلى الله، والتحقوا بصفوف المؤمنين، وسيكون النصر حليفكم في الدنيا وفي الآخرة».

وطالب، ثانيةً، الكُتّاب والخطباء كافّة، بفضح جرائم النظام، التي لا تُعدّ ولا تُحصى، وأكّد على الشباب والجامعيّين أن يستغلّوا الفرص كافّة لإطلاق شعار «الموت للشاه»، الذي هو وشعار الإسلام والمسلمين.

وفي الوقت الذي كان فيه الشاه يرتكب العديد من المجازر بحقّ الشعب، كان الإمام قدس سره يدعو الشعب إلى التكاتف والتلاحم. فعقد أعضاء الجبهة الوطنيّة اجتماعًا سرّيًّا، في الثاني عشر من شهر آب 1978م، صمّموا فيه على العمل بشكل مستقلّ،

وبدون مشاركة آراء الإمام قدس سره وإرشاداته، مع المحافظة على الشكل الظاهريّ المؤيِّد لأفكاره قدس سره وآرائه. وكما يبدو، فالسبب في ذلك هو بحثهم مسألة المشاركة أو عدمها في الانتخابات، التي لاقت معارَضة شديدة من سماحة الإمام قدس سره.

بعد إعلان حرّيّة الانتخابات من قِبل الحكومة والشاه، ومنع التجوّل في أصفهان وبعض المدن الكبرى، واتّساع دائرة التظاهرات في المدن الأخرى من إيران، أرسلَت السفارةُ الأمريكيّة في طهران تقريرًا إلى الخارجيّة الأمريكيّة، يوم 1978/8/17م، حلّلَت فيه أوضاع إيران السياسيّة، والظروف التي يمرّ بها الشاه، وأوضاع المعارضة السياسيّة والدينيّة، وخصّصَت بالذات مواقف الإمام قدس سره تجاه الشاه، وتنبّأت بردود فعل الشاه تجاه معارضيه. تكمن أهمّيّة هذا التقرير في التنبّؤات التي قامت بها السفارة، والتي حدثَت بعد ثلاثة أسابيع. ونظرًا للدور الرئيس الذي تلعبه السفارة الأمريكيّة في توجيه الشاه، فيمكن اعتبار هذه التنبّؤات التي قدّمَتها السفارة، هي مجرّد أوامر وُجِّهَت للشاه، فقام الأخير بتنفيذها بعد أيّام عدّة. وقد قدّمَت السفارة الأمريكيّة، جاهدةً، تقاريرَها كافّة، لتوحي بأنّ تصميمات الشاه مستقلّةٌ عن تدخّل الأجانب، وبالأخصّ السفارة الأمريكيّة. يقول التقرير:

«إنّ خطاب الشاه بمناسبة الذكرى السنويّة للحركة الدستوريّة، وبمناسبة إعلان حظر التجوّل في أصفهان، يشير إلى عزمه الراسخ لفسح المجال للحرّيّات كافّة. ولكنّ الحكومة الإيرانيّة سوف تتعامل بخشونة أكبر مع الذين يثيرون الاضطرابات وأعمال العنف والشغب... إنّ الشاه، الآن، واقفٌ على جُرُفٍ هارٍ... ونعتقد بأنّ عليه أن يتصرّف بدقّة وحذر تامّ. فقد يضطرّ الشاه إلى منح بعض الامتيازات للمعارِضين، وتنفيذ بعض مطالبهم، فيما إذا كان يريد الحدّ من شدّة التوتّر والاضطرابات. إنّ ما يجري في إيران، هو فصلٌ من الاضطراب السياسيّ المثير... وإنّ الكثير من الرموز والشخصيّات الذين اتّصلنا بهم، يؤيّدون ويمدحون الشاه... ويقولون بأنّ الشاه يجب أن يكون إمبراطورًا فقط، لا رئيسًا للحكومة... أمّا آية الله الخمينيّ، فهو يطالب بالإطاحة بالشاه، وبعضُ

أتباعه يطلقون عبارات «الموت للشاه» بشكلٍ علنيّ، في مدن أصفهان وشيراز... أمّا المعتدلون، أمثال آية الله «شريعتمداري»، فهم لا يرون في أنفسهم الكفاءة والقدرة على مخالفة الخمينيّ ومعارضته، لكنّهم يسعون إلى تخفيف وتيرة التشدّد لدى الحركات الدينيّة. وممّا لا شكّ فيه، أنّهم سيخوضون الانتخابات الحرّة؛ ومن ثمّ سيقلّل ذلك من تبعيّتهم التامّة للخمينيّ المُبْعَد خارج البلاد.

على الشاه أن يقف في وجه التحدّيات، ويتصدّى للمعارِضين والمخالِفين كلّهم. وإنّ إعلان منع التجوّل هو إشارة إلى هؤلاء المشاغبين كلّهم، بأنّ الحكومة لن تتحمّل هذا النمط من الممارسات. ويأمل الكثير من المراقِبين للأوضاع هنا، أن تنتهي الاضطرابات، وتخفّ حدّة التوتّر، بانتهاء شهر رمضان، بَيْدَ أنّ شكوكنا في ذلك تزداد يومًا بعد آخر. إنّ الشاه يقف الآن على حافّة السقوط، ولكنّه يستطيع، بإراقة المزيد من الدماء، إيقافَ النشاطات الدينيّة والسياسيّة كافّة، ونجاحه في ذلك سيكون حتميًّا؛ ولكن هذا ليس عملًا هيّنًا وبسيطًا... وإنّ مفكّري وبيروقراطيّي حزب «رستاخيز» -والذين هم من أعضاء الجبهة الوطنيّة القدامى- والقادة الجدد، لا يتميّزون بالقوّة والنفوذ السياسيّ العميق؛ ولذلك فشلوا في إيجاد ثغرة في صفوف القيادة الدينيّة. والسبب الأهمّ في إحباط هذه المحاولات، هو تهديدات أتباع الخمينيّ وأنصاره المتعصّبين، والذين تمّ تنظيمهم بشكل جيّد ومتقن... وقد يضطرّ الشاه، من أجل إخماد التمرّد والعصيان، إلى استخدام العنف، بدلًا من الرفق واللّين... ونحن لا نشكّ في أنّه سيقوم بذلك عند اقتضاء الضرورة...»[1].

إنّ ما حواه هذا التقرير من تناقضات عديدة، هو دليلٌ واضحٌ على دهشة السفارة الأمريكيّة وحيرتها إزاء أحداث إيران. ويُستَنبَط من هذا التقرير، أنّ رجال السياسة الأمريكيّين لم يتوقّعوا حدوث ثورة، أو أيّ شيء من هذا القبيل في إيران.

بعد أن استنكر الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ حادثتَي أصفهان وشيراز الداميتَين، وعقب إعلان منع

---

(1) كتاب «صفحات من تاريخ الثورة الإسلاميّة» -وثائق السافاك والمخابرات الأمريكيّة- إصدار العلاقات العامّة لوزارة الأمن.

التجوّل في بعض المدن، قام مراجع قمّ بإصدار بيانات مماثلة، جاء فيها: «إنّ الزعامة الشيعيّة لن تكفّ عن الجهاد، حتّى تتحقّق الحرّيّات الفرديّة والاجتماعيّة كافّة، وإلى أن تُلغى كافّة القوانين المخالِفة والمعارِضة لدستور الإسلام، وحتّى يقوم «نظام عادل» في إيران».

وحاول الشاه، مضافًا إلى أعمال القمع الدمويّة، أن يؤكّد على منح الحرّيّات السياسيّة، وإجراء الانتخابات الحرّة. وحاول مخادعة الجماهير الثائرة، وذلك عبر منحها امتيازات مادّيّة وجزئيّة، كالإعلان عن ترفيع الموظّفين والمعلّمين، وتوفير السكن للعمّال المتقاعِدين، وإلغاء احتفال شيراز الفنّيّ التشكيليّ.

وأشار الشاه، ولأوّل مرّة، إلى مدى عمق سعة الاعتراضات الجماهيريّة، خلال لقاء صحفيّ عُدَّ يوم 17 آب، وقال: «لم أكن أتوقّع أن أدفع ثمن الحرّيّة غاليًا إلى هذا الحدّ!». ثمّ حاول تشويه الأهداف الإسلاميّة والثوريّة للإمام قدس سره ولعلماء الدين، وحذّر الشعب منهم، وقال: «نحن نَعِدُ الشعبَ بالحضارة العظمى، بينما يَعِدُهم أعداؤنا بالإرهاب والوحشيّة الكبرى».

وهكذا، قامَت أجهزة الإعلام المحلّيّة والأجيرة بمحاولات مماثلة؛ من أجل تشويه سمعة الثورة والنهضة الإسلاميّة. ولكنّ الشعب، وبالأخصّ أهالي مدينة آبدان، اعتبروا الحادثَ من صنع النظام. وهذا ما أدّى إلى خروج آلاف جديدة، والتحاقها بالمتظاهرين في المدينة، فأطلقوا هتاف «الموت للشاه»، وهاجموا بنوك «صادرات» وبعض البنايات، بعد يومٍ من الحادث. وقد تحوّل المجلسُ التأبينيّ لضحايا الحادثة، في يومه الثالث، إلى تظاهرة كبيرة وعارمة ضدّ النظام والشاه.

وأصدر الإمامُ قدس سره بيانًا بهذه المناسبة، أزاح الستار عن جرائم الشاه وأعماله الشنيعة، وقال:

«لا أظنّ أنّ أيَّ فردٍ مسلم، أو أيّ إنسان، قادرٌ على القيام بمثل هذا العمل الشنيع، إلّا من اعتاد على أمثال هذه الجرائم الوحشيّة، وأصبح طابعه وحشيّة ودمويّة لا

إنسانيّة... وإنّ ممّا لا شكّ فيه، أنّ هذا العمل اللاإنسانيّ والمخالف للقوانين الإسلامية، لا يمكن أن يصدر عن مخالِفي الشاه، الذين يعرّضون حياتهم للخطر؛ لحفظ مصالح الإسلام وإيران، ولحفظ حياة النّاس وأموالهم...

ومن الدلائل، التي لا تدع مجالًا للشكّ في تورُّط الشاه وعملائه في الحادث، قولُ الشاه، قبل الحادث: «إنّ المتظاهرين الذين يخالفونني، يُنذرون بالخوف الكبير»، وتكرار هذا الكلام بعد الحادث، إذ قال: «إنّ هذا هو ذلك الإنذار والوعيد!». وليس ذلك منطلِقًا من واقع أنّ الشاه عالمٌ كبير بالغيب!... تدلّ القرائن على أنّ قضية آبادان المفجعة نبعَت من المصدر نفسه الذي نشأت منه مجازر المدن الأخرى الايرانية، فهل انتفع أحدٌ غير الشاه وأقربائه بهذه الجريمة؟».

وفي الختام، أشار إلى استغلال الشاه الحادث، إعلاميًّا وسياسيًّا، وقال:

« إنّ هذه المصيبة مِن إنجازات الشاه العظيمة، إذ بثّ لنفسه دعايات واسعة في الداخل والخارج، ويأمر أبواقه وصحفه الموجَّهة العميلة في الداخل، والمصلحيّين في الخارج، أن يعملوا ما استطاعوا لخداع هذا الشعب، بنشر الأخبار المتعلِّقة بهذه الجريمة، ونسبتها إلى الشعب الإيرانيّ المحروم والمظلوم، ليُظهِر الشعبَ الإيرانيَّ المُطالِبَ بحقوقه، للعالَم، شعبًا غيرَ ملتزم بمعايير إنسانيّة أو إسلاميّة».

وقام العديد من علماء الدين وأهل العلم في العديد من المدن، بإصدار بيانات تُدين هذا العمل اللاإنسانيّ، الذي ارتكبه النظام. وعلى الرغم من موقف الإمام قدس سره الصريح، وموقف غالبيّة الشعب تجاه الحادث، إلّا أنّ الشخصيّات والأحزاب السياسيّة والدينيّة المعتدلة صمتَت، وعزَبَت عن اتّخاذ أيّ موقف إزاء الحادث. وأصدر «شريعتمداري» بيانًا، أعرب فيه عن تأسّفه وألمه الشديد لِما حدث ووقع، وقال: «إلى الآن، لم نعرف مَن الذين خطّطوا لهذه الجريمة ومهّدوا لها...»! وعمل أعوانُه في آبادان، على تهدئة الحشود الثائرة والغاضبة، ودعوتهم إلى الحذر وعدم التسرُّع في اتّخاذ القرارات.

ومع كثافة الحملة الإعلاميّة التي قادها النظام تجاه هذا الحادث، إلّا أنّ التناقضات الواضحة بين تصريحات المسؤولين، دلَّت على تورُّط أزلام النظام في هذا الحادث. وأدّى ذلك إلى إرباك الوضع الداخليّ للحكومة والنظام، واضطرابها. وانتقد ممثّلو المعارضة في البرلمان رئيسَ الوزراء، واستفسروا عن دواعي تدبير الحادث. وقد استمرّت التظاهرات الجماهيريّة في آبادان والمدن الأخرى.

الفصل التاسع والعشرون

حكومة الوفاق الوطنيّ

سبّب ضعفُ حكومة «جمشيد آموزكار»[1] فضيحةً؛ نتيجة انكشاف تورُّطِه في حادث آبادان؛ ممّا دعا الشاه إلى عزله عن رئاسة الحكومة، كتنازلٍ من جانبه للمعارِضين، وأحلّ محلّه «شريف إمامي» رئيس مجلس الشيوخ، في 27 آب.

وكان «شريف إمامي» من أزلام الشاه، ومن الماسونيّين المعروفين، وكان قد حلّ في هذا المنصب سابقًا، عام1960م، حينما كانت الأوضاع متوتّرة آنذاك. وعبّر «**إمامي**» عن حكومته، بـ«حكومة الوفاق الوطنيّ». وسعى إلى جذب الأحزاب السياسيّة المعتدلة نحوه، بينما راح من جانبٍ آخر، يتظاهر بمظاهر التديُّن والالتزام الدينيّ، معتمدًا على قربه ونسبه إلى عائلةٍ ذات أصول دينيّة، هادِفًا بذلك إلى كسبِ ثقةِ علماء الدين والجناح الإسلاميّ، وكسبِ اعتمادِهم. ولكي يبرهن على ذلك، خطا خطوات سريعة وسطحيّة لإثبات وجوده؛ فألغى التاريخ الشهنشاهيّ، وأكّد خلال أوّل بيان له، على وجوب إنقاذ البلد في «ظلّ تعاليم الإسلام الرفيعة، وضمن إطار الدستور»، ووعد بمنح الحرّيّات السياسيّة للأحزاب، ومحاكمة المتعدّين على خزينة الدولة ومعاقبتهم، وأكّد على احترام علماء الدين، وتقديس التعاليم الإسلاميّة، وطالب بمعاقبة المتورِّطين في المجازر والحوادث الأخيرة. وعلى إثر ذلك، أصدر قرارًا يقضي بإغلاق البارات ومحلّات القمار وبؤر الفساد والبغاء كافّة.

(1) كان قبل ذلك وزيرًا للنفط لسنوات عديدة، لعب دورًا مهماً في «الأوبك» لصالح أمريكا.

حكومة «شريف إمامي» كانت تُعتبَر مثاليّةً ونموذجيّةً عند بعض الأحزاب والشخصيّات السياسيّة والدينيّة المعتدلة. ولكي يمنع الإمامُ قدس سره من حدوث أيّ نوع من المفاوضات المحتملة بين الأطراف السياسيّة المخدوعة والحكومة، أصدر بيانًا، فضح فيه مؤامرة الشاه الجديدة، وعَدَّ وعودَ رئيس الوزراء محاولاتٍ لإغفال الشعب، وهي مجرّد ادّعاءات وهميّة، وحذّر بشدّةٍ علماءَ الدين والجماعات السياسيّة كافّة، من التنازل والتفاوض مع النظام، وقال:

«إنّ ما يقوم به النظام من تغيير عناصره، هو مؤامرة ضدّ الشعب؛ من أجل الضغط على الثورة والصحوة الإسلاميّة؛ ومن ثمّ إخمادها. ولقد ثبت لدى الشاه، أنّه لن يستطيع مواجهة الشعب بالرصاص والدبّابات والمدافع. لذا، عمد إلى طريق الخداع والمكر؛ فهو يحاول خداع الشعب ببعض الكلمات والعبارات المعسولة؛ ليمهّد لنفسه طريق الاستمرار في الخيانة والعمالة والإجرام.

لكنّ الشعب لن ينخدع بهذه المحاولات كلّها، وسيبقى نافِرًا ومتذمِّرًا من الشاه وجلاوزته، الذين يُخلِصون له الخدمة، ويفتخرون بها».

وكرّر الإمام قدس سره رَفْضَهُ لأيّ نوع من التنازل والمفاوضات، وأكّد على مضيّه في الإطاحة بالشاه ونظامه، قائلًا:

«الصلح مع النظام، تفسيرُه سحقُ كافّة دماء شهدائنا وإهدارها. ثمّ كيف يمكن للزعامة الدينيّة أن تسكت وتصمت إزاء الاعتداءات على المقدّسات الإسلاميّة، وسلب ثروات المسلمين ونهبها، وقتل الأبرياء؟ إنّنا لا نصالحهم لمجرّد ادّعاءاتهم باحترام علماء الدين، إنّ ذلك عارٌ علينا. علينا أن نسعى، جادِّين، لتحقيق أهداف الشعب، ومطالبه التي يردّدها في احتجاجاته ومظاهراته؛ فأفراد الشعب كافّة يطالبون بإسقاط نظام بهلويّ، ولن يكتفوا بوعود كاذبة، تدّعي احترام العلماء، وإغلاق البارات المؤقّت، وإرجاع التاريخ إلى سابقه. إنّه لمن المؤسف أن تحسب الحكومة الشعب وعلماء الدين والسياسيّين طفلًا صغيرًا يمكن إغراؤه بلعبة تافهة. على شعب إيران أن يعلم

بأنّه لن يكون هناك عالِمُ دينٍ يصالح ويتفاوض مع نظام ظالم تلاعب بأحكام الله والقرآن الكريم. فالمصالحة هي تسليط جلاوزة الشاه على رقاب الشعب وأمواله ونواميسه، وليس هناك جرمٌ أعظم من هذا، وليس بإمكان أيّ عالم دين اقترافه. وكذلك الأحزاب والكتل والحركات السياسيّة، فإنّها لن تتفاوض، وليس بإمكانها أن تتفاوض مع نظامٍ زجَّ أفرادَ الشعب في سجن الشاه الكبير، وتسبَّبَ في هدر الثروات الوطنيّة والقوميّة كافّة، ولن يقبل السياسيّون وصمة عارٍ كهذه».

إنّ موقف الإمام قدس سره الحازم، تجاه المفاوضات، أغلق الأبواب كافّة بوجه الذين كانت تراودهم أفكار الصلح والتفاوض، مِن السياسيّين والدينيّين المعتدلين. وإنْ كان هؤلاء يعتقدون بأنّ عليهم أن يمنحوا حكومة «شريف إمامي» فرصةً لتطبيق وعودها، وأن يستغلّوا الفرصة من أجل التدرّج نحو الصلح، فإنّ رفض الإمام قدس سره لأيّ نوع من المصالحة والمفاوضة، أجبرَهم على الامتناع والتراجع عن ذلك. فقد طالبَت كلٌّ من «حركة تحرير إيران» و«الجبهة الوطنيّة»، خلال بياناتها، بعزل الشاه والإطاحة بالنظام. وطالب «شريعتمداري» الشعب، في 28 و31 آب، بالتزام الهدوء وضبط النفس والتأنّي، وطالب بتطبيق الدستور، في 29 آب، دون الإشارة إلى عزل الشاه، وأعلن في الثاني من أيلول: «إنّنا سنمنح الحكومة الجديدة شهرَين أو ثلاثة، لكي تلبّي طلباتنا». وبالمقابل، أكّد «شريف إمامي» على أهمّيّة الاتّصال بعلماء الدين والعلماء داخل البلاد.

وعلى الرغم من هذه الوعود والمحاولات الخادعة كلّها، استمرَّت المظاهرات بشكلٍ أوسع، وبالأخصّ خلال الأيّام الأخيرة من شهر رمضان المبارك.

وفي الرابع من أيلول، أُقِيمَت صلاة عيد الفطر، بحضور مئات الآلاف من الجماهير الثائرة، بإمامة آية الله الدكتور الشهيد «محمّد مُفتح»، في منطقة قيطريّة في طهران. ولم يسبق لهذا الاجتماع الدينيّ السياسيّ مثيلٌ في تاريخ الثورة أبدًا!

أمّا «السافاك»، فكان قد أعلن حالة الإنذار لأفراده، من الساعات الأولى لذلك اليوم. وبعد انتهاء مراسم الصلاة، اندلعَت مظاهرة عظيمة وكبيرة، رَفعَ المتظاهرون

فيها يافطاتٍ كُتِبَ عليها شعارات «الموت للشاه» و«يعيش الخمينيّ»، وطافوا في شوارع العاصمة، حتّى انتهوا إلى ساحة الحرّيّة [كانت تسمى بساحة شهياد].

وفاجأت المظاهرةُ قوّاتٍ من الجيش والشرطة، بعظمتها؛ ممّا سلب منهم القدرة على اتّخاذ أيّ إجراءٍ مُعادٍ، بالأخصّ عندما قام المتظاهرون برشق المسلَّحين بباقات الورود!

وفي السادس من أيلول، وجَّهَ الإمامُ قدس سره بيانًا إلى الشعب، بارك له حلول عيد الفطر السعيد، وقال:

«لقد أتبع الشعب الإيرانيّ المسلم صلاةَ العيد بعبادةٍ عظيمة أخرى، هي الصرخات المدوِّية ضدّ نظام الظلم والنهب؛ لإقامة حكومة العدالة الإسلامية؛ وهذا في ذاته من أعظم العبادات. وإنّ تقديم التضحيات من أجلها، هو منهج الأنبياء العظام، ولا سيّما النبيّ الأكرم ووصيّه العظيم أمير المؤمنين عليه السلام».

ثمّ أشار إلى أنّ الشعب قد وصل إلى مفترق طرق، ولن يختار طريق الذلّ والعار أبدًا. وأكّد على استمراريّة التظاهرات بعد شهر رمضان، وحذَّر الشعبَ من الالتفات إلى وعود الحكومة الكاذبة، وقال:

«عليكم باغتنام الفرص والأحداث، لإقامة الاجتماعات في المساجد والمحافل والأماكن العامّة، والدفاع عن القرآن الكريم والعدالة الإسلامية. وكلُّ صوتٍ يخالف ذلك -كائنًا من كان- فهو شيطانيٌّ لنفع الظالمين الحاكمين، وضرر الإسلام والوطن...

إنّ الشعب الإيرانيّ... لن ينخدع بهؤلاء المشعوذين... والشاهُ وحكومتُه خونة، إذ وقفوا وقوفًا مسلَّحًا في وجه الشعب المطالِب بالحقّ، وتخطّوا الدستور، فضلًا عن قوانين الإسلام التحرّريّة، وطاعتُهم تعني طاعة الطاغوت! فلا تفسحوا المجال لهؤلاء، وأَطلِعوا العالَم على أعمالهم الإجراميّة، بالاعتصام والاحتجاج».

وطالب الإمام قدس سره المجاهدين بفضح جرائم الشاه، وإعلان هويّته أمام الشعوب، ثمّ وجَّهَ شُكرَه إلى قوّات الجيش والشرطة؛ لعدم تعرُّضِهم للمتظاهرين يوم عيد الفطر،

وناشدهم العودةَ إلى أحضان الشعب، كما ناشد المفكِّرين والخطباء توجيهَ الإخوة العسكريّين، وتصحيحَ أفكارهم، وأشار إلى تظاهرة يوم العيد، التي كانت تُعتَبَر، بذاتها، بمثابة انتخابات عامّة، فقال:

«أليس من مصلحة الحكومة أن تتنحّى؛ حتّى لا تفضح نفسها أكثر من ذلك، في الأوساط الدوليّة؟ ألم يَحِنْ الوقت لكي يعلن الشاهُ عن تنازله، ويترك الشعب يتّخذ مصيره بنفسه؟ لقد حان موعد محاكمة الخونة، وهل يمكن أن نخطو خطوةً واحدةً لإنقاذ الشعب، مع وجود خونة الإسلام، وعلى رأسهم الشاه؟».

ثمّ أجاب في ختام بيانه، على الذين اتّهموا النهضة بالفوضويّة، وفقدان البرمجة والتنظيم، ومخالفة حرّيّة المرأة والأقلّيّات الدينيّة، فقال:

«على الجميع أن يعلم أنّه بعد ذهاب الطغمة الحاكمة، سوف نعلن برنامجنا الأساسيّ، الذي يستند إلى أحكام الإسلام العادلة. وسيعلم الجميع أنّ ما وجَّهَهُ هؤلاء، من التهم الخبيثة والسامّة إلى الإسلام، كموضوع كبت حرّيّة المرأة والأقلّيّات الدينيّة، هي مجرّد محاولة منهم، لإيقاف عجلة الثورة المتسارعة، وتضليل الأفكار...».

الفصل الثلاثون

مجزرة الثامن من أيلول (17 شهريور)

كانت مظاهرة عيد الفطر استعراضًا عظيمًا، دلّ على مدى قوّة الجماهير الثائرة، والسائرة على نهج الإمام قدس سره، وأثارَت إعجاب الجميع واستحسانهم. وفي المقابل، هزَّت أركانَ نظام الشاه، وزادَت من قلقه. ومن جهة أخرى، اعتُبِرَت هذه المظاهرةُ الطريقةَ المثلى للثورة والاحتجاج، بدلًا من النشاطات المتناثرة هنا وهناك، والتي كان يتمّ قمعُها بشكلٍ عامّ. وقد تَركَت هذه التظاهراتُ خوفًا وهلعًا عميقًا في قلوب قياديّي الجيش؛ إثر التحاقِ عددٍ لا يُستَهان به من أفراد الجيش والضبّاط، بصفوف الجماهير المنتفِضة[1]؛ ما جعلهم يطالبون الشاه بإصدار أوامره لمنع المظاهرات. ففي السادس من أيلول، أصدر الشاهُ قرارًا بمنع الاحتجاجات والمظاهرات في البلاد، وعلى الرغم من هذا القرار، اندلعَت في اليوم التالي له -أي في 7 أيلول- مظاهرةٌ أكبر وأعظم من مظاهرة يوم الفطر، شارك فيها ما يقارب مليونَي شخص، اتّجهوا أيضًا بمسيرتهم إلى ساحة الحرّيّة، وكانوا يُطلِقون هتافات «الموت للشاه» و«يعيش الخمينيّ» و«قيامنا حسينيّ، قائدنا خمينيّ».

بعد هاتَين المظاهرتَين العارمتَين، أعلن الشاه منعَ التجوّل، بعد أن أجرى مشاورات مع القادة العسكريّين، وسفيرَي بريطانيا وأمريكا. وبعد مصادقة الحكومة على قرار منع التجوُّل، أذاعته وكالة الأنباء ليلًا. وفي اليوم التالي -أي في الثامن من أيلول- اتّجهَت

(1) وقد أصدرت قيادة الجيش أمرًا بإعدام كلّ من يهرب من الثكنات العسكريّة؛ وتمّ، بالفعل، إعدام عدد من أفراد الجيش، الذين لم يهربوا خارج مناطقهم، والباقون لجؤوا إلى مدنٍ غير مدنهم.

الجماهير إلى ساحة الشهداء [المعروفة بساحة (جاله) آنذاك]، للتجمُّع والانطلاق بمظاهرة أخرى، استمرارًا لحركتهم خلال الأيّام المنصرمة. بَيْدَ أنّهم فُوجِئوا بمحاصرة الجيش المدجَّج بالسلاح. وتقدَّمَت النسوة إلى الساحة، فيما استقرّ الرجال بالجانب الآخر لها، وارتفعَت الأصوات هاتفةً: «الموت للشاه» و«يحيى الإمام». وهاجم الجيشُ المتظاهرين، وأمطرهم بالرصاص على حين غرّة؛ وهكذا، ضَرَّجَ القتلةُ المتظاهرين بدمائهم، وهم يردّدون شعار «الموت للشاه» و«يحيى الخمينيّ». ولم ينجُ من هذه المجزرة إلّا القليل، الذين قاموا بحمل المجروحين على أكتافهم، لإخلائهم من ساحات التظاهر. واستمرّ الاشتباك حتّى عصر ذلك اليوم. وأسفرت المجزرةُ عن استشهاد أكثر من أربعة آلاف شهيد، مضافًا إلى المئات من الجرحى. وقد تعالت في العاصمة طهران، ولا سيّما الأحياء القريبة من منطقة الاشتباك، أصواتُ أزيز الرصاص ودويّ القنابل اليدويّة، وتضاعفَت أعمدة الدخان إلى السماء، من أحياء ومناطق عدّة.

تزامنًا مع أحداث العاصمة، أُعلِنَت حالةُ منع التجوّل في كلٍّ من آبادان، وشيراز، وأهواز، ومشهد، وقزوين، وجهرم، وكازرون، وتبريز، وكرج، وكرمانشاه، وقمّ. وأُلقِيَ القبضُ، في الوقت ذاته، على عددٍ من العلماء وأهل العلم وعدد من الشخصيّات الأخرى. وبلغ خبرُ إعلان الأحكام العرفيّة وحظر التجوُّل معظمَ مدن إيران، وطرقَ أسماع «كارتر»، الذي كان يقوم بمباحثات مع «السادات» و«بيغن» في كامب ديفيد. واتّصل «أنور السادات» بالشاه، وجدّد له دعمه وتأييده لِما يقوم به، وكذلك «كارتر» اتّصل بالشاه، وأكّد دعمه الكامل له. وأكّدَت وزارةُ الخارجيّة الأمريكيّة على دعمها للشاه، حيث صرّحَت بأنّه «يجب أن يسود إيران النظامُ والاستقرارُ». وقد مَدَّتهُ بالدعم فعلًا؛ من أجل المضيّ في أعماله الإرهابيّة والقمعيّة.

اتّصل «كارتر» بالشاه هاتفيًّا، ليهدّئ من روعه، ويخفّف من قلقه، وقد كان دعمه للشاه هذه المرّة، دعمًا فعليًّا، حيث وافق له على مطالبه ومشترياته العسكريّة كلّها، رغم الحرج الذي واجهه في الكونغرس. وبعد أربعة أيّام من مجزرة ساحة الشهداء

بطهران، قدَّم السفيرُ الأمريكيّ لدى إيران تقريرًا هامًّا مِن قِبَل حكومة الولايات المتّحدة، جاء فيه: «إنّ الحكومة الأمريكيّة تمنح الشاهَ مطلق حرّيّة التصرّف، باتّخاذ الإجراءات اللازمة، وحسبما يراه مناسبًا، لحلّ المشاكل والمعضلات الداخليّة، والسعي لرفعها...».

لقد ظنّ الشاهُ بأنّه أخمد الأصوات المناوِئة، بإراقته دماء الآلاف من الأبرياء والعُزَّل، في العاصمة وباقي المحافظات. وأصدر «شريعتمداري» بيانًا، عزّى فيه عوائل الضحايا، وعَدَّ في بيانه هذا، النضالَ والجهادَ الذي يقوم به الشعب، أنّه من أجل «إقامة حكومة القانون، ونيل الحرّيّات القانونيّة المشروعة»، ولم يُشِر في بيانه إلى هدف الجماهير الأوّل والأخير، وهو إسقاط الشاه ونظامه، وإقامة الحكومة الإسلاميّة. وطالب «شريعتمداري» الشعبَ، في بيانه، بإقامة «العزاء والحداد، في جوٍّ من الهدوء والرزانة، وداخل البيوت والمنازل، وعدم إعطاء المبرِّرات للنظام ليرتكب العديد من المجازر بحقّ المواطنين، وألّا يمنح عملاء الاستعمار والاستبداد مبرِّرًا آخر لأعمالهم الشنيعة، وخاصّة في مثل هذه الظروف الحسّاسة والخطرة».

لقد كانت حصيلةُ هذا البيانِ إلقاءَ الرعب في قلوب الجماهير، ودعوتَهم إلى الاستسلام، وترك النشاط الثوريّ، والتزام المنازل والبيوت.

وبعد يوم، وَجَّهَ الإمامُ قُدِّسَ سِرُّهُ بيانًا إلى الشعب، جاء فيه:

«أيّها الشعب الإيرانيّ الشريف والشجاع، لقد أثبت الشاهُ مرّةً أخرى، بإعلانه الأحكام العرفيّة في طهران والمدن الإيرانية الكبرى، أنّ حكومته لا تحظى بأيّة شعبية. فإعلان الأحكام العرفيّة ليس له مسوّغ قانونيّ، بل هو جريمة، ومَن أصدر الأمر بذلك مجرمٌ، خاصّةً وأنّ المظاهرات كانت تجري في هدوءٍ تامّ، باعتراف الإذاعة والتلفزيون الإيرانيّ. لم يرَ الشاهُ طريقًا أفضل لقتل الناس العُزَّل المظلومين، من إصدار الأحكام العرفية... وفي الحقيقة، إنّ الشاه يريد أن ينتقم من الشعب؛ لكي يُخمد الأصوات المناهِضة، حسب زعمه. وقد فات الأوان، فإنّ الشعب قد وعى ونهض وأدرك كلّ شيء.

ليتني كنت معكم يا أبناء إيران الثائرين، لأنال وسام الشهادة في الدفاع عن عقيدتنا الإلهيّة الحقّة!

ليعلم شعب إيران، بأنّ النصر سيكون حليفه، عاجلًا أم آجلًا. لقد أراد الشاهُ أن يُشرِك علماء الدين في جرائمه، عبر قناة حكومة الوفاق الوطنيّ، لكنّ هذه المؤامرة سرعان ما انكشفت للجميع...».

وفي الختام، دعا الجيش الإيرانيّ للخروج عن طاعة الشاه، والالتحاق بصفوف الجماهير، ليجاهد معهم في سبيل إزاحة كابوس الظلم والخيانة عن صدره. وبعد ثلاثة أيّام، أصدر الإمام قدس سره بيانًا آخر، عزّى فيه جميع أبناء الشعب، ووصف الضحايا بأنّهم «**شهداء في سبيل الله**»، فقال:

«**الله على ما أقول وكيل... إنّني أخاطب أبناء الشعب كافّة، لا من أجل قُربِ موعد ذكرى استشهاد ابني مصطفى، بل من أجل الشهداء كلّهم، ومن أجل كرامة الشعب وحرّيّته؛ فالشهداء كلّهم أبنائي وأحبّائي...**

لذا، فإنّني أعزّي الآباء والأمّهات والأقرباء الذين فقدوا أبناءهم وأحبّتهم، وأبارك لهم، في الوقت نفسه، استشهادهم. وأسأل الله أن يرزقني ما رزقهم، فذلك أملي الكبير، وقد لا يكون بعيدًا، بعون الله».

ومن أجل إذلال نظام الشاه، أَمَرَ في بيانه هذا، بالاعتصام العامّ، ودعا الشعب قائلًا:

«**يجب علينا، من الآن فصاعدًا، ترك أعمالنا ومشاغلنا لفترة ما، حتّى يفتح الله علينا؛ فإنّ نظام الظلم سينهار عمّا قريب! ولا تسرعوا في العودة إلى الأسواق والعمل، واسعوا إلى تقوية روح الإيمان عند الضعفاء، وإنّ الرزق بيد الله... ولا تهبوا الموت؛ فإنّ الموت والحياة بيد الله -سبحانه وتعالى-**».

وعلى إثر ذلك، قام عمّال مصفاة طهران بالاعتصام والإضراب عن العمل، في العاشر من أيلول. وأدّت مرحلة بدء الاعتصامات في المعامل والمنشآت الصناعيّة، إلى خوف الشاه وهلعه، أكثر فأكثر.

بعد مجزرة أيلول الدامية، كان يتردّد كلٌّ من سفيرَي بريطانيا وأمريكا، على الشاه، بين اليوم والآخر، نزولًا عند رغبته وطلبه. وكان الشاهُ يطرح عليهما خططَه التي يفكّر بتطبيقها، ويتباحث معهم في طبيعة الأوضاع والظروف الراهنة. وأمّا الهدف الآخر من وراء هذه الحركة، فهو كسب رضى حكومتَي بريطانيا وأمريكا، وضمان تقديم الدعم الكافي له. ينقل السفيرُ البريطانيّ عن الشاه -حيث التقاه بعد أسبوع من وقوع مجزرة الثامن من أيلول- الآتي: «لقد دبَّ الخوفُ في بدني، عندما لمستُ مدى التغيير الذي طرأ على ملامح الشاه وتصرّفاته. فقد امتقع لونُه، واستولى عليه الضعف، وبدا كأنّه قد أخفق وفقد السيطرة على نفسه؛ نتيجة الضغوط النفسيّة»، هذا وقد اعترف الشاهُ، في هذا اللقاء، باتّساع دائرة الرفض والمعارضة لنظامه، وتطوّر المعارضة وتنظيمها، واعترف بفشل تجربة حزب «**رستاخيز**». وعلى الرغم من هذا، كان يسخر من قدرة علماء الدين ونفوذهم، ويعتبرهم غير قادرين على إدارة البلاد.

اتّخذ الشاه، بعد إعلان الأحكام العرفيّة ومنع التجوّل، سياسةً مزدوجةً ومتناقضة؛ ممّا برهن للشعب عن ضعف النظام. فكانت القوّات العسكريّة تهاجم الاجتماعات والتظاهرات كافّة، في الأيّام والأسابيع الأولى، وتُلقي القبضَ على الشخصيّات المجاهدة البارزة والمهمّة. ومن جهة ثانية، فقد مَنحَت الحكومةُ أجهزتَها الإعلاميّةَ حرّيّةً أكثر؛ فكانت تذيع خطب نوّاب الأقلّيّة المعارِضة في البرلمان لحكومة «شريف إمامي»، بشكلٍ مباشر.

كان الهدفُ من هذه السياسة المتناقضة، هو إرعاب المعارَضة التابعة للإمام قدس سره، وإرغامها على الانصراف وترك الساحة، وأخيراً، فَسحُ المجال للأحزاب الدينيّة والسياسيّة، بقيادة «شريعتمداري»، والتي تهدف إلى العمل في إطار ما سُمِّيَ بالدستور، بعيدًا عن المساس بالشاه. وهكذا، بدأ الاتّصال بين حكومة «شريف إمامي» والسفارة الأمريكيّة وقادة الأحزاب المساوِمة.

وقام الشاهُ، بعد التشاور مع سفيرَي بريطانيا وأمريكا، بتكليف حكومة «**إمامي**» بمهامّ أربع، وهي:

1. اقتلاع جذور الفساد.
2. الاتّصال بعلماء الدين المساوِمين.
3. تلبية كافّة الاحتياجات فورًا.
4. إجراء الانتخابات الحرّة؛ كي تتحرّك الحكومة للفوز بأكثر المقاعد في البرلمان.

في العاشر من أيلول، قدّم «شريف إمامي» برنامج عمله إلى البرلمان، وحظي بتأييد 80 بالمئة من أعضائه، وأعرب «إمامي» في الجلسة نفسها، عن أمله في إلغاء الأحكام العرفيّة، وتوقُّف أعمال العنف والشغب وإثارة الاضطرابات. وعلى إثر ذلك، تمّ تقليص ساعات منع التجوُّل، وأُطلِق سراح مئات السجناء السياسيّين، وأَصدَرَت الحكومةُ قرارات بمنع سفر بعض المسؤولين إلى خارج البلاد، وإلقاء القبض على بعضهم، وإقالة بعض آخر منهم.

وأدّت سياسة الشاه الجديدة والمتشدّدة، مضافًا إلى ارتكابه مجزرة أيلول الدامية، وفَرضِه لحظر التجوّل في العديد من المدن، أدّت إلى إحباط بعض النفوس الضعيفة، وتقهقرها. فأصدر الإمامُ بيانًا، بعد أسبوع من الحادث، إلى شعب إيران المظلوم، أدان فيه الخدعة السياسيّة الجديدة التي تقوم بها الحكومة، وطالب الجميع بالإضراب ثانيةً، وقال:

«الآن، وبعدما اجتمع مرتزقةُ الشاهِ في البرلمان، وقاموا بحركاتهم المشبوهة والمكشوفة؛ من أجل إغفال الجماهير، وتبرئة الشاه، وتحميل الآخرين ذنوبه وجرائمه وخياناته، وحيث يقوم الخونة كلّهم، والمجرمون في الداخل والخارج، بإعلان دعمهم للشاه وانتهاكاته، والآن، حيث بان زيف دعوة دُعاة الحرّيّة وحقوق الإنسان... ينبغي على الشعب الإيرانيّ أن يُعلِن إضرابه، ويُعلِن يومَ الخميس، الحادي عشر من شوّال، يومَ الحداد العامّ».

ثمّ شَبَّه ثورةَ الشعب الإيرانيّ بوقوف الإمام عليّ عليه السلام أمام معاوية، وبَشَّرَ الشعبَ بالنصر المؤزَّر، وقال:

«إنّ من وراء هذه التضحيات والأحزان، أفراحًا عديدة، وسوف تلمسون الحرّيّة والاستقلال بأنفسكم. إنّ مقاومتكم وصمودكم ألحقا أنكر هزيمة بالعدوّ؛ ما اضطرّه إلى إعلان الأحكام العرفيّة في العديد من المدن، وأدّى ذلك إلى فضح النظام في الأوساط الدوليّة والإنسانيّة كافّة. اطمئنّوا يا أعزّائي؛ فإنّكم منتصِرون، بإذن الله -تعالى-».

ثمّ حذّر الشعبَ من الانخداع بألاعيب الحكومة ومكرها، ومن عملاء الشاه، الذين يحاولون، بشتّى الطرق والأساليب الماكرة، إنقاذَه من الموت المحتّم.

وفي 13 أيلول، أصدرَت الجبهة الوطنيّة بيانًا، بمناسبة اليوم السابع من ذكرى المجزرة الدامية، طالبَت بإزالة كافّة الأجهزة التي أسّسها النظام من أجل الحفاظ على السلطة، وأكّدَت في الختام، على ضرورة الاتّحاد والتلاحم الجماهيريّ، والعمل ضمن برنامجٍ سياسيٍّ منظَّم، وطالبَت المواطنين كافّةً بتوسيع دائرة الرفض، والعمل للإطاحة بكافّة المجرِمين الذين سَحقوا قوانينَ الإسلام المقدّسة وحقوقَ الشعب، تحت أقدامهم.

كانت الأجهزة الإعلاميّة للنظام في خارج البلاد، تقوم بإجراء لقاءات صحفيّة مع السيّد «شريعتمداري»، وتطرحه على الساحة على أنّه هو الزعيم والقائد للثورة، محاوِلةً دَفْعَ الشعبِ إلى الانسياق خلف مطالبه السياسيّة. لهذا، قامت صحيفة «لوماتان» الفرنسيّة والإذاعة الفرنسيّة بترتيب لقاءٍ معه، أُذِيعَ عبر التلفزيون الفرنسيّ في الثاني عشر من أيلول. وحينما سُئِلَ عن انعكاس حادثة أيلول تجاهه، أجاب: «لقد طالبْنا، تكرارًا ومرارًا، بتطبيق الدستور والقانون الحقيقيّ»! وأجاب عن سبب اتّخاذه إجراءات وقرارات معتدلة، مقارَنةً بالإمام قدس سره: «إنّ الظروف الخاصّة داخل البلاد، ووجود الإمام في الخارج، اقتضى اختلاف الأساليب في الحركة والنضال». وأحجم عن إدانة الشاه ونظامه، لارتكابهم مجزرة الثامن من أيلول. وقام نوّاب الأقلّيّة المعارِضة في

البرلمان، وبالتنسيق والتعاون مع «شريعتمداري»، بقراءة بيانه في البرلمان، والذي دعا فيه إلى الانتقاد السلميّ والهادئ للنظام.

وإثر هذه الخدع، ومن أجل أن يُثبِت «شريف إمامي» ولاءه لعلماء الدين وللإسلام، قال: «إنّه باستطاعتنا تلبية طلبات آية الله «شريعتمداري»، ولكن هناك بعض التكتّلات لا تتفاعل ولا تتجاوب مع اقتراحاتنا وطروحنا أبدًا، وتسبِّب الإخلال بالنظام والأمن». هذه الكلمات كلّها لم تؤدِّ إلى تضليل أفكار الجماهير، بل جعلَتهم يُسيئون الظنّ بـ«شريعتمداري»، ويؤكّدون ارتباطه السرّيّ بالشاه.

في هذه الأجواء والأوضاع، طرأ حادثان كبيران، محلّيًّا وإقليميًّا، وإنْ لم يكن لهما ارتباط بالنهضة والثورة الإسلاميّة، إلّا أنّهما ساهما في تعرية النظام، أكثر فأكثر. الحادثُ الأوّل هو اختطاف الإمام موسى الصدر، رئيس المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى في لبنان، وهو زعيم المجاهِدين الشيعة هناك، وممثِّل الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّه في لبنان. نظرًا لماضيه وتاريخه النضاليّ والجهاديّ العريق ضدّ الشاه، فقد اتَّهَمَ علماءُ الدين المناضلون الشاهَ، وحمّلوه مسؤوليّةَ اختطافه. وتعزّزَت هذه الفكرة، عندما التزمَت الحكومة الصمتَ، ولم تتّخذ أيّ موقف حيال هذا الحادث. على إثر ذلك، أَرسل الإمامُ رسالةً إلى «ياسر عرفات»، أعرب فيها عن قلقه العميق إزاء سلامة السيّد «موسى الصدر»، وطلب منه رفع آخر التقارير عنه وعن آخر أخباره.

الحادث الثاني هو وقوع هزّة أرضيّة شديدة في مدينة طَبَس[1] والقرى المحيطة بها، في السادس عشر من أيلول، حيث أدَّت إلى تدمير 80% من المدينة والقرى المجاورة، ولقي المئات من المواطنين حتفهم. وبادر النظام لاستغلال الفرصة وانتهازها، للفت أنظار الشعب إلى المصيبة والفاجعة؛ كي يقلّل من حدّة الاحتجاجات والمظاهرات. فأعلن النظامُ، على إثر ذلك، الحدادَ العامَّ لمدّة ثلاثة أيّام، وناشد الجيش للإسراع

(1) تقع في محافظة خراسان شمال شرق إيران.

في إنقاذ أهالي طَبَس. وقامت الإذاعة والتلفزيون والصحف بإذاعة التقارير والصور والأفلام المؤلمة عن هذا الزلزال المدمّر، ونَشرِها.

وأصدر الإمام قدس سره، في الثامن عشر من أيلول، بيانًا بمناسبة هذه الكارثة الأليمة، أعرب فيه عن تأثّره العميق إزاء الحادث. ثمّ قام بفضح محاولات الشاه الماكرة من أجل تضليل الجماهير، فقال:

«إنّ حادثة طَبَس، التي أَوْدَت بحياة الكثير من إخواننا وأخوتنا الأعزّاء، تهيّج عواطف كلّ إنسان، وتؤلمه. وعلى المسلمين الغيارى أن يهبّوا لمساعدة إخوانهم، وأن لا يمنحوا الفرصة لأزلام النظام، كي يفتحوا الطريق ثانيةً، للغاصِبين والمستعمرين. وأرى من الضروريّ أن أحذّر الشعب الثائر، مِن الإعلام الذي يفرضه نظام الشاه؛ لغرض استغلال الفرصة وانتهازها، لإبعاد الجماهير عن الثورة. فهو بالأمس ضرّج الآلاف من أبنائنا بدمائهم، وصار اليوم يتباكى على الذين راحوا ضحيّة الزلزال، ويعلن الحداد العامّ لهم!

أيّها الشعب الإيرانيّ المسلم، عليك أن تبقى يَقِظًا، وأن لا تهزّك المصائب والكوارث. اِمضِ في نهضتك وثورتك الإسلاميّة المجيدة إلى الأمام، غير مبالٍ بكلّ الأقاويل الكاذِبة والماكِرة».

وفي الختام، طالَب الجميعَ بالنهوض لمساعدة إخوانهم المتضرِّرين، فقال:

«علينا أن نهبَّ لمساعدة إخوتنا الذين فقدوا بيوتهم ومُعيليهم وذويهم في مجزرة ساحة الشهداء وحادث زلزال طبس. وعلينا أن نجنِّد أنفسَنا لخدمة مجروحي المظاهرات والزلزال، الذين يعانون من نقص العلاج والدواء والغذاء. وعلى الجميع أن يُهيّئوا لهم وسائل الراحة والاستقرار، وألّا يكتفوا بادّعاءات الحكومة بمساعدتهم. وعلى الشعب ألّا يتبرّع لهؤلاء، عبر قنوات الحكومة وصناديقها، فإنّ ذلك لن يصل إلّا لجيوب المسؤولين...».

على إثر هذا، انهالَت على المنطقة مساعداتُ الشعب النقديّة والعينيّة، فحمَلَها

ونقلَها أفرادٌ ثقاتٌ وأمناء. وساهم حضراتُ السادة مراجع التقليد في جمع التبرّعات وإرسالها، عبر لجان خاصّة، إلى محلّ الحادث. وفي 22 أيلول، انتقل نجلُ آية الله «كلبايكاني» إلى رحمة ربّه، وهو في طريقه إلى طَبَس.

بعد يومَين من وقوع الزلزال، توجَّهَت زوجةُ الشاه إلى طَبَس، لتَفَقُّد عوائل الضحايا، كما زار الشاهُ المنطقةَ -وبزيّه العسكريّ!- بعد يومَين من زيارة زوجته. وتزامنًا مع سفر الشاه، أعلنَت وزارة البلاط الملكيّ أنّه «نظرًا لتألُّمِ الشاهِ لواقعة طَبَس، أمرَ جلالتُه بإلغاء احتفالَي يوم 26 أيلول من تشرين الأوّل، وتخصيص نفقاتهما لضحايا الزلزال، وإعادة بناء المنطقة».

وأشار تقريرٌ مصوّرٌ أُذِيعَ عبر التلفزيون، إلى إحدى المساعدات الشعبيّة -والتي تمَّت بأمرٍ من الإمام قدس سره- وكذلك أشار إلى عدم تفاعل الجيش مع هذا العمل الإنسانيّ؛ فأدّى نشرُ هذا الخبر إلى توجيه أصابع الاتّهام إلى الشاه.

في 16 أيلول، التجأ سبعةٌ من قادة الجمعيّة الإيرانيّة للدفاع عن حرّيّة الإنسان وحقوقه، إلى منزل «شريعتمداري»، خوفًا من إلقاء القبض عليهم. وشكّلوا هناك مكتب حقوق الإنسان، ودعوا المراسلين من وكالات الأنباء العالَميّة، وعقدوا مؤتمرًا صحفيًّا شارك فيه «شريعتمداري»، واتّصل هؤلاء بـ«عليّ أميني» [رئيس الوزراء الأسبق، وأحد رموز الأمريكيّين]، باعتباره مرجعهم ومستشارهم السياسيّ، كما اتّصلوا بالمنظّمة الدوليّة لحقوق الإنسان في نيويورك، وطلبوا من أمينها العامّ مطالبةَ الشاهِ بالسماح لهم باستعادة نشاطهم بحرّيّة تامّة، ومن دون أيّ تدخّل من جانب النظام؛ كي يتمكّنوا من إرسال التقارير الكاملة عن حادثة الثامن من أيلول، للمنظّمة في نيويورك. وفي العشرين من أيلول، مُنِحَت لهم الرخصةُ في استعادة نشاطهم بحرّيّة، وأنهوا بذلك تحصّنهم في دار «شريعتمداري».

وعَدَّ «شريف إمامي» قرارَ فرضِ الأحكامِ العرفيّةِ غيرَ منافٍ للحرّيّة السياسيّة، وذلك بعد أن صادق عليه البرلمان بالأكثريّة المطلقة للآراء. ثمّ انتقد الشعبَ لعدمِ ثقته

بالحكومة، وقال: «لقد بلغَت حدّةُ انعدام ثقة الشعب بنا، إلى درجة أنّنا لو قلنا لهم: بأنّ الوقت نهار... فلن يصدقّونا أيضًا!». ثمّ أكّد على اتّصاله بالمراجع وعلماء الدين، وقال: «إنّ الحكومة ستتلافى الأخطاء كافّة، وعلينا أن نُعِيرَ مقامَ الزعامة الدينيّة احترامًا واهتمامًا؛ لأنّها تتميّز باحترام الجماهير وحبّهم وولائهم». وليس بخفيٍّ مَن هم الذين يقصدهم «شريف إمامي» بكلمة «الزعامة الدينيّة»!

هذه الاتّصالات والمفاوضات السرّيّة كلّها بين رجال السلطة وبعض رجال الدين المبغوضين لدى الجماهير، لم تؤثّر سلبًا على إرادة الإمام قدس سره وعزمه، بل مضى قدمًا، من أجل تطوير النهضة، وفضح المؤامرات الجديدة التي تُحاك في أقبية الدولة. وذكّر الجماهير بواجباتهم في المرحلة القادمة.

وفي التاسع عشر من أيلول، أرسل الإمام قدس سره رسالةً إلى ياسر عرفات، جاء فيها:

«لقد وقفنا دائمًا مع الثوّار الفلسطينيّين، ضدّ إسرائيل ومواقف الشاه، ولم نتوانَ عن تقديم أيِّ دعمٍ للثورة الفلسطينيّة، على مرأى شعوب العالَم ومسمعهم، وقد قُمنا بفضح جرائم الكيان الإسرائيليّ في الأوساط الدوليّة. والآن، حيث ترزح إيران تحت سياط جلاوزة الشاه، ويقوم النظامُ بمحاصرة المدن والأحياء بالدبّابات والمدافع، وقد استعان النظامُ بالعناصر الإسرائيليّة؛ لقتل أبناء الشعب الإيرانيّ المسلم في شوارع طهران؛ إذًا، فحريٌّ بكم أن تتّحدوا مع شعبنا المظلوم، وتُوصِلوا صوتَه إلى أسماع الشعوب والأوساط الدوليّة، بكافّة الوسائط».

ثمّ أشار إلى دعم الاستعمار التامّ للشاه، وأنهى بيانَه بزفّ البشرى إلى الشعب الإيرانيّ بالنصر القريب، فقال:

« لقد وقفَت جميعُ الدول اليوم في وجهِ شعبٍ لا يميل إلى الشرق ولا إلى الغرب، تريد قمعَه، وتدافع عن الشاه، سواء في ذلك الصين الحمراء، التي تزعم الريادة في المجال الثوريّ، والولايات المتّحدة رمز الاستعمار العالميّ، والاتّحاد السوفياتيّ منبع النفاق والكذب، وبريطانيا المستعمرة العجوز... لكنّي على يقين كبير، بأنّ انتصار

شعبنا حتميّ وقريب، بإذنه -تعالى-».

وفي بيان آخر أرسله بعد يومَين إلى علماء مشهد، جاء فيه:

«يجب أن يكون هدفنا الأوّل والأخير هو قطع يد الأجانب والمستعمِرين وعملائهم الخونة، وعلى رأسهم الشاه!».

وفي 23 أيلول، أرسل رسالةً إلى الرئيس «حافظ الأسد» رئيس الجمهوريّة العربيّة السوريّة، داعيًا إيّاه إلى طرح مسألة اختطاف الإمام «موسى الصدر» في اجتماع قادة الدول الإسلاميّة، وأشار إلى مسؤوليّة الدول الإسلاميّة تجاه مستقبل الشعب الإيرانيّ، فقال:

«نحن نأمل من قادة الدول الإسلاميّة مَدَّ يدِ العون لنا؛ لإنقاذ الشعب الإيرانيّ المسلم وتحريره، والذي يرزح تحت سياط الشاه وجلاوزته. ففي الحديث المنقول عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه قال: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». فيا قادة البلدان الإسلاميّة، إنّكم مسؤولون عن شعب إيران المظلوم، ومدعوّون للدفاع عنه».

الفصل الواحد والثلاثون

محاصرة منزل الإمام قدس سره

في 18 أيلول، التقى السفيرُ الإيـرانيُّ لدى العراق بصدّام حسين، نائب رئيس الجمهوريّة. ومع أنّ تفاصيل هذا اللقاء لم تتسرّب إلى الآن، إلّا أنّه ممّا لا شكّ فيه، دارَت المحادثاتُ وتركّزَت على فكرة تضييق نشاطات الإمام قدس سره الدينيّة والسياسيّة، وتقليصها. وفي 23 أيلول، وصل وزير الخارجيّة الإيرانيّ إلى نيويورك، بغرض المشاركة في الاجتماع الثالث والثلاثين للجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة، والتقى خلال إقامته في نيويورك، بوزير الخارجيّة العراقيّ، ثلاث مرّات. وقال الوزيرُ الإيرانيُّ لنظيره العراقيّ، في آخر لقاء لهما: «إنّ العراق يستطيع أن يقدّم أكبر خدمة للنظام الشاهنشاهيّ الآن، بإخراج [الإمام] الخمينيّ خارج الحدود». كذلك التقى الوزير الإيرانيّ بنظيرَيه البريطانيّ والأمريكيّ، اللذَين جدّدا له دعم حكومتَيهما التامّ لنظام الشاه.

وبعد المباحثات التي أجراها كلٌّ من وزير الخارجيّة الإيرانيّ والسفير الإيرانيّ مع المسؤولين العراقيّين، قام النظام العراقيّ، في 23 أيلول، بتطويق منزل الإمام قدس سره في النجف، ووُضِعَ الإمامُ قدس سره تحت الرقابة المشدَّدة، وطُلِب منه الامتناع عن إصدار البيانات والخطابات وإجراء اللقاءات الصحفيّة. بَيْدَ أنّ الإمام قدس سره رفض هذه القيود؛ ممّا أدّى إلى تشديد الحصار على بيته، مِن قِبَل قوّات النظام.

وفي ليلة الثالث والعشرين من أيلول، اتّصل أحدُ قادة «السافاك» بـ«شريعتمداري»، مطالِبًا إيّاه بإبداء رأيِه الصريح تجاه الشاه والنظام والإمام، ثمّ قُدِّمَ محضر هذا

الاجتماع السرّيّ إلى الشاه في اليوم التالي.

قال «شريعتمداري» أثناء تصريحاته: «إنّ النجف هي إحدى بؤر معارَضة الشاه ومعاداته، وإنّي أخالف هذا بالطبع؛ لأنّي أسعى جادًّا إلى حفظ الأمن في البلاد، وعدم التعرُّض للنظام. وأعتمدُ بذلك على الدستور، وعلى الاعتدال والليونة؛ فأسلوبي هذا ينفع الجميع، بما فيهم الشاه ومن يؤيّدني، وهذه خطّتي للتقدُّم على المتشدِّدين. عليَّ كسبُ موافقةِ الجميع وتأييدِهم؛ ولهذا سعيتُ إلى جذب الأحزاب والاتّجاهات السياسيّة في خارج البلاد وداخلها نحوي. ولو لم أقمْ بذلك، لكان المتطرِّفون يقلبون البلاد رأسًا على عقب».

وبالنسبة لقرار الأحكام العرفيّة وحظر التجوُّل، أجاب: «بهذا الصدد، لا أعارض الحكومة، لكنّني أخالف قتل الأبرياء واضطهاد الشعب، وأعدُّ هذا القرارَ خطوةً مفيدةً ومناسبة. وأدعو جلالة الشاه ورئيس الوزراء إلى تمديد هذا الحكم». وأجاب عن موقف الحكومة إزاء إطلاق سراح السجناء السياسيّين، قائلًا: «إنّني أعارض إطلاق سراحهم بأجمعهم؛ لأنّ فيهم من يستنهض هِمَم الشعب، وفيهم مَن يعود إلى معارضةِ الشاه، وتوجيهِ التهم إليه».

إنّ إجراء حوارات ومباحثات عدّة كهذه مع «شريعتمداري» في الآونة الأخيرة، جعلَت سفير الولايات المتّحدة يُبرِق تقريرَه السرّيّ إلى الخارجيّة الأمريكيّة، يُفصِح لهم به عن دور «شريعتمداري» الأخير، بقوله: «... إنّ الزعامة الدينيّة المعتدلة تكنّ الاحترام لـ«شريف إمامي»، وعلى الأظهر أنّها مستعدّة للتجاوب معه، على الرغم من فرض الأحكام العرفيّة... وآمل بتبديد كافّة الظنون والشكوك لدى الزعامة الدينيّة المعتدلة، حيال تعهُّدات أمريكا للشاه...».

وجاء في تقييم السفير البريطانيّ لأوضاع البلاد في ذلك الحين، الآتي: «... إنّ ما يبعث الأمل فينا، هو جدّيّة رئيس الوزراء في إقامة روابط وعلاقات مع المرجع في قمّ». ثمّ يقول السفير عن إحدى لقاءاته بالشاه، والذي تمّ في أواخر أيلول: «لقد قلتُ للشاه

بأنّ ثمّة اتّفاق في الآراء بيننا وبين أمريكا، وأنّ هناك اتّصالات مستمرّة تجري بين لندن وواشنطن لبحث أوضاع إيران، ومساعدة الحكومة. وإنّني أُشكّك في أن يكون للاتّحاد السوفياتيّ دعمٌ للجماعات المعارضة». ثمّ يضيف السفير: «على الرغم من هذه التأكيدات كلّها، إلّا أنّ الشاهَ أعلَمَني بأنّه يفقد الأمل، شيئًا فشيئًا، باستمرار سلطته على إيران».

أدَّت محاصرةُ منزل الإمام قدس سره إلى انقطاع البيانات والخطابات من الإمام قدس سره، إلى نحو أسبوعَين؛ ممّا تسبّب في اتّساع النهضة والمعارَضة والولاء للإمام قدس سره، أكثر فأكثر. وهذا بدوره، جعل الأحزاب والشخصيّات السياسيّة ومراجع الدين في قمّ، تقوم بمعارضة هذه الخطوة التي تمَّت بأمرٍ وتخطيطٍ من نظام الشاه. وقد اعتصم موظّفو مصفاة آبادان وعمّالها، وموظّفو شركات البريد والهاتف في طهران، وموظّفو جزيرة خارك ومؤسّسة تمديدات المياه بطهران والسكك الحديديّة، في 25 و27 و29 من أيلول. وهكذا، تصاعدَت حدّةُ التظاهرات في أنحاء البلاد كافّة؛ ممّا أدّى إلى قيام أزلام النظام بتكرار الفجائع والمجازر، برشق الأبرياء بالرصاص.

وبتصاعد تَأزُّم الأوضاع الداخليّة، أُعلِن يومَي 29 و30 من أيلول عطلةً رسميّة. وأصدر «السافاك» قرارًا، وزّعه على أفراده كافّة، يأمرهم بإشاعة رفع الحصار عن منزل الإمام. وقال الناطقُ باسم وزارة الإعلام: «إنّ خبر محاصرة بيت الإمام كان مجرَّد دعاية، لا صحّة لها». وأعلنَت الجمعيّة الإيرانيّة للدفاع عن حرّيّة الإنسان وحقوقه، في اليوم التالي: «إنّ المحاصرة المفروضة على الإمام قد رُفِعَت».

تقول إحدى وثائق «السافاك»، التي كُشِفَت ونُشِرَت فيما بعد، بأنّ هناك هيئة أمنيّة إيرانيّة اتّجهَت يوم الاثنين، الموافق للثاني من تشرين الأوّل، إلى بغداد، والتَقَتْ بـ«سعدون شاكر»، وبحثَت معه نتائج الضغط الذي مُورِس تجاه الإمام. ونَقَلَت الهيئةُ، عن لسان «سعدون شاكر»، بأنّه قابَلَ [الإمام] الخمينيّ، فوجدَه شخصًا صلبًا، وأنّه ماضٍ في إنجاز خططه ومشاريعه، وتنفيذها، وليس هناك مَن يستطيع أن يُثنيَ

عزيمته. ونقل عن [الإمام] الخمينيّ جوابه، حينما طُلِب منه ترك السياسة، قال: «إنّي عالِمٌ دينيٌّ وسياسيٌّ، ولن أتنازل عن نظريّاتي وآرائي السياسيّة أبدًا!».

وطرح «سعدون شاكر» موضوع تخفيف الضغوط على [الإمام] الخمينيّ، أثناء كلمته التي ألقاها في مجلس قيادة الثورة، بيدَ أنّه كان يعتقد بأنّ مَنْحَ الحرّيّة له ستؤدّي إلى تَجَرُّئه وتصعيد نشاطاته بحجمٍ أكبر، وفضّل انتقال [الإمام] الخمينيّ إلى بلد آخر. وكان الإمامُ قدس سره قد حصل على تأشيرة خروج، لكنّه لم يحدّد موعد سفره بعد، فأضاف «سعدون»: «إذا صمّم [الإمام] الخمينيّ على ترك العراق، فليس بوسعنا منعُه عن الخروج».

شرح الإمامُ قدس سره تفاصيلَ فَرضِ القيودِ عليه، ومحاصرة منزله، بالشكل الآتي:

«سعَت الحكومةُ العراقيّة، في الآونة الأخيرة، بعد محاولاتٍ؛ من أجل تحديد نشاطاتنا، وقد وزّعَت حرّاسَها حول البيت؛ بحجّة المحافظة والأمن على سلامتنا، بعد أن بثّت دعايةً بمحاولة اغتيالي مِن قِبَل بعضهم. وازداد عددُ الحرّاس، يومًا بعد آخر، إلى أن جاء رئيس مديريّة الأمن العامّة في بغداد، وحضر عندي، وكان رجلًا ليّن الطباع وكثير المجاملة، وقال لي: «نحن لا نعارض أيّ نشاط لكم!». وبعد أيّام عدّة، دخل عليّ أحد المسؤولين الكبار، وصرّح قائلًا: «إنّنا، ونظرًا لتعهّداتنا للحكومة الإيرانيّة، لا نستطيع تَحَمُّل نشاطاتكم وتحرّكاتكم هنا»، وطلب منّي عدم إجراء اللقاءات الصحفيّة، وإرسال الأشرطة والخطابات، فقلتُ: إنّني لا أستطيع التخلّي عن ذلك كلّه، وأنتم لكم واجباتكم، فافعلوا ما ترَون، وإنّي سأستمرّ في إرسال الخطب والبيانات والأشرطة، وأكّدتُ له بأنّي لستُ مرتبطًا بمكان أو بقعة معيّنة، وبإمكاني أن أتّجه إلى أيّة بقعة في العالَم، أواصل فيها نشاطي، وأؤدّي واجبي. فقال لي: «أينما تذهبون، فستواجهون القيود والمعارضة نفسها». قلتُ له: سأذهب إلى باريس، فهي لا علاقة لها بإيران، وليست لإيران عليها أيّة سيطرة، فأبدى اعتراضَه.

بعد ذلك، شعرتُ بإحساسِ الخطر من الحكومة العراقيّة على بعض المقرّبين لنا،

فطلبتُ من السيّد «دعائي» تهيئةَ مقدّمات السفر، وتحضير التذاكر. وكانت الحكومة العراقيّة قد منعَت سفرَنا من ذي قبل. وعلى أيّة حال، حصلنا على تأشيرة للكويت. كان برنامجُنا هو الانتقال للكويت، ثمّ الاتّجاه إلى سوريا، ولم يكن هدفُنا الأوّل باريس. وانطلقنا... وعندما وصلنا إلى الحدود، جُوبِهنا بمعارضة الدخول، ويبدو أنّ القوى الشيطانيّة كافّة قد اتّحدَت وتعاضدَت ضدّنا. وأدركتُ بأنّ الدول الإسلاميّة كافّة تتّخذ القرار نفسه. لذا، صمّمنا الاتّجاه إلى فرنسا، وألغينا سفرَنا إلى سوريا. وبهذه الفترة، كنتُ مشغولًا بتهيئة بيانٍ لأوجّهَه إلى إيران؛ لِأُطْلِعَ الشعبَ على ما يدور في الساحة. أمّا تهيئة السفر لفرنسا، فلم يكن له استعدادٌ من ذي قبل، ولكنّ الله -سبحانه وتعالى- سهَّل لنا، وشاءت إرادته ذلك...».

واتّجه الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ وعددٌ من المقرَّبين إليه إلى بغداد، ليغادروا إلى فرنسا. ووجَّهَ الإمامُ قُدِّسَ سِرُّهُ بيانًا إلى الشعب الإيرانيّ، شرح لهم فيه الظروفَ التي يمرّ بها في النجف، والتي اضطرَّته إلى الهجرة إلى باريس، ثمّ دعا الشعب إلى التحدّي والمقاومة. ونقل أحدُ المقرَّبين للإمام قُدِّسَ سِرُّهُ هذا البيانَ التاريخيَّ إلى إيران، عبر الهاتف، وانتشر بسرعةٍ فائقة! وقد جاء في هذا البيان، الآتي:

«اليوم، أجد نفسي مضطرًّا لترك جوار أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا أجدني حرًّا في البلاد الإسلاميّة لمساعدتكم، وأنتم مُعَرَّضون لهجوم الأجانب وأذيالهم. وقد مُنِعتُ من دخول الكويت، رغم حصولي على تأشيرة دخولها، فسأتّجه إلى فرنسا. ولا يهمّني مكانٌ بعينه، فإنّني أقوم بالواجب الإلهيّ. المهمّ هو مصالح الإسلام والمسلمين العليا، ونحن جميعًا مسؤولون عنها. وقد بلغَت النهضةُ مرحلةً حسّاسة، والإسلامُ يطالبنا بالعمل. إنّ أنظارَ العالَم تتّجِهُ إليكم الساعة، الدول المستعمِرة بدأت بدراسة معنويّات شعبنا ومدى عزيمته...

الفخر والعظمة لشعبٍ سلك طريقَ انتصار الحقِّ بتضحياته، وأزال الحواجز، الواحدة بعد الأُخرى. النصر للرجال الذين استعادوا أمجادَهم الضائعة بدمائهم، كما

استعادوا العظمةَ المسحوقةَ تحت أقدام الحكّام الجائرين.

إنّني أشعر بالخجل عندما أدرس معنويّات الرجال والنساء، الذين فقدوا شبابهم؛ إذ يتحدَّون المصائب بكلّ صلابة. وكان عليّ أن أعيش مصائبكم، وأسير معكم في كلّ لحظة، ولكنّي -مع الأسف- لم أتمكّن من الحضور بينكم، لكي أشعر بما شعرتم به. لكنّ عينَيَّ تستمدّان منكم نورَ الإبصار، وقلبي يخفق للأُمّة الإسلامية.

وأسأل الله أن يعيد للإسلام عزّته وكرامته، ويقطع أيدي الأجانب وأتباعهم».